محمد معروف

الجَاسُوس العُثمَاني

رواية

الجَاسُوس العُثمَاني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
© محمد معروف

maarouf.author@outlook.com
Facebook.com/M.Maarouf.Author

رقم الإيداع: ٢٠١٥/١٦٠٩٠
الترقيم الدولي (**ISBN**): ٩٧٨-٩٧٧-٩٠-٣٣٦١-٧

محمد معروف

الجاسوس العثماني

رواية

الجريمة

١

الخميس ١٠ يونيو ٢٠١٠

الجو خانق رطب برغم جو الكافيه المكيف. تطلع إلى ساعته للمرة الخامسة في عشر دقائق. الحادية عشرة و تسع دقائق صباحا.

هو شاب في صدر الثلاثين، رياضي الجسد، ذو شارب مشذب بعناية يتوسط وجه مستطيل لين القسمات، يرتدي - برغم حرارة الجو - جاكت جلدي بيج فوق قميص ابيض مقلم بخطوط زرقاء رفيعة و بنطلون جينز كلاسيك. قدمه اليسرى لا تكف عن نقر الأرض في توتر ملحوظ، في حين ترقب عيناه مدخل الكافيه في انتباه شديد.

وضع الجرسون كوب الكابتشينو و مطفأة السجائر أمامه في أدب ثم انسحب في هدوء.

اشعل الشاب سيجارته، لينفث بعضا من عصبيته مع الدخان، ثم راجع كل الخطوات في عقله مرة أخرى.

ما تقلقش، كل حاجة هتمر على خير.

و أخيرا، على مدخل الكافيه ظهر غريمه: رجل أجنبي الملامح و الهيئة، أربعيني، أحمر الوجه، وسيم، غزير الشعر، إذ يغطي رأسه تاج من شعر أسود فاحم كثيف و تحت أنفه شارب كث مهذب، طويل، ممتلئ الجسم، له كرش معتبر، لكنه متماسك غير رخو. متقطع الأنفاس و يغمره العرق الغزير من حرارة جو القاهرة الصيفي، تقدم الرجل إلى داخل المقهى و عيناه تنهبان المكان بحثا عن العلامة.

طوح مدخن السيجارة يده اليمنى بمجلة أمريكية ليجذب عيني الرجل اللاهث.

اقترب الأجنبي الممتلئ، جذب كرسيا ثم جلس يلتقط أنفاسه؛ متلعثما، لكن بعربية فصحي مضبوطة المخارج بدأ الحديث

- أهلا و سهلا يا أستاذ..
- بلاش أسماء لو سمحت.

ابتسم الأجنبي و هز رأسه متفهما

- إنه لمن دواعي سروري أن وافقت أخيرا على مقابلتي.
- يا ريت ندخل في الموضوع على طول يا محترم.
- هل قرأت الإيميل و الكتب التي أرسلتها إليك يا صديقي؟
- صديقك! انا مش صديقك.. لكن، أيوه.. قريت الإيميل و الكتب.
- أتمني أن تكون قد انتبهت إلى حقيقة أني لم اذكر أسماء أيا من.. كيف يمكن قولها؟ نعم.. لم اذكر أسماء أيا من أعضاء جماعتك الآخرين.. هل لاحظت ذلك؟
- أيوه..
- أتمني أن يكون تصرفي هذا مطمئنا.. أعني بخصوص التعامل معي.

ثم انبعجت شفتا الأجنبي في ابتسامة ودودة و هو يجفف عرق جبهته بمنديل ورقي. دخن الشاب البقية الباقية من سيجارته في صمت، لكن عينيه الجاحظتين و جبينه المقطب نطقوا في جلاء ما به من هم و ضيق. مال الأجنبي ناحيته، و تحدث بلهجة أبوية مطمئنة

- لا تقلق يا صديقي.. سرك و سر جماعتك كلها في امان معي.. لا تقلق.. سأسألك عن الرجل الذي أبحث في سيرته الشخصية، و

قد أسأل بعض الأسئلة القليلة عنكم.. و بعد ذلك لن أزعجك أبدا.

اعتدل الأجنبي في جلسته، معتبرا سكوت الشاب موافقة ضمنية، ثم في ثبات، أخرج مسجل الكتروني صغير.

- هل نبدأ الآن؟

هرس الشاب سيجارته في المطفأة في عصبية، ثم أشار بذقنه في عنف و غضب ناحية جهاز التسجيل..

- انت بقي جاي تهرج و لا إيه؟

رمقه الأجنبي بنظرة متذمرة و قال في تأفف

- ليس بإمكاني تذكر كل ما سيدور بيننا من حوار.. سأسأل بعض الأسئلة و أتوقع بعض المعلومات الدقيقة و بعض التواريخ كذلك. لا أملك ذاكرة حديدية أو..
- انسي... أنا مستحيل أتكلم قدام الجهاز ده.
- صدقني يا صديقي.. لن يسمع أي إنسان حوارنا هذا.. لن يعرف أي انسان غيري عن حقيقتك أبدا.. هذه كلمة شرف.

لم ينبس الشاب ذو الجاكت بحرف، لكن إصبعه الوسطي قام بالواجب. بهدوء سحب الأجنبي جهاز التسجيل و وضعه في جيبه، ثم أخرج كراسة سلك و قلم جاف. كاظما غيظه، همس في ضيق

- هل هذا اوك كي؟

اشعل الشاب سيجارة جديدة، و هز رأسه أن نعم. لكنه لم يلبث أن همس بدوره

- عاوزين نتفق الأول.

كشر الأجنبي في وجهه.

- نتفق؟ أنا لا ادفع نقودا.. أنا مجرد باحث. ثم أني، و أثناء توصلي إليك، استطعت أن أعرف أنك من عائلة ميسورة.. و هذا ليس غريبا.. واقع الأمر كلكم كذلك.. أنت لست بحاجة إلى نقود.
- أنا مش عايز فلوس.. أنا عايز بس اعرف انت وصلت لي ازاي.

طأطأ الأجنبي رأسه مفكرا و أخذ يعبث بقلمه لحظات.

- أنا بالطبع أتفهم طلبك.. لكني أخاف إن أخبرتك بوسائلي أن تخبر بقية أفراد جماعتك.. ساعتها سيكون لدي مشكلة في التوصل إلى المزيد منكم..
- Take it or leave it

تقلصت ملامح الأجنبي في عدم تصديق و ضيق شديدين. أدار وجهه بعيدا، استدعى الجرسون و طلب قهوة سادة. ساد الصمت لدقائق. حضرت القهوة و شربها الأجنبي على مهل.

- لا أفهم لما هذا التشدد من ناحيتك يا صديقي.. لقد أعطيتك كلمتي، انت في امان.
- لازم اعرف انت وصلت لي ازاي عشان أمنع تكرار المهزلة دي في المستقبل.
- لكني لو أخبرتك و من ثم أخبرت أنت آخرين، فمعني ذلك حرماني من التواصل مع باقي أفراد جماعتك في مصر، و بالتالي يصبح بحثي ناقصا لا قيمة له.
- من الناحية دي ما تقلقش.. أنا هاحكيلك على كل حاجة، و هاخدك و أفرجك على كل الأماكن التاريخية لجماعتنا.. و طبعا هاقولك على كل حاجة انت عايز تعرفها عن الراجل اللي بتكتب عنه.. صدقني، مش هتلاقي عند حد غيري أكتر من اللي هاقوله.

نظر الأجنبي إلى فنجان قهوته مفكرا

- لكن..
- بص يا محترم، الموضوع ده بالنسبة لي حياة أو موت. فكر كده بعقل.. لا وضعي الاجتماعي و لا شغلي يسمحوا اني ابقي في الموقف ده مرة تانية.

رشف الأجنبي قهوته في تأني، ثم هز رأسه متفهما، و قد استعاد نبرته الأبوية المتعالية المتنازلة.

- وظيفتك حساسة، لا أنكر ذلك.. أتفهم ذلك، بل و لا أخفيك سرا، كنت أتوقع منك رد فعل أعنف في اللحظة التي تراني فيها لأول مرة. رغم عصبيتك، الا أني أشهد لك يا صديقي برباط الجأش و رقي التعامل.. برافو.
- لكن زي ما بيقولوا، لكل شيء حدود.

عب الأجنبي ما تبقي من قهوته، ثم نزل بالفنجان في حسم على الطبق السيراميك.

- أوك كي، اتفقنا يا صديقي.. سأخبرك كيف توصلت إليك.

تهللت أسارير الشاب ذو الجاكت الجلدي. ابتسم الأجنبي في ود لوهلة، لكنه سرعان ما جعد وجهه في جدية.

- لكن ليس قبل أن تفضي إليّ بكل شيء، بمنتهي الدقة و منتهي الصراحة.

هرس الشاب سيجارته في المطفأة، ثم عدل هندام شاربه في ضيق.

- ماشي..

أضاف الأجنبي في تردد

- أيضا، أظنه لن يضير أن أحذرك قبل أن نبدأ..
- تحذرني من إيه؟

- من أني قد أمنت نفسي جيدا قبل الحضور إلى هنا.

رمقه الشاب في حنق

- مش فاهم قصدك إيه، بس براحتك..
- إن هي إلا إجراءات تأمينية، في حالة لم تكن الشخص العملي المتحضر الذي أراه أمامي.. في حالة لو فكرت في الفتك بي مثلا.

اتكأ الشاب بذراعيه على الطاولة و زفر في ضيق.

- ماتقلقش، مش هاعمل حاجة أضيع بيها مستقبلي.. اتفضل بقي، ابدأ و اسأل أسئلتك.

و على مدار ثلاث ساعات - استهلك الرجلان خلالها علبة سجائر مارلبورو كاملة (علبة الشاب) و أربعة فناجين قهوة - أنصت الرجل الأجنبي إلى الشاب في اهتمام بالغ، و دوّن كلماته الملأي بالمعلومات و التفاصيل المذهلة في ستة و عشرين صفحة من صفحات كراسته.

كان الرجل الأجنبي سعيدا، راضيا عن الحوار بدرجة كبيرة؛ ظهر ذلك في عينيه المتألقتين و ابتسامته الواسعة الغير متكلفة كسابقاتها. المطمئن أن الشاب ذا الجاكت الجلدي كان مسترخيا، راضيا هو الآخر.

و بانتصاف الساعة الثانية ظهرا، كان الأجنبي يسدد حساب مشروباتهما (أصر إصرارا كبيرا أن يقوم هو بدفع الحساب)، و من ثم قاما و انصرفا إلى حيث سيارة الشاب، ليوفي ببقية وعده.

كانت وجهتهما الأولى منطقة مصر القديمة، و هناك طافا بالعديد من الشوارع و المنازل العتيقة: يقفون عند منزل متهدم معين ليحكي الشاب عن قصة أحد سكانه الغابرين، ثم عند بعض المساجد و الكنائس القديمة ليسرد حكاية ما أو ليدلل على شيء كان قد نوه إليه في حوارهما السابق بالكافيه.

بعد ذلك انطلقا إلى الجمالية، قلب القاهرة الإسلامية.

و انتابت الرجل الأجنبي الحيرة، إذ لم يكن متخيلا أن يكون لجماعة الشاب و طائفته تاريخ ذو أهمية في هذه المنطقة. رد الشاب مستنكرا حيرة الرجل

- ازاي بس ما يكونش لينا نشاط هنا يا محترم.. داحنا في المنطقة دي من سحيق الأزل، بل و لسه موجودين فيها لحد دلوقت.
- موجودون حتى الآن؟ أين؟
- في شارع المعز نفسه.
- كيف هذا؟ الشارع الآن منطقة سياحية بحتة.
- اصبر و انت تشوف.

مرة أخرى، طوف الشاب ذو الجاكت الجلدي بالأجنبي في شارع المعز و في الأزقة و الحواري المتشعبة منه، قاصدا بعض الأزقة و المباني المعينة، متوقفا عند بعض الأركان المتآكلة و النوافذ الخشبية البالية، ليسرد المزيد من حكاياته التاريخية الشيقة.

أخيرا، انتهى به الشاب إلى زقاق جانبي متفرع من عند منتصف شارع المعز؛ على بُعد عدة أمتار من بدايته كان مسمط شعبي ضيق، بداخله طاولتين فقط و بضعة كراسي لا يزيد عددها عن خمسة أو ستة. كان الليل قد أوغل، و كان التعب قد بلغ منه مبلغا، لذا لم يعارض الأجنبي في قبول دعوة تناول العشاء: وجبة سمين شعبية.

و بعد العشاء، و تجرع المشروبات الغازية، تمدد الأجنبي على كرسيه ليتلقط أنفاسه، من تعب اليوم و حرارة الجو و من الوجبة الدسمة. مال نحوه الشاب ليبوح بسره الأخير

- تعرف؟ أهو المحل ده بتاعنا، بتاع العيلة.. آخر موقع قدم لينا في المنطقة.. عاوز اقولك ان الراجل اللي انت بتتبعه و بتكتب عنه اشتغل شخصيا في المحل هنا، و لفترة كبيرة من الوقت كمان..

كانت مفاجأة غير سارة للرجل الأجنبي، لكنه أخفي توتره.

وضع الشاب زجاجة البيبسي الفارغة جانبا، و ثبت عينيه على الأجنبي.

- أديني اهه فرجتك على كل حاجة.. دلوقت جه دورك في الاتفاق.. اتفضل لو سمحت قولي ازاي اتوصلت لي؟

خفض الأجنبي رأسه متحرجا و قد طارت كل أمارات الود و الرضي من على وجهه.

- أعترف يا صديقي أنك أطلعتني اليوم على معلومات كثيرة و جوانب من تاريخ جماعتكم، لم أكن رغم خبرتي الطويلة أعرف عنها شيئا.. لكن، يجب عليّ أن أستمع إلى أشخاص آخرين غيرك حتى أتيقن من حكاياتك و معلوماتك. إذا أخبرتك الآن عن طريقة توصلي إليك ستخبر الآخرين، و حتما سأفقد القدرة على التوصل إليهم. بالتالي، أنا مضطر للحنث بوعدي.. أنا آسف، لن أستطيع أن أخبرك بأي شيء.

تجمد وجه الشاب لوهلة. مشط شاربه بسبابته، ثم أكمل حديثه و كأنما لم يسمع رد الرجل الأجنبي

- عارف المطعم ده بقاله أد إيه؟ فتح في السنة اللي بعد افتتاح قناة السويس.. سبتمبر ١٨٧٠ تقريبا.
- نفس وقت الحرب البروسية الفرنسية..
- آه، وقت م الألمان طلعوا ميتين الفرنساوين، تمام زي ما هاطلع ميتينك دلوقتي..

لم يفهم الأجنبي تهديد الشاب، لكن التغير المباغت في اللهجة كان كافيا ليثير حفيظته. كان عامل المطعم يرفع الأطباق الفارغة من أمامهما عندما لمح الأجنبي وجهه لأول مرة.

- غريب، هذا الجرسون يشبهك إلى درجة كبيرة..
- و لا غريبة و لا حاجة.. ده يبقي اخويا..

فغر الأجنبي فاه في دهشة. كان باب المطعم قد أغلق و الباب الحديدي الخارجي قد أنزل.

- و اللي هناك ورا النصبة ده يبقي ابويا.. بيتهيألي مش محتاج اقدمهولك. أنا عارف انك في بحثك عن عيلتي اتوصلت لمنصبه و تاريخه.

و من خلف الموقد الكبير، خرج رجل عجوز وقور الهيئة، جاوز الستين، نظراته حادة واثقة، و خطواته ثابتة، يرتدي مريلة ملطخة، و في يده ساطور قديم صدئ.

تطلع الرجل الأجنبي إلى الأب في قلق، ثم عاد إلى الشاب

- و لما تظنون أني أعرف عنكم أي شئ؟

تقدم الأب ليستحوذ على زمام الأمور؛ تكلم في صوت رخيم مخيف

- لأنك تحت مراقبتنا من لحظة ما بعتّ الإيميل.. امّال انت فاكرنا ما ردناش عليك ليه بقالنا اسبوعين؟
- أنتم تراقبونني طوال الأسبوعين الماضيين؟
- أيوه، و عرفنا كل تاريخك القديم القذر.. عرفنا انك مجرم كداب و ياما غدرت بناس قبلينا.

توقف الأب أمام الطاولة التي تجمع ابنه مع الرجل الأجنبي، غرز الساطور في الطاولة، ثم سحب كرسيا و جلس. هب الأجنبي واقفا في ذعر، و تطلع في قلق إلى الوجوه الصارمة من حوله باحثا عن مخرج. توقفت عيناه عند الشاب ذو الجاكت الجلدي مرة أخرى.

- لقد قلت لك أني قد أمنت نفسي.. أقسم بالله، هناك شخص أخبرته بهذه المقابلة و يعرف أني معك الآن..

- ما انا عارف، و ممكن أقولك على اسمها و عنوانها لو تحب.. بس ما تخافش، مش هنعمل لها حاجة عشان هي ما تعرفش أي حاجة ممكن تضرنا.
- كيف؟
- موبايلك تحت المراقبة، و تمت السيطرة عليه.. كل اتصالاتك و رسايلك تم تحويلها، و مفيش أي حاجة وصلتها منك من الساعة ١١ الصبح.
- ماذا!

تدخل الأب مرة أخرى

- من غير كلام كتير قول ازاي اتوصلت لنا.
- إذا أجبت طلبكم، هل ستطلقون سراحي؟
- لأ، طبعا.

نظر الأجنبي إليه في ذعر

- لم؟
- لأنك خاين و ما لكش امان.
- أرجوكم..
- بُص، موتك حتمي.. لكن لو ما كدبتش دلوقتي، أوعدك ان الأمور هتكون من غير ألم.. يعني، على قد ما نقدر..

كانت الوحشية و التصميم باديتين على وجوه الأب و ابنيه. ترنح الأجنبي في مكانه و قد خارت ساقاه من تحته. سقط على كرسيه في استسلام.

و من بين دموعه المنهمرة و بصوت مذعور متهدج، خر معترفا بكل ما لديه.

و بغتة و دون سابق إنذار، انقض الابنان على الأجنبي، يقيدانه و يكتمان أنفاسه، في حين أخرج الأب من ثيابه سرنجة مملوءة بسائل شفاف؛ أمسك الأب ذراع الرجل في قوة، اختار وريدا مناسبا، ثم غرز سن السرنجة و حقن

السائل كله. قاوم الرجل الأجنبي لبضع ثواني، لكن سرعان ما تاهت نظراته، و انهار جسده مستسلما على الأرض.

أعطي الأب التعليمات الأخيرة

- يالا بسرعة ننقله على العربية.. الجرعة كل ربع ساعة بالثانية..ماينفعش يصحي خالص، و إلا هنروح في داهية.

تساءل الابن الأكبر في توتر

- و هنفضل عالمنوال ده قد إيه؟

- هنشوف.. بس ما اظنش اقل من أسبوع.

و تحت إشراف الأب، قاموا بوضع جسد الرجل الأجنبي في صندوق كبير، و تحت جنح الظلام قاموا بنقله إلى الخارج، حيث تنتظرهم شاحنة مجهزة بثلاجة لحفظ اللحوم.

و سرعان ما اختفي الجميع إلى غير رجعة.

بعد ثلاثة أيام، بيع المحل إلى شخص من خارج الجمالية؛ ليتحول المسمط، لأول مرة منذ ١٤٠ عام، إلى محل لبيع الهواتف المحمولة. بعد أربعة أيام أخرى تم قتل الرجل الأجنبي و التخلص من جثته بطريقة مبتكرة.

كانت جريمة عبقرية، متكاملة الأركان، و لم يكن الجناة لينكشفوا أبدا.

تخدير و جراحة

٢

السبت ٣ ابريل ٢٠١٠

وقف طويلا ممشوق القوام متناسق الجسد أمام المرآة، متسائلا عن الطريقة المثلي لانتحار إنسان في مثل طوله و وزنه. خضّب يديه بالكريم المعطّر، ثم دلك به فروة رأسه و هو يفكر في جدية.

إنها رياضته العقلية الجديدة في الأيام الثلاثة الماضية.

أول أمس تأمل في إمكانية الانتحار بواسطة الطاقة الحركية: رصاصة من مسدس أبيه عبر الصدغ أو من خلال الفم؛ أمس، فكّر في إمكانية استخدام الطاقة الكامنة و الجاذبية الأرضية، سواءً بالقفز من نقطة مرتفعة، مثل هضبة المقطم، أو حتى من فوق كرسيه الأثير مستخدما حبل ليف متين، متدلّ من السقف و طرفه الآخر ملتف بإحكام حول رقبته. اليوم سيتخلى بالكلية عن القوي الفيزيائية؛ و ها هو يقفز ذهنيا من ركن المكتبة الأيمن، حيث كتب العلوم الطبيعية، إلى ركنها الأيسر - الأكثر ازدحاما - و الذي أمضي مع كتبه الخمس عشرة سنة الأخيرة من عمره: ركن الكتب الطبية.

سيفكر اليوم في كيفية الانتحار عبر الطرق البيولوجية. أيهما أكثر فاعلية و أقل إيلاما: الانتحار عن طريق قطع وريد أو شريان أساسي، أم عبر خليط من عقار المورفين السحري و مُرخيات العضلات القاتلة؟

صفّف شعره إلى الخلف، فرقه عند اليمين، ثم عند اليسار؛ استقر هناك، تاركا خصلة معتبرة لتتدلي فوق حاجبه الأيمن. تحرك من موقعه أمام المرآة، و تجوّل في الغرفة الواسعة، الفاخرة التأثيث و المبطنة بسجاد إيراني تغوص فيه الأقدام. توقف أمام دولاب جرّار و جذب الدرفة لينكشف أمامه صف طويل من القمصان؛ فتح الدولاب التالي ليظهر صف آخر، لكن من

البدلات؛ الدولاب الأخير احتوي ربطات العنق و اكسسوارات رجالية متنوعة.

القميص الأوف وايت و البدلة الفيرساتشي الكحلي ذات التقليمة الهيرنجبون، و في هذا اليوم الحار لابأس من التنازل عن ربطة عنق. ارتدي ملابسه أتوماتيكيا، في حين سرح عقله عائدا إلى موضوع اليوم.

صحيح أن طبّاخ السم لابد له من تذوّق سمه، و صحيح أنه دونا عن غيره يستطيع أن يخطط لأفضل طرق الانتحار باستخدام العقاقير التخديرية المختلفة، من منوّمات و مخدرات و سموم، إلا أن طريقة الانتحار هذه غير مضمونة على الإطلاق. صحيح أنها ستكون أقل ايلاما، بل و قد تكتنفها بعض من أحاسيس المتعة الحسيّة لو أراد، لكنه لو أخطأ في المقادير أو طريقة الحقن، فإن هذه الطريقة ستتحول من طريقة سريعة رحيمة إلى أخرى أكثر طولا و أشد وطأة على النفس. هناك حالات (أشهرها حالات إعدام عدة في الولايات المتحدة الأمريكية) أخفقت فيها هذه الطريقة، و هناك شخص لم يمت قبل انقضاء خمس و أربعين دقيقة كاملة! خمس و أربعين دقيقة من الألم و العذاب المقيم، لا يتفوق عليها إلا الجحيم الأبدي الذي ينتظره من بعد ذلك.

زرر القميص و ألقمه فم البنطلون، ثم ربط عليه بالحزام.

فلتكن الوفاة السريعة الحتمية بالجراحة: ضربة سريعة حاسمة بمشرط جراحي حاد عبر الرقبة، من الأذن إلى الأذن. مرّر يديه عبر جذع رأسه، محاكيا الضربة، و ضاغطا إصبعه بقوة فوق الأجزاء الأكثر حيوية. دارت الدنيا من حوله للحظة، فرفع إصبعه بسرعة من فوق شرايين رقبته.

عاد إلى دولاب الإكسسوار و جذب ربطة عنق كحلي مقلمة بالأبيض، ربطها بسرعة حول عنقه النافر العروق و النابض في عنف، ثم استند إلى شباك الغرفة، يتطلّع إلى حديقة الفيلا الواسعة، ريثما يتمالك أعصابه التي توترت دون داع.

إنه حازم أحمد شاهين، الحاصل على الدكتوراه في التخدير و مدرس المادة بكلية طب عين شمس: إنسان غريب غير متآلف مع غيره من البشر، مستغني عن الجميع، سواء من أقربائه أو أقرانه، أو من المجتمع ككل؛ يكره البعض، يحتقر الأغلبية، و يستعلي على الجميع. توجد أسباب كثيرة لذلك، لكنه كفّ عن مناقشتها مع نفسه منذ زمن بعيد، و بمرور الوقت نُسيت الأسباب و بقيت المشاعر و السلوك. لذا هو زاهد في أي علاقات إنسانية مباشرة تربطه بهذا المجتمع الدنيء، و يكتفي بتمضية جل وقته في مشاهدة أفراده من أعلى: يراقبهم، يحلل شخصياتهم و دوافعهم، و من ثم يتنبأ بخطواتهم التالية، و عندما يصدق حدسه، يسخر من بساطتهم و سهولة التنبؤ بأفعالهم؛ و بهذه الطريقة يمنح نفسه معينا لا ينضب للاستعلاء على الآخرين طوال الوقت.

لكن استعلاءه و تكبره على الجميع، و إحساسه بالاستغناء عنهم، لا يعني بالضرورة رضاه الكامل عن نفسه. العكس هو الصحيح: يعرف أنه ليس على ما يرام هو الآخر، عقليا و أخلاقيا، لكنه يتجنب دوما مواجهة نفسه بنقاط الضعف تلك، خوفا من أن تهتز ثقته بنفسه، التي لو تأثرت لصار فريسة سهلة لأي فكرة أو حدث أو شخص. لذا لا يحاول تقييم نفسه أو أفعاله أبدا، يكتفي بما هو بديهي و واضح للعيان: هو الأفضل، الأذكى، و الأرقي تكوينيا و عقليا عن كل من حوله.

مزاجه العام يتراوح حول مستوي ثابت من القتامة و السوداوية، نزولا إلى الاكتئاب الكامل، و صعودا إلى مرات قليلة من الاسترخاء، و الذي يشعر به خلال جلسات نادي القرّاء (و التي يقوم من خلالها بقراءة روايات الجريمة و الغموض مع بعض أعضاء النادي، يناقشونها و يدحضونها و يكشفون نقاط الضعف فيها)، أو أثناء رحلات السفر، سواء داخل مصر أو خارجها، و التي ينفرد خلالها بنفسه و بالآثار و التاريخ. غير ذلك، لا يوجد في هذه الدنيا ما يصلح لبثّ الراحة، و نادرا السعادة، في روحه.

و اليوم – كما يبدو من بدايته – هو واحد من تلك الأيام القاتمة العادية.. يوم آخر من حياته الطويلة المملة التي لا تنتهي.

نظر حازم أحمد شاهين إلى نفسه اللامعة المتأنقة في غير إعجاب، بل و ببعض قرف. ارتدي جاكت البدلة على عجل و غمر ملابسه بعطر 'ارماني كود'، ثم خرج إلى العالم البغيض.

****

قطع حازم الممر الواسع الممتد خارج غرفته، ليتوقف بعد عدة أمتار عند باب زاهي الطلاء، مزركش الإطار. نقر الباب مداعبا، و عند سماع الإذن بالدخول، دفع الباب و دخل و قد اكتسي وجهه بابتسامة محبّة، أنارت وجهه الوسيم

- صباح الخير يا ريم..

ريم هي أخته التي تصغره بخمس عشرة سنة كاملة، باهرة الجمال، ودودة، ظريفة؛ بالنسبة لحازم شاهين هي المنبع الوحيد للحياة و الراحة في هذا البيت، و لولا وجودها هاهنا لكان على أبعد بقعة على الأرض من هذا المكان الخبيث.

كانت ريم قد انتهت من ارتداء ملابسها و وضع المكياج، تجلس في انتظاره، تضرب أزرار هاتفها المحمول في سرعة، و نظرة لعوب تعلو محياها. انتبهت لدخوله، فدست الهاتف في حقيبتها و قامت

- صباح الخير يا بنجاوي.
- صباح الخير يا سيادة السفير.

...لأن ريم طالبة كلية الشئون الدولية و السياسات العامة بالجامعة الأمريكية.

- ينفع يعني انا اغلس عليك يا أبيه حازم و انت تكلمني باحترام كده؟ خليك كول يا دوك..
- لأ، يمكن تحسي على دمك و تبطلي استظراف.. واحدة عاوزة تبقي سفير ما ينفعش تقول كول و حاجات بيئة زي بنجاوي.

لوت وجهها ساخرة في تحدي، ثم أمسكت ذراعها مشاكسة و هي تبعدها عنه.

- أرجوك يا بنجاوي بلاش شكشكة تاني.. آه آه..

كانت تمازحه و هي تشير إلى ذكرى الحادث الأليم الذي تعرضت له منذ عدة سنوات: حادث السيارة الذي كاد أن يقضي على حياتها فعليا، و عليه هو معنويا و نفسيا.. ساعتها، كان هو أول من وصل مكان الحادث، و كان هو من وضع في ذراعها الإبرة الوريدية.

نظر حازم إلى اخته الهازلة في شك. صحيح أن ريم مرحة و شقية، لا تتورّع عن العبث و السخرية من كل شيء وأي شيء، لكن بعض الأمور تظل دوما و أبدا 'تابو' لا يجوز الاقتراب منه. مثلا؛ صراعاته الدامية مع أبيه، علاقات زوجة أبيه – والدة ريم – السرية، و بالطبع حادثة ريم و ما لحقها من مضاعفات مريعة.

ممتعضا، أزاح حازم كل الذكريات جانبا.

- انتي بتاخدي الدوا بانتظام اليومين دول؟

بالإضافة لكسور الساقين و الذراع اليسرى، أصيبت ريم بنزيف شديد على المخ، اضطرها لخوض عملية جراحية كبري، خرجت منها بخليط غير متجانس من الأعراض النفسية و العصبية: بداية من الاضطراب ثنائي القطب وصولا إلى حالات متقطعة من الصرع.

أطارت الذكري ملامح الشقاوة و المرح من وجه ريم في غمضة عين.

- ليه النكد ده على الصبح؟

التفتت تلتقط حقيبة يدها و اتجهت إلى الباب. أمسك ذراعها في حزم.

- بتكلم بجد... انت بتاخدي الدوا؟
- أيوه، ما انت عارف اني ماقدرش ابطلوا... مش ناوية اللي حصل آخر مرة يتكرر مرة تانية.

تقصد محاولة الانتحار التي مرّ عليها عام و فضيحة الأسرة وسط الجيران آنذاك (يتضمنون صفوة مجتمع مصر الجديدة من ساسة و رجال أعمال و للأسف أحد أشهر الصحفيين)، انتهى الأمر بحجزها شهرا في المصحة و تعرضها لكورس مكثف من العلاج بالحقن بأدوية لها أضرار جانبية بغيضة، تبدأ بالألم و لا تنتهي بالقيء و الليالي المتعاقبة الحبلى بالكوابيس المخيفة.. بالإضافة بالطبع إلى جلسات العلاج بالكهرباء المُنهكة و المتبوعة بحالة مزرية من الارتباك و فقدان الذاكرة.

- يعني انت كويسة؟

نظرت في عينيه في تحدي و جدية شديدين، لتُلقي بالرعب في نفس حازم لوهلة، لكنها لم تلبث أن قلبت ملامحها إلى الشقاوة و العبث مرة أخرى.

- ايه يا عم ما اعرفش ازاولك شوية؟
- تزاوليني! اوعي بس تزاوليني أدام مامتك بالطريقة دي و إلا هتكون واخداكي من إيدك على المصحة مرة تانية.
- خصوصا لو سمعتني باقول كلمة "ازاولك" دي..
- ده شيء أكيد.

خارج الغرفة، و عبر الممر و نزولا على الدرج، و ريم طوال الوقت تقصف أخيها الأكبر بسيل من الدعابات و الإيفيهات الشبابية، و هو يهزّ رأسه مبتسما و متجاوبا قدر استطاعته.

لسوء الحظ، و على غير هواه، لم تكن مراسم وجبة الإفطار قد انتهت بعد. في حين تيبست قدما حازم على الدرج، نزلت ريم في حيوية، و انطلقت تلثم رأس أبيها و خد أمها.

- صباح الخير يا بابي.. بنجور ماماه..
- ازيك يا روح بابا..
- Bonjour, ma chère

كان ثمة شاب أسمر معتد بنفسه، يرتدي بدلة أنيقة تظهر جسده الرياضي، طويل وسيم، واسع العينين جريئ النظرات، و على شفتيه ابتسامة مازحة واثقة. مدت ريم يدها إلى الشاب العريض البسمة في ود لا يخلو من دلال.

- حضرة النقيب أشرف.. بنجور يا فندم..
- ازيك يا مودموزيل ريم..

التقط النقيب يدها في ذوق و أدب، و انحنى نصف انحناءة، مستعرضا نظرة واثقة و مُصدّرا جانب وجهه الأيمن، حيث الآثار القديمة لحب الشباب أقل كثافة.

بعد أن جلست ريم بجوار أمها، التفت الجميع إلى الأخ المتيبس عند قدم الدرج.

متململا، تقدّم حازم من طاولة الطعام، سحب الكرسي المجاور لأبيه و المقابل لزوجة أبيه و جلس.

- صباح الخير يا سيادة اللوا، صباح الخير يا إيلين..

العجوز ذو الجسد العسكري المشدود هو والده، سيادة اللواء أحمد شاهين مدير أمن القاهرة الحالي، أما الحسناء الجالسة عن يمينه فهي إيلين، زوجة أبيه و والدة ريم، لم تتعدي التاسعة و الثلاثين من العمر و تكبر حازم نفسه بخمس سنوات فقط (فسيادة اللواء أحمد شاهين، و بعد طلاقه من والدة حازم مباشرة، تزوج إيلين و لم تتجاوز العشرين من عمرها بعد). هي امرأة

طويلة، ممشوقة القوام، يكمن جمالها في تقاطيع وجهها الرقيقة، لكن بالأكثر في تعبيرات وجهها الذكية الجذابة؛ هي من أسرة راقية عريقة، تعبد الإتيكيت، لبقة و حواراتها مطعّمة بالفرنسية الباريسية.

ألقى حازم بنظرة قصيرة، ظاهرها اللامبالاة و باطنها الاحتقار، إلى الضابط الشاب الواقف في اعتداد بين يديّ والده، مطلعا إياه على بعض الأوراق الرسمية. أدرك نقيب الشرطة النظرة بكل تفصيلاتها، من غمضة العين المستهزئة إلى لوي الفم المشمئز. و كان هذا تصرفا لا داعي له، فالنقيب أشرف محجوب، ذراع اللواء اليمنى، و الذي ينتمي بدوره إلى اسرة محترمة (كل أفرادها شرطة أيضا) ضابط نشيط ناجح في مهنته، بل و لم يدس لحازم على طرف.. على الأقل حتى الآن. لكن من يعرف حازم جيدا يستطيع أن يتفهّم بسهولة سلوكه إزاء النقيب، كيف لا و من المعروف أن حازم يكره كل ما له علاقة بسلك الشرطة و أفرادها، من أصغر عسكري مرور وصولا لأبيه الجالس بجواره.

لكن النقيب أشرف لم يكن يعرف بمشاعر حازم المتأصلة فيه منذ الطفولة.. حتى و إن علم بذلك، فلم يكن هذا ليؤثر في مشاعر الضابط السلبية، و المتنامية باضطراد، تجاه الطبيب المتعالي.

أنهى اللواء مطالعة الأوراق بسرعة، ثم أمر ببدء الإفطار، داعيا النقيب أشرف لمشاركتهم الطعام. مُمتنا جلس الضابط في المكان الوحيد الخالي، إلى جوار حازم.

مبديا الود، قام النقيب بصب الشاي للجميع. بعد تقديم الشاي للّواء و لإيلين، تحوّل لخدمة ريم الجميلة، غامرا إياها بنظرات الودّ، و في ذات الوقت موجّها كلامه إلى الأخ العدواني.

- إيه اخبار الطب على حسّك يا دكتور حازم؟

- العادي..

مدّ أشرف يده بفنجان الشاي إلى ريم في سعادة بالغة، سرعان ما اختفت و هو يصب فنجان الشاي التالي. أكمل حواره الهامس إلى حازم

- العادي؟ يعني نفس سرنجتين التخدير، واحدة بتنيّم و التانية بتصحّي.. يا خوفي يكتشفتوا السرنجة الكومبو، اللي بتنيّم و تصحّي لوحدها.. ساعتها هيستغنوا عن نص دكاترة التخدير اللي في البلد.

ثم التفت مواجها حازم، معطيا إياه فنجان الشاي و ابتسامة سمجة تملأ وجهه، و غمزة عين ساخرة لا تُخطأ.

رمق حازم الضابط في احتقار، و أدار وجهه بعيدا دون تناول فنجانه و تاركا يد أشرف معلقة في الهواء. و دون أن يعتري وجهه أي تعبير معيّن، وضع أشرف فنجان الشاي على الطاولة، لكن و بحرفية تركه في وضع غير مستقر، لينزلق على الطبق و لتتناثر قطرات الشاي على بدلة و قميص حازم.

تطلع أشرف إلى حازم منتظرا ردة فعله العصبية، و مجهزا رده الهادئ المتسامح. نظر حازم بدوره إلى عينيّ أشرف و قرأ فيهما مراده، و لم يبخل عليه. استدار إلى أبيه

- يا ريت يا سيادة اللواء تقول للبودي جارد بتاعك يبطل استظراف.

التفت الأب مستنكرا

- بودي جارد؟ إيه قلة الذوق دي؟

ابتسم النقيب أشرف معتذرا

- الفنجان طرطش شاي غصب عني. أنا آسف

ساخرا، ضرب حازم ضربته

- ايه يا حضرة النقيب إيديك مهزوزة ليه؟ ده مش كويس خالص عشان الشغل.. تخيل لو كان في إيديك مسدس بدل الفنجان.. كان زمان المجرم هرب، و مش بعيد كان ضربك في مقتل

احتدّ الأب

- عيب كده يا حازم.. انت عديت الحدود
- أنا برضه يا سيادة اللوا، و لا اللي قاعد يسبّل لبنتك قدامك على السُفرة.. ده سيادة النقيب حتى مش قادر يستنى لما نخلص فطار..

و تكهرب الجو في لحظة. انقلب وجه النقيب أشرف غاضبا بالرغم منه، في حين هزت الزوجة رأسها في ضيق واضح، تمتمت

- Pas acceptable

سمعها الزوج و انحاز لرأيها دون تردّد.. دافعا طبق الطعام من أمامه في حدة، هتف في ابنه

- اتفضل يا حازم.. وجودك على سُفرة الأكل غير مرغوب فيه.

قام حازم من فوره و قد اكتسي وجهه براحة مصطنعة

- يووهو.. المرة دي قدرت تحقق رقم جديد يا سيادة اللوا.. دانا ما لحقتش اقعد خمس دقايق على السُفرة قبل ما تطردني.. شابو..
- للأسف، الشيطان ركب دماغك.. خسارة العمر اللي راح في تربيتي ليك..
- لا يا باشا التربية لسه بخيرها.. ضربات الحزام و الحديد المحمي لسه معلّمة في ضهري، و لو تحب ممكن اوريك تطّمن عليها..

لوت الزوجة وجهها بعيدا في امتعاض و ضغطت على يد الزوج حتى لا يتمادى. متمالكا غضبه بصعوبة، صرف اللواء ابنه بحركة من ظهر يده.

و خلفه، قامت ريم. مرتبكا قام النقيب خلفها

- انتي لسه ماخلصتيش فطارك يا مدموزيل؟

ابتسمت ريم معتذرة

- مكان ما يكون أبيه حازم، أكون أنا..

نظر الأب لها متوسلا، و الأم آمرة، لكنها تجاهلتهما و انصرفت خلف أخيها المنتصر.

بعد ربع ساعة من الصمت، انتهى الإفطار و قام النقيب أشرف ململما أوراقه و طالبا الإذن. بعد الاعتذار له عن سلوك ابنه المشين، ودّعه سيادة اللواء و زوجته. قطع الضابط البهو الواسع للفيلا، ثم اخترق الحديقة الكبيرة، متجها إلى البوابة الرئيسية. لكن قبل الخروج من الفيلا، حانت منه التفاتة ناحية باب الجراج.

لم يكن الأخ و الأخت قد رحلا بعد؛ كانت ريم جالسة وحدها في سيارة أخيها - الفورد مُستانج الحمراء، موديل ٢٠٠٨ - مشغولة بهاتفها المحمول. توقف النقيب أشرف مكانه مفكرا إذا ما كان مقبولا أن ينادي على ريم و يسلّم عليها مرة أخرى قبل الانصراف، لكن حفاظا على صورة الضابط الرزين، قرر أن ينصرف. لكن، و قبل أن يتحرك ناحية البوابة مرة أخرى، لمح حازم، قادما من بيت النباتات - الصوبة الزراعية – الواقع في طرف الحديقة الشمالي. و على الفور نسي ريم، و هيبته، بل و العالم أجمع. مدفوعا بحَميّة ذكورية بحتة، تحرك أشرف ناحية الطبيب حتى تقاطع طريقهما، و عندها همس في قوة و تحدّي

- أنا عُمر إيدي ما كانت مهزوزة يا دكتور.. و المرة الجاية اللي هتنسى نفسك فيها أوعدك إني أثبت لك بالدليل العملي.

توقف حازم و تطلّع إليه متحديا و مستهزئا

- انت مش متخيل انا مستني اللحظة دي قد إيه..

- ساعتها هاخليك تندم على كل كلمة تافهة قلتها و هاخليك تعرف مقامك الحقيقي يا دوك.. رجالة الشرطة مش عيال سيس بتلعب بالإبر و السرنجات.. كلامنا جد و خناقنا نار.. و صدقني مش هانسالك غلطك فيا قدام ريم، و إحراجك ليا و ليها و لأهلك.. إذا كانوا همّا ماعرفوش يربوك، أوعدك اني هاعرف اربيك كويّس.. لولا معزّتي لسيادة اللوا انا كنت فشـ...، و لا بلاش..

ثم أكمل طريقه ناحية البوابة و هو يشعر بالرضا الكامل عن نفسه. لقد لقن الطبيب المتكبّر درسا لن ينساه، حتى و إن تظاهر بالتماسك.. لكنه لم يكد يبتعد بضعة خطوات حتى باغته الطبيب

- إوعى تفتكر ان الحركتين اللي انت بتعملهم دول هيخيلوا عليا.. أنا عارف انك لا بتحب ريم و لا يحزنون.

توقف أشرف و التفت إليه في استنكار

- إيه الجليطة دي!
- واحد زيّك لا يمكن يفكر في ريم، مهما كانت جميلة، أو كانت بنت لوا كبير زي ابويا.. و مهما كان هو متسلق.
- و ده ليه ان شاء الله؟
- عشان المرض اللي عندها.. واحد زيّك، زي ألوف من عيّنتك عرف البنات أشكال و الوان، مش هيرضي في الآخر بواحدة صاحبة مرض، لأ و إيه مرض نفسي عصبي كمان.. اللي زيك ما يرضاش غير بحاجة زي ما بيقولوا مافيهاش خدش.
- إيه الطريقة المقرفة اللي بتتكلم بيها عن اختك دي.. أنا مش عارف هيا بتحبك و شايفاك مثلها الأعلى على إيه.. بس اسمح لي أصدمك و اقولك اني فعلا باحب المدموزيل ريم.
- كداب.. أنا عارف كل حاجة، و ممكن افضحك بسهولة، الحكاية و ما فيها إني مش فاضي اضيّع وقتي معاك.

هزّ أشرف رأسه ساخرا، أصدر صوتا منكرا من أنفه ثم اكمل طريقه إلى البوابة، لكن كلمات حازم التالية جمّدت الدماء في عروقه.

- أول امبارح، فندق فيرمونت، مطعم البلو لاجون، عند حمام السباحة..

توقف النقيب أشرف في مكانه متخشبا؛ التفت إلى حازم و على وجهه أمارات عدم التصديق و الصدمة. فتح فمه ليعترض، لكن حازم عاجله بالقاضية.

- حاجة بيتهيألي انها pas acceptable

و كأن قطارا صدمه فأرداه قتيلا. وقف الضابط مشلولا، مذهولا، لا يقدر على شيء.

عاد حازم إلى سيارته، صعد ثم أدار المحرك. التفتت أخته ناحيته متسائلة

- هو النقيب أشرف ماله واقف في مكانه كده؟ هو انت عملت فيه إيه؟
- مفيش.. اثبتّ له ان البدلة الرسمية و التلات دبابير و السلاح الميري مش كفاية عشان يبقي أجمد حاجة في الكون..
- نعم؟ أنا مش فاهمة حاجة..
- و إيه الجديد في كده..

لكزته في كتفه في غلّ. ابتسم في نصر، ثم انطلق بالسيارة من جراج الفيلا مباشرة إلى شارع صلاح سالم.

****

أوصل حازم شاهين اخته إلى أحد كافيهات شارع الثورة، حيث تلتقي زملاءها لإنجاز أحد مشاريع الكلية، ثم انطلق إلى عمله: مستشفى الدمرداش، المستشفى التعليمي لكلية طب عين شمس.

بعد اجتياز المرور الخفيف ليوم السبت وصل إلى الكلية في وقت معقول، تسلّل من بين سيارات الميكروباص المرابطة عند مدخل شارع لطفي السيد، و منه إلى الشارع الداخلي المفضي إلى المستشفيات، و المتكدّس دوما بأكشاك الباعة الجائلين. انتهى أخيرا إلى جراج المستشفيات الرملي - و الذي كان في وقت سابق منطقة ملاعب الكلية و متنفسها الوحيد - ترك مفتاح سيارته للسايس ثم ترجّل إلى مستشفى الجراحة.

متخطّيا رتل سيارات الأجرة الحُبلى بالمرضي و ذويهم، وصل حازم إلى بوابة المستشفى. ملابسه الراقية و مشيته الواثقة أمنّت له المرور التلقائي (دون سؤال من أمن البوابة الغير قادرين على التعرف على مئات الأطباء الداخلين و الخارجين كل يوم، من دون بادج أو بالطو أو ملابس عمليات، إلا من خلال الهيئة العامة للشخص). دون إبطاء لخطواته، اخترق حازم أسراب المرضي المنتشرين عبر باحة المستشفى و ممراتها الضيقة - أكثرهم ما بين متألم و تائه، و البعض محبط غاضب.. تتفاوت نسبة الغضب من نوع مكبوت مكتوم لا يظهر إلا على الوجوه، إلى آخر صريح بيّن، يبدأ بالسب و القذف، و ينتهي إلى المشاجرة و العراك في كثير من الأحيان، غالبا بالأيدي، و أحيانا بالأسلحة البيضاء، بل و النارية كذلك.

هنا أمضي الجزء الأكبر من سنوات عمره العشر الأخيرة: من سنين دراسة عملية، إلى سنة امتياز عقيمة، إلى سنوات التخصص العملي الثلاث، وصولا لعمله كمدرس مساعد و أخيرا كمدرس. أكثر الأيام كانت متعبة شاقة، بل و أحيانا سوداء، لكن البعض القليل منها كانت أيام متعة و تحقيق ذات، و تحمل له ذكريات لطيفة يجترّها في لحظات الصفاء.

متجاوزا الزحام الرابض عند المصعد، اتجه إلى الدرج و صعد إلى الدور الأول، ثم يمينا إلى وحدة عمليات الجراحة العامة.

و باجتيازه الباب الخارجي للوحدة، دخل حازم شاهين فعليا إلى بيته الثاني. استقبله سعيد، العامل المختص بالتعقيم، في سرور حقيقي؛ صافح يده منحيا ثم أدخله بسرعة إلى غرفة تغيير الملابس. من دولاب الملابس أخرج

له بدلة عمليات، جديدة، دافئة الملمس، يتصاعد منها دخان المكواة فعليا. واقفا في احترام و تبجيل، قام سعيد بمساعدة حازم في تبديل ملابسه: متناولا قطع ملابسه التي يخلعها ، ثم بكل أدب يعلّقها على شماعة خشبية سليمة، ثم يضعها في حرص، خشية التجعد، في دولاب واسع.

في الطرف الآخر من غرفة تغيير الملابس، وقف طبيب جراحة مقيم يراقب الطقوس في استنكار؛ بداهة، هو لا يحلم أن يخدمه سعيد في تغيير ملابسه، فهو لا يزال يقبع أسفل السلم الوظيفي. لكن ماذا عن بدلة العمليات التي أعطاه العامل إياها من دقيقة واحدة، و البالية إلى حد مزري؟ يكفي دلالة جيب قميصها المتدلي و الثقوب الثلاثة في البنطلون.

قبل أن يتذمر الطبيب، حديث العهد بالطب العملي، من فرق المعاملة، وجد العشرين جنيها تنتقل من يد حازم إلى جيب سعيد العامل (إنها نفحة حازم المعتادة للعمال). متمتما في إحباط، خرج طبيب الجراحة باحثا عن بكرة بلاستر ليلصق الجيب المتدلي و ليسد الثقوب الثلاثة.

ارتدي حازم حذاء العمليات – ذا مقياس القدم الصحيح و الجديد بطبيعة الحال – و غطاء الرأس و الفم، ثم عبر الخط الأحمر، متجها إلى غرف العمليات.

كان اليوم، الثالث من أبريل، هو اليوم الأول في 'الشِّفت' – التبديل الدوري لأطباء التخدير المقيمين في المستشفى. أعضاء هيئة التدريس هم المسئولون عن تعريف الأطباء الجدد بالمكان: توجيههم بخصوص استخدام أجهزة التخدير الخاصة بغرف العمليات، تعريفهم بالعمّال و التمريض، إرشادهم إلى أماكن الأدوية و المستهلكات الطبية، إضافة إلى تنبيههم إلى محاذير المكان و أوجه قصور العمل به.

هكذا المفترض حدوثه، لكن في الدمرداش ليس من المسلّمات أن تحصل على المفروض.

لذا، و دون مساعدة من أحد من الكبار، كان أطباء التخدير الجدد يهرولون في تخبّط، مستكشفين المكان و محاولين في نفس الوقت تجهيز غرف العمليات و تحضير المرضي - بتركيب الإبر الوريدية و مراجعة التذاكر الطبية - و في ذات الوقت كان عليهم التعامل مع أطباء الجراحة المتصارعين على انتباههم و على أولوية الدخول إلى غرف العمليات.

و وسط هذه الفوضى ظهر حازم شاهين، مدرس التخدير. بسرعة اتجهت إليه العيون؛ التخديرية طلبا للمشورة و المساعدة، و الجراحية آمرة بالبدء في اللستة الجراحية، و التي مضي على ميعادها الفعلي ثلاثون دقيقة ثمينة.

كان طبيب جراحة شاب يجذب حازم فعليا من كمّ بدلته،

- يا باشا اللستة متأخرة، و نواب التخدير لسه ما خلّصوش تحضير معظم أوض العمليات.. كده يا باشا محتاجين تمدّوا لنا وقت دخول آخر عيان ساعة كمان على الأقل..
- هيا اللستة لسه ما بدأتش؟
- بدأت، بس أوضة عمليات واحدة بس، كده مش هنعرف نلاحق على الشغل.

بهدوء جذب حازم يد الجراح الشاب و دفعه جانبا، ثم راح يبحث بعينيه بين الرؤوس المتحلقة حوله عن وجه معيّن، هو السبب الوحيد لحضوره إلى العمليات أصلا.

- هو فين دكتور طارق عبد الهادي؟ هو لسه ما وصلش؟
- ما وصلش ازاي يا دكتور.. ده أول واحد بيوصل، بيجي أصلا حتى قبل العمّال ما ييجوا.
- هو فين؟
- هو الوحيد اللي بدأ العمليات.. متعقم في اوضة ٢، في عملية مرارة.
- طب وسّع لي عشان اعدي..

- طب و العمليات المتأخرة يا باشا؟
- مدرس مساعد التخدير موجود؟
- من بدري يا باشا، بس مش عارف يلم الموضوع لوحده.. لازم انت تساعده يا باشا..
- مش انت اللي هتقولي الشغل بيمشي ازاي.
- طب و اللستة هتبتدي امتي؟
- وقت ما تبتدي.. ده أول يوم لنواب التخدير في المكان، و طبيعي ياخدوا وقت..
- طب و الوقت الضايع؟
- زيه زي أي وقت ضايع في المستشفى.. زي الوقت اللي بيضيع لما أستاذ عندكم يتأخر عن العمليات عشان عنده سبّوبة بره أو لما انت بتروح تجيب سندوتشات ليك و لصحابك عشان تفطروا، و سايب العيانين في العيادة.
- طيب و حق العيانين يا باشا؟
- العيانين دول بيضيّعوا وقت و حقوق ناس تانيين زيّنا بالضبط؛ هتلاقي فيهم موظف الحكومة اللي بيعطّلك لغاية ما ياخد رشوة و سواق ميكروباص اللي بيكسر عليك في الشارع، يخبط لك العربية و بعدين ينزل يسب لك بالأب و الأم، و ضابط أو أمين الشرطة اللي بيطلع روحك لو وقعت في إيده من غير ما يكون معاك واسطة. من الآخر، محدش عنده حق عند حد.. و دلوقتي اتفضل يا دكتور وسع الطريق عشان عايز اعدي.

و مزيحا الجميع من أمامه، مضي حازم في هدوء، تاركا وراءه طبيب الجراحة يكاد ينفجر غضبا و حنقا.

بداخل غرفة ٢، كان الطبيب الجراح طارق عبد الهادي منكفئا على جرح بطن المريض المسجى على طاولة العمليات، يخيّطه في حماس. هو رفيق الدراسة طوال سنين الكلية، صديق حازم الوحيد، و الشخص الثاني و

الأخير ذو الأهمية في حياته بعد أخته ريم. في وجود طارق، يتحول حازم شاهين إلى كائن آخر، أكثر حيوية و انطلاقا و أقل كآبة و تعاليا.

طارق عبد الهادي شخص متوسط الطول، بدين، متهدل الكتفين، أسمر البشرة و متلعثم العبارة، خجول و متواضع؛ باختصار هو المقابل الجسدي و السلوكي الأدنى لحازم شاهين، الوسيم الرياضي، واثق الهيئة و العبارة.

- صباح الخير يا طروق..
- انت شرّفت أخيرا يا برنس الليالي.. ما لسه بدري؟ الدنيا بره خربانة مع التخدير و محتاجين مساعدة من الصبح..
- ما انت شغّال اهوه..
- الحمد لله حظي كويس، لقيت نايب تخدير ابن حلال جه العمليات قبل كده و عارف المكان، و رضي ينيّم لي الحالة على طول.. و اديني الحمد لله قفّلت الجرح اهو..
- آه.. دي حاجة ما تطمنش.. ربنا يستر.

خلع طارق الجوانتي الطبي ثم فكّ المريلة المعقمة

- أيوه طبعا، ربنا يستر في كل الأحوال، بس اسمعني؟
- أكيد طبعا، لما واحد اكتع زيك يخلّص عملية مرارة قبل ما انا أوصل، يبقي أكيد كروت و بهدل الدنيا جوّا..
- لأ، ظريف.. بتجيب الظُرف ده منين، أصله ناقص اليومين دول في السوق.
- ابقي تعالي و انا اقلك منين..
- هاها.. دانت باين عليك اشتريت ظُرف بالجنيه كله النهاردة.
- هاها.. دانت طلعت بتعرف تهزر، مش زي ما بيقولوا عليك..
- مين دول اللي بيقولوا؟
- العشر بنات اللي رفضوك..
- تصدق انت عيل واطي.. ابقي فكّرني لو جت لك الزايدة، أبقي اسيبها و اشيل بداها حتة من لسانك اللي عاوز القطع.

تصافحا في محبة، و تبادلا المزيد من الدعابات و المشاكسات.

كان العمل في وحدة العمليات قد بدأ في الانتظام أخيرا، و بدأت الحالات تدخل تباعا، لكن و لأن طارق كان أول من بدأ، كان عليه انتظار بعض الوقت حتى دخول حالته التالية. لذا توجّه مع حازم إلى غرفة استراحة الأطباء، و هناك طلبا من سعيد العامل أن يحضر لهما كوبين من الشاي. سرعان ما تخليا عن مرحهما المؤقت، مسترجعين مزاج الكآبة، و الذي صار ملازما لهما في الفترة الأخيرة.

متحديا امتعاض طارق المعتاد من التدخين، أشعل حازم سيجارته.

- إيه يا حزوم؟
- إيه؟
- مفيش جديد؟
- هو احنا مش كنا مع بعض امبارح على القهوة.. جديد إيه اللي هيحصل من امبارح للنهاردة؟
- أنا زهقت.. انت ما زهقتش؟
- افتح عيادة أو اشتغل في مستشفى خاص..
- باخاف و ضميري بيأنّبني من عوأ الشغل الخاص.. طول الخمس سنين اللي اشتغلت فيها في الخاص و ضميري بيأنّبني. وصلت لقناعة اني ما اقدرش اشتغل و ضميري مرتاح في مكان بيتربّح من مرض الناس، خصوصا و إن أغلبهم فقرا مش لاقيين ياكلوا أصلا. مهما كان أصحاب المستشفى محترمين و مهنيين، فالربح دايما بيكون هو الهدف. الدمرداش رغم ضعف إمكانياتها و هرجلتها الإدارية، باقدر اعالج فيها المريض بالطريقة الصح اللي ترضي ضميري، مش اللي ترضي صاحب المكان و توفر له فلوس.
- أُم المثالية اللي بتتكلم عليها يا جدع.. خلاص، يبقي سافر..

- انت عارف اني مش بتاع سفر.. دانا خجول و باغرق في شبر مية هنا في الدمرداش، أمال بره.. ثم إني الحقيقة باحب ابويا و امي و اخواتي و مش ناوي اسافر عشان الفلوس و اسيبهم.
- خلاص، يبقي اتجوز..

تألقت عينا طارق، اعتدل في جلسته و قرّب رأسه من حازم، مبتسما في خجل

- أنا فعلا ممكن احتاج لك في الموضوع ده..
- خير؟ حد تخدير؟
- انت شوف نوابكم الجداد..
- في السريع كده.. دانا من الشارع عليك في أوضة العمليات.
- يا أخي خلّي عندك شوية ضمير و اشتغل شوية..
- يا بوب البلد دي الضمير ما بيجيش من وراه الا العطلة و قلة القيمة..
- يا أخي على ده تفكير.. و هتقول إيه لربنا يوم القيامة؟
- شكلي هاروّح بدري النهاردة.
- أقعد يا سخيف و بطل رخامة.
- اسمها إيه؟
- سمية.. بيقولوا دفعة أصغر مننا بسبع سنين..
- مش كتير سبع سنين..
- بس هي الحقيقة حلوة، و مؤدبة و لبسها محتشم، و شكلها متديّن..
- بس يا اهبل.. هو انت أي حاجة تخيل عليك كده..
- استني بس اما تشوفها.
- و المطلوب؟
- اعرف لي مرتبطة ولا لأ؟
- و انت ما بصيتش في ايديها ليه؟
- لابسة الجوانتي طول الوقت
- عاوزني اعرّفك عليها؟
- لأ، إلا دي..

خسف طارق رأسه على صدره

- بص يا حازم، و كده على بلاطة.. انت من أهم أسباب فشلي مع البنات.
- أنا!
- أيوه.. أي واحدة استلطفها في المستشفى و اجي اكلمها، تقوم باصة على دول..

و أشار إلى كرشه المتدلي و وجهه المتغضن القبيح.

- و بعدين تبص جنبي تلاقي واحد طويل، أبيضاني و حليوة.. تفتكر بيحصل ايه؟ على طول البنت تقوم مستقلاني..
- البنات اللي فاتت انطست في عينها، بس ده مش معناه ان مفيش بنات بتفهم..
- و لا انطست و لا حاجة.. مش هنضحك على بعض..
- يا راجل ما تقولش كده..
- دا غير اني بأبقى لبخة لما اتكلم.. و انت ابن كلب، لسانك مطلوق و كلامك موزون و شيك زي لبسك..
- بس دانت بتقول ان دمي واقف..
- البنات الهبلة بيفتكروه تقل و رزانة..
- خلاص يا عم سيبك مني، و انا عليا اختفي من حياتك شهر شهرين تلاتة، بس انت بس اعزمني على الفرح لما يؤون الأوان.
- انت بس اسألّي من بعيد، و بعد كده اختفي من العمليات خالص..
- و بقية اللستة و الضمير، و هاعمل ايه يوم القيامة؟ عاوز تدخلني النار؟
- لا يا اخويا دي مضمونة، ما تقلقش، مش هيفرق معاك النهاردة.. ثم مش بعيد تكون خدمتك ليا هي الحسنة الوحيدة اللي هتتكتب

لك النهاردة وسط بلاويك المتلتلة.. نصحيتي ليك، ما تضيّعش الفرصة.

ضحك حازم، دسّ سيجارته في المطفأة، ثم قام ليعود إلى غرف العمليات، متفقدا و متقصّيا.

بعد خمس دقائق فقط عاد و معه الخبر اليقين.

- Vacant يا بوب..

تلألأ وجه طارق و قام و قد تورّد وجهه

- بجد..
- أنا عرفت ان عمليتك الجاية في اوضة ٣.. ظبّطت لك و خليتها هي اللي هتقف معاك في الأوضة.
- شكرا أوي يا باشا.. قصدي يا حازم، أنا مش عارف اقولك ايه..
- قولّي يا بابا، و ممكن تبوس إيدي لو كنت غسلت بقك مطرح الشاي.
- غور ياض يا ابن الـ..

ابتسم حازم

- أنا هاخلع دلوقتي و هاروح اشيّش على قهوة شيبوب في العباسية.. لما تخلص العملية الجراحية و العملية العاطفية، ابقي تعالي.. هأستناك..
- ادعيلي يا حازم..

و قام طارق ليخرج من الغرفة متعثرا في خطواته، و قد أخذ وجهه في الاحمرار و أنفاسه في التسارع. تطلّع حازم لصديقه مشفقا، و خرج وراءه متمتما بدعاء سريع. عند الباب انفصلا، طارق عائدا إلى العمليات و حازم منطلقا إلى الشارع.

بعد عشر دقائق، كان حازم قد نسي كل شيء عن صديق عمره و نائبة التخدير و عن مستشفى الدمرداش كلها. جلس على مقهي شعبي في العباسية، يدخن الشيشة، يجتر الذكريات، و يفكر في الطريقة الرابعة المثلي للانتحار.

٣

منطقة العباسية السكنية المحيطة بمستشفى الدمرداش هي من المناطق القليلة في القاهرة التي لم يطرأ عليها تغيرات جذرية في العقود الأخيرة. لا تزال العباسية منطقة شعبية بامتياز، متحدية تحولات السنين الأولى من القرن الواحد و العشرين؛ فلا هي انقلبت إلى منطقة عشوائية و لا تم تحويلها إلى مستعمرة من المباني الإسمنتية الشاهقة. أغلب العمارات منخفضة قديمة، و السكان من أبناء الطبقة المتوسطة، الأقرب إلى الفقر.

المنطقة تعتمد تجاريا على مرتادي المصالح الحكومية القريبة (مصلحة الأحوال المدنية، محكمة شمال القاهرة الابتدائية، و وزارات السياحة و الكهرباء) من موظفين و محاميين، و أصحاب قضايا و مواطنين ينهون مصالحهم الحكومية المختلفة.. بالإضافة بالطبع إلى شريحة كبيرة هم مرضي مستشفى الدمرداش و عائلاتهم. معظم الفئات التي ترتاد المنطقة متواضعون ماديا إلى حد كبير، لذا لم يطرأ على المنطقة أي تطور تجاري حقيقي في العقود الأخيرة، اللهم إلا ازدهار محلات الآلات و المستهلكات الطبية، و بعض محلات الفرانشايز المتكتلة على شارع امتداد رمسيس، و التي تخدم ميسوري الحال من أطباء و طلبة الطب، الخائفين من الولوج في أعماق العباسية و الوايلي و الاختلاط بسكانها الأقل رقيا و الأكثر خشونة، و أحيانا شراسة.

لذا لم يكن بالمنطقة المحيطة بالمستشفى أي كوفي شوب مناسب لمعايير حازم شاهين الباذخة نسبيا. لو أراد كافيه مناسب، فعليه التوجه إلى مدينة نصر مباشرة، أو على الأقل أن يتخطى منطقة الوايلي كلها، و أن يذهب إلى شارع العباسية أو ميدان عبده باشا. لكنه لم يكن يرغب في مشي كل تلك المسافة على قدميه، أو حتى قيادة السيارة في زحام العباسية في هذا الوقت من النهار.

متغلبا على ضيقه من حرارة الجو و متلهفا لحجر معسل، عبر حازم شاهين شارع امتداد رمسيس، و اخترق متاهات العباسية و التي يحفظها عن ظهر قلب منذ أيام الكلية. دلف إلى شارع ‘غرب القشلاق‘ العامر بالمقاهي الشعبية، أشهرها مقهي ‘جمال الصغير‘ (الذي من الممكن أن تلتقي فيه بالمطرب حسن الأسمر مساءً) و مقهي ‘شيبوب‘، مقهي حازم المفضل منذ أيام الدراسة (لا لشيء إلا لأنه الأقرب للكلية). متجاهلا نظرات رواد المقهى الشعبي، المتطلعين باندهاش إلى بدلته الفاخرة المفرطة الشياكة، جلس حازم على طاولة خارج المحل و طلب شيشة و قهوة سادة.

كان في الرمق الأول من حجر المعسل الثاني عندما باغتته رنة هاتفه المحمول. كانت إيلين، زوجة أبيه.

- الو يا إيلي..
- Bonjour, ou es tu?
- أنا بره..
- عايزة أشوفك، ضروري.
- بخصوص أبو دبورة؟
- أبو دبورة!
- أيوه.. البودي جارد.

كان يتكلم بنبرة هادئة و صوت أحادي النغمة رغم ما تحمله الكلمات من سخرية و تحقير واضحتين. لو كان لحازم شاهين علامة مميزة، فهي سخريته الباردة.

- Serieux, nous devons parler
- إيلي، بجد انت لازم تبطلي تتكلمي بالفرنساوي كتير كده.. ده حتى سيادة اللوا ما بيفهمش نص كلامك..
- حازم، بطل استعباط.. إحنا لازم نتكلم.

صمت، فأكملت هي في عصبية

- هترجع البيت إمتي يا سي زفت؟

لجوء إيلين إلى السباب، و بالعربية خصوصا، كان حدثا لا يجوز تجاوزه بسهولة. الأمر جد خطير.

- إيلين، لو الموضوع ليه علاقة بالصبح و بـــ..

- حسك عينك تتكلم حرف زيادة **على التليفون**.

على التليفون.. نعم، إذن سبب عصبيتها هي أنها تتحدث على التليفون.. تخاف أن يكون سيادة اللواء متصنتا على مكالماتها.

- أوكي يا إيلين.. أشوفك بالليل، على العشاء.

- بعد العشاء.. و انا اللي هأجيلك.

- موافق..

- Au revoir

كادت تغلق المكالمة، لكن حازم ختم المكالمة بلهجة هازئة لا تخطئها الأذن

- على فكرة يا إيلين.. انتي صحيح تستاهلي **كل خير**، لكن صدقيني مفيش داعي للقلق كده.

صمتت للحظة لتستوعب فحوي الرسالة التي تحملها كلمات حازم، همهمت بكلمة غير مفهومة ثم أنهت المكالمة.

أغلق حازم هاتفه بدوره، ثم ألقى به في حنق إلى الكرسي المقابل. لقد كان في موقف من تلك المواقف التي لا يحب التعرض لها أبدا: المواقف التي - بالرغم منه - تكشفه أمام نفسه. صحيح أنه يعرف بخيانات زوجة أبيه، و مع ذلك لا يهتم، بل و لا يرمش له جفن إزاء نزواتها العاطفية. صحيح أنه يكره أباه، و صحيح أنه لن يغفر له خطاياه و جرائمه تجاهه و تجاه أمه (و تجاه آخرين يعرفهم و عشرات لا يعرفهم)، لكن أن يصل به الأمر إلى المجاهرة بمعرفته بتلك الخيانة، بل و الاستهزاء بها، ففي ذلك دليل واضح على

استساغته و استحسانه لما يحدث.. سلوك لا ينم عن شيء إلا التشفّي الواضح و الصريح!

اضطرب حازم غضبا عندما وصل إلى هذا الاستنتاج. عضّ مبسم الشيشة البلاستيكي في غيظ، و أخذ ينفث ضيقه في الدخان، محاولا تشتيت فكره في أي موضوع آخر.

لحسن الحظ، أتى طارق بعد نصف ساعة لينقذ حازم من وطأة الحيرة و فقدان الثقة بالنفس و ليخرجه من دائرة التفكير الخانقة.

لكن صديقه العزيز لم يكن في حال أفضل من حاله. فوجهه مكتسي سوادا و كآبة، و عيناه مغرورقتان بالدموع.

- إيه يا طارق، فيه إيه؟

مسح الجرّاح المكلوم عينيه بمنديل ورقي، ثم نظف أنفه في انكسار

- إيه يا طارق؟ ما تنطق يا جدع. إيه اللي حصل؟
- أنا عمري ما اتهزقت كده في حياتي يا حازم... لأ و إيه؟ جوّا العمليات و قدّام نواب الجراحة بتوعي.
- إيه!
- أنا مش عارف هأدخل الدمرداش تاني ازّاي بعد النهاردة.
- استهدي بالله كده يا عم و احكي من الأول.

و لبئس ما حكي..

فبعد انصراف حازم من عمليات الجراحة، اتجه طارق مباشرة إلى غرفة ٣، حيث عمليته المقبلة: استئصال ورم بالقولون. و بالفعل، و كما أخبره حازم، كانت سمية طبيب مقيم التخدير الشابة بالغرفة، تركّب جهاز الضغط و تثبت لصقات رسم القلب على المريض. قبل أن تمسك يد المريض بحثا عن وريد نافر لتغرز فيه الإبرة الوريدية، كان طارق عبد الهادي فوق رأسها – ذات الأخرق المبتسم ببلاهته المعهودة عند التحدث مع أي أنثي. عرض

عليها المساعدة في ودّ مبالغ، وعندما رفضت مساعدته أصرّ بإلحاح أثار ريبتها. محرجة من فارق السن و مضطرة بحكم التراتبيّة الوظيفية داخل المجال الطبي في الجامعة، استسلمت نائبة التخدير لتطفله الخشن، لكنها واجهته بأعنف أسلحة الأنثى: التجاهل التام.

بدأت العملية الجراحية، و استمر طارق متخبطا في طريقه لاجتذاب انتباه سمية. لكنها كانت قد أصمّت أذنيها عن كل شيء: عن إطرائه على مهارتها في العمل، و عن شرحه المستفيض لطبيعة العملية الجراحية؛ و بالطبع تجاهلت كل دعاباته المتكلفة السمجة، متطلعة إليه بوجه خشبي لا مشاعر و لا اهتمام فيه. بعد ذلك ارتكب طارق كبيرة الكبائر و سألها مباشرة لما لم تضحك. و يا ليتها ردّت، فأغلظت له القول أو حتى تجاهلته، لكنها و بكل هدوء خرجت من غرفة العمليات، و بعد دقائق معدودة عاد مكانها طبيب تخدير آخر.. شاب طويل عريض ذو شارب و لحية كثيفتين.

إثر ذلك، أطلقت الممرضة، المساعدة له في العملية، ضحكة رقيعة ثم غمزت إلى العامل الجالس بطرف الغرفة، ليتصنّع كتم ضحكة انطلق معظمها مجلجلا في المكان.

و ليزداد الطين بلّة، تعقدت العملية في يد طارق: ثقب القولون و شجّ الكبد و كاد أن يجرح المرارة و الأمعاء الدقيقة. مراعاة لضميره و خوفا على المريض، استدعى طارق أحد المدرسين المساعدين، الأصغر سنا و خبرة، و ترك له العملية، ثم غادر وحدة العمليات في فضيحة لا مثيل لها.

طأطأ حازم رأسه متعاطفا، ثم نفث دخان الشيشة في هدوء

- و لا يهمك.. بتحصل مع أتخن شنب..
- ازاي هأحط وشّي في وشّ التمريض و العمّال، لأ و النواب بتوع القسم كمان.

- دانت تحط عينك و رجلك كمان.. يا راجل كبّر دماغك.. و انا عليّا، لو حد غلّس عليك، أنا كفيل بيه.. هاطلّع لك روحه و روح عيلته واحد واحد.

استرعي انتباههما توقّف سيارة رينو مألوفة الشكل أمام المقهى؛ خرج منها سميح بدران، دفعتهما في الكلية، و الآن مدرس النساء و التوليد و أحد النجوم البازغة في سوق علاج العقم و المناظير الجراحية و الإخصاب. متوسط الطول، جسمه ممتلئ بعض الشيء و ملامح وجهه غير مميزة، لكنه حلو اللسان، ذكي اجتماعيا و له طريقته الخاصة مع البنات: دون جوان كما يحب أن يطلق على نفسه. من عائلة متوسطة الحال، لكن نجاح أخيه الأكبر تجاريا، بث روح المنافسة في بقية الأخوة فصاروا جميعا ناجحين. هو من سكان العباسية الأصليين، و المقهى الذي يجلسان عليه الآن هو مقهاه المعتاد.

ما إن لمحهما حتى هلّ إليهما مرحّبا في استعراضيته المعتادة

- أهلا بالشباب.. مش لما تيجوا عندي المنطقة تبقوا تقولوا.. ازيّك ياض منّك له..

قام طارق ليسلّم عليه و هو يكتم ما بقي من دموعه، في حين سلّم حازم بأطراف أصابعه دون أن يقوم من مكانه أو حتى يرفع ناظريه نحوه. جلس سميح في أريحيّة و نادي صبي القهوة في حنجورية

- واد يا شوقي.. حساب البهوات ده عندي. هات لي شيشة قص و واحد فيروز شعير.. بسرعة ياض..

كان حضوره و تطفّله عليهما غير مرغوب فيه، لذا استعدّ الصديقان للرحيل. ملاحظا لترك طارق لكوب الشاي على الطاولة و لحازم و هو يضع ليّ الشيشة جانبا، انطلق سميح يجذب انتباههما كما يفعل مع زبائنه من النساء، منتهزا الفرصة للنمو الشخصي و الاستعراض العاطفي..

- إيه أخباركم في الحياة يا شباب؟ اتجوّزتوا و خلّفتوا و لا لسه؟ أنا الحمد لله عندي سارة و احمد.. انتو إيه الأخبار؟

داري طارق وجهه في ضيق

- ربنا لسه ما أذنش.
- خلفة و لا جواز؟
- الاتنين..

التفت سميح إلى الزاهد في الحديث

- و انت يا بنجاوي؟
- لسه..

رجع سميح إلى الوراء و التقط ليّ الشيشة التي أحضرها صبي المقهى و أخذ في القرقرة و بداخله إحساس خبيث بالإنجاز و التفوق على رفيقيه.

- طب و إيه أخبار الشغل؟ كل واحد فيكم فتح له كام عيادة لحد دلوقت؟

خفض طارق رأسه في ضيق

- حازم زي ما انت عارف تخدير، فمالوش عيادة و..
- ليه؟ هو انتوا يا ابني مش بتفتحوا عيادات علاج ألم.

تجاهله حازم تماما و أخرج هاتفه يطالعه في ملل. التفت سميح عائدا إلى طارق

- و انت يا باشا؟ جراحة بقي.. عيادة خاصة طبعا غير عيادة و لا اتنين في المستشفيات.. ربنا يسهل له.. شغال فين؟ في النزهة و لا كليوباترا و لا..
- أنا مش شغّال خاص يا سميح..

لوي سميح وجهه في استنكار سوقي

- ليه؟ عندك القلب و بتموت، و لا قاعد بابوك و امّك ليل نهار؟
- مش مناسب ليّا و..
- إيه يا عم انت و هو، انتو بتهرجوا؟ انتو عايشين كده ازّاي؟

و هنا تدخّل حازم دون دعوة، راكلا الشيشة من أمام سميح

- و انت مال أهلك يا لطخ.. حد طلب رأيك يا تافه.. قوم ياله، فز من هنا، محدش دعاك تقعد معانا.. قوم يا نصاب، ياللي ريحتك في النصب على العيانين مالية الدمرداش كلها.

مذعورا من رد فعل حازم، قام سميح مرتبكا، متلعثما

- عيب عليك الكلام اللي بتقوله ده يا حازم... بتشتم واحد صاحبك و دفعتك.
- و لا صاحبي و لا اعرف الأشكال الضالة اللي زيّك دي.
- و كمان بتكدب و بتسوّأ سمعتي بكلام انت عارف انه كدب و غيرة من ناس بتحقد عليّا..
- هتغور من قدامي و لا انشر غسيلك القذر كله قدام أهل منطقتك في القهوة.. عاوزني احكي على صداقاتك مع العيانين الستات ولا إيه؟

مذعورا، لملم سميح علبة مشروب الشعير، و جرجر الشيشة وراءه

- أنا اللي غلطان اني قعدت مع ناس زيّكم.

و انصرف إلى أبعد ركن في المقهى.

التقط حازم الشيشة و عاد يدخن في صمت، في حين تجرّع طارق شايه في وجوم. بعد لحظات، و عندما التفت حازم إلى طارق مرة أخرى، كان الأخير يبكي في صمت.

- إيه يا طارق.. وحّد الله امّال يا راجل. انت عارف ان سميح ده لطخ طول عمره.. ما تخليش واحد زي ده يخليك تزعل كده.
- بس كلامه صح ميه في الميه.
- و لا صح و لا يحزنون... كل إنسان حر يعيش الحياة زي ما هو عايز.
- انت مش فاهم حاجة يا حازم.. أنا زهقت من أم الفشل، و من أم الحياة اللي انا عايشها دي. عاوز حاجة أثبت بيها نفسي..
- يا راجل دانت معاك الدكتوراه، و مدرس جراحة قد الدنيا.
- طب بذمتك انت مصدّق الكلام اللي انت بتقوله ده؟ إحنا يا صاحبي مجرد تروس في ماكينة.. حظنا الحلو، و شطارتنا في المذاكرة هي اللي خلّيتنا في مكانّا ده. لكن بعد كده إيه؟ حياتنا الفعلية و العملية خلاص انتهت بعد الدكتوراه.
- ما انا قولت لك: سافر، اعمل أبحاث، اشتغل في الخاص زي اللطخ اللي قام ده ما قال.
- لأ، أنا مش هاضحك على نفسي و لا عايز اعمل حاجة مش عايزها.. لكن في نفس الوقت عاوز اعمل حاجة تحسسني اني عايش فعلا و اني إنسان بجد.

خفض حازم رأسه و انقطعت قرقرة الشيشة في فمه. تمتم، و هو يبتسم متحسرا

- مين سمعك؟ و انا كمان عايز احس اني عايش بحق و حقيق.. بس نعمل إيه؟

رفع طارق رأسه فجأة و كأنما نزل عليه الوحي من السماء. ضرب الطاولة في حماسة و قد قفزت الدموع من عينيه.

- يبقي نعمل حاجة مجنونة بنحبها احنا الاتنين..
- حاجة زي إيه؟ قول و انا إيدي على كتفك.
- ورشة جدّي نقلبها مكتب.. انت فيليب مارلو، و انا نيرو ولف.

حدّق حازم شاهين في صديقه في ذهول. هزّ رأسه و ضحك، ثم مسح رأسه بيده في عدم تصديق.

- انت أكيد بتهرج..

٤

يقوم على خدمة فيلا اللواء أحمد شاهين أربعة من الخدم: ثلاثة منهم - طبّاخ و خادمة و جنايني - من قرية واحدة بالشرقية، بالإضافة إلى سيدة خمسينية من إندونيسيا، سمراء مليحة الملامح، راقية الطباع و مدرّبة بحرفية عالية (حاصلة على شهادة من معهد تخديم في جاكرتا)؛ بالطبع لا يتعامل معها أحد في المنزل بصفتها خادمة، بل كـ'لا جوفرنُنت' (مدبرة المنزل باللغة الفرنسية).

و تحت إدارة 'مارجيك بتراوي' - لا جوفرنُنت - تُدار كل أمور بيت شاهين في نظام صارم و في نفس الوقت بمنتهي الرقي و التحضّر. و كجزء من هذا النظام، يتم تقديم كل وجبات اليوم في مواعيد ثابتة لا تتغير أبدا (عدا تلك التي يحضرها اللواء، فيفسدها بعاداته المصرية العشوائية) - منها وجبة العشاء في الساعة الثامنة مساءً على مائدة الطعام الكبرى. اليوم، و كما العادة، لم يحضر العشاء إلا إيلين هانم و مدموزيل ريم، لذا كانت الوجبة عبارة عن تشكيلة بسيطة من الأجبان و خبز توست الرجيم. لم يدم جلوس السيدتين أكثر من نصف ساعة، تبادلتا خلالها الحديث حول أحداث اليوم المنصرم، و من ثمّ انصرفت كل واحدة إلى شأنها: ريم إلى غرفتها، و إيلين إلى غرفة المعيشة، تشاهد التلفاز و تطالع مجلات الموضة كعادتها كل مساء. لكن اليوم، أقبلت إيلين على نشاطها اليومي دون كثير من الحماس.

لم يحضر حازم بعد انقضاء وجبة العشاء، و لا حتى عندما أعلنت ساعة الردهة الرئيسية تمام التاسعة مساءً.

و على الفور تسارعت دقات قلبها في اضطراد و بدأ العرق يتسرب إلى ثنايا جسمها: إنها علامات التوتر المعتادة، لكنها اليوم مضاعفة؛ أولا، نتيجة لترقبها للقاء بحازم، و ثانيا و الأهم لأن الساعة التاسعة هي الميعاد المحدد لطقسها اليومي المقدس.

اليوم عليها تأجيله قليلا.. لكن إلى متي؟

دقة منتصف الساعة..

ثم دقات الساعة العاشرة..

بلغ توترها حده الأقصى، و صارت عصبيتها ظاهرة للعيان؛ صعدت إلى أعلي، خشية أن يراها أحد في هذه الحالة، احتجبت في غرفتها، و تجرعت ثلاثة أكواب من البراندي (و التي تخبئ زجاجته من زوجها الذي لا يقبل وجود الخمر بالبيت، و إن كان يعلم أنها تشربه). كانت تأمل في إخماد أعصابها المشتعلة، لكن حالتها العصبية لم تزداد إلا سوءا.

تبا، لما لم يأتي الوغد حتى الآن.

..ثم دقة نصف الساعة مرة أخرى.

غالبا مش هييجي الليلة دي، و هيسهر زي عادته: هكذا أقنعت نفسها.

الساعة الآن العاشرة و النصف، و زوجها يعود من مديرية الأمن عند منتصف الليل أو بعد ذلك بساعة على الأكثر. لديها الآن أقل من ساعتين لممارسة طقسها اليومي.. ذلك الطقس المقدس، الذي لو انطبقت السماء على الأرض ما تركته أبدا.. هو المصدر الوحيد للسعادة الحقيقية في حياة مليئة بالتوتر و الاحتراس، في بيت لعين يجمعها بزوج كريه قاسي لا تغمض له عين.

حذرة، لكن بخطي واثقة، خرجت من غرفتها متجهة إلى الدرج؛ صعدت إلى السطح و منه إلى السندرة – مبنى صغير في طرف السطح، عبارة عن غرفة لتخزين الأشياء القديمة و المهملة. فتحت إيلين باب السندرة في هدوء و دخلت، أضاءت مصباح الغرفة، ثم تسللت وسط الكراكيب إلى حيث الصناديق الكرتونية الكبيرة. و من صندوق ألعاب ريم القديم أخرجت عروسة باربي صغيرة. نزعت الرأس، و أخرجت منه كيس بلاستيكي صغير، ممتلئ ببودرة بيضاء ناعمة. ملأت ظفر سبابتها بكمية مناسبة، ثم

سكبته على سطح فويل رفيع. فردت الكمية على شكل خط طويل، ثم اقتربت برأسها في توتر، غالقة إحدى فتحتي أنفها.. و استنشقت في قوة.

بسرعة أعادت الكيس في مكانه، ثبّتت رأس الدمية، أعادتها إلى مكانها في الصندوق، ثم انصرفت تغلق النور و الباب من خلفها. خرجت تتمشى إلى السطح، إلى حيث البرجولة الخشبية البديعة.

الطقس رائع برغم نسمات الهواء الباردة، و الغير متوقعة.

جلست إيلين على الأرجوحة الكبيرة و استرخت مستسلمة لتأثير العقار السحري. أغمضت عينيها لتغوص في عوالم السحر و الجمال، و الراحة و السعادة اللامحدودة.

طيور تزقزق، الهواء العليل، شاطئ البحر، و ها هو 'نسيم عادل'، صديق الطفولة و حبيبها الأوحد، يأتي من البعد، مرتديا نفس ملابس مصيف مارينا ١٩٨٩. ها هو يجري حافي القدمين، موج البحر يتلاطم و يهدر خلفه في خفوت و ذرات الرمال تتطاير من تحت قدميه في دعة. ها هو يجري، يمد ذراعيه نحوها، و من خلفه تتواطأ الطبيعة في منظر طبيعي خلاب. إنها الجنة.

يقترب نسيم، فإذا هو يحمل ببغاءه زاهي الألوان.. يبتسم نسيم في حنوّ، و يفتح فمه متفوها بكلمات لا تسمعها..

.. و فجأة، و دون سابق إنذار، يحط غراب كبير أسود في سرعة، ملتهما نسيم و الببغاء، و يطير ناعقا بصوت عالي قبيح. تفتح عينيها من الصدمة، فتجد حازم واقفا تلقاءها، و ظهره إلى سور السطح.

- انت جيت إمتي؟
- من شوية..
- من شوية قد إيه؟ أنا ما سمعتش صوت عربيتك و هي داخلة.
- لا، ما انا ركنتها بعيد عن الفيلا و جيت مشي.
- وصلت إمتي؟

- من حوالي تلات ساعات.
- إيه؟ و كنت فين ده كله؟
- كنت في جنينة الفيلا، في الجرين هاوس - بيت النباتات.. قعدت أهتم بالنباتات شوية، و في نفس الوقت كنت باراقب السطح و السندرة.. أول ما لقيت نور السندرة ولع، عرفت انه الوقت المناسب، فطلعت على طول..
- انت عارف!
- بيتهيألي الجو هنا برد شويتين.. ما تيجي نتمشي في الجنينة تحت، أو حتى نقعد في الجرين هاوس عندي شوية..

متفاجئة و مرتبكة، قامت إيلين - مسلوبة الإرادة - خلف حازم تتبعه إلى أسفل.

بعد النزول إلى الحديقة، تمشيا في صمت إلى المبني القابع في طرف الحديقة الشمالي - 'بيت النباتات' أو 'الجرين هاوس' و الذي أهداه اللواء أحمد شاهين إلى ابنه بعد ظهور نتيجة الثانوية العامة، كرشوة صريحة حتى يوافق على دخول كلية الطب! المكان عبارة عن صوبة زراعية صغيرة لها منفذي تهوية ذات تحكم يدوي و تحوي أربعة أحواض للزراعة، إضافة إلى مكتب صغير و بضعة كراسي خشبية؛ الجدران الزجاجية تُنفذ أشعة الشمس الدافئة في الشتاء و يتم سترها بألواح و ستائر عازلة خلال فصلي الربيع و الصيف. يحب حازم زراعة الفواكه بجانب الزهور: الفراولة و الخزامي المشرقية في الشتاء، و المشمش و زهور البنفسج في الصيف. هنا خلوة حازم المفضلة و مكان استجمامه اليومي، من بعد العصر بساعة و حتى غروب الشمس.

كان الجو لطيفا بالخارج، لذا كان اختيار حازم الجلوس داخل الصوبة الحارة الرطبة اختيارا غريبا. لكن إيلين لم يكن لديها اختيار. تبعته إلى الداخل، و بعد الدوران حول حوض زهور البنفسج، أجلسها على كرسي خشبي طويل في منتصف المكان. جلس قبالها على كرسي هزّاز خشبي بديع.

- بيتهيألي ممكن نتكلم هنا أحسن..

- Pourquoi ici?
- الصبح ماكنتيش عاوزة تتكلمي في التليفون عن موضوعك.. ده طبيعي، الموضوع حساس، و ما ينفعش حد يسمع كلمة كدة و لا كده.. و انا عشان متفهم ده جيبتك هنا عشان نتكلم.. الجرين هاوس هو المكان الوحيد في الفيلا اللي مفيهوش كاميرات مراقبة و لا حتى ميكروفونات.. انت عارفة طبعا ان البيت فيه أجهزة تجسس.
- طبعا عارفة.. و عارفة ان باباك هو اللي بيفرغها بنفسه مرة كل أسبوع..
- و عارفة ليه الأجهزة دي موجودة؟
- أبوك بيشك في خياله..
- غريبة انك ما قلتهاش بالفرنساوي..
- دلوقتي بقيت بتحب الفرانسيه..
- ما بطيقهوش.. و ياريت ترحميني منه النص ساعة اللي جاية..

ابتسمت في دلال من تأثير المخدر. لم يبادلها حازم الابتسامة؛ أرخي ظهره إلى كرسيه و شبك يديه أمام صدره

- كنت عاوزة تكلميني..
- انت عارف انا عايزة أتكلم في إيه..
- أحب اسمعك و انتى بتوضحي لي..
- أرجوك بطّل تطلّع شائعات عليا.. ده مش كويس لوالدك، و طبعا مش كويس لأختك.. ثم إنه مش من حقك تتجسس عليا..
- أولا انا عمري ما طلّعت عليكي شائعات يا إيلين.. كل ما في الأمر ان الواد بتاعك حب يتنطط شوية.. لأ و بينسج حباله على أختي كمان.. و دي بالنسبة لي من المحرمات.. كنت بأدبه مش أكتر..

نظرت إليه إيلين في غير تصديق

- أفهم من كده ان الموضوع مش هيخرج عن اللي حصل النهاردة الصبح؟
- قصدك اني أقول لسيادة اللوا؟
- آه..
- ما تخافيش..

ابتسمت نصف ابتسامة، و إن لم يغادرها الذهول

- Merci beaucoup

كانت شاكرة بالطبع، لكن ثمة شيء غير واضح.. تململت في جلستها.

- لكن، أنا، رغم طبعا امتناني الشديد يا حازم، متحيرة شوية..
- بخصوص؟
- بخصوص والدك.. انت ما بتحبوش.. ده شيء واضح من يوم ما دخلت البيت.. دايما باسأل احمد، لكنه بيرد بكلام زي انك مخنوق من ساعة ما طلّق والدتك أو إنه كان قاسي شوية في تربيتك، و إنك غلاوي ما بتنساش.. لكن الحقيقة، أنا حاسة ان الموضوع أكبر من كده.. خصوصا و انا شايفة رد فعلك دلوقت..
- عارفة يا إيلين، أبويا ده راجل عظيم..

كتمت ضحكتها

- عظيم!
- أيوه.. راجل وطني، متفاني في عمله، و مستعد يقدم حياته فدا لكل شيء هو مؤمن بيه... راجل إلى حد ما متديّن، بيصوم رمضان، بيأدي الزكاة في مواعيدها، بل و بيقدم صدقات كتير من غير مناسبة، و عارفة؟ زمان كان بيحب يحضر حلقات الذكر بتاعة الصوفيين اللي في مسجد الحسين و السيدة نفيسة، لحد عشرين سنة فاتت، و لولا إن وزير الداخلية شخصيا حذره من الحضور و قال

له ان حضوره ده ممكن يضره في التقارير، بيتهيألي انه ماكنش بطّل يحضر حلقات الذكر لحد دلوقت..

- أيوه.. أنا واخدة بالي إنه متدين و إنه راجل بيحب شغله و بيحب مصر فعلا..
- و مع كده انتي ما بتتحبهوش انتي كمان، صح؟
- مش كده بالظبط.. هو مشكلته إنه صارم شوية و مش حنيّن و..

هزّ حازم رأسه معترضا

- لا، لا.. مش كده خالص.. لكن قبل ما أقول لك إيه مشكلة ابويا، اسمحي لي اتفلسف عليكي شوية..
- اتفضل..
- من وجهة نظري، البني آدمين ممكن ينقسموا لمجموعتين..
- مجموعتين؟
- المجموعة الأولى بتنظر للحياة من منظور الحق و الباطل؛ يختاروا الحق، و يسيبوا الباطل دون الأخذ في الاعتبار إن كان القرار هيجلب المنفعة أو الخسارة.. المجموعة التانية بتاخد قرارتها في الحياة بناء على المصلحة و الضرر، بيختاروا اللي فيه المصلحة و يسيبوا اللي فيه الضرر من غير تفكير في إيه الصح و إيه الغلط.. المجموعة الأولى ممكن تسمّيهم مثاليين، و التانية تسميهم النفعيين.. لكن الحقيقة، أنا باعتبر المجموعة الأولى ناس حمقي، و التانية ناس حقيرة..
- و والدك طبعا من المجموعة الأولى، و هو ده سبب مشكلته..

ابتسم حازم ساخرا

- أبدا.. اللواء أحمد شاهين مالوش أي علاقة بالمثاليين على الإطلاق..
- أمّال إيه؟ تقصد انه من النفعيين! اسمح لي أعترض..
- اصبري عليّا يا إيلي.. ممكن تسمحي لي أخلص الأول..

- اتفضل..
- كنت بقولك ان البني آدمين بيتقسموا عموما بالطريقة دي لمثاليين و نفعيين.. لكن مش كل البني آدمين تنطبق عليهم التقسيمة دي بالظبط.. فيه، زي ما تقولي كده، تفريعات و تنويعات للمجموعتين دول.. فيه مجموعة مثلا عبارة عن ناس بتمشي في الدنيا بالأدب و الأخلاق و الإنسانية و بتعترف بالحق و تنكر الباطل عموما، لكن في أوقات معينة، لما المصلحة تبقي طاغية، أو الضرر عظيم، بيكون عندهم المرونة و الاستعداد لغضّ الطرف عن المثاليات.. و دول ممكن يطلق عليهم لفظ العقلاء.. انت مثلا يمكن تصنيفك من النوعية دي..
- مش معقول! ما كنتش اتخيل أبدا ان ليك وجهة نظر إيجابية عني..
- كوني ما بحبكيش و ما باحترمكيش يا إيلي ما يمنعنيش من إني أعترف بذكائك و برُقيك العام.. بس لازم أضيف ان وجهة النظر دي كانت قبل ما تدمني الهيروين و تمشي على حل شعرك.. اعفيني من اني أقول وجهة نظري فيكي دلوقت.

حدجته بنظرة كارهه.

- طول عمرك همجي و جلياط.. المهم، اتفضل كمّل..
- فيه تفريعة تانية.. دول بقي ناس زي المجموعة التانية، اختياراتهم بتكون مبنية على مصالحهم؛ لكن على عكس المجموعة التانية، اللي بيعترفوا ما بينهم و ما بين نفسهم بنفعيتهم، المجموعة الرابعة دي بيعملوا عملية غسيل مخ ضخمة لنفسهم.. بيقنعوا نفسهم ان خياراتهم النفعية هي فعلا انحياز للحق. بعد كده يدافعوا عن أفعالهم و يبرروها، بل و يروجوا لها في المجتمع، و يصوروا للناس ان إصرارهم عليها ما هو إلا انحياز و تضحية منهم عشان الحق.. و هنا تكمن الكارثة، ألا و هي تشويه مفهوم الحق و الباطل عند الناس..
- يعني الناس هتصدق حاجة تخالف عقلها؟

- الأكاذيب فعلا بتكون معارضة للعقل و المنطق و المبادئ الفطرية عند البشر و عشان كده المجموعة دي بتلجأ دايما للأساليب العاطفية.. أشهر طريقة هي توظيف الدين أو الوطنية لتبرير أفعالهم النفعية. أفعالهم المنحرفة تتحول لثوابت، بل و تصبح هي الأساس و المعيار للتمييز بين الحق و الباطل في أي حاجة بعد كده.. المجرمين اللي في المجموعة دي أنا بأسميهم الأفاقين..
- و عاوز تقولي ان أبوك واحد منهم!
- مشكلة ابويا الحقيقية، زي مشكلة ملايين المصريين اللي من الجيل بتاعه، إنهم ضحايا المجموعة الرابعة دي.. أبويا بينتمي للجيل اللي خضع للأفاقين دول، الجيل اللي سمعوا الخدعة و صدقوها..
- الخدعة؟
- أيوه، الخدعة اياها ان مصر أم الدنيا و ان الخونة و الأعداء بيحاربوها طول الوقت عشان خايفين تبقي سيدة العالم..
- أنا مش فاهمة حاجة..
- أي نظام حاكم عشان يخلّي كل الشعب وراءه – و في نفس الوقت عشان يقدر يخوّن أي معارضة – بيساوي بين نفسه و بين الوطن.. كل حاجة بيقترحها و يعملها بتبقي عشان الوطن و أي حاجة تانية يقول عليها أي تيار سياسي آخر بتبقي ضد الوطن.. لو نجح يبقي الوطن كله نجح، و لو فشل، على طول يعلق فشله على شماعة الخونة أعداء الوطن و عملاء الخارج..
- إيه علاقة ده بوالدك؟
- أبويا من جيل بيعبد حاجة اسمها مصر، هو ما يعرفش هي إيه، لكنه بيصدق دايما اللي بيتكلم بإسمها.. الجيل ده فاكر انه مترهبن في قدس أقداس مصر، في حين انه في الحقيقة بيعبد الحكومة اللي جعلت من نفسها مرادف للبلد و الوطن، و بالتالي أعطت لنفسها المشروعية في تشكيل فكر و وجدان الشعب بالطريقة اللي في صالحها: اللي الحكومة عاوزاه هو الحق و اللي ضدها هو الباطل.. و النتيجة طبعا جيل عنده خلل كبير في التمييز بين الحق و الباطل..

- و يا تري ده سبب كافي يخليك تكره باباك؟ مش المفروض انه كده بقي ضحيّة؟
- مغفّل أيوه، ضحيّة لأ.. و طبعا لازم اكرهه. ازّاي احب واحد اتحوّل لسفاح، قاتل ما يرمشلوش جفن و لا يقلق له نومة حتى لو قتل ملايين.. كل شيء مقبول، ما دام لمصلحة الكائن الخرافي اللي اسمه مصر.. الكارثي في الموضوع، إن بابا، و بانتمائه للجهاز الشرطي، بقي جزء لا يتجزأ من الكائن الخرافي ده.. الكائن اللي على حق دايما..
- يعني إيه؟
- يعني بقي بيفكر بنفس طريقة تفكيرهم و بيتصرف بنفس تصرفهم.. طريقة التفكير اللي بتؤمن بالمصلحة العليا و ما بتسمحش بالاختلاف. الشيء اللي بيعتقد انه الصح و فيه المصلحة بيصبح زي الدين و العقيدة، و لأجل تحقيقه، أي شيء آخر يهون، حتى لو كانت روح إنسان..
- مش شايف ان دي مبالغة..

بدا التردد على حازم لوهلة، لكن مشاعر غاضبة مدفونة منذ الأزل طفت إلى السطح و أجبرته على الكلام

- من تسعتاشر سنة، أيام المراهقة، كان ليّا صاحب أنتيم: نذاكر مع بعض، نسافر جوه و بره مصر، رحلات كروز و سفاري مع بعض، نسمع هارد روك و نشرب بيرة و ندخن هاش مع بعض.. أبويا طول عمره مشغول و مش فاضي لي أساسا، لكن لما لاحظ كتر سفري و قعادي بره البيت، قلق، و قرر انه يراقبني.. عرف أنا باقضّي الوقت ازّاي مع صاحبي، و كما المتوقع حصلت له صدمة. واجهني و قال لي إنه شايف ان صاحبي ده هيضيّعني و يدمر مستقبلي، بل و قالي انه متأكد انه شاذ و هيخليني انحرف معاه – و ده كذب بيّن بالمناسبة. المهم، حذرني مرة و اتنين و انا رفضت، و في الآخر سيبت البيت و رحت قعدت عند عيلة صاحبي... عارفة

ابويا الوطني، اللي شايف ان كل حاجة بيعتقد فيها هي الصح المطلق، عمل إيه؟

- إيه؟
- في يوم كنت واقف مع صاحبي قدام بيته و فجأة جت عربية سريعة خبطته و قتلته في ساعتها.. عارفة مين اللي كان سايقها؟ اللواء أحمد شاهين ذات نفسه..

فغرت إيلين فمها في ذهول. صمت حازم لبرهة و قد أدرك أنه تفوّه بأكثر من المسموح. لم يكن متأكدا من السبب الذي جعله يقول ما قال: أهو قول الحقيقة فعلا، أم تراه يبرر لنفسه مشاعره العدائية العنيفة تجاه والده. متضايقا من نفسه، قام متمشيا في بيت النباتات أملا في تبديد بعض من توتره.. دار إلى إيلين فجأة، موجّها سبابته إليها في تحذير.

- ما اوعدكيش ان مغامراتك الجاية هتعدي على خير.. حتى لو كنت باكره ابويا، فمعنديش استعداد اني ابقي قُرني مرة تانية.
- مفهوم.. اعتبر علاقتي بأشرف محجوب انتهت للأبد.. أنا زي ما بتقول، إنسانة عاقلة و واقعية، و اعرف امتي enough is enough.. بس خليك عارف، أشرف محجوب إنسان مجنون، و مش هيسلّم للأمر الواقع بسهولة..
- سيبيه ليا و انا كفيل بيه..

قامت من كرسيها، و يممت ناحية الباب ناوية الخروج.

- ممكن اسألك انت أنهي واحد من المجموعات دي؟
- و لا واحدة.. أنا شخص ما يفرقش معاه حق من باطل و لا مصلحة من ضرر..
- يعني إيه؟ زاهد في الدنيا و الآخرة..

حدّق فيها و قد أذهله ردّها، أدار لها ظهره في ضيق

- أظن الحوار اللي بينا انتهى..

انصرفت إيلين و أغلقت باب بيت النباتات وراءها و قد طار تأثير الهيروين من عقلها تماما.. نظرت خلفها إلى المبني الزجاجي و تساءلت في حيرة إن كان صاحبه شيطان حقيقي، أم مجرد ضحية طار عقلها من الجنون..

عادت إلى داخل الفيلا و قد قررت أن تنسي كل ما سمعته من ابن زوجها.. صحيح أنها تعلم أنها لا تعيش مع ملاك، و صحيح أنها على علم بقسوة زوجها و شدته في عمله، لكنها لم تكن تريد أن تعرف أو تفكر في المدي الذي وصلت إليه وحشية من ملّكته حياتها..

انطلقت تصعد الدرج ناحية السندرة و عقلها لا يفكر إلا في شيء واحد: جرعة أخرى تستعيد من خلالها صفاء ذهنها مرة اخري و لتنسي كل الهراء الذي أُلقي على مسامعها..

كانت تنزع غطاء صندوق اللعب، و تلتقط الدمية في لهفة، و لا يدور في عقلها إلا سؤال واحد: تري، هل سيعود نسيم عادل و ذكريات صيف ١٩٨٩ مع الجرعة الجديدة؟

يا ليت..

❋٥❋

في شارع جانبي متفرع من شارع جسر السويس - على الضفة المقابلة لموقف ألف مسكن - يقع منزل عائلة طارق عبد الهادي.. مبنى سكني بُني مطلع خمسينات القرن الماضي؛ الدور الأرضي تشغله ورشة خراطة كبيرة كانت، و لعقود طويلة، مصدر رزق العائلة و لبنة الأساس للمبني السكني الذي ارتفع لثلاثة أدوار أخرى.

فقبل أربعة وستين عاما استقر ابن البحيرة النازح، الحاج عبد الله السياف، الرجل التقي والخرّاط الطموح، في هذه المنطقة، القليلة السكان و العمران آنذاك. هنا تزوج و أنجب و عاش ستين عاما من الجد و التعب و السعادة، قبل أن يموت راضيا هانئا على سريره و وسط أبنائه و أحفاده.

آلت ملكية المنزل إلى ولديه: الباشمهندس عبد الهادي، والد طارق - المدير العام في مصلحة مياه الشرب و الصرف الصحي - و أخيه المحاسب عبد الراضي. عائلة عبد الهادي تقطن الدور الثاني، و عائلة عبد الراضي في الدور الثالث، أما الدور الأول فتتربّع فيه الأم و الجدة، 'حاجة أحلام'، بركة البيت و حافظة أسرار الأسرة.

الباشمهندس عبد الهادي إنسان نادر، من القلائل الذين يقابلهم المرء فيري أعمالهم مصداقا لأقوالهم: متفاني في عمله، متديّن، يحافظ على الصلوات في المسجد، مخلص أمين، و صبور تجاه زوجته و أبنائه. يتحمّل المسئولية بصدر رحب، لا يتذمر منها أبدا. تزوج مبكرا من زميلته في الكلية (و التي استقرت في البيت بمحض إرادتها بعد مكابدة العمل و المواصلات لإحدى عشرة سنة كاملة)، أنجبا ثلاثة أبناء: طارق، الطبيب و الجراح؛ سالي، الصيدلانية؛ و كريم، طالب الهندسة و مبرمج لغات الكومبيوتر.

الأخ المحاسب، عبد الراضي، بدأ حياته الزوجية في المنزل كذلك، لكنه، و بسبب انعدام فرص العمل المجزية ماديا في البلد، اضطر إلى السفر للكويت،

و هناك قضي الجزء الأكبر من حياته العائلية. المحزن في الأمر أنه عندما عاد أخيرا منذ ثلاث سنوات، لم يكد يمر عليه العام حتى افترسته هجمة مباغتة من الالتهاب السحائي. إن هي إلا خمسة أيام من المرض، توفي بعدها، تاركا وراءه أربعة من النسوة: أرملة في الخامسة و الأربعين و ثلاث بنات، أكبرهن أنهت الجامعة و أصغرهن في الثانوي. و كما المتوقع، لم يتردد الباشمهندس عبد الهادي في تحمل مسئولية رعايتهن ، بل و رحّب بها في استعداد تام. (كانت عائلة عبد الراضي - بفضل السفر - مكتفية ماديا، مما سهّل المهمة على عبد الهادي، فاقتصر دوره على الرعاية و الحماية، و القيام على بعض مصالحهن الصعبة.) و بفضل جهود عبد الهادي و تصميمه، أصبحت العلاقة بين عائلته و عائلة أخيه المتوفي – سواء بين سيدتي المنزل أو بين الأبناء – ممتازة، و الجميع تجمعهم روح من المرحمة و الحب: يتبادلون الزيارات الأسبوعية و يتشاركون النشاطات الاجتماعية المختلفة، من أعياد ميلاد و خدمة الجدة، وصولا إلى التنزّه و السفر سويا خلال الإجازات.

في العموم، كان جناحي أسرة آل السياف يعيشون معا عيشة، متواضعة بعض الشيء، لكنها راضية هانئة.

****

على مائدة العشاء، يلتقي آل عبد الهادي في ميعاد يومي مقدس، لا يخلفه أحد إلا للشديد القوي، مثل سفر الباشمهندس عبد الهادي في مأمورية إلى الصعيد أو الدلتا، أو نوبتجية لابنه طارق في المستشفى. غير ذلك الكل موجودون، يجترّون ما سبق من أحداث اليوم في جو من المرح و الودّ، يتخلله عبارات الإطراء و المواساة و المشورة الحسنة.

لكن طارق لم يندمج اليوم مع عائلته في حواراتهم المعتادة. كانت إهانة الصباح لاتزال عالقة في ذهنه، و لم تكن به رغبة في الحديث عن الموضوع و فضح نفسه، و من ثمّ الجلوس مهانا منكسرا أمام نظرات الشفقة في عيون أبويه و إخوته الأصغر منه سنا. لذا، اكتفي بتناول طعامه في صمت، سارحا في الحوار الذي دار بينه و بين حازم على مقهي العباسية.

انتظر حتى انتهى الجميع من تناول وجبة العشاء و ما تخللها و تلاها من حكايا و مسامرات. أخيرا، و بعد أن انصرف كل حيّ إلى حاله، قام طارق خلف أبيه إلى حجرة الصالون، حيث يشرب شاي المساء أمام التلفاز. أغلق طارق الغرفة من خلفه، ثم جلس أمام أبيه متأدبا.

- بأقولك، يا بابا..
- خير يا دكتور..
- أنا محتاج الورشة.. ورشة جدي المقفولة.. محتاجها في مشروع..

تهلل وجه أبيه

- إيه؟ أخيرا هتفتح عيادة..
- آمم.. الحقيقة لأ، مش عيادة.. العيادة هاصبر عليها شوية، زي ما قلت لك قبل كده.. يعني سنتين تلاتة..

تسرّب السرور من وجه الباشمهندس عبد الهادي، أسند ظهره إلى الكرسي، و أمسك كوب الشاي، يرشفه في ترقب.

- أمّال عاوز تعمل ايه بالورشة؟
- هاقلبها مكتب..
- مكتب إيه؟
- حاجة لعبة كده..
- لعبة!

نظر الأب إليه مستفهما، منتظرا الإيضاح، لكن تحرّج طارق الفطري عند المواجهة، بالإضافة لتوقعه لردّ فعل أبيه الغير إيجابي، ألجم لسانه. متلعثما، قال

- انت عارف يا بابا حكاية نادي القراءة اللي انا عامله مع شلة صحابي و كده..
- آه.. انت و شلة القرّاء اللي بتجتمعوا مرة في الشهر في الورشة..

- أهو أنا عاوز اعمل حاجة زي دي، بس هتبقى كل يوم..
- إيه؟ يعني كل يوم تلمّ صحابك و تقعدوا ترغوا في الكتب و بس! إيه ضياع الوقت و العمر ده يا ابني؟ ثم إن ده يعني ما اسموش، و لا مؤاخذة، مشروع..
- ماهو يا بابا مش كده بالضبط...
- أمّال ايه؟ خلصني يا ابني و اتكلم دوغري.
- فاكر لما قلت لك ان النادي بتاعنا متخصص في روايات الغموض و التحقيقات و التحرّي
- أيوه، الألغاز اللي بتقروها...
- بس ما تقولش ألغاز، عشان الكلمة دي سمعتها وحشة في عالم القراءة..
- خلّصني يا ابني، المهم..
- حاضر.. أنا، و زميلي في الكلية و صديق عمري، الدكتور حازم شاهين
- بتاع البنج..
- أيوه، دكتور التخدير.. دي كانت هوايتي أنا و هو في الأول بس، بعد كده بقي يحضر معانا زملاءنا و معارفنا المهتمين باللون ده من الأدب... نقرأ رواية معينة و نقعد نحلل فيها و في أسلوب البطل (اللي بيبقى يا رجل شرطة، يا محقق خاص، يا المجرم ذات نفسه) و نقعد نقول هنا صح و معقول، و هنا أخطأ، و هنا المؤلف كروت و هنا دلّس و غشّ، و كدا.. بمرور الوقت، و على مدار خمستاشر سنة، خلّصنا أكتر من ١٥٠ رواية من عيون أدب الجريمة و الأدب البوليسي.. طبعا، أصبح عندنا خبرة بطرق التقصّي و الاستنتاج و التنبؤ، ناهيك عن الطب الشرعي و اللي عندنا معرفة كويسة عنه بفضل الدراسة في الكلية..
- و بعدين؟
- أيوه يا بابا، ما انا جاي لك اهه.. المهم، عشان نتحدى ذاتنا و نعرف درجة احترافنا، و كهواية برضه مش أكتر، بدأنا أنا و حازم

ندوّر على الجرايم الحقيقية في الجرائد و بقينا نحلّها لوحدنا.. أنا عن طريق البحث في الجرايد و الإنترنت و الكتب، و حازم، الأكتر حيوية و نشاط، عن طريق النزول لموقع الجريمة.. و عاوز اقولك يا بابا، إننا فعلا قدرنا نحل خمس جرايم حقيقية، تلاتة منها البوليس عمره ما اتوصّل لحلها..

- و إيه علاقة القصة دي كلها بالمشروع اللي انت عاوز تفتحه؟
- ما هي الهواية دي يا بابا عاوزين نستغلّها.. إحنا عاوزين نفتح مكتب تحرّي..

حملق والده في ذهول لوهلة، ثم انفجر في ضحكة صاخبة طويلة تتنافى مع وقاره المعتاد، حتى أن الشاي تطاير من فمه إلى كل أنحاء الغرفة.

- إيه يا بابا، انت بتضحك على إيه؟

ماسحا فمه في كم جلبابه، و مسيطرا على نوبة الضحك بصعوبة شديدة، نظر الباشمهندس عبد الهادي إلى ابنه هازئا

- يعني مش عيب بعد كل سنين الدراسة دي، و ماجستير و دكتوراه، لأ و بتدرّس لطلبة كمان، و لسه عايش في جو الخيال اللي كنت عايش فيه و انت عمرك عشر سنين..

خفض طارق رأسه مبديا التحرّج و الضيق من والده، و إن ابتسم في سرّه: فردّ الفعل لم يكن انفجاريا غاضبا كما توقّع.

- عاوز اعمل حاجة مختلفة شوية يا بابا، أنا اتخنقت من الحياة المملة اللي انا عايشها..
- طب يا أخي ما تفكر في حاجة مفيدة تعملها..
- ما تقولّيش افتح عيادة أو سافر أو اتجوز... احنا اتكلمنا في الحاجات دي مليون مرة قبل كده.. أرجوك ما تجبرنيش اعمل حاجة أنا مش عاوز اعملها..

ساد الصمت بينهما للحظات

- خلاص يا طارق... انت عارف اني عمري ما أجبرتك على حاجة.. مش هاجي و انت عمرك أربعة و تلاتين سنة و اعلمك الصح و الغلط.. انت حر..

مُمتنّا، و دموع الراحة في عينيه، قام طارق و قبّل يد والده

- شكرا يا بابا.. ده العشم برضه..
- بس، طبعا تطلع تستأذن مرات عمك و بناته، و تنزل تستأذن جدتك.. انت عارف ان البيت ورث الكل..
- مفهوم يا بابا..
- و طبعا لو المشروع ده نجح، يعني لو حصلت المعجزة و جاب فلوس، لازم الورثة كلهم يكون ليهم نصيب من الربح..
- حاضر يا بابا..

كان يبدو التردّد على طارق للتكلم في نقطة أخرى

- و بالنسبة لماكينة الخراطة..

ثائرا، وضع الأب عبد الهادي كوب الشاي في قوة

- ماكينة الخراطة القديمة بتاعت جدك ما تتنقلش من مكانها..
- ازّاي بس يا بابا.. فيه مكتب تحرّي يبقي فيه ماكينة خراطة..
- انت هتستعبط... هو فيه حاجة أصلا اسمها مكتب تحرّي.. الماكينة دي ذكرى عزيزة عليّا من أيام المرحوم ابويا، ناهيك عن إني بنفسي اشتغلت عليها و انا صغير.. اتصرّف و إلا اعتبر الموضوع لاغي من غير نقاش..

مدركا أنه لا سبيل لزحزحة أبيه، قام طارق من مكانه مستأذنا. تطلّع إليه الأب لائما في ودّ..

- طب ما تدّي نفسك يا ابني فرصة تفكر في حاجة مفيدة الأول..
- دي يا بابا مغامرة، مش أكتر.. سيبني اضيّع وقتي فيها شهر و لا اتنين، و لو ما ممشيتش معايا، هازهق و اسيبها لوحدي..

شيّع عبد الهادي خروج ابنه من الحجرة بنظرات ملؤها الشفقة و الحزن. رشف ما تبقي من شاي، و قلبه يدعو لابنه بالهداية و رجاحة العقل.

[illegible]

أورهان

٦

لم يكن طارق عبد الهادي يتخيّل أن تكلّفه عملية تحويل الورشة إلى مكتب كل هذا الوقت، و لا أن تستنزف ماله و جهده إلى هذه الدرجة.. شهر كامل من المشقّة قضاه طارق في ملاحقة العمال الكسالى و المتغيبين دوما، و في القيام بنفسه بالمشاوير العديدة تلبية لطلباتهم التي لا تنتهي؛ إضافة إلى التكاليف المالية الباهظة التي تجاوزت الميزانية المبدئية التي رصدها لهذا المشروع (بالأساس من جيبه الخاص، لكن حازم شارك أيضا بحصة مالية لا بأس بها).

و أخيرا، استطاع أن يحوّل الورشة القديمة الخربة إلى مكتب مقبول التشطيب و الأثاث. البوابة الحديدية للورشة أُغلقت و بُني مكانها حائط من الطوب الأحمر، و استبدلت كمنفذ بباب خشبي يفضي إلى مدخل البيت بدلا من الشارع. أما الورشة ذاتها، فتمت تخليتها من الكراكيب القديمة و تقسيم مساحتها الكبيرة إلى أربع حجرات: حجرة استقبال صغيرة، تفضي إلى حجرة أكبر هي حجرة المكتب الرئيسية، إضافة إلى الحمام و حجرة الأرشيف (و التي لا تحتوي إلا على ماكينة الخراطة القديمة).

بعد تجهيز المكان كانت مهمة اختيار اسم للمكتب و من ثمّ الدعاية و الإعلان عن نشاطه التجاري.

لضغط النفقات و لحسن استخدام المال في الدعاية، استقر رأي الصديقين على التركيز أولا على فئة واحدة من العملاء؛ و من كل الفئات التي قد تستفيد بنشاط المكتب الحصري، استقر رأيهما على فئة الأجانب. أولا، لأن الأجانب، خصوصا الغربيين، هم أصحاب القابلية الأكبر للمجيء إلى المكتب (لوجود ثقافة المحقق الخاص في أمريكا الشمالية و بلدان أوروبية عدة) و ثانيا لأن استهدافهم سيكون الأقل جذبا للانتباه و بالتالي للمشاكل، ذلك لأن استهداف الزبون الأجنبي معناه تفادي الاعتماد على اللغة العربية

في الإعلانات، و من ثمّ تأخر اكتشاف السلطات الحكومية لوجود المكتب بالأساس (و بالتالي إبقاء نشاطه بعيدا عن الأنظار، على الأقل في الفترة الأولى).

و بناءً عليه تم الاستقرار على اسم يداعب خيال الأجنبي الزائر:

‘King Tut Investigations’

أما بخصوص الجهود الإعلانية، فقد كانت متواضعة إلى حد بعيد: لوحة نحاسية صغيرة باللغة الإنجليزية، و فقط على باب المكتب الداخلي (تفاديا للعيون الفضولية)، أما الإعلانات فكانت إلكترونية فقط وتم اقتصارها على الفيس بوك، و موجهة بالأساس إلى رعايا البلدان الأجنبية الأكثر سفرا و سياحة في مصر، مع اختيار كلمات تأثير و تتبّع (tags) مثل ’السياحة في مصر‘، ’الإقامة في مصر‘، ’مشكلة في مصر.‘

أما شعار المكتب فكان واعدا، لكن بدرجة معقولة من الغموض و الضبابية.

"مكتب الملك توت للتحقيقات يرحّب بالأجانب السائحين و المقيمين في القاهرة لحل المشاكل التي لا تجدون مخرجا لها عند الجهاز الشُرَطي و القضائي في مصر. نحن على خبرة كبيرة بالقاهرة، و نستطيع أن نحل مشاكلكم العويصة في البحث و التحقيق داخل العاصمة المصرية."

و ممتلئا بالحماس و الأمل انتظر طارق، في حين تظاهر حازم بالاهتمام.

لكن، و لمدة شهرين متتاليين لم يطرق زبون واحد باب ’مكتب كنج توت للتحريات.‘

و نظرا للجهد الكبير الذي بذل فيه، كانت النتيجة محبطة للغاية بالنسبة لطارق. لكن حازم، و الذي لم يكن متحمسا للمشروع من البداية، بل و لم يوافق عليه أصلا إلا إرضاءً لنزوة صديقه، لم يمثل فشل المشروع بالنسبة له مشكلة حقيقية.. لم يكن مثل طارق، الذي تمادي في الإنفاق ماديا و بذل جهدا كبيرا في تجهيز المكتب، و بالتالي أفرط في الحماس و الانغماس العاطفي

في المشروع. كان طارق يحلم بنجاح المشروع، بل و يراه واقعا يكاد يتحقق، في حين كان حازم كعادته برجماتيا متشائما، بل إنه، و بعد نوبة تعاطف قصيرة، سرعان ما انقلب إلى نقد طارق و الاستهزاء به لأنه جرّهما إلى هذا المشروع الخيالي.

لكن و مع مرور الوقت و انعدام الزبائن، اختفي نقد حازم و تذمره. هذا لأن طارق عبد الهادي نفسه كان قد فقد الكثير من الحماس المفرط في الإيجابية و لم يعد يتكلم عن المكتب على الإطلاق. يكفي دليلا على يأسه أنه قرر عدم تجديد إعلانات الفيس بوك، بل و في نوبة ضيق قرر أن ينزع لوحة المكتب النحاسية في أقرب فرصة.

بل إن القنوط بلغ به مبلغا جعله يفكر جديا في السفر للعمل في السعودية، أو الانصياع إلى إلحاح أمه المتكرر بشأن الارتباط بابنه عمه الكبرى (و التي لا يحبها، بل و لا يطيق الجلوس معها أصلا).

و لربما تحولت هذه الأفكار إلى أفعال لو لا تلك الزيارة المفاجئة، مساء ذلك الثلاثاء الشديد الحرارة، الموافق الثامن من يونيو. فحوالي الساعة السابعة مساءً، رنّ هاتف الإنتركم (المثبّت أمام باب المكتب، و الموصّل بغرفة طارق في شقة الدور الثاني)، وذلك للمرة الأولى خلال خمسة و ستين يوما.

و بسرعة نزل طارق ليقابل عميله الأول: رجل شرقي الملامح، أجنبي الهيئة و الملبس، ممتلئ، أحمر الوجه، شعره أسود ناعم غزير و له شارب كثّ، في أواخر الأربعينات من العمر على الأكثر.

مدّ الأجنبي يده مصافحا، ثم عرّف نفسه مباشرة:

- اسمي أورهان حقّي.

****

متحمسا، تغمره أحاسيس فياضة من النشوة و الترقب، هرع طارق إلى باب المكتب يفتحه في لهفة. دلف إلى المكتب في خرقه المعتاد، متعثرا في سجادة

حجرة الاستقبال، ثم متخبطا يبحث عن زر الإضاءة؛ و عندما وجده أخيرا، هاله المنظر الشنيع للحجرة، فالتراب في كل مكان، ناهيك عن بواقي وجبة بيتزا تعشّيا عليها هو و حازم في آخر مرة زاره فيها.

محرجا متوترا، و متعثرا في سجادة حجرة الاستقبال مرة أخرى، أخذ طارق الزبون إلى الحجرة الرئيسية. جذب له كرسيا، و أجلسه، ثم دار ليجلس خلف المكتب الخشبي الرخيص.

قبل أن يستقر في جلسته، هبّ واقفا مرة أخرى

- تشرب إيه يا فندم؟

هزّ الرجل رأسه في تؤدة

- لا أريد شيئا.. شكرا..

قالها بعربية سليمة، شاميّة اللهجة؛ لكن أُذن طارق التقطت نشازا ما.

- أهلا و سهلا، أستاذ حقي مش كده؟
- حقّي..

أعاد اسمه ناطقا حرف القاف مشدّدا بوضوح.

- حضرتك منين؟ سوريا و لا لبنان؟
- أنا تركي.. من أزمير، أخي..

اتسعت ابتسامة طارق في سذاجة: كان الرجل غير عربي، و كان هذا مما أطرب قلبه.. فطارق، و الذي لم يسافر يوما خارج مصر، كان لديه دوما ظمأ و لهفة لرؤية أي أجنبي؛ كيف لا و هو القارئ المطّلع، المبهور دوما بالحضارة و الثقافة الغربية ..

لحظة، هل يعتبر الأتراك غربيين حقا؟

قطع الرجل خيالات طارق الجامحة.

- هل نستطيع أن نتكلم مباشرة في الموضوع، فأنا مستعجل بعض الشيء..
- اتفضل..
- الحقيقة يا أستاذ.. معذرة، أنا لا أعرف اسمك.
- أنا اسمي طارق.. دكتور طارق عبد الهادي..

بدا على الرجل الاستغراب من لقب طارق، لكنه تجاوز تعجّبه سريعا..

- أنا صحفي و باحث و لي عدة كتب في بعض المسائل التركو-عثمانية في منطقة الشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر و العشرين.. لن أشغل وقتك كثيرا بالتفاصيل و سأدخل في الموضوع مباشرة..
- اتفضل..
- في أثناء بحثي الحالي، وصلت إلى نقطة محورية مهمة، و لتمحيصها كان لابد لي من الحضور إلى مصر و البحث عن مذكّرات شخص معين، باشا مصري توفي عام ١٩٣٦. حضرت إلى القاهرة منذ شهر و بحثت عن عائلة الرجل و نسله، لكني لم أفلح في التوصل إليهم. لجأت إلى وزارة الثقافة المصرية، و إلى العديد من الباحثين المصريين و أساتذة التاريخ، بل و ذهبت إلى وزارتي الداخلية و الخارجية للبحث عن أي أثر أو معلومة عن عائلة الرجل (لك أن تتخيل طبعا كم الوساطات التي احتجت إليها و الأموال التي دفعتها)، لكني، و برغم كل تلك الجهود، لم أصل إلى أي شيء ذي قيمة. أمامي خيط أخير، و لو لم أتوصّل من خلاله لشيء، سأسافر و أستكمل أبحاثي في مكان آخر.

كاد طارق أن يتدخل معلقا، لكن التركي المتعجّل، أكمل بلا توقّف

- بالأمس كنت أتصفّح الإنترنت، و بالصدفة وجدت إعلانكم أمامي.. أكاد أوقن أنكم لن تتوصلوا لشيء لأني بالفعل طرقت

كل الأبواب.. لكن أظن أنه ما من ضير من الاستعانة بكم.. ربما، و لو لواحد في الألف، استطعتم أن تفلحوا في ما لم أفلح فيه.

أخرج من جيبه ورقة مستطيلة صغيرة، خُطّ عليها بضعة سطور بحبر أحمر. أشار بسبابته على الورقة

- هذا الجزء يحوي اسم الباشا المصري الذي أبحث عن عائلته، و هذا عنوان آخر مسكن معروف للعائلة: كان فيلا كبيرة أو قصر في جزيرة المنيل و الروضة، لكنه هدم منذ ثلاثين عاما و صار الآن عمارة ضخمة شاهقة.. و هنا اسمي و رقم هاتفي و بريدي الإلكتروني للاتصال بي إن توصلتم إلى أي شيء..

تناول طارق الورقة و تطلّع إليها في غير تركيز، و قد أغرقته التفاصيل التي سردها الباحث بسرعة .

قام التركي ذو الوجه الأحمر واقفا، ثم أخرج محفظته. تطلّع إلى طارق الذي بادله نظراته المستفهمة..

- أيوه.. حضرتك عاوز تدّيني حاجة تانية غير الورقة..
- مقدم الأتعاب... كم سيكون؟
- آه.. اللي تدفعه..

حملق الرجل في وجه طارق مستغربا رده، لكنه سرعان ما أخرج ثلاثمائة دولار، دفعها كعربون، ثم انصرف دون كلمة أخرى.

تحت وطأة انفعالاته المتحمسة المتوترة، لم يدرك طارق عبد الهادي ما قد حدث للتو، و لا حتى استوعب تماما حجم المهمة التي كلفه بها الرجل التركي و صعوبة إتمامها؛ كل هذا لم يكن ليشغل باله وقتها.. المهم أنه حصل على زبونه الأول، و الأهم هو أن يهرع إلى التليفون ليتصل بحازم شاهين، و يخبره عن زبونهما الأول.

٧

الأربعاء ٩ يونيو ٢٠١٠

وقف أمام المرآة منتصبا مهيبا، مشّط ما تبقي من شعره الأشيب الشحيح، ثم نزل بالفرشاة ليمشّط شاربه العظيم..

تطلّع الرجل الستّيني للمرآة و أكمل ارتداء ملابسه بطريقة أتوماتكية، في حين سرح باله في رحلته الذهنية المعتادة. اجترار سريع لأحداث الأمس و الأيام السابقة، مراجعة المهام التي أنهاها و ترتيب المهام اللاحقة، مع التركيز على تلك التي تحتاج انتباهه بشكل عاجل و جدولة كل ما عداها لوقت آخر.

و كثيرا ما ينتهي قطار التفكير إلى محطة المراجعة السريعة لحياته عموما، بإنجازاتها و إحباطاتها.. و دوما و حتما يحرص على أن ينتهي التقييم إلى نتيجة إيجابية، تمنحه حالة من الرضا عن النفس و تساعده على مواجهة صعوبات الحياة و المثابرة و الصمود ليوم آخر.

لكن أحيانا، و بالرغم منه، تقتحم تفكيره تلك 'المشكلة البغيضة'، فيتعكر مزاجه و تحتشد المشاعر السلبية الجياشة في صدره، فيرتفع ضغطه و تضطرب ضربات قلبه في انفعال.. و بدون إدراك منه يتحول تفكيره المادي العقلاني بغتة إلى آخر ما ورائي غيبي. و بما أن مصدر تلك الأفكار البغيضة المؤلمة هو ابنه، فليس بالإمكان التفكير بأي طريقة منطقية أو عقلية. كيف لا و قد سلك معه كل سبيل، أسدي إليه كل نصيحة، و جرّب معه كل طرق التربية، ناعمة كانت أو قاسية؛ و برغم كل شيء، و طوال أربعة و ثلاثين عاما، هي عمر ابنه، لم يفلح يوما في تقويم هذا الوحش البري..

لقد استسلم منذ وقت بعيد.. استسلم منذ صار يؤمن إيمانا قطعيا أن هذا الابن ما هو إلا غضب من السماء عليه.

يتساءل يوميا عن المعاصي التي جناها في حياته ليكون جزاؤه هذا الابن العاقّ المجنون. ما هي تلك الذنوب التي اقترفها ليستحق هذا العقاب الشديد؟ و هل هي كبيرة عظيمة لدرجة أن تمحق أفعاله الخيّرة، الكثيرة و المتعددة الأوجه؟

إذ أنه بالفعل رجل خيّر من الطراز الأول.

لم يكن يوما ابنا عاقّا لوالديه، لا في شبابه و لا في نضوجه و لا في كهولته، بل إنه لبث إلى جوار أبيه و أمه، يخدمهما حتى الرمق الأخير من حياتهما. طوال حياته، كان أيضا الأخ البارّ، و الزوج الصالح، و المُعين لأقربائه و الواصل لهم باستمرار؛ ففي أيام العمل العادية، يبدأ اليوم بتوجيه سائقه الخاص للذهاب إلى حي الزيتون للمرور على أختيه (العازبتين إلى الآن)، السيدة فاطمة و السيدة عائشة، و اللتان تسكنان حتى الآن في منزل العائلة - شقة واسعة في عمارة بشارع طومان باي. يسلّم عليهما و يستمع إلى مشاكلهما و يحل ما استطاع منها، ثم يترك ما تيسّر من مال إلى خادمتهما ʼسوكةʻ (و التي يدفع أجرتها الشهرية منذ عيّنها في خدمتهما منذ عشرين عاما و حتى الآن).

أغلب الصلوات المفروضة، و برغم المشقة بالنسبة لمن في سنه و منصبه، يصليها في الجامع أو في المصليات الخاصة، التي بني بعضها هو بنفسه، في بيته و في أماكن عمله المختلفة. كما أنه وسط انشغاله اليومي لا يمكن أن ينسى أبدا ورده اليومي من القرآن و التسبيح - جزء كامل بالإضافة إلى مائة تسبيحة و صلاة على النبي - يقوم بها يوميا بعد صلاة العصر في الساعة التي تسبق القيلولة (و التي، تحت وطأة العمل، غالبا ما يقضيها في مقر مديرية الأمن).

و يكلل كل العبادات تلك العبادة الكبرى، ألا و هي إخلاصه في عمله كرجل شرطة لما يزيد على الأربعين عاما.. أربعة عقود من الإرهاق المقيم:

جهد بدني كبير، لم يعد جسده يحتمله كما سنين الشباب، بالإضافة إلى ضغط عصبي و معنوي مهول تنوء بحمله الجبال. كيف لا و هو كالجراح الذي يعمل ليل نهار مضطرا لقطع الأعضاء الملتهبة و المصابة بالغرغرينا؛ يضطر أن يتحمّل الحمل العصبي تجاه هذا الفعل الشنيع، بداية من مهمة إقناع المريض بضرورة هذه العملية الحيوية، مرورا بالسيطرة على نفسه و على المريض، و انتهاءً بالقيام بالعملية الشنيعة نفسها — و في نفس الوقت عليه أن يتحمّل صراخ و شتائم المريض المتألم.

عمل شنيع بغيض، يهرب الجميع منه تأفّفا و ترفّعا.. لكن الجراح لا يمتلك رفاهية التذمر أو الرفض.. إنه عمله، و عليه أن يقوم به، و لا بديل عنه للقيام بهذا المهمة القذرة، و إلا ضاع العضو المصاب و من بعده المريض ككل.

هكذا هو، يحارب المجتمع كله حتى يسيطر على الجزء الفاسد المصاب بالغرغرينا، ثم يحاربه مرة أخرى و هو يخلّصه من ذلك الجزء المصاب بالمرض. و للأسف آخر الأمر ينظر إليه من البعض كمجرد سفاح قاسي القلب، معدوم المشاعر..

صدق من قال أن مهنة الشرطة مهنة لا شكران لها.

لكنه يحتسب أجره عند الله.. الله يشكر و يكافئ كل مجتهد، و أمله الحقيقي في المكافأة الكبرى يوم الدينونة.

هزّ رأسه في تواضع و هو يتطلع لنفسه في المرآة، ثم لفّ ربطة العنق في هدوء.

لكنه عندما أمسك جاكت البدلة، تذكّر أن تفكيره لم يهديه بعد لمعرفة السبب الذي جعل منه مستحقّا لغضب الله عليه، أن رزقه بابن ملعون خبيث مثل ابنه.

وقف اللواء أحمد شاهين، مدير أمن القاهرة، متطلّعا إلى نفسه في ضيق و قد أعيته قلة الحيلة. هو شخص لا يترك المشاكل دون حلول جذرية، ثم إن أمامه يوم طويل لا يريد أن ينشغل خلاله بالتفكير في هذا الموضوع الكريه.

الهمني يا رب..

أخيرا، وضع الجاكت على كتفه مرتاحا و قد هبط عليه الحل من السماء: لا شك في أن ابنه اختبار من الله: بلاء مثل بلاء المرض لأيوب عليه السلام، أو الابن الكافر لنوح عليه السلام.. إنه بلاء لتمحيص الإيمان.

" أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين"

ابتسم اللواء أحمد شاهين في رضا و خفض رأسه في خشوع، ثم خرج من غرفته و هو يتمتم

- صدق الله العظيم.

****

مفعما بالدفقة الإيمانية التي توصّل إليها مع نفسه، توقّف اللواء أحمد شاهين عند رأس الدرج، و عاد أدراجه إلى الممر الواصل بين الغرف، ليتوقف أمام باب غرفة ابنه. اليوم هو الأربعاء - يوم لا يذهب فيه حازم إلى المستشفى؛ لا شك سيجده نائما، سيطبع قبلة أبوية على رأسه، داعيا الله أن يهديه (لعلها تكون ساعة إجابة) ثم ينزل لتناول الفطور و من ثمّ إلى ساقية العمل التي لا تتوقف.

فتح باب الغرفة ببطء حتى لا يوقظ ابنه: كانت الغرفة مظلمة بالفعل، لا ضوء للشمس و لا الضوء الكهربي، لكن بمساعدة النور المتسرب من خلف الستائر، استطاع أن يميز ظل ابنه الجالس على طرف السرير و المحدق في المطلق.

مد يده، فأشعل نور الغرفة.

- صباح الخير يا ابني.. انت صاحي؟

التفت حازم إليه في بطء و هدوء.. كان وجهه مثقلا بعلامات التعب و الأرق..

- صباح الخير يا سيادة اللوا..

مفعما بالإيمان و بمشاعر أبوية عطوفة تجاه مظهر ابنه المزري، تقدم اللواء شاهين و ربّت على كتف ابنه

- إيه؟ انت رجع لك الأرق تاني زي زمان؟
- ده العادي معايا يا باشا السنتين اللي فاتوا.. أيام و أيام..
- ياه، و انا ماعرفش.. طب يا ابني ما تروح لدكتور بيفهم في الحاجات دي، النوم و الأرق، تخليه يديك دوا و لا حاجة..

رد حازم ساخرا

- أروح لدكتور بيفهم؟ داحنا التخدير يا سيادة اللوا أكتر ناس تفهم في النوم ده.. عندي بدل الدوا ميت دوا..
- لا، لا.. ابعد عن أدويتكم دي اللي بتجيب إدمان.. مش كفاية انك اتحديتني و أخدت التخصص الزفت ده.. أرجوك ما تفكرنيش.. أنا جاي لك ربنا هاديني.. ما تخليش العفاريت تتنطط في وشي..

و خائفا من أن يخسر دفقة المشاعر الإيجابية في جدال عقيم، قام الأب و طبع قبلة سريعة على رأس ابنه، ثم اتجه إلى الباب. كان في طريقه لخارج الغرفة عندما دار قائلا على عجل

- على فكرة، النقيب أشرف محجوب كلمني امبارح بيتقدم لاختك.. أنا سألتها و هيّا وافقت.. و ممكن نعمل خطوبة على آخر الأسبوع.. ما تنساش تكلّمها تباركلها..

رفع حازم رأسه بغتة و حملق في والده. صاح في غضب

- الموضوع ده تشيلوه من دماغكم خالص..

و تفجّرت براكين الغضب الخامدة في لمح البصر، إذ عاد اللواء أحمد شاهين لداخل الغرفة و أغلق الباب وراءه مرة أخرى. اقترب من ابنه و قد تبخّرت من قلبه كل مشاعر الأبوة و الرفق، بل و حتى الإيمان..

- و انت مالك يا بعيد؟ انت مالك انا اوافق على مين و لا اختك تتجوز مين؟
- أشرف محجوب ده أفّاق و نصّاب و ماشي يلعب بديله..
- نصّاب مين يادا يا اهبل.. ده ابن اللواء صابر محجوب، و أمه زينب الدالي هانم، بنت عبد الحميد الدالي، رجل الأعمال الملياردير.. ثم بيلعب بديله إيه يا متخلّف، ده المساعد بتاعي في المديرية، و قدام عيني ليل نهار..
- بص يا باشا، هو ابن مين و قدام عينك بيعمل ايه، ما يفرقش معايا.. أنا اختي دي هي الحاجة الوحيدة المهمة في حياتي، و اللي مش هاتهاون في مستقبلها أبدا..
- و انا اللي مش فارقة معايا بنتي يعني؟!
- يبقي ما تجوّزهاش النقيب بتاعك ده، لأنه بيستغلّك و ما تسألنيش ازّاي عشان مش هاقولك.. قصر الكلام.. الجوازة دي ما تتمّش. و لو وصل الأمر اني اقتلهولك، هاقتلهولك..

نظر إليه الأب في ذهول

- تقتله؟ هو وصل الأمر انك تقتل؟ دانت فعلا اتجننت و عايز تتحجز في مصحة.

قام حازم من طرف السرير لأول مرة منذ دخول أبيه، تقدم منه، مثبّتا عينيه في عينيّ الرجل و ابتسامة ساخرة ماجنة ترقص على وجهه

- لا، و لا اتجننت و لا حاجة.. أنا بس باعمل الصح زي ابويا.. هانقذ اختي من الشر، زي ما هو أنقذني منه من تسعتاشر سنة فاتت..

امتقع وجه الأب، دارت به الغرفة و كاد أن يقع على الأرض من فرط الصدمة. متعثّرا في خطواته، غادر الغرفة في صمت، ثم عبر الممر في بطء و العالم يدور من حوله.

كان في حالة مزرية: عشرات الأسئلة تتصارع في عقله و طوفان من المشاعر السلبية يعصف بكيانه. توقف عند رأس الدرج ليتمالك نفسه مرة أخرى. كرّر الآية القرآنية، فاستقرّ وجدانه بسرعة، سبّح ثم استغفر، فإذا به يتمالك نفسه بالفعل و إذا بعقله يستعيد صفاءه مرة أخرى.

نزل الدرج و قد محي من عقله كل أحداث الصباح الكريهة.

****

ترجّل طارق عبد الهادي نازلا من سيارته المتهالكة (فيات ١٣٢ بيضاء موديل ١٩٨١) و تقدّم في مشيته المتقافزة المعتادة ناحية الفيلا الفاخرة الرابضة على شارع صلاح سالم و القريبة من نفق الثورة: فيلا آل شاهين.

لم يزر طارق صديقه الأقرب، حازم شاهين، في بيته، إلا مرة واحدة، و كانت منذ ما يزيد عن العشر سنوات. فبرغم صداقتهما المتينة و الممتدة لأكثر من ستة عشر عاما، كان حازم دوما مترددا و ممانعا لزيارة طارق له في بيته. و لولا نزلة الالتهاب الشعبي الحاد التي أقعدته في السرير، و لولا اقتراب فترة الامتحانات، لما وافق حازم على تلك الزيارة اليتيمة (و التي قام بها طارق خصّيصا ليحضر له مُذكرة المراجعة النهائية لمادة الباطنة).

وقف طارق طويلا أمام الفيلا ليتأكد من أنها هي البيت الصحيح.. ثمّة سيارة فولفو ذات زجاج فاميه تقف على ناصية الشارع، و رجلان في بدلات سوداء يتمشيان الهوينا حول ناصية البيت الشرقية - لكن ليس هذا دليلا كافيا على أهمية أو رسمية منصب صاحب الفيلا. حامت عينا طارق في بوابة الفيلا الحديدية و السور المتاخم لها، بحثا عن أي لوحة تعريفية بأصحاب المنزل، و فجأة انقضّ عليه رجل أربعيني، هيئته تنطق بالسلطة و المسئولية:

من بدلة رسمية و نظارات سوداء، وقفة متحفّزة واثقة، و نبرة صوت قوية ذات حيثية..

- خير يا أستاذ... بتدوّر على حاجة؟

إذن هو عند المنزل الصحيح.

توفيرا للوقت، و منعا للإحراج، مدّ طارق يده ليخرج محفظته، إذ حتما سيطلب منه الرجل إبراز بطاقته الشخصية. تراجع رجل الأمن إزاء حركة طارق - الغير مبررة في نظره - و دسّ يده في سترة البدلة متحفّزا.. مرتبكا من رد فعل الرجل، ترك طارق محفظته تسقط على الأرض، و رفع يديه أمام وجهه في ارتباك و تسليم..

و بسرعة تسرّب التحفز من وجه رجل الأمن، ليحل محلها ابتسامة هازئة و هو يرمق المحفظة المستقرة على الأرض بين قدمي طارق.. تطلّع الرجل إلى طارق متسائلا، فأجاب الأخير بكلمات متدفّقة متلاحقة و بصوت مبحوح

- أنا دكتور طارق عبد الهادي، صديق دكتور حازم شاهين، ابن اللوا أحمد شاهين، و كنت جاي ازوره.. هو موجود؟

ابتسم الرجل و هزّ رأسه متفهما، ثم انحنى ملتقطا محفظة طارق. ردّها إليه في ودّ، ثم اصطحبه ناحية مدخل الفيلا.

- أيوه يا فندم، موجود.. اتفضل..

تقدما من بوابة الفيلا، ثم قام رجل الأمن بضرب أحد أزرار الإنتركم.

- فيه هنا الدكتور طارق عبد الهادي.. صاحب دكتور حازم، و جاي يزوره..

ردّ عليه صوت متململ أجشّ

- شفت بطاقته؟

- أيوه..

و في ذات الوقت التفت الرجل إلى طارق غامزا عينه اليمنى، و كأن لسان حاله يقول: *لقد تكرمت عليك و كذبت حتى لا أتعبك أو أحرجك.. عد الجمايل بقي..*

فتحت البوابة الحديدية عن رجل ممتلئ مسنّ مرهق الملامح، اصطحب طارق إلى الباب الداخلي للفيلا، و هناك استقبلته مارجيك – مدبرة المنزل – ليتحول الاستقبال من ترتيب أمني جاف إلى استقبال بيتي مُرحب.. أجلسته مارجيك و قدّمت إليه الماء و الحلوى، ثم تركته مستأذنة. و بعد خمس دقائق عادت لتصحبه إلى أعلي، حيث غرفة حازم. طرقت الباب في أدب، فتحت دون انتظار ردّ، أدخلت طارق، ثم أغلقت الباب خلفه مرة أخرى.

كان حازم على نفس الهيئة و جالسا بذات الوضعية: الغرفة مظلمة، و هو جالس على طرف السرير، شاحب الوجه، و يحدّق في الفراغ.

- ازيك يا حازم؟
- ازيك يا طارق.. إيه اللي جابك؟
- كنت عاوزك في موضوع مهم.. عمّال اتصل بيك من امبارح، و انت مش بتردّ خالص.. قلقت عليك، قلت اجي اطمّن..
- نوبة الأرق اياها اللي بتقلب ليلي نهار و نهاري ليل.. و كمان المود مش قد كده..
- و النهاردة أحسن؟
- بالعكس.. النهاردة زفت الزفت..
- خير..
- ما تشغلش بالك..

اقترب طارق و جلس بجواره على السرير؛ تحدث لائما

- إيه يا أخي، هو في حاجات بتخبّيها عليّا و لا إيه؟
- في حاجات من الأحسن انك ما تتورّطش فيها..

- ليه، خير؟ انت ناوي تسرق بنك و لا تقتل حد..
- مش ناوي حاليا، بس ممكن فعلا توصل لكده..
- يا نهار اسود..

أمسك طارق صديقه من كتفه و أداره ناحيته.

- إيه يا حازم.. مالك؟ مال منظرك كده؟

هزّ حازم رأسه في ضيق و استدار معطيا ظهره لطارق، لكن الأخير منعه.

- بص لي هنا.. انت تحكي لي الموضوع كله، من طأطأ لسلامو عليكو..

محبطا، متعبا، استسلم حازم و حكي لصديقه عن أخته ريم و عن زوجة أبيه و علاقتها بنقيب الشرطة، عن مواجهته له و تحذيره هو و زوجة أبيه من المضيّ في علاقتهما الشائنة، ثم عن تطور الوضع بتحدّي النقيب له و بتقدّمه طالبا يد ريم للزواج.. استمع طارق مندهشا من فداحة القصة..

- لا مؤاخذة، بس اسمح لي اقولك.. إيه القرف ده؟
- هو فعلا قرف..
- يعني النقيب ده، لا مؤاخذة يعني، كان بيمشي مع مرات ابوك، و دلوقتي عاوز يجّوز بنتها..
- أيوه.. و اختي العبيطة كانت بتقابله من ورا ضهري، و دلوقتي بقت بتحبه و عاوزه تتجوزه.. و ابويا المغيّب، المعجب بشخصية النقيب و بعيلته، عاوز يجوز بنته ليه..
- طب ما تقول لاختك و لابوك الحقيقة؟
- انت متخيّل البركان اللي هينفجر في البيت.. كل واحد فيهم مش هيطيق التاني.. ده إذا ما كانش ابويا قتل مراته و النقيب في يوم واحد..
- كارثة..
- و انت عارف السبب فيها إيه؟

- مرات ابوك طبعا، و مشيها على حل شعرها..
- لا، لا، دي حاجة قديمة، بتعملها من فترة..
- من فترة؟ و انت عارف و ساكت!

رمقه حازم في زهق، و تأفّف..

- ده موضوع قديم، و شرحه يطول.. خلينا في النقيب أشرف، هو ده المجرم الحقيقي..
- هو ابن كلب صحيح، بس..

قاطعه حازم

- بتحرّياتي و سؤالي هنا و هناك، عرفت ان النقيب ده شخص مش طبيعي.. الحيوان ده و بحكم قربه مننا في الفترة الأخيرة لاحظ تحركات إيلين المريبة و علاقاتها المتعددة، و باستغلال معرفته دي فرض سيطرته عليها و أجبرها تكون تحت طوعه.. أما قصة حبه لأختي ريم فدي قصة هو اخترعها عشان يكون متواجد في البيت قريب من إيلين مش أكتر..
- طب ما هو دلوقتي عاوز يتجوزها اهو..
- لأ، دي حركة بيعملها عشان يتحدّاني انا شخصيا، عشان منعته هو و إيلين من إنهم يشوفوا بعض.. فاكر انه كده بيلوي دراعي..
- و انت هتعمل ايه دلوقتي؟
- كله إلا اختي.. أنا هاعلّمه الأدب، شامي و مغربي..
- إزّاي؟

مشيحا وجهه بعيدا حتى لا يقرأ صديقه الشر في وجهه، تمتم حازم

- إزاي دي، أنا باطبخها دلوقتي.. المهم، انت إيه الموضوع المهم اللي كنت عاوز تكلمني فيه؟

ابتسم طارق و تهلل وجهه و قد نسي تماما محنة صديقه

- مش هتصدق حصل ايه امبارح؟
- خير..
- جالنا في المكتب أول زبون..

و مضي يحكي في حماس عن زيارة الباحث التركي.

٨

ليس كل الرجال متساوين.. حتى لو تشابهوا في الميزات و العيوب، فهم بالطبع ليسوا متساوين.

ابتسمت هويدا سالم للخاطر، و هي تغرز القلم الرصاص في شعرها الأشقر المتشابك، تعبث به في تدلل..

بالطبع، الكثير من الرجال عاديون، متشابهون في طبيعتهم البسيطة الساذجة و المملة من وجهة نظرها، و بالتالي يستحقون المساواة في عدم اكتراثها بهم. مثلا ذلك الشاب الأسمر ذو الأسنان المتخاصمة، مُصمم الصفحات الجالس أمامها عبر الممر و المُسبّل عينيه بين الحين و الحين؛ هو حتما، ببنيته المتضعضعة و تصرفاته الطفولية الساذجة، لا يستحق انتباهها، لا هو و لا محرّر صفحة الحوادث، ذلك القروي الخشن المتقافز أمامها كالديك البرّي، و المستمتع بذكوريّته المزيّفة عبر تسلّطه و إهاناته المستمرة للصحفيين الشبّان؛ و بالطبع و لا حتى مدير تحرير الجريدة نفسه، ذلك الرجل الخمسيني المتجوّل عبر صالة التحرير الآن، المربّت على كرشه في رضا، و الموزّع لابتساماته اللزجة و تجشؤات بطنه العفنة.

بالطبع، ليس كل الرجال متساوين، إذ كيف يقارن هؤلاء التافهون برجل حقيقي.. رجل مثل رجلها: رزين عاقل، حنون، مقتدر ماديا، يُعتمد عليه، و فوق كل ذلك يتميز بخصلة أصلية نادرة أسرتها من اللحظة الأولى: إنها روحه الحرّة، المتحررة من كل قيد، و المُحاربة من أجل الوصول إلى غايتها. إنه فارس أحلامها القادم من أرض الأساطير، رجل تستطيع حقا أن تعيش في ظلّه عمرها كله..

إن العثور على رجل بهذه المواصفات لأمر صعب التحقيق في هذا الزمان الأغبر.. أما و قد وجدت هذا الرجل المثالي فعليها أن تكون مستعدّة لتحقيق رغباته أيا كانت، بل و المخاطرة من أجله إن اقتضي الأمر..

بسرعة أنهت ما تبقي من عملها لهذا اليوم، من تحرير عدد من المواضيع الإخبارية للنشر على موقع الصحيفة، و من ثمّ إرسالها عبر البريد الإلكتروني إلى محرّر الصفحة للمراجعة.

هي الآن جاهزة للقيام بالمهمة التي كلّفها بها رجلها العزيز. راجعت الخطة في رأسها بسرعة، ثم رفعت هاتفها المحمول، و ضربت الرقم الذي وضعته بالأمس على قائمة الاتصال السريع.

تحدثت بإنجليزية متواضعة.

- الو لارا... كيف أنت يا عزيزتي؟ ماذا؟ لم يحضر بعد؟ و لم يرد على اتصالاتك؟ لا تقلقي، هذا الوغد المشاغب يمارس ضدك إحدى.. ماذا تطلقون عليها؟ نعم، إنه يمارس معك مزحة عملية.. ها ها.. نعم، اضحكي يا لارا.. لابد من أنه يمزح معك.. ألا يمثل اليوم ذكرى تعارفكما مثلا، لا.. أرجوك، لا تبكي.. أوه، حبيبتي.. اسمعي، سأكون معك حالا، سأستأذن من العمل و آتيك حالا.. انتظريني في الكافيه شوب.. نصف ساعة على الأكثر و أكون معك..

أنهت المكالمة على عجل، ثم أخرجت من حقيبة يدها فلاش ميموري. دسّته في جهاز الكمبيوتر، و بعد فتحه، نقرت ملف exe. صغير الحجم - و سرعان ما انقلبت الشاشة إلى اللون الأزرق، المميّز لتعطّل نظام الويندوز. في هدوء جذبت الفلاش ميموري من جهاز الكومبيوتر و أعادتها إلى حقيبتها. انتظرت حتى اقترب موزّع الابتسامات اللزجة - في قول آخر، الأستاذ صلاح عادل مدير تحرير الجريدة - من مكتبها. كانت تعطي ظهرها لمدير التحرير عندما رفعت يدها إلى أعلي، تنادي بأعلى صوتها على الرجل الآخر - أستاذ عزت مسعود، محرّر صفحة الحوادث.

- أستاذ عزت.. أرجوك تعالي بسرعة..

توقف مدير التحرير عندها و على وجهه ابتسامة مفرطة في التودد و الأبوية المزيفة

- خير يا أستاذة هويدا.. بتنادي ليه بصوت عالي كده؟
- الكمبيوتر هنّج..

و أشارت بكفها في عجز، ممزوج بدلال، إلى الشاشة الزرقاء.. ذاب موزع الابتسامات أمام عينيها الواسعتين الطفوليّتين، فاتّسعت ابتسامته. لكن الديك البرّي كان قد حضر، مُصدّرا وجها عدائيا متشككا

- إيه المرة دي يا هانم؟
- هو انا عملت حاجة النهاردة!
- ما انتي كل يوم بتطلعي لنا باختراع و ألف حجّة و حجّة عشان تهربي من الشغل..
- أنا؟ حرام عليك يا أستاذ عزت.. يرضيك يقول عليّا كده يا أستاذ صلاح.. يرضيك كده يا باشا..

و وصل الباشا إلى درجة الذوبان.

- ما تبطّل افترا على البنيّة يا عزت.. مش لما تشوف مشكلتها إيه الأول..

كتم عزت غيظه، و اقترب من هويدا مستفهما..

- خير؟
- الكومبيوتر هنّج زي ما انت شايف..
- جرّبتي تعملي له رستارت؟
- خمس مرات و هو ثابت على الشاشة دي..
- نهارك اسود، طب و الشغل اللي طلبته منك..
- الحمد لله، سترها معايا.. كنت لسه مخلّصاه و بعتّهولك على الميل..
- الحمد لله..

- المشكلة بس في ريبورتاج جريمة الدويقة اللي عملته انا و حضرتك من أسبوع..

صرخ عزت

- إيه؟ اوعي تقولي ضاع، دانا ما عنديش كوبي من الأديو و لا الفيديو..

خفضت رأسها في أسي ممزوج بضعف لوهلة، ثم رفعتها بغتة في سعادة بالغة

- بس انا عندي نسخة منه على فلاشة في البيت.. أروّح بسرعة اجيبها و ارجع..
- نعم؟
- ما الكومبيوتر بتاعي بايظ أهو.. عقبال ما يتصلّح، أكون فورّيرة رحت البيت جبت الفلاشة و رجعت تاني..
- لا، مش مهم دلوقت.. هاشوف لك شغلانة تانية أو اخليكي تقعدي مع حد تخلّصي شغل متأخر..

و وفق خطتها، هنا يأتي دور موزّع البسمات الذي ساح عقله و تبخّر وقاره تحت تأثير استكانة هويدا و تدللها. أدارت هويدا وجهها ناحية الرجل لتقضي على ما تبقي من ثباته و تحمله.. و بنظرة أسي ممزوجة بقلة الحيلة، تنهدت هويدا في انكسار

- أمرك يا عزت بك..

و هنا طوّح صلاح باشا يده في حسم و هو يكاد يصرخ من شدة الانفعال..

- لا، لا.. إيه يا عزت، هو انت هنا بتستعبد الصحفيين و لا إيه.. البنيّة، الكومبيوتر بتاعها باظ.. إديها بريك يا أخي... روّحي يا بنتي اشربي لك نسكافيه و لا هاتي الفلاشة بتاعتك من البيت، و ما ترجعيش إلا لما يتّصلوا بيكي و يقولوا لك ان الكومبيوتر اتصلّح..

مذعورا نظر إليه عزت

- بس يا أستاذ صلاح، ده ممكن ما يتصلّحش غير بكره الصبح..
- خلاص يا سيدي، ما اتهدّتش الدنيا، تيجي بكره الصبح..

كافأته الصحفية الحسناء بابتسامة فاتنة ساحرة، لتنطلق دفقة من هورمونات الانتشاء لينعدل مزاج الرجل الخمسيني ما تبقي من اليوم.. ربّت صلاح باشا، موزع البسمات، على بطنه و تجشأ في رضا، ثم أشار إلى هويدا لتنصرف.

متفادية عطن فم مدير التحرير و حريق نظرات مدير الصفحة، انطلقت هويدا سالم مغادرة قاعة التحرير، و بسرعة ناحية المصعد.

فأمامها اليوم، و طبقا للخطة، يوم طويل.

****

و طوال الشطر الأكبر من الأربع ساعات التالية، كانت هويدا سالم محشورة في سيارتها، السوزوكي ماروتي، تقودها في بطء عبر شوارع القاهرة المزدحمة، و إلى جوارها جلست أوروبية شقراء تبكي في صمت.

اسمها لارا هانسن، دانماركية في الخامسة و الأربعين من العمر، ممتلئة بعض الشيء، ملامحها توشي بجمال غابر، لكن غزو التجاعيد لوجهها و لرقبتها يوحي بسن أكبر نتيجة سنين طويلة من التدخين و شرب الكحوليات بالإضافة إلى المرض العصبي المزمن.

حتما لا تعرف هويدا كيف أعجب رجل متفرّد مثل حبيبها بمثل هذه المرأة الأوروبية المترهّلة.

يقول أنه تعرّف عليها أثناء إلقائه سلسلة من المحاضرات عن كتابه في جامعة كوبنهاجن - حيث تعمل لارا كأستاذة هناك. قال بلا مداراة أنه أعجب ساعتها بمنصبها الأكاديمي إضافة إلى تيسّر حالتها المادية. لكنه أكد لها أنه زهد فيها بعد ذلك و أراد أن يتحرّر منها إلى الأبد، كيف لا و قد وجد، و

على غير توقع منه، من أشعلت روحه و أثرت حياته كما لم يحدث معه من قبل. لقد وجدها هي.

انتشت هويدا في سرها لذكري الكلمات، لكن نشيج لارا المتجدد قاطعها. حاولت مواساتها بإنجليزيّتها الرديئة مرة أخرى

- أوه يا لارا، لا تبكي يا عزيزتي.. لا ينبغي أن نفقد الأمل..
- كيف ذلك و قد بحثنا عنه في كل الأماكن، في المستشفيات و في أقسام الشرطة..
- ربما تاه في مكان ما و ربما نفذت بطارية هاتفه المحمول.. ربما سرق منه الهاتف المحمول و المحفظة.. دون هاتف أو نقود ربما يكون عالقا في مكان ما..
- لقد مرّ يومان يا هويدا.. أنا خائفة عليه.. عندما اتّصلت بالسفارة هذا الصباح، لم يعطوني كثيرا من الأمل.. قال لي الموظف أن الاختطاف و طلب الفدية أمر غير شائع في مصر، لكنه يحدث بين الحين و الآخر..

شوّحت هويدا بيدها لتصرف الفكرة بعيدا و لتطمئن الدانماركية

- لا، لا أظن ذلك.. كل شيء سيكون حتما على ما يرام..

كان بكاء و نحيب لارا قد بدأ يؤثر فيها و يضغط على أعصابها. فالأجنبية المسكينة، و برغم وقوفها في طريق سعادة هويدا الشخصية، لم تكن تستحق ما يحدث معها الآن.

طيّب، نطلع بقي على النقطة التالية في الخطة عشان اتخلص من تأنيب الضمير ده بسرعة..

التفتت هويدا إلى لارا ثم هتفت في فضول مصطنع.

- صحيح، هل راجعتي الفندق الذي كان يجري فيه المقابلات بين الحين و الآخر؟

التمع الأمل في عين لارا، فمسحت دموعها..

- لا، هل تظنين من جدوي من مراجعة هذا الفندق؟
- دعينا نحاول..

و بعد ساعة أخرى من التحرك ببطء وسط زحام العاصمة، كانت هويدا تخترق بسيارتها الصغيرة شارع أحمد حلمي بشبرا، و عند فندق صغير، أقرب إلى بنسيون، ركنت سيارتها.

عند مكتب الاستقبال، سألتا في غير كثير من أمل عن أي زيارات قام بها الرجل مؤخرا إلى الفندق. و كانت الإجابة مفاجئة – تماما كما المفترض أن تكون

- الأستاذ ده أصلا نزيل عندنا في الفندق من عشر أيام، غرفة ٢٣٣، لكن بقاله يومين ما بيجيش..

ثم راجع الموظف دفتره بسرعة

- لكن مفيش مشكلة، ده دافع حساب الغرفة لغاية آخر الأسبوع..

توسلتا إليه ليسمح لهما بتفقد الغرفة، لكن الموظف رفض تماما. لكن هويدا لم تعدم الوسيلة. بحثت عن عمّال الغرف، حتى عثرت بأحدهم؛ و مقابل خمسين جنيها، أخذهما إلى الغرفة المطلوبة.

لم يكن بالغرفة الكثير، بيجاما و بعض جرائد، بالإضافة إلى مفكّرته الخاصة؛ و فيها كان جدول بالمهام المفترض أن يقوم بها طوال الأسبوع. عرضا، و دون إظهار أي انتقائية معينة، أشارت هويدا إلى إحدى تلك المهام، و التي من المفترض أن يكون قد قام بها الرجل بالأمس. و في حماس، نسخت لارا العنوان بدقة ثم انطلقت إلى الباب و قد حدا بها الأمل من جديد.

و وراءها خرجت هويدا و هي تتنهّد في راحة. بقيت خطوة أخيرة و تنتهي الخطة و تتخلّص نهائيا من إحساسها بالذنب تجاه الدانماركية.

ثم بعدها تكون الجنّة مع رجلها الذي لا يتساوى مع غيره من الرجال..

٩

بصعوبة، استطاع طارق أن يقنع حازم بالنزول معه، أملا في إخراجه من جو منزله الكئيب و في تغيير مزاجه السوداوي المقيت..

ركبا سيارة طارق و انطلقا دون استهداف جهة معيّنة يتوجّهان إليها.. طارق، و برغم حرارة الجو العالية و الرطوبة الخانقة، يقود سيارته المتهالكة في تراخي و مرح، غير عابئ بزحام و بطء حركة الطريق، في حين سرح حازم شاهين، كما العادة، في خيالاته.

لكن، ليس سبرا و غوصا فلسفيا في البشر و العالم كما العادة.. هذه المرة، كان يفكر و بكل جدية، في الطريقة المثلى للقضاء على النقيب أشرف محجوب. عبثا، حاول التفكير في سبل التعامل الأكثر دهاءً و الأقل مباشرة، لكن لم يتوارد على عقله إلا الطرق الأشدّ عنفا و دموية.. كيف لا، و قد سيطر على عقله و وجدانه الغضب الشديد، ناهيك عن نوبة الأرق التي لازمته لمدة ثلاثة أيام متتالية استنفذت خلالها أعصابه و أنضبت صبره إلى حدّ بعيد..

.. ثمّ كان هذا الحرّ الرهيب في سيارة طارق المتهالكة الغير مكيّفة.

كانت تختمر في دماغه إحدى أكثر الأفكار سوادا و دمويّة، عندما باغته طارق

- إيه يا برنس الليالي؟ مالك قاعد مبرّق كده؟
- مفيش..
- إيه؟ الأرق و الكافيين مبهدلينك و لا إيه؟
- يمكن.
- و طبعا ما بتاكلش..
- آخر حاجة كلتها امبارح الصبح.. بطني وجعاني و مقلوبة..
- طبعا، من كتر القهوة و السجاير..

- يمكن.

التفت طارق إليه مشاكسا

- سيبها انت بس عليّا يا برنس و انا هافكّلك صواميل بطنك دي.. إحنا هانعدّي نتغدّي عند حاتي شيخ البلد، نطلب لنا وجبتين كباب و كفتة محترمين، و بعد كده نطلع عندي البيت نحبس بكوبّيتين عصير فراولة بيتي يرمّوا عضمك..

كان الجو حارا خانقا في السيارة، بالإضافة إلى صورة لا تبارح خيال حازم منذ ركب السيارة، يري فيها النقيب أشرف في بدلة اسموكين سوداء، يبتسم في انتشاء شيطاني، و يجلس في استرخاء في الكوشة إلى جانب أخته ريم.. و أخيرا، ضربت رأسه موجة عاتية من الصداع..

- ما تُفكّك مني يا طارق.. نزّلني في أي حتة.. أنا هاخد تاكسي و هارجع البيت.. في حاجات في مخّي ليها أولوية..

التفت طارق إلى زميله، مستشرفا وجهه

- انت لسه بتفكر في موضوع النقيب ده؟

هزّ حازم رأسه في توتر ممزوج بغضب..

- هو فيه غيره..
- مال شكلك كده، مش عاجبني يا حازم؟ شكلك ناوي على شر.

لكم حازم تابلو السيارة في غضب و صرخ..

- هاقتله..

نظر إليه طارق مذعورا

- و بعد كده إيه؟ تدخل السجن، و تسيب اختك لوحدها للذئب اللي هييجي بعده.. ثم انت فاكر انك في الحالة اللي انت فيها دي هتقدر تعمل معاه حاجة؟

و في هذه النقطة تحديدا كان صديقه على حق..

- حازم، ممكن اطلب منك طلب شخصي؟

لم يرد حازم، فالتفت إليه طارق متوسلا

- أرجوك انسي كل حاجة عن الموضوع ده النهاردة.. النهاردة هتقضّيه معايا، ناكل و بعدين نقعد عندي في البيت، نلعب شطرنج و طاولة، و بالليل هتنام عشر ساعات، و بكره الصبح، ابقي فكّر في الموضوع من جديد.. الدنيا مش هتطير من النهاردة لبكرة..

كان طارق مصيبا.. عليه استعادة توازنه و لياقته العقلية أولا و إلا ارتكب من الحماقات ما لا يعدّ و لا يحصي.

- ماشي..
- ماشي ايه؟
- ماشي، اطلع بينا على حاتي الكفتة يا مفجوع..

و بالفعل، انطلقا إلى الحاتي، تغدّيا، ثم توجّها بعد ذلك إلى منزل طارق؛ و هناك أمضي حازم اليوم، يلعب الشطرنج و الطاولة مع طارق و أخيه. و بحلول الخامسة عصرا، و بعد ثلاث أيام من النوم الشحيح و التوتر الحاد، كانت طاقة حازم قد نضبت تماما. كان جسده و عقله يصرخان طلبا للنوم و الراحة، لكن لم تكن به من قدرة – و لا رغبة – على العودة لمنزله، لذا رضخ بسهولة لعرض طارق في المبيت عنده.. لكن من باب الحرج، رفض النوم في شقة أهل طارق و فضّل أن يهبط إلى الدور الأرضي و أن ينام في شقة المكتب..

حاملا مرتبة و ملاءة خفيفة، نزل حازم إلى المكتب، دخل، أدار المروحة على سرعتها القصوى، فرش المرتبة على الأرض، استلقى عليها، ثم سقط في النوم على الفور.

و لحسن الحظ كان نوما عميقا لا أحلام فيه..

لكن في حدود الساعة التاسعة و الربع مساءً، استيقظ حازم على صوت طرقات رقيقة على الباب. ثمّة أصوات أنثوية تناهت إلى مسمعه عبر الظلام، آتية من خلف الباب المغلق. كان حديثا باللغة الإنجليزية..

- لا أري أي جرس لهذا الباب.. المكان مظلم و يبدو أنه لا أحد هنا..
- لعلهم انصرفوا.. نحن لا نعرف مواعيد عمل هذا المكان..
- انتظري.. هناك زر في جانب الحائط هناك.. يبدو زر إنتركم..

و في اللحظة التي ضغطت فيها إحدى السيدتين جرس الإنتركم، كان حازم يفتح باب المكتب.

****

بشعر منكوش، عينين مغمضتين، و سيجارة غير مشتعلة تتدلي من فمه، فتح حازم شاهين الباب.. و بفضل الإضاءة الخافتة لبئر السلم المظلم بدا أقرب إلى زومبي خرج للتوّ من قبره.. هتفت إحدى السيدتين بلهجة مصرية خالصة..

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. انت مين؟
- انتو اللي مين؟
- ده مكتب كنج توت انفستجاشنز؟

دعك حازم عينيه ثم هزّ رأسه مؤمّنا. أشعل سيجارته.

- طيب لو سمحت شوف لنا حدّ من صحاب المكتب..

نافثا دخان سيجارته إلى السقف، و داعكا عينيه من جديد، ردّ حازم بصوت أجشّ ناعس

- أنا صحاب المكتب..

بدا الاستغراب و التأفّف على المتحدّثة: هي الأصغر من السيدتين، فتاة مصرية ذات شعر أشقر مصبوغ؛ في حين تبدو على رفيقتها الملامح الشقراء الأصليّة، و المميّزة لسكان شمال أوروبا..

مدّ حازم يده و ضغط زرّ الكهرباء، فغمر النور المكان؛ فتح الباب عن آخره، و تقهقر إلى الجانب مفسحا الطريق.

- اتفضلوا..

تقدمت السيدتان إلى غرفة الاستقبال، الأجنبية خافضة النظرات، ذاهلة في شأنها، و المصرية، متفحّصة المكان؛ تطلعت إلى المرتبة المستندة على الحائط في دهشة، ثم حدجت حازم بنظرات ملؤها التساؤل و الاستنكار، لكن الأخير نفث دخان سيجارته و هز كتفيه في لامبالاة.

و من الخارج أتى صوت طارق على الإنتركم..

- الو.. هالو..

خرج إليه حازم.

- أيوه يا طارق..
- هو مش الإنتركم ضرب دلوقت؟
- أيوه.. فيه زباين جداد..
- يا راجل!
- أيوه.. اتنين ستات..
- إوعى يشوفوا غرفة الاستقبال و هيّا فيها المرتبة و الملاية و..
- شافوا خلاص..

- إخص عليك يا بعيد.. يقولوا علينا إيه.. ناس بتهرّج ولا بتستعبط..
- و ياريت تبطّل كلام و تنزل، عشان همّا سمعينك دلوقت..
- نهار أبوك..

صمت للحظة مصدوما

- حازم..
- نعم..
- خدهم قعّدهم في أوضة المكتب، و بطّل برود و غلاسة لحد ما البس و انزل.. ممكن؟
- حاضر، مستر نيرو ولف.. تحب احضّرلك إيه على العشاء يا فندم؟

مغتاظا من برود صديقه، وضع طارق سماعة الإنتركم في عنف، في حين عاد حازم إلى داخل الشقة، ليجد الأجنبية تجلس على الكرسي المقابل لمكتب الاستقبال، في حين وقفت المصرية الشابة في تحدّي مخلوط بغنج..

- إيه، هتدخّلنا أوضة المكتب، و لا هتقعّدنا هنا؟ على المرتبة..

هي متوسطة الطول، أقرب إلى القصر، ليست باهرة الجمال بأي حال، و لا تحمل جسد الأنثى المثالية، لكن عينيها العسليّتين واسعتان، ذكيّتان، و بشرتها رائقة، اللهم إلا من ثلاث حسنات تناثرت على خدّها الأيسر في جمال، يحوط وجهها غابة كثيفة من الشعر المصبوغ و المصفّف على هيئة كيرلي –في نظر حازم لم تكن إلا فتاة أخرى متأنّقة. لكنها ما إن تكلّمت حتى انطلق سحرها ليسيطر على انتباه حازم الكامل، بصوتها الأنثوي المميز، المبحوح قليلا و اللعوب، بالإضافة إلى حيويّة حركات جسدها المتناغمة مع ذلك الصوت المُنوّم، و بالطبع تعبيرات وجهها الآسرة، المتحدّثة وحدها، أو المصاحبة لكلماتها المشاغبة الشقية فتضفي عليها بعدا و حيوية لا مثيل لها.

في عينيّ حازم، كانت الفتاة جذابة بطريقة لا تقاوم..

مبتسما لجرأتها، أشار حازم بيده كاشفا الطريق، ثم متقدّما إلى غرفة المكتب الرئيسية..

فتح الباب، و أضاء المكان، أجلسهما على كرسيين خشبيين، ثم دار ليجلس خلف المكتب..

أدني مطفأة السجائر منه، ثم سحب دفقة نيكوتين من سيجارته المشتعلة، عسى أن يستيقظ عقله من السبات و من التعب الذي استهلكه في الأيام الماضية..

- أورهان حقّي..

هكذا هتفت السيدة الأربعينية الشقراء الممتلئة.. هزّ حازم رأسه و كتفيه في عدم تعرّف..

- مين؟

صرخ وجه الفتاة المصرية مستنكرا، و اتسعت عيناها الرائعتان ليزداد وجهها بهاءً

- مين؟ المفروض انه جه هنا امبارح..

استرقت النظر إلى رفيقتها في حركة لاشعوريّة، ثم أعادت عينيها الواسعتين إليه تغريه و تنهره في آن واحد..

- في الأجندة بتاعته، كاتب انه المفروض يزور المكتب ده امبارح..

و عادت إلى حازم ذكرى حديث الصباح: عندما حدّثه طارق عن زبون الأمس.

- آه، الرجل التركي..

و فهمت الأجنبية إجابة حازم..

- نعم، هو.. إنه رجل تركي..

تناولت المصرية طرف الحديث مرة أخرى..

- أيوه هو.. إحنا عايزين نستفسر عنّه..
- انتو مين؟
- دي لارا هانسن.. الجيرل فريند بتاعته..
- و انتي؟
- أنا هويدا سالم، صحفيّة في جريدة الطريق..
- و بعدين؟
- إحنا بندوّر عليه.. و آخر حاجة لقيناها منّه كانت أجندته، و فيها كاتب انه جه هنا امبارح.. صح الكلام ده؟
- المفروض..
- المفروض؟ يعني إيه الكلام ده..
- أنا ما كنتش هنا امبارح.. اللي قابله شريكي في المكتب..
- اللي كان على الإنتركم..
- هوّ بعينه..

استرخت هويدا في جلستها، و أرخت ظهرها إلى الكرسي، ثم شبّكت ساقيها في تحدي لا يخلو من دلال..

- طيّب.. نستناه أحسن..

اضّجع حازم في جلسته هو الآخر، و نفث دخان سيجارته في تحدّي مشابه، و ابتسم..

- خدوا راحتكم..

أخبرت هويدا رفيقتها الأوربية، و التي كانت تعتصر كفّيها في توتر، بملخّص ما دار. استمع حازم إلى الحوار بين المرأتين ، و تابعهما في انتباه مستطلعا

العلاقة التي تجمعهما - لكن طبعا، استحوذت المصرية ذات الشعر الأشقر الغجري و الوجه النابض بالحياة على جلّ انتباهه.

- معلش، زي ما انتو شايفيين ما عندناش سكرتارية و لا عامل، فمعلش كان نفسي اعزم عليكم بشاي أو قهوة..

ثم قدّم علبة سجائره و الولّاعة

- إلا طبعا، لو حد فيكم بيدخّن.. اتفضلوا..

ابتسمت هويدا مشاكسة، ثم تطلّعت بعينيها في المكان..

- إلا صحيح.. يعني إيه كنج توت انفستجاشنز؟
- في حد ما يعرفش كنج توت.. توت عنخ آمون.
- كنج توت و عرفناه.. يعني ايه انفستجاشنز؟
- يعني تحقيقات.. يعني مكتب تحقيقات..
- زي برّه و كده.. زي اسمه ايه.. شيرلوك هولمز..
- يعني..
- و انتو معاكم ترخيص على كده..
- انتي جاية تدوّري على صاحبكم الضايع و لا جاية تعملي تحقيق للجرنان؟

تخلّت عن التحدي، تاركة الدلال خالصا دون مشاركة، لتفترس وجدان حازم بابتسامة فتاكة..

- يعني هتلوم عليّا اني واحدة مجتهدة؟

ليست أجمل من رأي من النساء، و ليست أكثرهن غنجا و تدللا.. لكنها ملأي بالحياة بطريقة نادرة لم يرها من قبل..

و لحسن الحظ، وصل طارق في فوضاه و ضوضائه المعتادة، ليجذب الأنظار و يشتّت الانتباه، و ليرحم حازم من وطأة الإعجاب الذي باغته بغير استئذان.

****

في عشوائية و متصرفا بحماقة، كعادته إن وضع تحت ضغط أو أحسّ بالخجل، اقتحم طارق المكان، مطيحا بأصّيص نبات جانبي و متعثّرا في السجادة.

محرجا، متلعثما، تقدم ليصافح المرأتين..

- Welcome, welcome

صافحته هويدا في استغراب، ممزوج باستعلاء، و ألقت بنظرة مشاكسة لحازم و لسان حالها ينطق: *هو انتو كلكم كده مش طبيعيّين*. ردّ حازم في تناغم، رافعا حاجبه و رافعا كتفيه مشاكسا هو الآخر: *هو ده الموجود*.

و بعيدا عن المناكفة الصبيانية، كانت لارا تمسك يد طارق الممتدة في شدة..

- هل أنت من قابل أورهان حقّي بالأمس؟

أرجع طارق رأسه للخلف مستغربا، و التفت لحازم مستفهما..

- هيّا إيه الحكاية؟
- طلعوا مش زباين جداد.. دول جايين بيدوّرا على الزبون التركي بتاع امبارح..

ناظرا إلى لارا، سأل طارق

- خيرا؟
- إنه مفقود منذ يومين..
- و كيف عرفتما أنه كان هنا بالأمس؟

بادرت هويدا

- لسه قايلين لصاحبك.. من أجندته اللي سابها وراه في أوضته في فندق في شبرا..

هزّ طارق رأسه متفهما

- إحنا معندناش مانع نساعد في أي حاجة..

و بسرعة انقضّت هويدا عليه متسائلة

- كان جاي هنا عاوز إيه؟

و قبل أن يفتح طارق فمه، تدخل حازم، و قد تشبّع دمه بنيكوتين السيجارة الثانية و استطاع، و لو مؤقتا، السيطرة على إعجابه بالحسناء المصرية

- للأسف، ما نقدرش نساعدك.. دي خصوصية عملاء.. إحنا، رغم احترامنا ليكم، ما نعرفش انتو مين و لا تقربوا إيه لعميلنا..

مستنكرة، و رافعة حاجباها في تحدّي

- تحبّ تشوف بطاقاتي و جواز سفر لارا الدنماركي عشان تصدّق؟

ابتسم حازم معتذرا

- الحقيقة، ما يفرقش معايا شخصياتكم، حقيقية أو مش حقيقية.. إحنا ما نعرفش حقيقة علاقتكم بعميلنا..

أخرجت هويدا هاتفها المحمول، و بحثت في ألبوم الصور لتتوقف عند صورة معينة: الثلاثة في مطعم، حقّي يحتضن كتف لارا، في حين تجلس هويدا وحدها عبر الطاولة. تطلّع طارق إلى الصورة أولا و أكّد شخصية حقّي، ثم أطلع حازم عليها من بعده.

تساءلت هويدا في تحدّي.

- ها، كده اتطمّنتوا بخصوص علاقتنا بيه؟

نافثا دخان سيجارته في هدوء

- كنتي بتقولي ان السيدة لارا هانسن تبقي الجيرل فريند بتاعته؟
- حاجة اقرب للـ spouse في المفهوم الأوربي..
- مفهوم.. و انتي بقي تقربي له إيه؟

لوت فمها الدقيق، و ضيّقت عينيها في تحدّي..

- أنا ما اقربلوش.. إحنا بس اتعرّفنا في فترة وجودهم، هو و لارا، في مصر.. هو باحث تركي و بيدوّر على معلومات معيّنة بخصوص تاريخ مصر العثماني، خصوصا في القرن التسعتاشر.. كان بيزور الجرايد، بيدوّر في الأرشيفات و.. و بالطريقة دي اتعرّفنا..
- بس على حسب علمي، جرنان الطريق اللي انت شغاله فيه ده، مابقالوش خمس، ست سنين شغال.. أرشيف إيه اللي كان الباحث التركي بيدوّر فيه ده؟

متفاجئة، أدارت هويدا وجهها بعيدا و قضمت من سبابتها زائدة جلدية لا وجود لها.

- ما احنا ما اتقابلناش في أرشيف الجرنان اللي انا شغالة فيه..

و منتبهة لتوترها، جذبت هويدا يدها بعيدا، و واجهت حازم من جديد

- بص يا حضرت..
- حازم.. حازم شاهين..
- أهلا و سهلا..
- أهلا بيكي.. قولتي لي اتقابلتوا بقي في أرشيف أنهي جرنان؟
- بص يا أستاذ حازم.. إحنا مش جايين نضيّع وقتكم في الكلام في مواضيع جانبية. زي ما انت شايف، لارا في قمة التوتر و الخوف على الـ spouse بتاعها.. أرجوك ساعدنا، عشان نعرف ندوّر عليه كويّس، و نلاقيه بسرعة..

- و انا إيش عرّفني انه عاوزكم تلاقوه.. مش يمكن هو هربان منكم أصلا..

و كأنما جاء ردّ حازم على جرح ما، إذ بفم هويدا يضطرب لا إراديا لوهلة.. هاربة من نظرات حازم المستكشفة، التفتت هويدا إلى لارا لتترجم لها ردّ حازم. استدارت إليه الدانماركية مفنّدة بلهجة حاسمة لا تخلو من عصبية..

- من المستحيل أيها السيد أن يفعل بي هذا.. لنا خمس سنين مع بعض، نعيش في سعادة و رضا..
- هل أفهم من ذلك، أنه لم يتركك، و لو لمرة واحدة، من قبل؟ أبدا؟
- كانت هناك شجارات، كما بين أي اثنين في علاقة جادة.. لكنه لم يهرب مني أبدا من قبل..

قالتها و الدموع تطرف من عينيها. متأثرا، تقدّم طارق بسرعة مواسيا السيدة الأجنبية و عارضا منديلا ورقيا لتجفف عينيها.. كان يكلّمها في عطف، في حين وجّه نظراته اللائمة إلى حازم

- لا تقلقي يا مسز لارا.. سنقدم لك كل مساعدة ممكنة..
- شكرا..

داعب حازم سيجارته مفكرا، ثم أخذ نفسا عميقا..

- عندي نظرية بسيطة.. أنتما تقولان أن السيد حقّي اختفي منذ يومين، في حين أنه بالفعل جاء إلى مكتبنا طالبا المساعدة بالأمس.. بوضوح، هو جاء إلينا و هو في حال جيدة في وقت كانت أخباره قد انقطعت عنكم تماما..
- صحيح..
- التفكير المنطقي يطرح فرضية أنه قد جاء إلينا بعد أن قرّر أن يهرب منكم.. ربما تشاجر مع السيدة لارا أو تضايق منها لسبب أو آخر.. ربما قرّر أن يخاصمها ليوم أو يومين فقط لا غير، و ربما قرّر هجرها بالكليّة..

من طرف عينيه، لمح حازم أمارت الضيق على وجه هويدا و الذعر على وجه لارا. أكمل دون تعليق

- لكني سأفترض أن سببا أو أسبابا قهرية ما منعت حقّي من التواصل معكم.. ربما فقد هاتفه المحمول، و ربما عطبت شريحة موبايله، أو نفذ شحن الهاتف.. و ربما، في غمرة انشغاله بعمل ما، نسي أن يتّصل بالسيدة لارا.. هناك بالطبع احتمالات أخرى..

همست لارا

- و لربما اختطف، أو قتل..
- كانت تلك هي الاحتمالات الأخرى التي لم أذكرها.. و ذلك لسبب وجيه، ألا و هو أنه في تلك الحالات لن يكون باستطاعتنا المساعدة، ساعتها ستحتاجين للشرطة.. فقط دعينا نتدبّر الحالات التي يمكننا المساعدة فيها..

نافذة الصبر، هتفت هويدا

- هو ما سابش معاكم أي وسيلة للتواصل معاه بخصوص المهمة اللي طلبها منكم؟

سحب حازم دخان سيجارته في هدوء، ثم أطلقه تجاه هويدا. ابتسم

- ما انا كنت لسه هاجي للنقطة دي..
- بس انت عمّال تلف و تدور كتير، و..

تطلّع حازم إلى صديقه متسائلا..

- هو ساب معاك إيه عشان نتّصل بيه؟
- رقم موبايل و إيميل..

أخرج طارق محفظته، و منها قصاصة الورق التي تركها التركي بالأمس. أوقفه حازم بحركة يده، ثم جذب رول رزنامة من أمامه على المكتب و شدّ منه ورقة. دفع بها مع قلم إلى لارا.

- اكتبي لنا هنا رقم هاتف السيد حقّي و بريده الإلكتروني..

و بسرعة كتبت لارا على الورقة.. أشار حازم لها لتسلّمها لطارق..

- شوف كده يا طارق، هما نفس الموبايل و الإيميل؟

قارن طارق الأرقام و العناوين الإلكترونية، ثم هزّ رأسه نافيا في أسف.. تحدّث القابع خلف المكتب في حزم

- إذن.. الرجل فعلا يريد أن، أعذريني إن قلت، يهرب منكي يا سيدة لارا..

تدخّلت المصرية ذات الشعر المنكوش في حسم..

- لا يمكننا أن نعتبر استنتاجك هو الحقيقة الحتمية.. لابد من التأكّد بطريقة لا يرقي إليها الشك..

التفتت إليها الأنظار مستطلعة، لكن حازم، و الذي كان يعرف ما الذي ستقوله الصحفية الشابة، اهتم أكثر بملامح وجهها. أكملت هويدا

- نتصل بالرقم الذي معكم.. لو كان الرقم يتبع حقّي فعلا، و ردّ هو علينا، تأكدنا أنه بخير و أنه لم يخطف.. و في نفس الوقت، نستطيع أن نسأله و نتأكد إن كان، مثلما قلتها، قد هرب من لارا..

كان اقتراحا منطقيا، و لاقي قبولا كبيرا من الدانماركية المتوترة. الكلّ، ماعدا حازم، وافق على إجراء المكالمة.. رفض حازم كان مبنيّا على فكرة أن هذا التصرف يتم بغير إذن العميل شخصيا.. اقترب طارق من حازم و احتدّ عليه هامسا

- إيه يا أخي، انت مش شايف الست الأجنبية منهارة ازّاي.. خلي عندك رحمة..

مستسلما..

- خلاص.. بس، انت اتصل بيه الأول، و استأذنه، و شوف هيقول إيه.. لو وافق خليه يكلمهم..

رضخ طارق لمنطق صديقه، و انصرف من الغرفة ليجري المكالمة.

بعد بضعة دقائق من الانتظار و التوتّر، عاد طارق و الأسي على وجهه.. سلّم الهاتف إلى السيدة لارا، التي التقطت الهاتف في توتّر و خوف شديدين.. استمعت لدقيقتين، انهمرت دموعها في صمت، هتفت بكلمة واحدة..

- لماذا؟

لم تستمر المكالمة بعد ذلك أكثر من بضعة ثواني، و في آخرها أعادت لارا الهاتف إلى طارق.

أخيرا قامت الدانماركية، و من وراءها قامت الصحفية المصرية، و على الفور غادرتا المكان إلى غير رجعة..

بعد انصرافهما، قام حازم من مكانه و اقترب من طارق المذهول..

- موقف سخيف يا طروق..
- جدا.. الرجل التركي العميل بتاعنا ده إنسان زبالة..
- هو قال إيه بالضبط؟
- قال إنه ساب الست الدنماركية و خلاص مش هيرجع لها تاني أبدا، و إنه عارف واحدة تانية بيحبها و هيتجوزها..

أطفئا أنوار الشقة و أغلقا الباب خلفهما، ثم صعدا إلى شقة طارق في الدور الأول لتناول الشاي.

ما أثار عجب حازم أن حالته المزاجية تحسّنت للغاية؛ و الفضل يرجع بالطبع إلى مقابلته للصحفية الشابة الجريئة، إضافة إلى شعوره بالتحدي و الإثارة إزاء هذه المغامرة الجديدة.

لكنه ما إن انتهى من شرب الشاي حتى قام و انصرف بسرعة؛ فبرغم اهتمامه بهذه المغامرة الجديدة، كان لايزال لدي حازم كارثة عائلية يجب التعامل معها بسرعة و حسم.

و كانت الخطوة الأولى هي التحدث مع إيلين فورا.

تاريخ الكشف عن المستند:

١ فبراير ١٩٩٦

بواسطة:

ج. هوفر. كوليسكي، مساعدة أمين أرشيف

الرقم الأصلي للمستند في الأرشيف الفيدرالي الألماني "مدينة بوتسدام":

- الملفة ١٢A، ١٨٨٧٦

لوفنبرانكه

الرقم الجديد في الأرشيف المركزي لجمهورية روسيا السوفيتية الاتحادية الاشتراكية:

- رقم قطعة/ مستند: DT-١٥٧
- قسم: ١٠١
- صندوق: ١٤٢

وصف المستند:

كتيب عن الخطر الشيوعي، له علاقة [illegible] ١٧/٢ [illegible] بدون عنوان أو أية إشارة عن العلاقات، وعن الكاتب من [illegible] الكاتب [illegible] الكتابة [illegible]

١٠

تاريخ الكشف على المستند:

١١ فبراير ١٩٤٦

بواسطة:

ج. خودوركوفسكي، مساعد أمين أرشيف

الترقيم الأصلي للمستند في الأرشيف الفيدرالي الألماني" بمدينة بوتسدام :

- القاعة A١٣، ١٨٨٦٧T

الترقيم الجديد في الأرشيف المركزي لجمهورية روسيا السوفيتية الاتحادية الاشتراكية:

- رقم قطعة/ مستند: BT-١٥٧
- قسم: ١٠
- صندوق: ١٤٣

وصف المستند:

كتيّب من القطع الصغير، له غلاف كرتون أحمر، بحجم ١٧,٧ سم X ٢٥,٤ سم، لا يوجد عنوان أو أيّة كتابة على الغلاف، و متن الكتاب من ورق أبيض متين، بنفس حجم الغلاف. بعد الفحص أكد الخبير، رائد إيجور كامنسكي، أن الكتابة تمّت بواسطة آلة كاتبة ألمانية، ماركة 'أولمبيا

بلوروتيب' Olympia Plurotyp موديل الجيل الأول (إنتاج ١٩٣٤)؛ غالبا هذه هي النسخة الوحيدة من المستند. إضافة إلى الغلاف، الكتيّب مكوّن من ٧٦ صفحة، لكن الترقيم الداخلي يوضح أن المستند بالأصل ١٠٢ صفحة: إجمالي الصفحات المفقودة ست و عشرون صفحة: من صفحة ٦٦ إلى ٩١.

ملحوظة: مذكور بالمستند أن جزء كبير منه عبارة عن تفريغ لمحادثة تمّت بجهاز تسجيل، لكن لم يتم العثور على جهاز التسجيل أو أيّة بكرات شرائط ممغنطة لها علاقة بالمستند.

محتوي المستند:

الكتاب مكتوب بواسطة هانريش بيكر، الضابط في الجيش الألماني و المكلّف في الـ SD (جهاز المخابرات النازية) وقت كتابة المستند، و لاحقا القيادي بذات الجهاز. الكتاب عبارة عن قسمين: الأول تقرير للضابط الألماني بخصوص المهمة التي كلّف بها من الإدارة E (إدارة استخبارات أوروبا الشرقية) و الخطوات التي قام بها في سبيل تحقيق المهمة، بدءا من تحرّياته في بروسيا الشرقية و فيينا، وصولا لرحلته إلى القاهرة عام ١٩٣٨؛ و الجزء الثاني و الأكبر عبارة عن تفريغ لتسجيل صوتي لمحاورة و استجواب لجاسوس ألماني من أصول تركية يدعي "لوفنبرانكه" (مخلب الأسد).

تعريف بكاتب المستند:

الكولونيل هاينريش بيكر (برتبة كابتن وقت كتابة المستند)، ولد عام ١٩٠١، لا توجد معلومات عن مكان ولادته أو تعليمه الأوّلي و العالي، لكن يوجد تنويه بالمستند عن حصوله على درجة الدكتوراه في الدراسات الشرقية و دراسات الشرق الأدنى من جامعة ميونيخ عام ١٩٣٢، كما ذكر أنه كان

عضوا بمعهد الأنينيرب Ahnenerbe (معهد دراسات الجنس الآري) و أنه عمل لفترة كموظف في وزارة الرايخ للثقافة العامة و التوجيه، تحت رعاية جوزيف جوبلز شخصيا، و أنه هو من أوصي بالتحاقه بالـSD.

بالبحث في سجلات الحرب الأخيرة، وجدنا أن الكولونيل المذكور حارب مع فيلق الجيش الألماني الثالث عشر و شارك في جميع معارك الفيلق على الجبهة الغربية. قتل في معركة 'هايلبرون'، ١١ ابريل ١٩٤٥.

تحديثات و ملحوظات:

تحديث ١: بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٤٦ (بواسطة ج. خودوركوفسكي، مساعد أمين الأرشيف)

- تسليم المستند التاريخي عهدة لدي الكولونيل فيكتور فرونوف

تحديث ٢: ٢٤ ديسمبر ١٩٤٨ (بواسطة كولونيل ف. فرونوف)

- تم إرفاق الوثائق التالية بالمستند
    - ○ عدد ٣ وثيقة شخصية: شهادة الميلاد الأصلية للضابط الألماني هاينريش بيكر، شهادة تخرّجه من جامعة ميونيخ، و شهادة الدكتوراه.
    - ○ صورة ضوئية من صفحة ١١١٦ من كتاب تسجيل الزيارات الرسمي للأرشيف الألماني ليوم ٢ ابريل ١٩٤٥، و به اسم الكولونيل هاينريش بيكر و ميعاد وصله (١٠:٤٢ صباحا).
- تعليق من كولونيل ف. فرنوف:

ميعاد زيارة الضابط الألماني، كاتب هذا المستند، كان قبل أيام معدودة من معركة 'مرتفعات سيلو' الحاسمة و التي سبقت سقوط برلين و بوتسدام في أيدي الجيش الأحمر (جبهة بيلاروسيا الأولى تحت قيادة جنرال زوكوف العظيم)؛ مع العلم بأن الكولونيل بيكر كان أصلا ضمن قوات الجيش الألمانية (الفيلق الألماني الثالث عشر) المرابط بالقرب من مدينة شتوتجارت، منذ بداية عام ١٩٤٥، و حتى هزيمتهم أمام القوات الأمريكية (الفيلق السادس الأمريكي) في معركة 'هايلبرون'، و التي مات خلالها الكولونيل بيكر نفسه، يوم ١١ ابريل ١٩٤٥.

إذا الكولونيل بيكر اضطر، و بالرغم من قرب هجوم القوات الأمريكية، إلى قطع مسافة ٦٠٠ كم شمالا، إلى بوتسدام، حيث الأرشيف الألماني، ليصل قبل سقوط المدينة في أيدي القوات السوفيتية لتنفيذ مهمة في غاية الأهمية. و إنه، و بعد تنفيذ مراده، عاد مرة أخرى إلى وحدته العسكرية ليشارك في المعركة المرتقبة. تفسيري الشخصي لقيام الكولونيل بيكر بهذه الرحلة الشاقة، في ذلك الوقت العصيب، هو أنه ربما يكون قد حضر خصيصا لينزع الصفحات الناقصة من هذا المستند (صفحات ٦٦- ٩١)، و إن كان استنتاجي صحيحا، فإن هذا التصرف يؤكد خطورة و أهمية المعلومات التي بتلك الصفحات المفقودة.

تحديث ٣: ١٥ نوفمبر ١٩٥٨ (بواسطة كولونيل ف. فرنوف)

- أنباء عن رؤية الكولونيل هاينريش بيكر في أحد شوارع مدينة بيونس آيرس؛ مصدر المعلومة، تسريب لمراسلة بين السفارة الإسرائيلية في الأرجنتين و تل أبيب، بتاريخ ٨ نوفمبر الجاري، ذكر خلالها أن فرقة اغتيالات تابعة للموساد حاولت تتبّع الكولونيل بيكر و تصفيته، لكنه هرب منها.
- قمت أنا كولونيل ف. فرنوف بالاتصال بالسفارة السوفيتية في بيونس آيرس و الطلب منها متابعة هذا الموضوع مع تكليفها بتشكيل فريق محترف لتتبّع هذا الضابط المختفي.

تحديث ٤: ١ مارس ١٩٦٢ (بواسطة ت. تاركوفسكي، مساعد أمين الأرشيف)

- عودة المستند، مع ملحقاته المضافة، إلى الأرشيف الروسي السوفيتي المركزي بعد مقتل العقيد بريجنيف في عملية وطنية.

- إدراج المستند تحت تصنيف ’ملف تاريخي سرّي‘ - غير قابل للاطلاع دون إذن كتابي من رئاسة المديرية الأولى.

تحديث ٥: ١٥ يناير ١٩٩٣ (بواسطة السيد ألكسندر زلوبن)

- نقل المستند إلى أرشيف الفيدرالية الروسية الجديد

تحديث ٦: ٢٣ ابريل ٢٠١٢ (بواسطة السيد إليكسي بلينسكي)

- تخفيض مستوي التصريح الأمني المطلوب للاطلاع على المستند، التوصية برفع المحتوي على الأرشيف الإلكتروني و السماح للمتخصصين و الأكاديميين بالاطلاع على المستند.

١١

مستند ١٨٨٦٧T

عملية ’ إعادة إحياء شبكة المستشار السريّة‘

عملية فرعية: ’لوفنبرانكه‘ (مخلب الأسد)

بحث و تقرير من هاينريش بيكر، الكابتن في الفرقة الثانية مشاة ميكانيكية، و العضو في الـSD، عن المهمة التي كلّف بها من طرف الإدارة E، في الفترة من فبراير إلى أكتوبر ١٩٣٨، كجزء من حملة إعادة التواصل مع شبكات المصالح الألمانية في الشرق الأدنى التي كوّنت أثناء الفترة القيصريّة، المعروفة داخليا باسم ’شبكة المستشار السريّة‘، و التي انقطع الاتصال بها قبيل الحرب العظمي الأخيرة.

أوراق اعتماد الباحث:

- مواليد ١٩٠١
- حاصل على درجة الدكتوراه في الدراسات الشرقية و دراسات الشرق الأدنى من جامعة ميونيخ عام ١٩٣٢
- عضو في معهد الأنينيرب Ahnenerbe (معهد دراسات الجنس الآري)
- عمل من ١٩٣٣-١٩٣٦ موظفا في وزارة الرايخ للثقافة العامة و التوجيه
- بناءً على توصية من السيد جوزيف جوبلز، تم إلحاقه بجهاز الاستخبارات للحزب النازي (SD) عام ١٩٣٦.
- التحق بخدمة الجيش يناير ١٩٣٧.

تبدأ علاقتي، أنا هاينريش بيكر، الكابتن في الفرقة الثانية مشاة ميكانيكية، بما يعرف كوديا بعملية "إعادة إحياء شبكة المستشار السرية"، إلى يوم الجمعة الموافق ٨ أبريل ١٩٣٨، الساعة ١١:٣٥ صباحا؛ إذ و في هذا التوقيت، تم استدعائي إلى مكتب السيد أرنولد فايدلر، رئيس الإدارة E (إدارة استخبارات أوروبا الشرقية) ليكلّفني بأحد أجزاء هذه العملية و التي أعلن عنها لأول مرة صبيحة ذات اليوم.

فقبل ثلاث ساعات من لقائي برئيسي المباشر، كان هو شخصيا في اجتماع عاجل و مهم، جمعه مع الجنرال راينهارت هايدريش، مدير جهاز الـSD، بحضور كل رؤساء الإدارات التابعة لـ'قسم الاستخبارات الخارجية'. أخبرهم الجنرال هايدريش أن الرايخ – و بالتالي الجهاز الاستخباراتي أيضا – على أعتاب مرحلة تاريخية فارقة: الـAnchluss (الاتحاد مع النمسا) تم أخيرا و من المتوقع أن تتطور الأحداث على الجبهات الخارجية بسرعة لا يمكن التنبؤ بها. الفوهرر شخصيا اتّصل به و طلب منه التوسع رأسيا و أفقيا في نشاط الـSD الاستخباراتي خارج حدود الوطن في الفترة المقبلة، خصوصا بعد عدم استطاعة الـAbwehr (المخابرات العسكرية) التوسع بما يكفي في العمليات الاستخباراتية الخارجية في الفترة الأخيرة.

و بالطبع أبدي رؤساء الإدارات جاهزيّتهم المطلقة، و استعدادهم للتوسع في الشبكات الاستخباراتية المتواجدة في كل الأماكن الحيوية في أنحاء أوروبا، بل و إنشاء شبكات أخرى في أماكن جديدة إن اقتضت الحاجة. شكر مدير الجهاز للجميع حماسهم و أخبرهم أنه سيعطي دعمه الكامل لأي خطط بهذا الخصوص، لكنه أضاف أنه لا يمكننا الانتظار لحين إنشاء شبكات جديدة أو حتى تجنيد أشخاص جدد للشبكات الحالية، فالوقت ضيق و المطلوب كثير. كانت عنده فكره مثيرة لتلبية الاحتياج الطارئ و العاجل للإرادة السياسية في التوسّع في استجلاب المعلومات: فاجأ الجميع برغبته في إحياء ما تم التعارف عليه خارج الأوراق الرسمية بـ'شبكة

المستشار السريّة'، تلك الشبكة الخصوصية الغامضة التي أنشأها موحّد الألمان في القرن الماضي، المستشار العظيم الراحل، الأمير أوتو فون بسمارك.

إنها شبكة سريّة مبهمة التأسيس و المهام، لا وجود لها داخل أروقة و أوراق الجهاز العسكري و البيروقراطي القيصري، و لا دليل على وجودها إلا في مقاطع نادرة في أوراق المستشار الراحل و بعض أوراق رسمية متفرقة هنا و هناك. لا معلومات عن أفرادها أو نشاطاتهم أو مهامهم، إلا ورقة غير رسمية عثر عليها مبكرا وسط أوراق البارون هلموت بلامان - أحد كبار موظفي المستشارية - بعد وفاته عشيّة الحرب العظمي، مايو ١٩١٤. الورقة تحمل إمضاء الأمير بسمارك و تأمر بصرف مكافآت سنوية لعدد خمسة أشخاص، يحملون أسماءً كودية، جزاء خدماتهم الشخصية للمستشار في أماكن متفرقة من العالم و مصاريف شبكات اتصالهم في بلدانهم المذكورة..

و في الاجتماع قام الجنرال هايدريش بإخراج هذه الورقة المذكورة و توزيع نسخ مصوّرة منها على الحضور، و في الدقائق الأخيرة من الاجتماع قام بإسناد المهام إلى رؤساء الإدارات و تكليفهم بسرعة البحث عن هؤلاء الأشخاص الخمسة و استكشاف وضعهم الحالي و وضع شبكاتهم التجسّسية السابقة و إمكانية إعادة تنشيطها مرة أخرى لخدمة الرايخ الثالث

و من الشخصيات الخمس، كان الشخص المسجل تحت الإسم الكودي "لوفنبرانكه" (مخلب الأسد) من نصيب الإدارة E.

و بعد أقل من نصف ساعة من انتهاء الاجتماع، كان السيد أرنولد فايدلر، رئيس الإدارة E، يستدعيني إلى مكتبه و يكلّفني بالمهمة كليّة؛ كيف لا و أنا أكثر شخص في الإدارة مؤهل لمتابعة عملية تتبّع و إيجاد هذا الجاسوس المفقود: فالسيد لوفنبرانكه أو مخلب الأسد، و كما مدوّن بالوثيقة الغير الرسمية، كان مواطنا للإمبراطورية العثمانية و موظفا بالباب العالي - و أنا بحكم اعتماداتي الأكاديمية، أعتبر الخبير الأعلى بشئون الشرق الأدنى بالإدارة، إن لم يكن بجهاز الـSD كله.

و فور عودتي إلى مكتبي، أغلقت على نفسي الباب فترة ست ساعات متواصلة، حتى هديت إلى خطة عمل مناسبة. عُدت إلى السيد فايدلر و عرضتها عليه، و بعد موافقته المبدئية قررت البدء في التنفيذ فورا، ابتداءً من صباح اليوم التالي.

بحسب الخطة الموضوعة، كانت الخطوة الأولى تتمثل في تجميع المعلومات من كل المصادر: بدءا من مراجعة أرشيف الرايخ في بوتسدام، وصولا إلى مراجعة الأشخاص القريبين من المستشار الراحل، خصوصا الباقين على قيد الحياة، خصوصا ممن جمعتهم به ظروف العمل، سواءً في الاستشارية أو حتى في قصره الشخصي.

و لأجل هذه المهمة، كوّنت فريق عمل من ثلاثة أشخاص؛ بدأنا في البحث سريعا، مع الحرص التام على التواصل مع كل فرق العمل من جميع الإدارات.

و برغم الوقت و الجهد، كانت النتائج الأولى شحيحة، و بدت غير مشجّعة و لا واعدة بأي حال، لكن بعضها أظهر الأهمية لاحقا.

أولا، تقرير للشرطة عن زيارة شخص غامض لضيعة المستشار التي تقاعد إليها أواخر حياته - الفريدريشرو - يوم ٢٠ يونيو ١٨٩٨، حاملا مسدسه و مطالبا في غضب بمعرفة هوية الجاسوس 'الدونمة' العثماني و بالقائمة الكاملة لشبكته الكبيرة!

ثانيا، خطاب غريب تلقّته وزارة الخارجية الألمانية في مارس ١٩٢١، موجّه إلى البارون بلامان، مساعد البارون بسمارك في الاستشارية.. الخطاب مرسل من القاهرة، و عبارة عن عشر ورقات كبيرة، و مكتوب بلغة شرقية غريبة. بعد استشارة الخبراء، توصّلنا إلى أنه مكتوب بلغة اللدينو - إحدى لغات اليهود السفارديم - لكن و برغم ذلك لم نستطع أن نستخلص إلا القليل من المعلومات، إذ أن الخطاب مقسّم إلى قسمين، كل قسم باستخدام كود تشفير مختلف عن الآخر.. الأول كان سهل الفك، إذ كان مستخدمها داخل

المؤسسة العسكرية الألمانية منذ أمد بعيد، يصل إلى الحرب البروسية- الفرنسية نفسها، عام ١٨٧٠ . لكن القسم الثاني كان مشفّرا بكود أشدّ تعقيدا و لم نتمكّن من فكّه أبدا. الجزء الذي فكّت شفرته يكشف فيه مرسل الخطاب أنه كان يعمل لدي المستشار الراحل في الأراضي العثمانية و أنه يعرض خدماته على الدولة الألمانية الجديدة و يطلب أن يُسأل عن كفاءته و إمكانياته لدي البارون بلامان. لكن الأخير كان قد توفي في وقت تلقي الخطاب، لذا لم يولي الخطاب أي اهتمام بعد ذلك و أودع في أرشيف الخارجية و أرسلت نسخة منه إلى أرشيف بوتسدام.

الخطاب يحمل بصيص أمل، فمما لا شك فيه أن مرسل هذا الخطاب هو السيد مخلب الأسد، الجاسوس الذي أبحث عنه، و من الواضح أنه على استعداد لتقديم خدماته للرايخ، و هذا بالضبط ما نريده من جرّاء هذه العملية. المشكلة الحقيقية هي أنه لم يوفّر في خطابه (على الأقل في الجزء الذي تم فك شفرته) أية طريقة للتواصل معه.

بعد العثور على تقرير الشرطة و خطاب وزارة الخارجية، توقّفت جهودنا لفترة كبيرة نتيجة عدم عثورنا على أية معلومات جديدة.. أخيرا، و بعد خمسة و أربعين يوما من بداية التكليف، كانت الانفراجة على يد فريق الإدارة B و المسئول عن البحث عن عميل آخر لشبكة المستشار بسمارك لكن في منطقة أوروبا الغربية.

كان الكشف عبارة عن خزانة كتب كاملة في فندق قديم في بلدية 'بانكو' بشمال برلين، أوصي صاحبها - و الذي كان يقيم في الفندق الفترة الأخيرة من عمره - بإحالتها إلى المخابرات العسكرية بعد وفاته. بعد التقصّي من جانب المخابرات العسكرية، توصلوا إلى أن صاحب خزانة الكتب هو الكولونيل مالكوم أدلر، الحارس الشخصي و المرافق الدائم للمستشار الراحل، و الذي اختفي من الساحة تماما بعد وفاة المستشار بسمارك.. أي منذ ما يناهز الأربعين عاما.

و بعد مثابرة من فريق الإدارة B - بالإضافة إلى العلاقة الشخصية القوية التي تجمع رئيس الفريق بالشخصيات المناسبة بالمخابرات العسكرية - سمح لهم بالاطّلاع على محتويات الخزانة.

و من كل الكتب و المتعلّقات الشخصية كانت مذكّرات العسكري الراحل هي الأهم؛ إذ و في أحد أبواب المذكّرات أتى ذكر زيارة شاب تركي حرص المستشار على لقائه شخصيا، ملقبّا إيّاه بـ 'لوفنبرانكه' (مخلب الأسد)، إضافة إلى صورة ملحقة تظهر هذا الشاب الشرقي مع الأمير بسمارك في حديقة الفريدريشرو (الضيعة الشخصية للمستشار).

و بظهور صورة 'مخلب الأسد'، تجدّدت الهمّة في صدري من أجل استكمال البحث عنه مرة أخرى، و عدت أجهد نفسي، مفكّرا مرة أخرى في السبيل الأمثل للعثور على تلك الشخصية الافتراضية، و التي ثبت أخيرا أنها شخص حقيقي من لحم و دم.

و في الأسبوع الأخير من مايو بدأت فكرة مناسبة تتبلور في عقلي.

و كانت البداية من كلمة "دونمة" نفسها..

كنت طوال الوقت أحاول البحث عن معنى لتلك الكلمة التي أطلقها ذلك الزائر الغريب الذي اقتحم إقطاعية الأمير بسمارك في أيامه الأخيرة. بحثت في عدة مراجع مختصّة بالفرق و النحل الدينية و العرقية المختلفة في أوروبا حتى توصّلت إلى ماهيّة الكلمة: الدونمة هم فرقة من الفرق اليهودية المارقة، نشأت و ازدهرت في الإمبراطورية العثمانية في القرن السابع عشر، و انتشرت منها إلى انحاء شتي في أوروبا، خصوصا في بولندا، و لا توجد أي أنباء عن مصيرها في القرون اللاحقة.

غير ذلك، لم أجد مادة علمية معتبرة ذات قيمة، و لم أر ساعتها ما يربط بين شاب تركي و كلمة "دونمة"، و اكتفيت بفرضيّة أن الكلمة مجرّد اسم كودي آخر للعميل التركي.

لكن و بمرور الوقت خطر ببالي خاطر: ماذا لو لم تكن كلمة 'الدونمة' اسم كودي أو كنية للعميل العثماني.. ماذا لو كانت وصف حقيقي للجاسوس التركي؟ ماذا لو كان هذا الجاسوس يتبع تلك الفرقة اليهودية بالفعل؟ و إذا كان الأمر كذلك، ألا تكون هذه نقطة بداية مناسبة للبحث عنه؟

ماذا لو كانت طائفة الدونمة هذه لا تزال موجودة إلى يومنا هذا؟ ماذا لو كان "لوفنبرانكه" مختبئا وسط أهله و عشيرته من أبناء الطائفة الآن؟ ماذا لو بدأنا بالبحث عنه وسط عائلات الدونمة، بدءا من آخر مكان نعلم بوجوده فيه: من المكان الذي أرسل منه خطابه الأخير، من القاهرة؟

عندما تملّكت منّي تلك الفكرة، لم يكن أمامي إلا اختبارها.. و بسرعة قمت بزيارة الكولونيل المسئول عن إدارة الشئون العرقية بقسم الاستخبارات الداخلية، و طلبت منه طلب أثار استغرابه أول الأمر: طلبت منه الاتصال بأحد قادة الوكالة اليهودية – الذراع التنفيذي للمنظمة الصهيونية العالمية – و ترتيب لقاء لي معه. و بعد سرد سبب طلبي و إيضاح وجاهته، وافق الكولونيل و بدأ في إجراء ترتيباته للقاء، و الذي ما كان ليتم إلا خارج الحدود، لاستحالة موافقة أي يهودي في الفترة الحالية على الدخول إلى أراضي الرايخ الألماني.

لكن قبل الاتصال بالمسئول الصهيوني، كان لابد من توفير حافز يجبر هذا اليهودي على الموافقة على اللقاء مع المخابرات النازية؛ و بالفعل بعد الاتّفاق مع كولونيل الشئون العرقية، تم الترتيب للبحث عن عائلة يهودية كبيرة، ذات علاقات نافذة في الوسط اليهودي، مع الحرص على أن تكون من مدينة حضرية كبري، و أن يكون أفرادها من الصنعة المحترفين أو أكاديميين جامعيين من الذين لم يتسنّى لهم الهرب من ألمانيا بعد. (كانت الفكرة أن تكون العائلة المقبوض على أفرادها من تلكم التي تحرص الوكالة اليهودية على إنقاذها و تهجيرها إلى مستوطنات فلسطين).

و بالفعل تم الاستقرار على عائلة نالدير، صنّاع الساعات، و القاطنين في وسط المدينة بفيينا.. تم القبض عليهم مطلع يونيو، و توجيه إليهم عدة تهم

خطيرة مثل الشيوعية و التجسّس و إنشاء تنظيم يهودي ماسوني يهدف لمناوئة الاتحاد الألماني-النمساوي؛ تهم عقوبتها الإعدام مباشرة.

و بعد عدة أيام جري الاتصال بشالوم لاسكر، عضو الوكالة اليهودية في زيورخ، بسويسرا (و الذي تنحدر أسرته من حارة اليهود بفرانكفورت، الجيتو الأشهر و الأقدم في ألمانيا). كانت الرسالة واضحة: من الممكن الإفراج عن عائلة نالدير، بل و حتى السماح بهجرتهم لفلسطين، لكن سيكون لذلك ثمن زهيد، عبارة عن بعض المعلومات. وافق شالوم لاسكر مبدئيا و تم تحديد ميعاد للمقابلة في زيورخ.

و بالفعل، قمت بالسفر إلى المدينة السويسرية منتصف الشهر و تقابلت مع المسئول اليهودي. جرت المقابلة على أحسن مما توقّعت: مباشرة، أخبرت شالوم لاسكر استعدادنا للإفراج عن أفراد العائلة اليهودية بشرط مساعدتنا في إيجاد يهودي دونمة معيّن يسكن في القاهرة. و للغرابة، لم يظهر على لاسكر كثير من تردّد أو ضيق (فهمت من باطن كلماته أن اليهود، الأرثوذكس المتديّنين منهم و حتى العلمانيين، لا ينظرون للدونمة بعين الرضا و يعتبرونهم فرقة مارقة). أبدي استعداده للمساعدة، و إن أوضح شكوكه في إمكانية التوصّل بسهولة للرجل المطلوب. أخبرني أنه سيسافر لفلسطين بعد أيام قليلة في صحبة فوج جديد من اليهود المهاجرين، و أنه أثناء الزيارة سيحاول اللقاء مع أحد حاخامات الفرقة السبتية في غزة و يافا - و التي نشأت مع فرقة الدونمة في وقت متقارب - و أنه ربما استطاع أن يحصل من خلالهم على أية معلومة.

و بالفعل حافظ اليهودي على طرفه من الصفقة، إذ و بعد عشرين يوما بالتمام و الكمال، أرسل لي تليغرافا به أسماء ثماني أسر من الدونمة تسكن القاهرة.

و بعد الاستئذان من رئيسي المباشر، السيد أرنولد فايدل ، رئيس الإدارة E، أنهيت ارتباطاتي بالإدارة و سلّمت مهامّي الأخرى، و من فوري بدأت في تجهيز أحوالي، استعدادا للسفر إلي القاهرة للبحث عن العميل العثماني المطلوب.

مطلع الأسبوع التالي كنت أطأ شوارع العاصمة المصرية لأول مرة في حياتي.

و بعد ستة عشر يوما من وصولي إلى القاهرة، أرسلت تلغرافا إلى فندق متروبول (مقر الجستابو في فيينا) حاملا أمري المباشر بالإفراج عن عائلة نالدير، إتماما لطرفي من الصفقة مع الوكيل اليهودي. ذلك لأني، و بعد بحث و تتبّع مضنيين للأسر المصرية الثمانية، كنت قد عثرت أخيرا على غايتي: رجل مهذب عجوز بالغ الطول، له شارب و لحية خفيفان، تجاوز الثمانين من العمر، و يشبه إلى حد بعيد ذلك الشاب التركي في الصورة التي أحملها، و التي يصافح فيها الأمير بسمارك قبل خمسة و خمسين عاما مضت..

في يوم اللقاء المرتقب، انطلقت مبكرا من مقر إقامتي، حاملا معي حقيبة ريموفا كبيرة مجهّزة بجهاز تسجيل صوتي معدّل و مصغّر عن موديل K2 (الذي يعمل بواسطة بكرات الشرائط الممغنطة، و المصنّع خصيصا بواسطة شركة AEG بتكليف مباشر من الـSD). انتظرته عند بيت آل الدونمة الذي يقطن عندهم حتى خرج قبيل منتصف النهار؛ تتبّعته عبر وسيلتيّ مواصلات حتى وصل إلى منطقة وسط البلد. و هناك كانت وجهته مسرح كوميدي في شارع عماد الدين (يشبّهونه هنا بشارع برودواي في نيويورك و وست إند في لندن) ليحضر عرض ماتينيه لعمل ما. مضطرا انتظرته ثلاث ساعات كاملة حتى نهاية العرض.

خرج أخير - متأبّطا عصاه ذات الرأس العاجي و ماشيا في خطوات حيويّة ثابتة كما شاب في الثلاثين - و بقايا ضحك طافية على وجهه العجوز المتغضّن. اقتربت منه في هدوء و همست في أذنه

- مساء الخير هرر لوفنبرانكه.

التفت إلي في دهشة، و إن لم يغادره وقاره و هدوءه قيد أنملة. صافحته ثم أكملت

- ما رأيك أن نجلس في مكان هادئ لنتكلم؟

ابتسم، ثم همس بدوره في صوت رخيم واثق، أن لا بأس.

تمشّينا في الشارع الترفيهي، حتى وصلنا إلى ميدان سوارس، و هناك، و عبر دهليز طويل يفضي إلى حديقة واسعة، وصلنا أخيرا إلى وجهتنا: مقهي ليبتون (مقهي ملك الشاي الأشهر).

كان الوقت حوالي الساعة السادسة و النصف مساءً و الضوء الأخير من شمس القاهرة إلى زوال.

بعد وجبة عشاء خفيفة مبكّرة و كوبيّ شاي، كان "مخلب الأسد" جاهزا لفتح صندوق أسراره..

و بلغة ألمانية سليمة، عديمة اللكنة، تحدّث.

أشرف محجوب

١٢

كل يوم، تستجمّ الحسناء ذات الشعر الأحمر تحت تأثير الخمر و المخدرات.. تتأرجح على الأرجوحة الكبيرة و تتطلّع عبر فتحات البرجولة الخشبية إلى السماء البديعة بنجومها المتلألئة، و تسبح في أحلام اليقظة لتنهي اليوم في استرخاء و في حالة من النيرفانا النفسية و الروحية..

لكن ليس اليوم..

بدلا من الجرعة العادية، أخذت جرعتين من العقار المخدر، و بدلا من كأس أو اثنين، شربت زجاجة ويسكي كاملة، لكن دون جدوي!

كانت تحاول بأقصى ما في وسعها الهروب من وخزات ضميرها الصارخ في ألم و من تذكّر تلك الكارثة المحدّقة بها و بعائلتها.. كانت تريد أن تنسي، أن تمنحها الخمر و المخدرات طريق هروب و لو مؤقت من مرارة الواقع، أن يغشي النسيان عقلها و روحها المعذبتين و لو لبرهة قصيرة من الوقت..

لكن بدلا من أن تسترخي، انتابتها حالة من الذعر المخلوط بالاكتئاب و البؤس..

ها هي إيلين وحدها في طابق الرووف (السطح)، كعادتها في مثل هذه الساعة من كل ليلة، لكنها اليوم منهارة القوي، متمددة على الأريكة المتأرجحة و تتطلّع إلى السماء المظلمة و الدموع تسيل من عينيها دون بكاء أو نشيج.. معنوياتها في الحضيض، و الدنيا مسودّة في وجهها.. لم تكره و لم تحتقر نفسها أبدا كما الآن. تغمرها حالة من اليأس و القنوط الشديدين. و فجأة، تراودها فكرة قهرية في إنهاء كل شيء بإلقاء نفسها في الحال من هذا الطابق المرتفع.

لحسن الحظ لم يستقر هذا الخاطر في وجدانها طويلا، إذ و كما في المرة السابقة، تنشقّ الأرض عن حازم شاهين، لتجده أمامها مستندا إلى سور السطح

نافخا دخان سيجارته في هدوء. كان وجهه جامدا متجهّما، لكنه عندما نطق، خرجت كلمات في لهجة واثقة مداعبة.

- ازيك يا إيلي.. الجو النهاردة بديع.. باقولّك.. شفتي زهور البنفسج الجديدة اللي زرعتها من شهر في الجرين هاوس.. النهاردة فتّحت.. لازم تنزلي معايا عشان تشوفيها.. دي شكلها تحفة..

اعتدلت إيلين في تثاقل، ثم ضحكت من وسط دموعها.. تكلمت ببطء و خرجت كلماتها ممطوطة معوجة..

- ما تقلقش.. أنا كسرت أصّيص الزرع اللي فيه الميكرفون و رميته خلاص..

التفت حازم إلى صف النباتات، ليجد بالفعل أن موضع أصّيص نبتة الصبّار قد صار خاليا. فقدت لهجة حازم مرحها و اصطبغت بذات الجديّة التي على وجهه

- ليه عملتي كده؟ مش خايفة يشك فيكي؟
- يشك فيّا أحسن ما يسمعني و انا بأهلوس من الهيروين..

هزّ رأسه متفهما، ثم ألقى بسيجارته على الأرض و دهسها في قسوة

- و يا تري مبسوطة من الحالة اللي انت فيها دي؟
- Que puis je faire?

ترك حازم مكانه عند السور، و جلس على كرسي من الخشب الخوص. شبّك يديه و رجليه.

- أي حاجة غير اللي بتعمليه في نفسك ده..
- باحاول اهرب من الدنيا، من إني تافهة و من إني ضيّعت عمري مع واحد ما بحبّوش، بل و باكرهه و احتقره كمان، باهرب من

ملل و سخافة حياتي.. و أيوه باعترف، باهرب من نتيجة تصرّفاتي اللي هتخليني اشوف بنتي و هي بتقع ضحيّة لشيطان..

و انهارت باكية..

ناظرا إليها بغير تعاطف، فكّ حازم تشابك يديه، و أخرج سيجارة جديدة..

- انتي طبعا عارفة ان انتي بإيدك تحلّي الكارثة دي كلها.. اعترفي لجوزك و لبنتك، و الموضوع كله يخلص..

توقفت عن البكاء بغتة، و نظرت إليه في كراهية و غلّ و قد انتبهت لوهلة من نوبة السُكر..

- دانا اقوم ارمي نفسي من فوق هنا أكرم لي..

وضع حازم السيجارة في فمه و أشعلها في هدوء، تمتم

- عندي طريقة ممكن نحلّ بيها الموضوع من غير فضايح..

غمرتها الفرحة من جراء كلماته الواعدة المبهمة، حاولت القيام إليه بسرعة لتشكره أو لتقبّل يديه، لكن إفراطها في المخدرات و الخمر أفقدها القدرة على التوازن، فسقطت إلى الأرجوحة الخشبية مرة أخرى، لتتأرجح بها بعيدا

- بجد؟
- بس، ما اظنش اني هاعمل حاجة..

سحب دخان سيجارته ثم بصقه ناحيتها في احتقار واضح..

- عشانك..

أوقفت تأرجحها بصعوبة، و الدموع تسيل من عينيها

- انت بتعمل فيّا كده ليه؟

- مش هاقول عشان انك مرات ابويا المنحلّة اللي بتخونه، و لا لأنك، بأفعالك المشينة، وضعتينا في الموقف الحقير ده..
- أوعدك اني هاتوب.. أنا خلاص توبت فعلا. من آخر مرة اتكلمنا مع بعض فيها من شهرين، ما شفتش أشرف و لا غيره، و لا حد لمس مني شعرة.. أرجوك سامحني، ده ربنا بيسامح..
- مش مصدّقك.. بالتفكير العلمي و المنطقي، انتي مدمنة و فاقدة السيطرة على نفسك و ممكن تكرري اللي عملتيه ده تاني.. بل و أسوأ منه..
- هابطل الهيروين و الشُرب كمان.. أوعدك..
- كان غيرك اشطر..

قامت من جلستها، تهمّ ناحيته، لكنها سقطت على الأرض و قد اختلّ توازنها مرة أخرى.. زحفت على ركبتيها متوسّلة

- أرجوك.. جرّبني..

رمقها بنظرة صارمة.

- انتي هتدخلي مصحّة عشان تتعالجي..
- إيه؟
- لو عاوزة تطلعي من الموضوع من غير ما تتفضحي، يبقي تقبلي الشرط ده من غير تفاوض..
- طب و هاقول للناس إيه؟ هاقول لباباك إيه؟
- هتطلعي رحلة لأوروبا لمدة شهر، هتقولي انك هتقعدي عند اخوكي في سويسرا.. بس هناك هتدخلي المصحّة فعلا..
- هافكّر..
- انت ملكيش اختيار يا إيلين.. يا إمّا توافقي دلوقتي، يا إمّا بكرة الصبح سيادة اللوا و اختي ريم هيكونوا عارفين الحقيقة..
- ده تهديد!
- طبعا تهديد..

- انت بتجبرني على حاجة صعبة جدا عليّا دلوقتي..
- للأسف يا إيلين، هي دي الطريقة الوحيدة اللي هتخليني اشتغل و اخاطر و انا مطمّن ان اللي باعمله ده مش هيطلع بعد كده على فشوش..

تطلّعت إلى يديها الذابلتين، و استعاد عقلها بعضا من صفائه.. تنهّدت في استسلام

- موافقة..

قام حازم و قد ارتخت ملامحه بعض الشيء..

- كده تمام.. بينا بقي على الشغل الحقيقي.. قومي هاتي موبايلك، و اتصلي بأشرف.. آه، كلميه، قولي له انك عاوزة تقابليه بكره..

١٣

الخميس ١٠ يونيو ٢٠١٠

الساعة الثالثة عصرا، و الجو حار خانق.. لكن تقليصا للنفقات، كانت كل مكيّفات الصالة مغلقة.

المكان يغطّ في حالة من السكون العام إلا من موسيقي شرقيّة قديمة – صادرة من جهاز كاسيت ياباني عتيق – و راقصة كهلة ترقص في كسل واضح. العرق يغمر كل جزء مكشوف من جسدها الممتلئ، فيكشف لمعانه تحت الضوء الصناعي كل عوراتها القبيحة المنفّرة، بداية من جرح قيصري مندمل في البطن، مرورا بصدر ضخم مترهل، إلى وجه متغضّن، مرهق من السهر المزمن و إدمان الخمر الرديئة، وانتهاءً بشعر ملطّخ بأصباغ رخيصة ذابت تحت تأثير الحرارة و العرق.

لكن وجود هذه الراقصة 'المنتهية الصلاحية' على خشبة المسرح كان منظرا طبيعيا و غير مستغرب على الإطلاق. إن هي، و رقصتها السخيفة، إلا كمالة منظر للكازينو في هذه الساعة الميّتة من اليوم.. كيف لا، و زبائن هذه الساعة عادة من الغير الجديرين بالاهتمام، فهم خليط من السكارى المزمنين، العاطلين و الهاربين من حرّ الشارع أملا في زجاجة بيرة باردة أو كأس من الخمر الرخيصة. الزبائن المحترمون، ذوو الجيوب العامرة بالبنكنوت، و المخضرمون في السهر و الفرفشة الحقيقية يأتون ليلا.. و هؤلاء، و فقط هؤلاء، هم من يستحقون الأفضل..

إنه 'كازينو تولوز'، الكائن في شارع الجنينة (على الكسار)، واحد من أشهر كازينوهات منطقة الأزبكية التاريخية. مبنى عريق بني في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، في الرمق الأخير من فورة بناء الكازينوهات و الملاهي

لخدمة الضبّاط و الإداريين البريطانيين و الأجانب الوافدين - بالطبع إلى جانب أمراء الأسرة العلوية و طبقة النبلاء و الأثرياء المصريين الذين اجتذبهم هذا النمط من الحياة الغربية الراقية الممتعة. أنشأ هذا الكازينو رجل سويسري يدعي 'هنري زيلفايجر'، مقاول أعمال ترفيهية و صاحب سيرك سابق، أغراه النمو العمراني و الترفيهي المتسارع للقاهرة في ذلك الوقت، فجاء إلى العاصمة المصرية أملا في نصيب من الكعكة الكبيرة. بعد مراقبة و دراسة الحالة الاقتصادية و المزاجية لسكان المدينة المقتدرين ماديا، قرّر الرجل أن يبني ملهي على النمط الأوروبي الرائج في ذلك الوقت، مستلهما 'بار دير أكاتوس' و 'كافيه إجبسيان'، الكائنين على أطراف شارع وجه البركة (نجيب الريحاني)، مقصد الأمراء و كبار الأعيان، أمثال الأمير أحمد فؤاد (لاحقا السلطان و الملك) و الأمير الفاحش الثراء أحمد كمال رفعت.

شيّد هنري زيلفايجر مبنى الكازينو كقطعة معمارية بارعة الجمال و الأبّهة، ثم و بواسطة خبراته و علاقاته المهنية في المجال الترفيهي، استطاع أن يستقطب فرقة استعراضية محترفة من باريس و أوركسترا موسيقية من فيينا، إضافة إلى عدد لابأس به من الجميلات لخدمة الموائد (و أخريات لمرافقة الأمراء و الأثرياء إن اقتضي الأمر، مع مراعاة ألا يكون ذلك نشاطا تجاريا معتادا معلنا، حتى لا تتلوث سُمعة الكازينو فينحدر إلى مستوي 'كازينو دي بار' - ملهي مدام مرسيل، قوّادة الأغنياء الشهيرة، أو إلى أسوأ فتتم مقارنته بالحانات و عُلب الدعارة الشعبية في شارع كلوت بك القريب). أنفق زيلفايجر ثروته الطائلة في بناء الكازينو و تجهيزه، ثم في الدعاية له في أوساط أعيان العاصمة المصرية، لكن العجوز السويسري القادم من أوروبا لم يستطع أبدا فهم المصريين و لا استطاع إرضاء أذواقهم، و فشل فشلا ذريعا في مناطحة أساطين المتعة و الترفيه في منطقة الأزبكية؛ و بالفعل، و بعد المحاولة عبثا لبضعة سنوات عجاف، اضطر إلى بيع الكازينو و العودة إلى بلده، مفلسا يجرّ وراءه أذيال الخيبة.

المالك التالي للكازينو كان 'ديونيسيوس كوستوبولوس'، موظف سابق في شركات اليوناني السكندري الأشهر 'جورج أفيروف' (التاجر اليوناني

النافذ و صاحب النشاطات التجارية العديدة، و التي تبدأ بالبنوك و تجارة العقارات و لا تنتهي بأسطول الزوارق التجارية النهرية؛ هو أيضا اليوناني الوطني، الشهير في وطنه الأم كأحد أكبر ممولي أول دورة أولمبية حديثة، أثينا ١٨٩٦). كوستوبولوس هذا بعد استقالته من خدمة المليونير اليوناني السكندري تحول إلى مضارب في بورصة القطن لفترة من الوقت، لكن عندما لم يحالفه الحظ في إحدى المضاربات الكبرى، آثر السلامة و تحوّل إلى مهنة أقل مخاطرة، ألا و هي تجارة الخمور و تعهّد حفلات الأسر الثرية. أمضي الرجل جلّ شبابه في الترحال ما بين القاهرة و الإسكندرية حتى حقّق ثروة معقولة، لكن كوستوبولوس المغامر بطبعه حين وجد كازينو تولوز الراقي معروضا للبيع بسعر مناسب، قام بشرائه على الفور و قرّر تغيير مهنته دون تردّد.

قام بتجديد الكازينو، ثم بين ليلة و ضحاها قام بتحويل نشاطه الفني و الترفيهي، من موسيقي و فقرات استعراضية أوربية الطابع إلى أخرى مصرية عربية كما في الكازينوهات الشعبية. إذ و مع بدايات القرن العشرين، صار أغلب رواد الملاهي و البارات من المصريين أنفسهم، خصوصا من أبناء الطبقة المتوسطة. و على الفور قام كوستوبولوس بالاستعانة بفنان سوري موهوب و طلب منه تصميم استعراضات و فقرات جديدة، مقتبسة قدر الإمكان من تلك المعروضة في كازينوهات 'الإلدورادو القديم' في شارع كلوت بك و 'الإلدورادو الجديد' في شارع وجه البركة و 'ألف ليلة' في شارع البواكي. كما قام كوستوبولوس أيضا باستقطاب المغنيين الشعبين من أمثال منيرة المهدية و توحيدة، و المنولوجست من الشوام و المصريين و الراقصات من أمثال شفيقة القبطية لإحياء ليالي ثابتة طوال أيام الأسبوع، إضافة بالطبع إلى بناء عدة شقق صغيرة فوق سطح الكازينو و استخراج تصريح رسمي من الحكومة لممارسة البغاء فيها.

شهد الكازينو فترة رخاء طويلة تحت إدارة ديونيسيوس و ابنه من بعده؛ كانت ذروة النجاح في الفترة الممتدة من ١٩٢٠ لـ١٩٤٩. لكن بعد نكسة ١٩٦٧ و بداية الأزمات الاقتصادية المتلاحقة تدهور حال الملهي — كما حال

الصناعة ككل- بصورة متسارعة. باعت عائلة كوستوبولوس الكازينو و عادوا إلى اليونان مطلع السبعينات، لتؤول ملكية الملهي التاريخي إلى المصريين أخيرا: بداية بتاجر أثاث مصري أراد هدمه و تحويله إلى مخزن أخشاب لكنه أفلس قبل أن يفلح في فعلته، ثم إلى منتج أفلام مقاولات ناجح في الثمانينات، و أخيرا إلى رجل أعمال غامض لا يعرف أحد عنه شيئا.

معظم الكازينوهات و البارات في هذا المنطقة أغلقت منذ عقود بعيدة. 'كازينو تولوز' هو واحد من كازينوهات قليلة استطاعت أن تتحدي الزمن و تبقي على نشاطها حتى الآن. صحيح أنه صار متضائل القيمة و المكانة حاليا مقارنة بكازينوهات شارع الهرم، لكنه، بتصميمه الباروك الكلاسيكي داخليا و خارجيا، بالإضافة إلى استمرار البروجرام الاستعراضي، كما كان في فترة الثلاثينات و الأربعينات الذهبية، يثير في الزوّار مشاعر متفرّدة من الحنين للماضي. بالفعل، للكازينو مكانة خاصة في جدول السيّاح، الأجانب شتاءً و العرب صيفا، بالإضافة، بالطبع، إلى الزبائن المعتادين، و المترددين طوال أيام السنة.

كان عدد النزلاء قليلا، بل إنه أقل حتى من عدد الحضور المعتاد في تلك الساعة المبكرة من عمل الكازينو.. ثلاثة من الشباب المتسكّعين يعبّئون الخمر الرديئة عند البار و يشاكسون البارمان، إضافة إلى عجوز رثّ الثياب يقرأ جريدته و يتجرّع بيرة مصرية و فتاة لعوب أتت تستلقط رزقها مبكرا.

لكن، و نشازا وسط هذا الحضور العديم الأهمية، كان يجلس على طاولة بطرف الصالة، شاب لامع المظهر، واثق الملامح و الهيئة، يرشف بيرة مستوردة في استرخاء كبير.

مدّ أشرف محجوب رقبته، و رفع رأسه ناحية المرآة الكبيرة المحيطة بالصالة، يتطلّع إلى صورته في إعجاب شديد.. ابتسم لنفسه في ثقة، ثم غمز لنفسه و كأنما يتبادل سرا ما مع انعكاسه في المرآة.

كان سعيدا، هانئا: كيف لا، و أيامه الأخيرة، من نجاح لنجاح و من متعة إلى متعة..

الأمور في العمل على خير ما يرام.. علاقته برئيسه، مدير أمن القاهرة، ممتازة، و ها هو عبر توصيته، (بالإضافة إلى توصية أبيه الأقل أهمية) يتلقّى خبر الموافقة على انتقاله الشهر القادم إلى جهاز مباحث أمن الدولة، حيث السلطة أعلي، و الصحبة أرقي، و المتعة أشدّ. كان يفكر في حماس في أية إدارة سيطلب الالتحاق. توصية مدير أمن القاهرة من أعلي طبقات الوساطات و من المتوقع أن يتم تدليله بدرجة كبيرة و السماح له باختيار الإدارة التي يريد الالتحاق بها: كان يفاضل بين إدارة مكافحة النشاط الديني المتطرّف و رصد النشاط السياسي و بين إدارة متابعة النشاط الخارجي للتعامل مع السفارات و الجهات الأجنبية.

جرع آخر قطرة من زجاجة الهاينكن، ثم أشار للجرسون ليحضر له أخرى جديدة.. سقط نظره على ساعة الحائط، فإذا هي قد تجاوزت منتصف الساعة الثالثة.

غريبة.. ليس من المعتاد أن تتأخر إيلين عن مواعيدها.

لكن لا ضير، المسكينة لا شك تتوخّي أقصي درجات الحذر حتى تتفادي أية متابعة أو مراقبة، خصوصا في وجود ابن زوجها الوغد.. ذلك الطبيب المريب و الذي بسبب صدفة سخيفة استطاع أن يضعه في هذا الموقف الغير المريح. لكنه، و مهما يكن من أمر غير مستعد على الإطلاق لقطع علاقته بإيلين. هذا لأن إيلين، و على العكس من علاقاته المؤقتة أو الدائمة مع النساء (و هي علاقات كثيرة متعددة)، امرأة مختلفة متفرّدة لا مثيل لها. صحيح أنها أكبر منه بخمس عشرة سنة، إلا انها بثقافتها، و رُقيّها، و أنوثتها المتألّقة، ملكت عليه قلبه دون منازع. (هذا بالإضافة إلى كونها زوجة رئيسه المباشر في العمل، ما يضفي على العلاقة إثارة و نشوة لا مثيل لها.)

تذكّر التاريخ الوجيز لعلاقته بإيلين، من تمنّع و استنكار أول الأمر، ثم تحسّن تدريجي لم يشبه إلا مطبّات بسيطة.. بالوتيرة التي كانت تسير عليها الأمور كان سيستطيع، و في وقت قريب، أن يجعل من نفسه عشيقها الوحيد.. لولا، بالطبع، ذلك الظهور المباغت لهذا الطبيب الوغد.

كان قد توقّع ذعر إيلين من معرفة ذلك الـ"حازم" بمقابلاتهما، بل و تفهّم أيضا قطعها المباشر و الفوري لعلاقتهما. هو أيضا نوي المضي في طريقه تفاديا للمشاكل و قرر البحث عن امرأة اخري؛ لكن بعد شهر كامل من المقاطعة، عاني خلالها أشرف من لوعة العشق كما لم يعاني من قبل، اكتشف أنه فعلا يحب إيلين و أنه لا بديل عنها في حياته.

لذلك مجبرا، كان عليه أن يلوي أذرع الجميع، و أولهم إيلين..

أتى الجرسون بالبيرة الباردة.. تجرّعها أشرف و هو يبتسم في انتصار متذكّرا أحداث الأسبوع الماضي. إنه لمن المضحك بالفعل أن تنجح حركة مناورته بهذه السهولة و تلك السرعة.. إيلين، الحسناء الغبية لم تعرف أن النقيب أشرف محجوب، و قريبا حضرة الرائد و هلمّ جرّه، من غير المعقول أن يتنازل و يتزوّج فتاة معاقة، معيبة، حتى لو كان ذلك في سبيل إغاظة عشيقته، و حتى لو كان ذلك في سبيل استرضاء اللواء أحمد شاهين شخصيا..

و انحرف تفكيره عائدا إلى لقاء اليوم.. عندما تحضر إيلين، و قبل أن يعطيها وعدا بعدم التعرّض لابنتها مرة أخرى، لابد له من طلب ضمانة حتى لا تعود إيلين عن اتفاقهما مرة أخرى.. فليكن شيئا لعوبا شقيّا يضمن كسر شكيمتها و إخضاعها إلى الأبد.. مثلا فيديو مصوّر يجمعهما سويا في السرير.

ابتسم للخاطر الشيطاني، ثم عبّ ما تبقي من البيرة في جرعتين متتاليتين، تائها في خيالاته مع إيلين، و توقّعاته بلقاء حارّ يعوّض أشواق الشهر الذي مضي. نظر إلى ساعته متلهّفا، فإذا هي تجاوزت الرابعة..

ما هذا؟ ليس هذا المعتاد من إيلين، المحترمة دوما للمواعيد..

التقت هاتفه المحمول و اتصل بها. لم ترد إلا على اتصاله الثاني..

- الو إيلين..
- الو ثريا... comment allez vous؟
- ثريا! هو انتي جنبك حد و لا إيه؟
- Oui... انتي فينك اليومين دول.. bien... كويس اني اطمّنت عليكي..
- هو انتي مش جاية و لا إيه؟
- أوه.. معلش مش هاقدر أتكلم معاكي دلوقت.. معلش، أنا دلوقتي مع جوزي أحمد.. بنزور ابن اخته في المستشفى، أصله لسه عامل حادثة.. أوكي.. هاكلمك تاني يا حبيبتي.. لازم نتقابل قريب.. au revoir..

و أغلقت الهاتف بسرعة..

مغتاظا، محبطا، و قد تبخّرت كل تمنياته و توقعاته لليوم، ركل أشرف محجوب الكرسي المقابل له في غضب، ليسقط على الأرض مصدرا ضجّة مدوّية..

التفت الحضور لصاحب التصرف البربري: نفس مجموعة الشباب المتسكّعين و العجوز رثّ الثياب و عاهرة المكان المنتظرة الزبائن.. لكن، و على مسافة من طاولته، كانت امرأة ذات شعر أحمر قاني، في ملابس راقية، تجاوزت الثلاثين ببضع سنين، في بلوز و جوب راقيتين، و تدخن سيجارة مارلبورو أبيض.. تطلّعت، كما الآخرين، إلى الصوت.. التقت عيناها بعينيّ أشرف لوهلة، قبل أن تدير وجهها و ابتسامة هازئة مشاكسة تطفو على وجهها للحظة وجيزة..

لحظة وجيزة، لكنها كانت كافية لتشعل نار النشوة و الرغبة في جسد أشرف محجوب، الثور الهائج..

منساقا إلى حتفه، قام أشرف و هو يعقد المقارنات بين ذات الشعر الأحمر و إيلين.. يا لها من صدفة غريبة. لقد كانتا متقاربتين إلى حد مذهل..

****

و في مكان و زمان آخرين، استيقظ أشرف محجوب..

كانت رأسه تدور بشدة، و لم يستطع فتح عينيه..

لا يعرف ما الذي أيقظه من ذلك السبات العميق.. أهو لفحة الهواء الباردة، أم حبات الرمل المداعبة لوجهه، أم اهتزاز الهاتف المحمول في جيبه.

كان راقدا في وضع غير مريح؛ حاول الاعتدال لكنه عجز عن تحريك أطرافه الثقيلة المشلولة..

بعد عدة دقائق مرّت كالدهر، بدأ يستعيد وعيه و سيطرته على أطرافه. ازدرد لعابه اللزج الشحيح فوق حلقه الجاف المجروح، ثم فتح عينيه ليتلفت حوله.. و انتابته الدهشة العارمة.. كان في سيارته، في مقعد السائق. اعتدل في جلسته بصعوبة و تطلّع من النافذة.. إلى الصحراء!

الوقت ليلا، و ملايين النجوم المتلألئة تملأ السماء الصافية، متطلّعة إليه في شماتة و احتقار..

و سرعان ما أدرك موقفه: لقد وقع ضحية عملية نصب كبيرة، بطلتها تلك المومس ذات الشعر الأحمر. تفقّد محفظته و اكتشف غيابها فتأكّد حدسه.. لابد من أنها وضعت له مخدرا في الويسكي، ثم بعد أن غاب عن الوعي سرقت كل متعلقاته..

لكن لما تكبّدت هي – و شركاء لا شك ساعدوها في سرقته – العناء حتى يحملوه إلى السيارة و من ثمّ القيادة به إلى هذه النقطة المهجورة من الصحراء..

تمنّي لو كان معه هاتفه المحمول، ساعتها كان سيستخدم الـGPS ليعرف مكانه و ليقود السيارة عائدا، لكن تانك البنزين خالي تماما و..

لحظة..

تذكّر اهتزاز الهاتف المحمول في جيبه في لحظات وعيه الأولى، تحسّس أشرف جيب بنطلونه ليجد الهاتف في مكانه..

غريب.. سرقوا المحفظة و تركوا الهاتف المحمول، الأيفون، الباهظ السعر!

عاجزا عن التوصّل إلى استنتاج مرضي، أخرج أشرف محجوب هاتفه. كان ثمّة رسالة على شاشة الهاتف.. هي إذن سبب الأزيز و الاهتزاز الذي أيقظه..

كانت رسالة خالية، إلا من صورة مرفقة..

فتح الصورة، ثم قفز في مكانه لترتطم رأسه بسقف السيارة، و ليصرخ صرخة مدوية رجّت الصحراء من حوله..

١٤

و مرت الساعات التالية، طويلة، بطيئة، و مؤلمة..

لحسن الحظ، كان ببطارية الهاتف ما يكفي لتشغيل الـGPS و معرفة مكانه.. كان في نقطة ما في صحراء الفيوم، و بينه و بين الطريق المسفلت حوالي ٦٥ كيلومترا!

كان بإمكانه الاتصال طلبا للنجدة، لكنه لا يستطيع مواجهة أي أحد في وضعه الحالي، حتى لو كان أقرب أصدقائه أو من أهله.. وضعه المزري هذا كفيل بجعله أضحوكة أصدقائه و أقاربه لأيام و شهور، بل و لسنين.. فشخص بعنجهية أشرف محجوب، و تعاليه و سخريّته من الجميع، من غير المتوقع أن يتغاضى الآخرون عن زلّاته بسهولة.. حتما سيذوق من نفس الكأس، و هذا ما لا يطيقه أبدا..

متحاملا على نفسه، و مناقضا المنطق، انطلق أشرف شاقّا طريقه في الصحراء.

و بعد خمس ساعات من المشي المتواصل، وصل حطام رجل الشرطة، المدمّر نفسيا من مرار التجربة و جسديا من آلام جسده المتزايدة، إلى طريق القاهرة- الفيوم.

كان الضوء قد شقّ السماء أخيرا، فصارت الرؤية أفضل نسبيا، لكن الوقت كان لا يزال مبكرا و مرور السيارات على الطريق لا يزال شحيحا، خصوصا و أن اليوم كان يوم جمعة. كل السيارات الملاكي رفضت التوقّف له. أخيرا، و بعد ساعة من الانتظار، أتى ميكروباص محافظات لنقل الركاب.. ركب و انزوي في الكنبة الخلفية.

و في منتصف الطريق، توقّف الميكروباص و أنزله السائق في ميدان الرماية.. إذ و كما المتوقع، حدث شجار بينه و بين السائق حول الأجرة التي لم يستطع

أشرف دفعها لأنه كان قد فقد محفظته. كشف أشرف عن شخصيته و مهنته أمام السائق و الركاب، لكن لم يهتم به أحد و لم يعرض أي راكب دفع أجرته. بل إن السائق عندما أنزله في ميدان الرماية، لم يرضي أن يتركه إلا بعد الحصول على أجرة المسافة التي ركبها. رفض السائق جاكت البدلة بديلا للأجرة، و أصرّ على أخذ الساعة الرولكس الذهبية. وافق أشرف، المنهك نفسيا و جسديا ، لكن بعد أن أخذ من السائق ثلاثين جنيها إضافية يركب بها سيارة أجرة إلى منزله. (لاحقا سيتتبّع الميكروباص و سيسترد ساعته، كذلك سيختطف السائق إلى أحد أقسام الجيزة ليلاقي من الحفاوة الشرطية ما يكفيه و يكفي عائلته لجيلين متعاقبين!)

و مستغلّا الهدوء النسبي في ذلك الوقت المبكر من يوم الجمعة، تسلّل أشرف إلى داخل المنزل في هدوء و هو يقاوم في صلابة رغبة قوية في الصراخ و البكاء. صعد الدرج متحاملا على آلامه، دلف إلى المنزل، ثم اتّجه إلى الحمام مباشرة؛ خلع ملابسه التي اتّسخت بشدة من وعثاء السير في الصحراء، ألقى بها في الغسالة، ثم قفز إلى الدش و غمر جسده بالماء. حاول أن ينظف جسده بعناية، لكن يديه المرتعشتين خذلتاه، فجلس على الأرض منهارا.. و متّخذا من ضجيج الماء سترا، أطلق لنفسه العنان و راح يبكي في حرقة، ضاربا الحائط بيده في غضب جارف، مقسما لينتقمنّ ممن فعل به هذه الفعلة الحقيرة.

بعد بضعة دقائق كان قد تمالك أعصابه، خرج من الحمام متفاديا أفراد أسرته الذين بدأوا في الاستيقاظ، متعلّلا بإرهاقه من مهمّة في العمل سهّرته حتى الصباح. دلف إلى غرفته و انهار على سريره، عيناه ملآي بالدموع، روحه محطّمة و كل عضلة في جسده تصرخ من الألم. نام و هو لا يشغل باله إلا شيء واحد.. الانتقام.

****

استيقظ بعد أربع ساعات من النوم المتقلّب، المليء بالكوابيس و الرؤي المفزعة. قام غاضبا منتبها كأشدّ ما يكون الانتباه، كالليث الجريح الجائع متشمّما الجو بحثا عن فريسته..

لحسن الحظ، كان ذكور العائلة، أبوه و أخواه، في صلاة الجمعة، لذا لم يكن بالمنزل سوي أمه.. التهم فطورا سريعا، غيّر ملابسه، التقط هاتفه محمول ثم انطلق إلى الشارع دون أن يلتفت إلى أمه القلقة من نظرات وجهه المتوحّشة..

أخذ سيارة أخيه الأصغر ثم انطلق إلى كازينو تولوز.. و هناك اجتاح المكان في إعصار من الصياح و السباب و التدمير الانتقامي.. ضرب الجرسونات و صفع النادورجية في ثورة، بل و جذب مدير الكازينو، و الذي كان لا يزال نائما، من سريره، و نزل به إلى الصالة و هو لايزال بالبيجامة، ثم دمّر أمام ناظريه نصف زجاجات البار!

لكن لم يجني شيئا من وراء ثورته العارمة، فلا أحد يعرف ذات الشعر الأحمر و لا رآها مخلوق من قبل.. أما بخصوص كاميرات المراقبة، فكما هو متوقع: لا يوجد.

مخلّفا وراءه خرابا لا بأس به، و مشيّعا إيّاهم بمزيد من الشتائم المهينة، ترك أشرف الكازينو و لم تهدأ النار في صدره على الإطلاق، بل ازدادت اضطراما.

أخرج هاتفه المحمول و اتّصل بأحد أصدقائه من الأطباء الشرعيين في مشرحة زينهم، طالبا منه خدمة شخصية، ألا و هي توفير أحد فنيّي رفع البصمات الكتومين، على أن يكون مجيدا للقيادة كذلك..

و بعد ساعة، كان أشرف محجوب عند محطة بنزين بميدان الرماية، يملأ ثلاثة جراكن من البنزين، و ينتظر فني رفع البصمات؛ و عندما حضر الأخير، انطلقا إلى طريق القاهرة-الفيوم، إلى النقطة التي ترك أشرف سيارته فيها.

و بعد نصف ساعة من السير على طرق غير ممهّدة في الصحراء، وصلوا أخيرا. قام الفني برفع البصمات، ثم عاون أشرف في ملء سيارته بالبنزين. بعد ذلك ركب أشرف سيارته، في حين قاد فني البصمات سيارة أخيه، متوجّهين إلى مصلحة الطب الشرعي في السيدة زينب.. و هناك لم يقابل أشرف إلا المزيد من الفشل.. إذ بفحص البصمات لم تكن بسيارته إلا بصمات شخص واحد.. بصماته هو.

محبطا، لجأ أشرف بعد ذلك إلى سجل المسجّلين الخطرين، و شرع يطالع وجوه كل الإناث في الفئة العمرية ما بين الثلاثين و الأربعين، و عندما لم يجد ضالّته، وسّع الدائرة إلى ما فوق الخامسة و العشرين و ما دون الخامسة و الأربعين، لكن لم تحمل أي من الملفات صورة أية أنثى تشبه تلك التي غرّرت به بالأمس..

و اهتزّ هاتفه المحمول من جديد.. كانت رسالة خالية جديدة، تحمل صورة لعينة لا تختلف كثيرا عن سابقتها: هو، عاريا كما ولدته أمه في وضع جنسي فاضح مع ذات الشعر الأحمر.. عيناه نصف مفتوحتين و يفغر فاه في نشوة و بلاهة.

إنه العار كما لم يعرفه يوما في حياته..

كان الحنق و الغضب قد بلغا منه مبلغا، طار الصواب من عقله، فعجز عن التفكير السليم.

أحدهم يلقّنه درسا قاسيا..

لكن من هو هذا الوغد؟

برغم أعدائه الكثر، لا يظن أن تبلغ الجرأة بأحدهم أن يفعل به معشار ما قد حدث معه بالفعل..

إلا واحدا بالطبع..

أشرف، و برغم عجزه عن التفكير السليم نتيجة انفعالاته الجيّاشة، لم يكن غرّا ساذجا أو محروما من المنطق تماما.. فبعد النظر إلى ملابسات الفخ الذي وقع فيه و مراجعة أحداث الشهر المنصرم، و ما اعتراه من صولات و

جولات مع آل شاهين، كان الضابط المغدور متأكدا الآن أن عدوه لا شك فرد معين من أفراد هذا البيت البغيض..

****

كانت الساعة قد جاوزت التاسعة مساءً عندما وقف النقيب أشرف محجوب بسيارته أمام بوابة فيلا اللواء أحمد شاهين. ضرب بوق السيارة مرتين، فخرج له فرد الأمن الذي تعرّف السيارة و تعرّفه على الفور. قاد السيارة إلى الداخل و أوقفها قبالة باب الفيلا الداخلي. وثب من سيارته، ثم قفز الدرج صاعدا و كله عزم و تصميم على المواجهة العنيفة.

استقبلته مارجيك، مدبرة المنزل الإندونيسية، بابتسامتها الودودة البلهاء.. كشّر في وجهها

- فين مدام إيلين؟

ردّت بلغة عربية مكسّرة، و قد انتابها القلق من نظرات أشرف الشرسة

- سافرت النهاردة الصبح..
- سافرت!
- أيوه.. سافرت سويسرا..

نظر إليها بعينين زائغتين، لا يفقه ما عساه يقول

- و حازم فين؟
- حازم.. تقصد دكتور حازم؟
- أيوه.. سي بتاع ده..

و من خلفه، من حجرة المكتب و المكتبة، أتى الصوت الواثق، المستفزّ بهدوئه

- أنا هنا..

تاركا وراءه مدبرة المنزل المذعورة، دار أشرف محجوب على عقبيه، و تقدّم مقتحما غرفة المكتب في ثورة، حيث حازم شاهين، مستلقي على كرسي دوّار خلف المكتب، ساقاه مفرودتان أمامه و قدماه في وجه الداخل إلى الغرفة، و بعض صور فوتوغرافية بين يديه، يتصفحها في كسل.. تجمّد أشرف في مكانه و اعترت ظهره قشعريرة عنيفة. أصابته حالة من التوهة.. لم يدر من أين يبدأ..

- إيلين فين؟
- سافرت سويسرا، زي ما مارجيك قالت لك..
- فجأة كده..
- و لا فجأة و لا حاجة.. انت اللي مش المفروض تعرف كل حاجة في البيت ده..

ضحك أشرف في وحشية و توتّر و اقترب من حازم متحدّيا و هو ينظر إلى ساقيه المفرودتين في احتقار..

- و فيها إيه لما اعرف اللي بيحصل في البيت ده يا دكتور حازم؟ داحنا خلاص هنبقي نسايب..
- لا يا راجل..
- إيه، ماحدش قالّك على خطوبتي من الآنسة ريم الخميس الجاي؟
- خطوبة إيه يا راجل.. أمّال انت جاي ليه النهاردة؟ هو انت مش جاي برضه عشان تفسخ الخطوبة؟ يعني، خصوصا بعد اللي حصلّك في الكازينو امبارح و كده.

قالها حازم و هو ينظر في تهكّم إلى مجموعة الصور، و التي كان يطرق بها سطح المكتب في رتابة؛ رفع رأسه ليرمق أشرف بنظرة تحمل رسالة واضحة من التهديد.

وجم أشرف محجوب للحظة حتى يمتصّ الصدمة، ثم استحال إلى وحش كاسر.. قفز مهاجما حازم على كرسيه.

- فكّر كويس يا حضرة النقيب قبل حركتك الجاية.. عشان بعد كده مفيش رجوع.. أنا هاسيبك تمسكني و تضربني، لأ و تطلّع روحي كمان..

متجاهلا كلمات حازم، أمسك أشرف مزهريّة زجاجية، ثم هبط بها على سطح المكتب لتتهشم إلى قطع كبيرة. أمسك إحداها، ثم نظر إلى غريمه بعينين جاحظتين ملؤها الشر المستطير. أكمل حازم في هدوء أسطوري..

- براحتك.. عوّرني، اقتلني.. لكن صدقني، ده مش هيمنعني من تدمير مستقبلك للأبد..

توقّف أشرف في مكانه لوهلة يتخيّل عواقب فعلته، لكن غضبه العارم دحر كل تفكير عقلي أو منطقي، فعاود الانقضاض على ذلك الوغد الذي هزأ به و مرّغ كرامته بالتراب.

لكن قبل أن يجهز على حازم، طوّح الأخير بيده في حركة مسرحية، لتتناثر الصور الفاضحة في أرجاء الغرفة، ثم فرد ذراعيه، داعيا أشرف إليه في تحدّي.

- خد راحتك..

أمسك أشرف قطعة الزجاج الكبيرة في شدّة، و راوحت عيناه بين الصور المتناثرة و وجه حازم المستفزّ.. فليقض على الوغد الآن، ثم ليجمع الصور بعد ذلك.. و فجأة سمع انفتاح باب الفيلا الداخلي و صوت مارجيك و هي ترحّب..

- مساء الخير لوا أحمد شاهين.. جود إيفينيج..

مرتبكا، مشتّتا، رمي أشرف قطعة الزجاج، و جري في أنحاء الغرفة ململما الصور المتناثرة.. و حازم طوال الوقت في جلسته مسترخيا، يرمق في هدوء الضابط المتواثب أمامه في ذعر. و بعد أن جمع أشرف الصور و دسّها في جيبه،

أشار حازم في تراخي إلى صورة ملقاة على طرف المكتب، نسي أشرف جمعها في غمرة السعي في أنحاء الغرفة.

مدّ أشرف يده ليلتقط الصورة، فهبطت يد حازم عليها تعتصرها في قوة.. همس في غلظة.

- بص يا حضرة النقيب، انت هتفسخ خطوبتك بريم من ابويا دلوقت.. كده، و إلا هتلاقي صورك، بالإضافة لفيديو كليب كامل لكل اللي حصل امبارح، مبعوتين بكرة الصبح لكل صحابك و زمايلك في مديرية الأمن..

طفق الدمع في عينيّ أشرف الصارخة بالألم و الغضب و الهزيمة. همس في غضب مكتوم

- أوعدك اني مش هاسيبك و مش هارحمك.. هاقتلك، بعد ما اشرب من دمك و اقطّعك بإيدي حتة حتة..
- و انا أوعدك انا كمان إن ده مش هيمنع الصور انها تتسرّب..

و من البعد أتى صوت اللواء أحمد شاهين

- إيه يا سي حازم، من إمتي يعني عاوز تتعشّي مع ابوك.. حظّك حلو النهاردة الجمعة و الشغل خفيف..

دخل الرجل إلى غرفة المكتب، توقّف مستطلعا حالة الفوضى التي بها الغرفة، من زجاج متناثر و سطح مكتب مبعثر.. و هنالك في طرف الغرفة كان أشرف محجوب و هو يبدو في حالة غير طبيعية.

- نقيب أشرف.. انت هنا؟ انت مختفي من امبارح فين؟ ثم مالك كده، شكلك مش مظبوط..

تدخّل حازم في ثقة و حسم

- اقعد استريّح يا بابا.. النقيب أشرف جاي يكلمك في حاجة مهمة.. اتفضّل يا سيادة النقيب..

كاتما بركان الغضب الذي يغلي في داخله، تكلم أشرف محجوب، هامسا، محاولا التحكم في نبرة صوته بصعوبة.. ثم قال كل ما طلبه منه حازم بالضبط، محاولا غضّ النظر عن دهشة اللواء و استغرابه الشديدين. بعدها اندفع أشرف خارجا من فيلا آل شاهين، ناويا ألا يعود إليها أبدا.. لكن ليس من حياة حازم.. فعن قريب ستكون بينهما جولة اخري.

هويدا

١٥

السبت ١٢ يونيو ٢٠١٠

لم تتعدّي الساعة الثامنة صباحا، و ها هو طارق عبد الهادي يتقدّم في ممر الجراحة، مخترقا بركة من ماء المسح على أطراف حذائيه، فاردا ذراعيه ليوازن نفسه بصعوبة. يتخطى المرضي في رفق، يساعد رجل عجوز قبل أن ينزلق على الأرض الملساء، يمدّ يد العون في دفع امرأة شديدة البدانة على كرسي متحرك إلى داخل المصعد المتهالك، ثم يصعد الدرج في نشاط متّجها إلى بلوك عمليات الجراحة العامة.

استقبله عامل غرفة تغيير الملابس في احترام و مودة، لكن طبعا بحماس لا يقارن بذلك الذي يُقابل به حازم ذو الإكراميات السخيّة. دخل طارق و قام بتغيير ملابسه في هدوء، ثم توضأ و صلي ركعتين قضاء حاجة عسى أن يسترها الله معه في عمليات اليوم (هي عادة رأي أحد الأساتذة، و الذي للعجب لا يصلي أصلا، يقوم بها. صادفت هوي من طارق، و يواظب عليها صباح كل يوم عمليات).

ارتدي طارق غطاء الرأس و ماسك الوجه، ثم عبر الخط الأحمر. عاون الأطباء المقيمين في تجهيز المرضي و توزيعهم على غرف العمليات، و بحلول الساعة التاسعة تماما، كان يضرب بمشرطه الضربة الأولى في جسد المريض الأول.

في غمرة انشغاله للبدء بسرعة، لم يتنبه طارق إلى طبيب التخدير المصاحب له في العملية. لكن، و بعد مرور نصف ساعة من بدء العملية، التفت لأول مرة ناحية جهاز التخدير، ليجد أن طبيبة التخدير المستقرّة هناك هي سميّة.

كانت قد مرت فترة لا بأس بها منذ تلك الواقعة السخيفة. لحسن الحظ، و على غير ما توقّع طارق، نسي الجميع تلك الحادثة المهينة أو لعلهم تناسوها عمدا، ربما لأن الجميع يحبون طارق عبد الهادي و يحترمونه، و ربما لأن الحادثة بالفعل أتفه من أن يتذكرها أحد. يكفي دليلا أن سميّة نفسها صارت تتجاذب معه أطراف الحديث بعد أقل من أسبوعين من تلك الحادثة، تماما كما تتحدّث مع أي فرد من أفراد الطاقم الجراحي (مع مراعاة التراتبية الوظيفية و فارق السن، أو بسببهما). لكن طارق، بالطبع، لم ينس تلك الواقعة، و بناءً عليه كان يتعامل معها بطريقة رسمية، مظهرا الوقار الكامل و الجديّة الشديدة في جميع التعاملات.

حتى الآن لا مشاكل و لا مواقف محرجة. لكن، الاستمرار على هذا المنوال - كأن شيئا لم يكن - كان شديد الوطأة على طارق؛ فلسوء الحظ، كان قلبه لايزال يخفق إعجابا بسميّة، بل و هياما بها في كثير من الأوقات. لذا، و لتجنيب نفسه أي ضعف أو فقدان سيطرة محتمل، كان يحاول مؤخرا تفادي رؤيتها و الاحتكاك بها قدر الإمكان.

لكن ما العمل الآن، و هي تتطلّع إليه مبتسمة و محيّية من خلف حاجز التعقيم؟

ردّ طارق التحيّة في تؤدة، ثم دفن رأسه في بطن المريض ما بقي من العملية. عندما يحضر حازم شاهين، سيطلب منه إعادة ترتيب وقوف أطباء التخدير بحيث لا تقف سميّة في أي من غرف العمليات التي سيعمل بها اليوم.

****

قبل الساعة العاشرة بدقائق معدودة، وصل حازم شاهين أخيرا. بهيّ الطلعة، يقطر جمالا و ثقة كالعادة، لكنه اليوم أيضا عالي المزاج، يشعّ سعادة و مرحا، مما جذب إليه الأنظار كما لم يلفتها من قبل.

و على غير العادة، دار يتفقّد غرف العمليات في نشاط، يصحّح أخطاء أطباء التخدير الشبّان في صبر و يساعد المدرس المساعد في إدخال المرضي و

تخديرهم. و أخيرا، أخذ أحد الأطباء المقيمين الجدد، ليُعلّمه طريقة إجراء التخدير النصفي. و سرعان ما تجمّع البعض متعلّمين و مستطلعين.

لكن النسبة الأكبر من الحضور كانوا من الإناث.. طبيبات التخدير، طبيبات الامتياز، بل و من التمريض.. و عدد غير قليل منهنّ، يحاولن جذب انتباهه بسؤال أو استفسار.

و كما تنجذب الفراشات إلى شعلة النار، فتحترقن بلا رحمة، انجذبت فراشات الإنس نحو حازم شاهين ليقابلهنّ بردوده الباردة و دعاباته القاسية الهازئة من مستمعيه؛ فنصف الإله ذاك، المشعّ رجولة و رقيّ، ما هو إلا شخص سخيف متعالي. تدريجيا، بدأ التجمهر النسائي يتفكّك، و لم تتبقي إلا من لم تطلها لذاعة لسانه، بالإضافة إلى من تنازلن عن كل شيء، حتى كرامتهنّ، فقط ليبقين حول صنم الجمال و الرجولة الواقف بينهنّ.

كان طارق عبد الهادي، و الذي انتهى من عمليته الجراحية منذ بضع دقائق، يرقب صديقه من البعد. و بالرغم من حبه و إخلاصه لصديقه، كان يتطلّع إليه حاسدا في ضيق، إذ بين المتحلّقات كانت محبوبته سميّة، تقاتل في حماس للحصول على انتباه حازم شاهين، ممطرة إياه بسيل من الأسئلة التافهة و ملامح وجهها تتراقص في حياة و حيوية.

انتبه حازم لوجود طارق، فقام مبعثرا الجمع من حوله، و اتّجه إلى صديقه محيّيا.

****

انطلقا إلى حجرة استراحة الأطباء ليطلبا القهوة و الشاي، و بعد أن أحضرها عامل الغرفة، شرع حازم يخبر صديقه في انتشاء عن نشاطه في اليومين السابقين، عن خطته الجهنمية التي أوقع بها أشرف محجوب، عن تفاصيل تنفيذها الدقيقة، و عن المواجهة الملحميّة في فيلا شاهين و التي انتهت بانسحاب النقيب أشرف محجوب و هو يلعق جراحه في غضب عارم و انكسار تام.

كان ما يرويه حازم مصدر قلق كبير لطارق

- إيه اللي انت عملته فيه ده يا حازم؟ دانت خيّطته..
- يستحق و لا ما يستحقّش؟
- يستحق.. بس انت متخيل رد فعله هيكون إيه؟ ده مش بعيد يدوسك بعربيته أو يأجر اتنين بلطجية يقتلوك..
- و الصور؟ من الآخر كده، حياتي هي الضمانة الوحيدة ان الصور ما تتسرّبش.. و ما تخافش، النقيب ده عنده طموح، و مش هيخاطر بمستقبله بسهولة. ثم لو حصل و قتلني فعلا.. عادي يعني، ما انا مسيري هاموت في يوم..

نظر طارق إليه مستنكرا

- إيه يا عم الفكر التشاؤمي ده..
- بالعكس خالص.. كوني قدرت احمي أختي ريم و اخلّصها من الحيوان ده نهائيا مخلّيني في قمة التفاؤل.. لدرجة اني مستعد اجيلك النهاردة البيت و نبدأ نشتغل في قضية الباحث التركي..
- بجداً! دانا كنت خايف تقولّي نصرف نظر بعد زيارة الجيرل فريند بتاعته، هي و الصحفية المصرية..
- أبدا.. أولا، انت أخدت مقدم من الراجل التركي و كده احنا ملزمين تجاهه.. ثانيا، الراجل ما لغاش توكيله لينا في البحث.. ثالثا، الموضوع باين فيه تفاصيل شيّقة و غموض..
- و يا ترى فيه رابعا؟
- رابعا دي بقي هي الأهم..
- ألا و هي؟
- انا معجب بالصحفية هويدا سالم و عاوز اشوفها تاني..
- أنا مش مصدق وداني..
- أنا قلت معجب، ما قلتش باحبّ، و ما قلتش هاروح اتقدّم لأهلها..

- بس ده تقدم كبير برضه.. حاجة أول مرة اسمعك تتكلم فيها..

- فعلا، حتى انا مندهش من نفسي.. و بصراحة كده، شعوري ناحية هويدا من أهم أسباب اني سرّعت في التخلص من أشرف.. كنت عاوز افضي بسرعة لقضية الراجل التركي عشان اقدر اشوف هويدا تاني..

متغلّبا على حسرته العاطفية، دعا طارق لصديقه في صدق

- ربنا يكتب لك التوفيق.

هزّ حازم رأسه موافقا، ثم أمسك فنجان قهوته و رشف في رضا.

- آمين.

****

و بعد ست ساعات، التقيا مرة أخرى.. هذه المرة في بيت طارق بجسر السويس.

بعد عشاء خفيف مع أهل طارق، أخذ الصديقان كوبيّ شاي و نزلا إلى المكتب. على عجل، قاما بترتيب المكان، ثم استلقيا في الغرفة الرئيسية، حازم خلف المكتب الخشبي، فاردا ساقيه فوقه، و طارق ممدّدا على الأريكة. بدأ حازم و هو يشعل سيجارته.

- نبدأ منين؟

- احنا ما عندناش حاجة نبدأ بيها غير اسم الباشا اللي الباحث التركي بيدوّر على مذكراته: صفوت عبد الرؤوف باشا، بالإضافة لعنوان فيلته اللي في المنيل و اللي اتقلبت عمارة اربعتاشر دور.

- و يا تري لقيت حاجة بخصوص الموضوع ده في اليومين اللي فاتوا؟

- مش كتير، دوّرت على النت عموما و على الفيس بوك خصوصا، بس ما لقيتش حاجة.. كنت بفكّر اروح المنيل اشوف المنطقة بنفسي.
- و تروح هناك ليه؟ ما البيت اتهدّ و خلاص اتبنت مكانه عمارة.
- طب و الفيلات و المباني اللي جنبها؟
- مالها؟
- يمكن عيلة من عائلات الجيران لسه محتفظة ببيتها، و يمكن لسه ليهم اتصال بعائلة الباشا.

هزّ حازم رأسه متشككا

- دي حاجة فرصتها قليلة بعد الزمن ده كله. لو كان فيه فيلات هتكون اتباعت برضه و اتهدّت و اتقلبت عمارات.. و حتى لو مكانش، فالأكيد ان معدش حد في المنطقة يعرف أي حاجة عن عائلة صفوت عبد الرؤوف باشا.
- و جبت التأكيد ده منين؟
- البحث في المنطقة المحيطة بمسكن الباشا خطوة بديهية، و الباحث التركي لازم يكون قام بيها.. و بما إنه ما وصلش لحاجة عن الباشا و جه مكتبنا يطلب مساعدتنا..
- فده معناه ان الخطوة دي انتهت على فشوش.. استنتاج منطقي.
- بس ممكن نقوم بالخطوة دي بطريقة أكثر فاعلية.
- اللي هيا ازاي؟
- ندوّر على خرائط المنطقة من أيام الثلاثينات و الأربعينات، و نعرف أصحاب المباني اللي كانت جنب الفيلا عشان نعرف مين كانوا جيران عائلة الباشا في الوقت ده. بعد كده ندوّر على عائلات الجيران دول نشوف هما فين دلوقت و نحاول نوصلّهم.. مين عارف، ممكن حد منهم يكون لسه على صلة بأولاد أو أحفاد الباشا.

هزّ طارق رأسه موافقا، اعتدل في جلسته و التقط مفكّرة صغير من فوق طاولة الشاي. كتب فكرة حازم، ثم رفع رأسه إلى صديقه كالتلميذ المنتظر الإملاء من أستاذه.

- إيه تاني؟
- برضه ندوّر في أرشيف الجرايد على تاريخ صفوت باشا ده.. كان بيشتغل إيه، نشاطاته إيه، و نبدأ من مكان شغله القديم ندوّر على زمايله، رؤساؤه، و خصوصا مرؤوسيه.. يمكن و لو واحد في الميّة يكون حدّ فيهم لسّه عايش.

كتب طارق في حماس، فيما أكمل حازم.

- و ممكن ندوّر على العمّال اللي كانوا شغّالين في فيلا الباشا: الخدامين و السواقين، الخ.. و نحاول نوصلّهم.
- دي فكرة كويسة برضه.

قاطعهما صوت طرق خافت على الباب الخارجي للمكتب. اعتدل طارق في حماس.

- ده زبون جديد و لا إيه؟

ثم قام من فوره.

- شكلها هتفتح في وشنا يا حزّوم.. كده لازم اركّب جرس لباب المكتب عشان الفترات اللي هنبقي فيها هنا و مفيش حد فوق يردّ على الإنتركم. ممكن و احنا هنا ما نسمعش صوت الخبط على الباب.

تكرّر الطرق الخافت مرة أخرى، فهرول طارق إلى الباب.

عاد بعد لحظات و الدهشة تملأ وجهه الأسمر الممتلئ، و من خلفه دخلت هويدا سالم، الصحفية ذات الشعر الغجري و الوجه المفعم بالحياة. لكنها

اليوم ليست كما المرة السابقة: وجهها فاقد لرونقه، تحت عينيها داكن، ما يوحي بالأرق، و العينان نفسهما تنطقان بالقلق.

اعتدل حازم في جلسته، سعيدا بالمفاجأة الغير متوقعة، ثم قام يسلّم على الزائرة في حرارة. جلست هويدا على طرف كرسيها.

- معلش، أنا آسفة على الزيارة اللي من غير ميعاد.

انفرجت أسارير حازم مرحّبة في غير تكلف.

- مفيش داعي للأسف.. إحنا مكتب مفتوح.
- أنا مش هاضيّع وقتكم.. أنا جاية أسأل سؤال واحد بس: هو أورهان حقّي اتصل بيكم اليومين اللي فاتوا؟
- قصدك من ساعة زيارتكم لينا يوم الأربعاء؟
- أيوه.

تبادل حازم النظرات مع طارق، ثم أجاب أن لا.

مهتزّة اليدين، عبثت هويدا في حقيبتها و أخرجت هاتفها المحمول، ثم ضربت الأزرار في توتر، ثم وجّهت شاشة الهاتف نحوهما.

- هي دي نمرة الموبايل اللي ادّاها لكم؟

تطلّع طارق إليها، ثم هزّ رأسه مؤكدا في دهشة أن نعم. خفضت هويدا رأسها و همست بصوت محشرج.

- أورهان حقّي اختفي.
- اختفي؟ ما احنا عارفين إنه هرب من لارا و إنه مع واحدة تانية عاوز يتجوزها.
- الكلام ده مش صحيح.
- إيه؟

- هو عمل التمثيلية دي عشان لارا تفقد الأمل و ما تقعدش تدوّر عليه في مصر، و ترجع بلدها من غير مشاكل.
- إيه؟
- هو كان المفترض يفضل مختفي لحد ما لارا تسافر، و بعد كده يظهر تاني. اللي حصل انه مختفي من يوم الخميس الصبح.. خميس، جمعة، و النهادرة السبت، و لسه موبايله مقفول.

و هنا اختنق صوت هويدا.

- ممكن تساعدوني ألاقي أورهان.

كان الصديقان يتبادلان النظرات في عدم ارتياح، خصوصا حازم الذي تجهّم وجهه. كانت حالة هويدا البائسة، و حضورها بحثا عن الرجل التركي يحمل في طيّاته معنى واضحا، لا لبس فيه.

متمالكا نفسه، و نافثا حنقه في دوائر الدخان، همس حازم في هدوء مصطنع.

- احكي لنا على كل حاجة. من الأول.

صعد طارق إلى شقة أهله ليحضر علبة مناديل ورقية و كوب ينسون دافئ للآنسة المتوتّرة الحزينة.

كان حازم في حالة من عدم التصديق و الصدمة. كانت تجلس أمامه الغادة الجميلة التي استطاعت أن تفعم قلبه بمشاعر مدهشة بديعة، والتي شغلت باله منذ رآها أول مرة. كان يفكر فيها طوال الأيام الماضية، متلهّفا رؤيتها مرة أخرى، آملا في المزيد من تلك المشاعر الخلّابة، و في نفس الوقت حالما بمستقبل زاهي يبدأ بالحب و يتكلّل بالزواج و الحياة الأسرية المجيدة كما البشر العاديين المملين السعداء. لكن الآن و قد تم اللقاء، كان حازم شاهين، و على عكس ما توقع تماما، غير سعيد على الإطلاق.

لحسن الحظ لم تطل غيبة طارق. عاد أخيرا، حاملا علبة المناديل و كوب الينسون، ليضع حدّا للأفكار السوداوية العاصفة بعقل حازم و وجدانه.

مجففة دمعها، أمسكت هويدا كوب الينسون الدافئ دون أن ترشف منه قطرة. شرعت في الحديث، دون أن ترفع رأسها إلى رجليّ مكتب التحقيق.

- أبدأ منين؟ من ساعة ما أورهان جه مصر و لا من البداية، من ساعة ما بدأ البحث أصلا؟
- قوليلنا عن أي حاجة ممكن تكون مفيدة.
- يبقي أبدأ من البداية خالص، عشان كل حاجة متّصلة ببعضها من ساعتها.

تنهّدت، ثم بدأت

- أورهان حقّي من مدينة أزمير، مدينة كبيرة في الجنوب الغربي للأناضول. اتولد و عاش عمره كله فيها، لكن جذوره العائلية من

ناحية والده، بتنحدر من مدينة تانية، مدينة الأتراك بيطلقوا عليها اسم سلانيك، أو سالونيك.

هتف طارق عبد الهادي مأخوذا

- سالونيك!

ثم استدار إلى حازم شارحا في حماس

- دي كانت من أكبر مدن العثمانيين في أوروبا. لكن بعد هزيمتهم في حرب البلقان الأولى سنة ١٩١٢ العثمانيين خسروا أراضي كتير لدول شرق أوروبا، منها المدينة دي.. دلوقتي هي تبع اليونان و اسمها ثيسالونكي.

حملقت هويدا في طارق باستغراب.

- هو انت تعرف عن تاريخ العثمانيين و البلقان؟

ردّ عليها طارق في حماس طفولي

- و عن حاجات تانية كتير.. تقدري تقولي كده مهووس بالتاريخ عموما و اني..

تدخل حازم في برود

- كنا بنتكلم عن سالونيك و حرب البلقان في ١٩١٢.

التقطت هويدا طرف الحديث مرة أخرى

- صحيح.. بس الحرب دي مش مهمة في موضوعنا. الحرب المهمة فعلا هي الحرب التركية-اليونانية. دي كانت بعد الحرب العالمية الأولى، من ١٩١٩ لـ١٩٢٢.

مدّعيا الاهتمام، تساءل حازم

- و دي حصل فيها إيه؟

- بعد انتهاء الحرب، و عشان الدولتين يخلصوا من الأقلّيات اللي تعباهم، اتفقوا على عملية تبادل سكان جبري: المسلمين يروحوا تركيا، و اليونانيين الأرثوذكس يروحوا اليونان.

- و عائلة أورهان عشان مسلمين اتهجّروا من المدينة طبعا.

- أيوه، عائلة أورهان فعلا زيّها زي ملايين الأتراك المسلمين اتهجّروا من المدينة، لكنهم حظهم كان سيئ جدا أثناء الترحيل. السفينة اللي ركبوها غرقت، و كل أفراد الأسرة ماتوا، ما عدا طفل صغير تم إنقاذه. الطفل ده وصل تركيا و عاش في كنف أسرة كانوا جيران للعيلة في سالونيك و اتهجّروا معاهم برضه، بس نجوا من الغرق. المهم، الطفل ده يبقي جد أورهان المباشر.

هتف طارق في حماس

- ياه..

- و نتيجة تاريخ الأسرة المثير و جذورها في المنطقة التاريخية الثرية دي، كان مش غريب ان أورهان يكون له اهتمام بتاريخ مدينة سالونيك و يكون عنده حنين ليها. و فعلا في عام ٢٠٠٠، لما سمحت أموره ماديا، و أثناء أجازته السنوية، قام أورهان حقّي، الشاب ساعتها، بزيارة سالونيك.

- شيء منطقي.

- و هنا تبدأ الحكاية.

رفعت هويدا رأسها لتتأكد من أنها تملك انتباه الرجلين.

- أورهان بدأ حياته الوظيفية في الصحافة، و في الفترة اللي قرر يقوم فيها بالرحلة دي كان شغّال في جريدة صغيرة في أزمير. و كأي صحفي، فكر إنه يؤرّخ زيارته لسالونيك و في آخر الرحلة يقوم كاتبها على شكل ريبورتاج و ينشره في جريدته، أو يطلّعه في كتاب كشكل من

أشكال أدب الرحلات.. يعني، أهو يطلع بسبّوبة مش وحشة.. عشان كده كان مهتم جدا بالتفاصيل طول الوقت.

ابتسم طارق، في حين لم تتغير ملامح حازم الجامدة؛ أكملت هويدا في حماس متصاعد.

- بدأ أورهان رحلته للمدينة بالحي اللي أهله كانوا ساكنين فيه. لحسن الحظ بيت العائلة كان لسه موجود: بيت كبير بحديقة، مبني على الطراز العثماني الإسلامي السائد في القرن التسعتاشر زي مباني كتير في اسطنبول و دمشق. اكتشف أورهان ان أصحاب البيت الحاليين يبقوا أحفاد جيران أهله في الحي، وانهم اشتروه منهم وقت التهجير الإجباري. و لأن البيت كان تحفة معمارية مارضيوش يهدموه، و حوّلوه لفندق. لما أورهان عرّف نفسه لأصحاب الفندق من الجيل الحالي، استقبلوه بترحاب و سكّنوه في غرفة من أحسن غرف البيت، وكمان فرّجوه على مقتنيات عائلة حقّي اللي اضطروا يسيبوها وراهم في هوجة التهجير القسري.

كان طارق منجذبا مشدوها كما المنوّمين مغناطسيا

- يا سلام.. ده إحساس فريد.
- أورهان قالي انه كان كده فعلا.. إنه يشوف مكان سكن أجداده، بيتهم، الحي اللي كانوا ساكنين فيه، أسواقهم، خروجاتهم.

نفث حازم دخان سيجارته متململا، و قال بغير كثير من ود

- ادخلي في الموضوع على طول يا آنسة هويدا.
- آسفة.. المهم، و في خلال قعدة أورهان في سالونيك، بدأ يبحث عن تاريخ أفراد عيلته في المدينة، عن معارفهم القدام، عن اللي عايش من أحفادهم. اتوصّل لناس كتير، سأل أسئلة كتير و سمع أجوبة أكتر.. المهم إنه في وسط مغامرته دي اصطدم بحكاية الدونمة.

اتّسعت حدقتا طارق في عجب و استمتاع بالغين

- لا، ما تقوليش.. أورهان حقّي طلع دونمة!
- مش هو.. هو كان مسلم عادي، إنما جدوده أيوه كانوا دونمة.. جد أورهان، لما سافر وقت التهجير كان لسه طفل ما كمّلش سبع سنين، عشان كده ما كانش يعرف حاجة عن العائلة و ديانتها السريّة.. عشان كده اتربّي على الإسلام، و عاش و مات مسلم عادي جدا.

اعتدل حازم في جلسته و قطع الحوار بإشارة حاسمة من يده

- يعني إيه دونمة؟

تدخّل طارق كعادته

- دول يبقوا أتباع شبتاي تسيفي.
- مين؟
- شبتاي تسيفي ده حاخام يهودي ظهر في القرن السبعتاشر و ادّعي انه "الماشيح".. حاجة كده زي المسيح المنتظر بالنسبة لليهود. تسيفي ده كان ليه صولات و جولات في الشرق الأدنى، جه هنا مصر، و راح القدس، و كان ليه أتباع بعشرات الآلاف في كل حتة من الإمبراطورية العثمانية، و كمان في أنحاء كتير من اوروبا.. بل و كان لدعوته تأثير عظيم على الحركات الدينية و السياسية في أوروبا في القرنين اللاحقين..

تدخّلت هويدا للسيطرة على إسهاب طارق

- المهم، اليهود الأرثوذكس ما عجبهمش نشاط و شعبية تسيفي المتصاعدة.. اشتكوا للسلطان العثماني من هرطقته و إنه بيدعي النبوة. السلطان العثماني جابه و حقّق معاه، و بعد تهديده بتطبيق حد الزندقة و إعدامه، قرر شبتاي تسيفي إنه يعتنق الدين الإسلامي. كتير من

أتباعه عملوا زيه و أعلنوا إسلامهم، و هما دول بقي اللي بيطلق عليهم لفظ الدونمة، أي المتحولين في الدين.

تساءل حازم

- و الدونمة دول إيه مشكلتهم يعني؟

ردت هويدا

- .. انهم مندمجين في مجتمعاتهم كمسلمين في حين إنهم في الحقيقة لسه يهود، بيعيشوا، بيصلّوا و يتجوزوا من بعض كما اليهود، بس كله في السر. من الآخر كده، عبارة عن حركة و جماعة بتمارس نشاطها تحت الأرض.

استرخي حازم في جلسته و شبّك يديه أمام وجهه.

- أوكيه.. جماعة تظهر الإسلام و تبطن اليهودية، أنا كده مستنّي نظرية المؤامرة.

انبري طارق مؤكدا

- بس الجماعة دي فعلا جماعة مريبة.. فيه كلام كتير إنهم من أهم أسباب تقويض أركان الخلافة العثمانية و القضاء عليها نهائيا..

رمق حازم صديقه في تأفف.

- هاوي نظريات المؤامرة الأول في العالم.. طارق عبد الهادي.
- أنا مش بأهزّر. انت لو قريت في تاريخ العثمانيين و...
- ارحمني يا طارق، كفاية تاريخ، و انت يا آنسة هويدا، أرجوك ادخلي بقي في الموضوع.

رفعت هويدا رأسها لتتطلّع إلى حازم بعينيها الواسعتين الجذابتين و قد عاد إليهما رونقهما المعتاد.

- نظرية المؤامرة دي ليها جانب من الصحة، ده لأن كتير من طائفة الدونمة دول لسه ليهم نشاط سري تحت الأرض.. مش في تركيا بس، كمان في دول أوربية و عربية، خصوصا اللي كانت تحت الحكم العثماني لفترة طويلة من الوقت.. بل و ممكن يكون ليهم نشاط في مصر كمان.

- و إيه علاقة ده كله بأورهان حقّي؟

- أورهان، بعد معرفته بتاريخ عائلته و إنها كانت من طائفة الدونمة، بقي عنده فضول عن الطائفة دي.. تدريجيا ترك الصحافة و تحول لباحث في تاريخ الطائفة، المعلن و خصوصا السري. قعد يلفّ أوروبا و العالم يستقصي آثارهم في حضارات البلاد و يدوّر على أبناءهم، اللي طبعا كتير منهم لسّه محافظ على تقاليد الطائفة و لسه عايشين ظاهريا كمسلمين وسط مجتمعاتهم.

- كمّلي..

- في خضم بحثه، أورهان اتوصّل لشخصية تاريخية، واحد اسمه طلعت رستم، كان موظف في الحكومة العثمانية، في الفترة من أواخر القرن التسعتاشر إلى أوائل القرن العشرين.. في رأي أورهان، الراجل ده يعتبر من أهم الساسة الأتراك في تاريخ العثمانيين و في المنطقة على وجه العموم.. شخص شارك في تغيّر التاريخ و رسم حدود المنطقة بدرجة كبيرة، لكن لغاية النهاردة ماحدش في العالم الأكاديمي يعرف عنه أي حاجة، و أورهان هو أول واحد يحط إيده على الراجل الغامض ده و دوره العظيم في العقود الأخيرة من عمر الدولة العثمانية.. و طبعا هو اتوصّل له عن طريق بحثه في تاريخ الدونمة، لأنه الراجل ده كان دونمة متخفّي..

في طفولية، حكّ طارق كفيه في سعادة، منتشيا بالرواية التاريخية؛ أكملت هويدا في حماس

- في رحلة بحثه عن الدونمة، أورهان اتقابل مع كتير من الأكاديميين الغربيين المهتمين بتاريخ الإمبراطورية العثمانية، و جمع و قرأ عشرات الكتب و الدوريّات المختصة بالموضوع ده. بداية معرفته عن طلعت

رستم كانت عن طريق إطّلاعه على كتاب كتبه مستشرق بلجيكي، مطبوع في بروكسل، سنة ١٩٤٩. المستشرق البلجيكي، و المهتم بالتاريخ العثماني و تأثيره في مصر ثقافيا و عمرانيا، كان موجود في مصر مدة كبيرة في الأربعينيات، و لأجل الوصول للمعلومات اللي تهمّه كوّن صداقات مع المصريين من أبناء الطبقة الراقية خصوصا من ذوي الأصول التركية و الشركسية. و من كل العائلات، كانت عائلة معيّنة هي الأهم، عائلة باشا مصري ثري اسمه صفوت عبد الرؤوف باشا، وكيل وزارة الأشغال العمومية في وقت من الأوقات. المستشرق البلجيكي كتب في كتابه إنه اطّلع على مذكرات الباشا، و إنه قرأ فيها عن مقابلتين غريبتين جمعوه مع رجل دولة تركي؛ المرة الأولى عام ١٨٨٤، بعد الاحتلال البريطاني لمصر، و ساعتها رجل الدولة التركي ده كان ضمن وفد العثمانيين اللي جم القاهرة يشتكوا من استمرار الاحتلال البريطاني لمصر. المرة التانية كانت بالصدفة سنة ١٩٢٥، و ساعتها كان الراجل التركي مقيم في مصر و هو منتحل اسم و مهنة غير حقيقية. كان تعليق الباشا المصري، صاحب المذكرات، إن رجل الدولة التركي ده كان في حكومة تركيا أثناء الحرب العالمية، و إنه غالبا كان من المسئولين عن مذبحة الأرمن اللي حصلت أثناء الحرب، و إنه أكيد كان متخفّي في مصر هربا من عمليات الاغتيال الانتقامية اللي كان بيقوم بيها الحزب الثوري الأرميني. المستشرق البلجيكي دعبس على تاريخ رجل الدولة التركي ده، و اللي هو طلعت رستم طبعا، و اكتشف إن عائلته من سالونيك، و إنه متجوّز واحدة من عيلة من نفس المدينة اُكتشف لاحقا إنها دونمة (كجزء من حملة الكشف عن عائلات الدونمة في تركيا في عشرينيات القرن العشرين)، و بما إن الدونمة ما بيتجوزوش غير من بعض، فده كان مؤشر قوي إن طلعت رستم نفسه من الدونمة برضه.

- و أورهان حقي بقي جه مصر عشان يدوّر على طلعت رستم ده؟

- من ساعة ما قرأ كتاب المستشرق البلجيكي و أورهان عنده حُمّي اسمها طلعت رستم. جمع عنه معلومات كتير و كان عاوز يكتب عنه

كتاب، و كجزء من العمل البحثي عشان الكتاب قرر يتتبعه من آخر مكان استقرّ فيه، اللي هو مصر.

- و مذكّرات الباشا طبعا هي نقطة البداية.

- بالضبط كده؛ مبدئيا عشان يدوّر فيها عن الاسم المستعار اللي طلعت رستم كان بيستخدمه في مصر (و اللي المستشرق البلجيكي ما ذكروش في كتابه)، و بالتالي يقدر يبحث عنه و يتتبّع خط سيره: يعني، اتخفّي هنا في مصر ازاي و عند أنهي ناس، و إذا كانوا دونمة و لا لأ؟

- و هو أورهان كان بيعتقد إن فيه دونمة في مصر؟

- كان بيقولّي في الأول إنه ما يعتقدش.. لكن بموازاة بحثه عن صفوت عبد الرؤوف باشا و عائلته، كان أورهان، كجزء من بحثه الدائم عن الدونمة في كل حتة في العالم، بيدوّر عنهم في مصر برضه. عمل قائمة بأسماء العائلات اليهودية المذكورين في كل الكتب و الوثائق التاريخية من أيام الاحتلال العثماني لمصر، ابتداءً من القرن السابع عشر، الوقت اللي شبتاي تسيفي قعد فيه في مصر.. خصوصا العائلات اللي تحولوا للإسلام. و بعد كده كانت المهمة الصعبة جدا، اللي هي البحث عن نسلهم الموجودين في الوقت الحالي و لسه عايشين في مصر. المهم و بعد حصر العائلات دول، و اللي هم أكتر مما تتخيل، بدأ أورهان في مراسلتهم بجوابات مليانة إشارات و مضامين مايفهمهاش إلا الدونمة. و بالفعل فيه عائلة ردّوا عليه يوم الأربعاء اللي فات و وافقوا إن يوم الخميس مندوب منهم يقابله.

- و حصل اللقاء فعلا؟

- المفروض.. ما هو من ساعتها و هو مختفي. خايفة يكونوا عملوا فيه حاجة.

- هو ما قالّكيش اسم العيلة دي إيه و لا اسم المندوب اللي هيقابله؟

- همّا ردّوا عليه يوم الأربعاء اللي فات، في الفترة اللي قرر فيها يسيب لارا. طبعا ماكنش ينفع يتصل بيّا عشان يومها كنت مع لارا طول الوقت، لكنه بعت لي رسالة يقولّي فيها على اللي حصل. المفروض كان

يبعت لي إيميل تفصيلي يومها بالليل، بس مفيش حاجة وصلتني.. و من يوم الخميس الصبح و موبايله مقفول.

- حد تاني يعرف عن موضوع عائلات الدونمة اللي أورهان بيطاردهم في مصر؟

هزّت هويدا رأسها نافية أن لا.

- و لا حتى لارا؟

خفضت رأسها إلى الأرض متحرّجة

- محدّش يعرف حاجة عن الموضوع ده غيري أنا و أورهان.

مال حازم على المكتب، و رمق هويدا بنظرة حارقة متّهمة.

- بقول إيه.. بيتهيألي، نكتفي، و لو مؤقتا، بحكاية الدونمة و طلعت رستم و بحث أورهان عنهم، و خلينا نتكلم في موضوع ما يقلّش عنهم أهمية.. خلينا نتكلم شوية عنك و عن أورهان حقّي، و عن العلاقة اللي بينكم.

نظرت هويدا إليه في ضيق و عيناها تحملان لوما واضحا، إلا أن حازم لم يتراجع و قابلها بعينين ثابتتين.

- أيوه، عن كل حاجة بينكم، و برضه من البداية لو سمحتي.

تنهّدت هويدا في استسلام، ثم هزّت رأسها أن نعم.

١٧

تطلّعت هويدا إلى الرجلين المحيطين بها في براءة و انكسار، لكن عينيها كانت تتأمّلهما بتأنّي و عقلها منهمك في تفكير عميق.

إن اختفاء أورهان حقّي يمثل وضعا لا تستطيع التعامل معه وحدها، فليس في ترسانة إمكانياتها المتعددة ما يؤهلها لخوض غمار هذا الوضع الذي لا تفقه عنه شيئا، بل و تخاف منه. إنها محتاجة و بشدة إلى مساعدة، لذا، و مهما واجهت منهما من تطفّل أو تحذلق أو عدوانية، فإن عليها ألا تخسر هذين الرجلين أبدا. صحيح، أنها حتى الآن لا تعرف حقيقة قدراتهما في "التحرّي"، و لا درجة أمانتهما المهنيّة، حتى تثق فيهما بما فيه الكفاية، لكن ليس أمامها من خيار آخر. الوقت يتسرّب من بين يديها و كل لحظة تمرّ دون مجهود حقيقي تعني تضاؤل الأمل في إيجاد أورهان.

لم تعدم هويدا يوما طريقة للتعامل مع الرجال. مهما علا شأن الرجل أو بلغت درجة غموضه أو ذكائه، فهو، كأي رجل، صندوق له مفتاح.. و في سلسلة مفاتيح هويدا، مفتاح لكل رجل. لم تتوقف يوما إلا عند سؤال واحد حيوي: هل يستحق الأمر العناء؟ و في هذه الحالة كانت الإجابة واضحة صريحة: بالطبع، يستحق.

و من بين الرجلين، اختارت ذلك الوسيم الواثق، القابض على وتيرة الحوار و صاحب القرار في هذا المكتب، و الأكثر قابلية للسقوط تحت سطوتها، خصوصا و قد رأت الإعجاب في عينيه في الزيارة السابقة، و الآن تري جليّا على وجهه أمارات الغيرة الشديدة.

طريقها إلى قلب الرجل سيكون غير ممهّد، خصوصا بعد تحوّل مشاعر الحب و الإعجاب إلى أخرى ملؤها الغيرة و الغضب. لا بأس، فقط عليها تغيير لهجة الحوار للاستحواذ على ثقته و قلبه مرة أخرى.

تحدّثت في هدوء و رقة.

- أنا أعرف أورهان حقّي من سنة و نص.

اعتدل طارق محدّقا

- يعني هو في مصر من زمان، مش من شهر زي ما قال؟

هزّت كتفيها في دلال لا داعي له.

- هو جه مصر مرتين، أول مرة كانت من سنة و نص. ساعتها كان لوحده.. لارا ماكنتش معاه.

تدخّل حازم معلقا بنبرة لاذعة

- و يا تري حبّيتوا بعض على طول و لا الموضوع خد وقت؟ من اللي سمعته عن السيد أورهان لحد دلوقت، أقدر اخمّن انك ما أخدتيش في إيده غلوة.

فغرت هويدا فمّها في استنكار كأنما أهانتها كلماته. أكمل حازم

- بس غريبة انكم استنيتوا كل الوقت ده قبل ما تقرروا تتخلّصوا من الست الدنماركية.. أكيد أورهان كان مستنّي حاجة تحصل قبل ما يقدم على الخطوة دي.. إيه؟ إنه ياخد الجنسية الدنماركية مثلا؟

من داخلها كانت هويدا تصرخ في إعجاب من قدرته المذهلة على الاستنتاج، لكن وجهها لم يظهر أي ملمح من دهشتها أو إعجابها. بالعكس، ثبّتت ملامح الاستنكار على وجهها لوهلة، ثم هزّت رأسها في قوة و ضحكت هازئة في عصبية.

- إيه التأليف اللي انت عمال تألّفه ده؟ ها ها.. انت فاكر ان انا و أورهان بنحب بعض!

كان تمثيلها صادقا عفويا، حتى أن حازم ارتدّ في جلسته.

- نعم؟! اومّال انت جاية لنا النهاردة ليه و عاوزانا نساعدك في البحث عنه؟
- عشان احنا شركاء في الكتابة.. من اللحظة اللي قابلته فيها في أرشيف الأهرام، أيام ما كنت شغّالة فيه من سنة و نص و انا شريكته في شغله البحثي الكبير عن الدونمة.
- و ده يبرّر تأثّرك بغيابه لدرجة البكاء بالدموع؟

خفضت هويدا رأسها في إحراج.

- أنا إنسانة انفعالية بطبعي و أي حاجة هبلة بتجيب الدموع في عيني بسهولة..

أحكمت هويدا سيطرتها على انفعالاتها باقتدار، ثم رفعت إليه عينيها الساحرتين و قد ملأتها الدموع.

- و ممكن كفاية بقي إحراج و تهزيق.

ارتبك حازم

- أنا مش قصدي..
- و ممكن تخلّيني أعرف احكي عن اللي بتسأل عنه.
- اتفضّلي، بس أرجوكي قولي الحقيقة..

مسحت دموعها، ثم هزّت رأسها أن نعم.

- أورهان حقّي مابقاش يحب لارا من فترة.. مرضها النفسي و عصبيتها خلّت الحياة بينهم مستحيلة.. ياما اتخانقوا، و كل مرة ترجع تطارده و ترفض تسيبه.. حاول يتفادي القعدة معاها فترات طويلة عن طريق السفر، لكن للأسف، مع تدهور مرضها النفسي زاد تعلّقها بيه بشكل غير طبيعي لدرجة إنها أصرّت تيجي معاه في زيارته التانية لمصر، و هي دي الفترة اللي قرر فيها ينهي علاقته بلارا للأبد.

- و انتي إيه اللي دخلك في الموضوع؟
- خلال الشهر اللي فات أنا و لارا اتعرّفنا و اتصاحبنا، يعني نخرج مع بعض، نتعشّى، نتسوّق.. أورهان بعد ما شاف قربنا من بعض، طلب مني أساعده في إنهاء علاقته بيها.
- و انتي وافقتي ليه؟
- قال لي أن انهاؤه لعلاقته بلارا شيء حتمي.. و إن وجودي معاها في اللحظات دي هيخفّف من حدة الأزمة بالنسبة لها..
- كلام فارغ..
- ثانيا و ده الأهم، فيه بيني و بينه موضوع البحث عن الدونمة.. أنا اللي محتاجة له، مش هو.. من الآخر كده ماقدرش أقول له لأ..
- كمّلي..
- كانت خطته كالتالي: هو هيتخانق معاها خناقة معتادة، و بدل ما يسيبها تقعد تطارده زي كل مرة و تضغط عليه نفسيا بالعشرة اللي بينهم و بمرضها النفسي، كان ناوي المرة دي يختفي تماما و يقولها إنه خلاص ما بيحبهاش و إنه بيحب واحدة تانية و خلاص هيتجوزها.. حتمية جوازه و كون لارا في بلد غريب ما تعرفش تدوّر فيه، هيخليها تستسلم و ترجع بلدها.. وجودي جنبها أثناء قطع أورهان علاقته بيها كانت عشان يقلل من تأثير الصدمة عليها.
- و يا ترى فيه فعلا واحدة أورهان هيتجوزها؟
- لا، طبعا.. دي مجرد تأليفة عشان يحسّس لارا إن الموضوع نهائي و مش هينفع تجرّب تستجديه و تضغط عليه زي العادة.
- و ليه جه مكتبنا و إيه دورنا في الموضوع ده؟
- ماكنش ينفع إني أنا اللي اقدّم للارا الصدمة النهائية.. كنت هاخسرها على طول. كان لازم أفضل جنبها طول الوقت عشان اقدر أسيطر عليها نفسيا و كمان عشان أفضل مراقباها لحد ما اتأكد إنها سافرت لبلدها.. و ده فعلا اللي حصل.
- و ليه هو ما اتّصلش بيها و أنهى العلاقة بنفسه؟

- كان عايز يتفادي المواجهة المباشرة بأي طريقة.. عشان كده كان بيدوّر على طرف تالت يقوم بالمهمة دي.
- كان ممكن يبعت لها جواب أو حتى رسالة على الموبايل ينهي بيها الموضوع.
- كان بيفكّر فعلا في حلول زي كده لغاية ما شاف إعلان مكتبكم.
- أيوه، قولي لي بقي، ليه مكتبنا؟ ليه مش أي جهة تانية؟
- إعلانكم على الفيس بوك جه قدام عينه بالصدفة.. هو بقاله فترة واصل لحيطة سدّ في بحثه عن عائلة صفوت عبد الرؤوف باشا.. عجبته فكرة مكتبتكم و قرر إنه يستخدم خدماتكم، قال يمكن تقدروا على اللي ما قدرش عليه.. و ده كان تقريبا في نفس الوقت اللي كان بيفكّر في مين يصلح يكون الطرف التالت.. بس ساعتها، قرّر يضرب عصفورين بحجر واحد.

ساد الصمت للحظات. كان لا يزال حانقا، و الغضب ينضح من عينيه، لكن بدرجة أقل مما كان عليه منذ بضعة دقائق. نظر إليها لائما

- و يا تري انتي راضية عن اللي عملتيه؟ مش حاسّة بتأنيب ضمير انك شاركتي في خداع إنسانة مريضة زي لارا؟

تجهّم وجه هويدا و خفضت رأسها، ثم أجهشت في البكاء. ارتبك حازم و قام من مكانه، دار حول المكتب مادّا يده بمنديل ورقي.

- أنا آسف يا آنسة هويدا.. ما كنش قصدي اني أضايقك.

التقطت المنديل لتجفّف دموعها المنهمرة.

- أنا باعترف إني اتصرّفت تحت تأثير التفكير في مستقبلي في البحث مع أورهان، لكن صدّقني، أنا عمري ما قصدت إني أكون سبب في إيذاء مشاعر لارا..

ثم قامت مهرولة ناحية الباب و هي تنشج.

- عن إذنكم.. أنا أسفة جدا إني أزعجتكم.

استوقفها حازم على الفور.

- استني بس يا هويدا، ما تمشيش و انت بالحالة دي. أرجوكي خلينا نساعدك..

انتظرت ثلاث ثواني حتى يأكل القلق قلبه و يزداد تعلقه؛ مسحت دموعها و تمالكت نفسها، ثم هزّت رأسها موافقة في ابتسامة تذيب أكثر القلوب قسوة و تكلّسا.

١٨

و بعد انصراف هويدا بنصف ساعة كاملة، كان الصديقان لا يزالان في حالة من العصف الفكري. التقط طارق مفكّرته الصغيرة مرة أخرى.

- ترتيباتنا للبحث أكيد هتختلف بعد المعلومات الجديدة دي..
- مبدئيا، بقي عندنا هدفين. الأول، و اللي هو الأصلي، هو البحث عن صفوت عبد الرؤوف باشا، و التاني هو البحث عن أورهان حقّي. بخصوص الهدف الأول ترتيباتنا هتبقي زي ما قولت قبل كده: هندوّر على خريطة المنطقة اللي فيها الفيلا، و ندوّر على جيرانه و خدامينه القدامي، و نشوف صلاتهم بأنجال الباشا، و ندوّر برضه على تاريخه في أرشيفات الجرائد و المجلات. أما بخصوص الهدف التاني فممكن نبدأ بأوراق أورهان حقّي الخاصة، خصوصا قائمة أسماء العائلات اليهودية اللي أسلمت. هأبعت رسالة دلوقت لهويدا، أقابلها بكره و آخد منها الأوراق دي كلها.. مين عارف، يمكن نلاقي حاجة تفيدنا، و انت بكره تقوم باللي تقدر عليه من المهام الخاصة بالبحث عن صفوت باشا.
- يا ربنا.. القضية دي شكلها هتبقي قمة المتعة يا حزووم، صح و لا إيه؟

لكن حازم كان أقل حماسا.

- متعة؟
- أيوه يا صاحبي طبعا.. عائلة من أصول يهودية في مصر بتحافظ على هويّتها السرية، من مئات السنين.. فجأة ييجي واحد تركي يقولّهم إنه يعرف سرّهم.. طبعا هيضطروا يخطفوه أو يقتلوه.. يا ربي.. دي قصة فيلم أجنبي متكلّف.. فيلم من أفلام هتشكوك أو توني سكوت.

- يا عم اتلهي..

كان طارق يدوّن توجيهات حازم في مفكّرته في حين استلقى الأخير خلف المكتب في حالة من عدم الرضي. اعتدل حازم في جلسته بغتة و قد خطر بباله خاطر.

- بأقولك.. هات رقم الموبايل اللي ادّهولك الباحث التركي.

أخرج طارق من محفظته قصاصة الورق التي أعطاه إياها التركي ثم ناولها لحازم. ضرب الأخير رقم الهاتف ثم هزّ رأسه في ضيق.

- الموبايل مقفول..
- مالك بتقولها و انت مش مبسوط..
- هويدا..
- مالها؟
- مش مستريّح لها قوي..
- لسه برضه؟
- خايف تكون بتكدب..
- بتكدب؟
- يعني، تكون بتحب أورهان حقّي و يكونوا متّفقين مع بعض يخلصوا من لارا و بعد كده يخلي لهم الجو، و تطلع في الآخر إنها فعلا المحبوبة المزعومة..
- أنا برضه كنت فاكر كده أول ما دخلت علينا، بس هي أنكرت و برّأت نفسها بكلام معقول و مقبول جدا..
- ده ما ينفيش إنها ممكن تكون بتكدب..
- إن بعض الظن إثم يا حازم..
- أتمني اني أكون مخطئ، بس لسه مش مستريّح أوي..

كان حازم يضرب زرّ إعادة الاتصال في عبث، عندما أتاه صوت رنين الهاتف. قام من مكانه فزعا.

- ده إدّي جرس..

ردّ عليه صوت انثوي ناعس.

- آلو..
- آلو.. هو مش ده تليفون الأستاذ أورهان حقّي؟
- أمم..
- ممكن أكلمه؟
- مين معايا؟
- إحنا مكتب كنج توت..
- بتاع التحريات؟
- أيوه..
- هو قالي فعلا إنكم ممكن تتّصلوا.. هو عايز يوصّل لكم رسالة.
- أيوه..
- هو خلاص مستغني عن خدماتكم.. جدّ جديد في بحثه، و خلاص هو مستغني عن خدمات مكتبكم..
- لحظة.. هو مين معايا على الخط ؟
- يفرق معاك في إيه؟
- يفرق معايا ان أستاذ أورهان بقاله كذا يوم ما بيردّش على التليفون و كل معارفه بيدوّروا عليه..
- فعلا، موبايله فاصل شحن بقاله يومين.. أنا لسه موصّلاه بالشحن دلوقت.
- ممكن اكلم أستاذ أورهان؟
- بس هو مش موجود دلوقت.. أنا مش عارفة إيه مشكلتك، ما انا خلاص وصّلت لك الرسالة.

و اعتصر حازم رأسه بحثا عن مخرج

- يا فندم أنا ما اقدرش الغي المهمة اللي المكتب مكلّف بيها من غير ما أستاذ أورهان يقوللي كده شخصيا.. ده غير فلوس المقدم اللي

دفعه و اللي لازم ترجع له.. غير كده هو ممكن يبلّغ عننا البوليس و يودّينا في ستين داهية.

- للدرجة دي؟
- مين معايا يا فندم؟
- أنا خطيبته..
- خطيبته!

تبادل حازم و طارق نظرات الدهشة.

- طيب ممكن حضرتك تبلّغيه يتّصل بينا ضروري..
- حاضر، و إن كنت ما اظنّش إنه هيتّصل بيكم تاني.. ما هو خلاص فعلا لغي تكليفه ليكم.. ده غير إننا مشغولين جدا اليومين دول.. عندنا سفر بعد بكره و مش فاضيين.

و خطرت لحازم فكرة مناسبة

- خلاص يا فندم، اديّني عنوان على الأقل اقدر ابعت عليه المقدّم اللي دفعه لينا..
- هو خلاص متنازل عن المقدم يا سيدي.
- يا فندم ما ينفعش.. كدا تعملي لنا مشكلة مع البوليس. لازم نرجّع لكم الفلوس، أنا مستعد اوصّلها لكم في أي وقت و أي مكان.. إن شالله دلوقت.

تردّدت لحظة، ثم استسلمت تحت الضغط.

- طيّب.. اكتب عندك.. فندق راديسون بلو، اللي عند المطار، مطعم فيليني.. بس لو هتبعت الفلوس، ابعتها على طول، أنا همشي من هنا خلال ساعتين.
- هاسأل على مين يا فندم؟
- اسمي سهام الرويني..
- سهام الرويني؟ الممثلة المشهورة؟

ضحكت في دعة.

- لأ.. هو فيه ممثلة اسمها سهام الرويني؟
- أصل اسمك مش غريب عليا.
- أنا فعلا شغّالة في الفن، بس في مجال غير التمثيل خالص.

انتظر أن تفصح عن كنه ذلك المجال، لكنها سكتت و لم تضف حرفا واحدا، و سرعان ما انتهت المكالمة.

هتف طارق في حسم و فرح.

- أهو يا سيدي، الراجل التركي كان فعلا بيخلص من صديقته الدنماركية عشان واحدة مصرية، بس أهي، طلعت مش هويدا.. شفت بقي، حبيبة القلب طلعت بريئة.

أخذ حازم يحكّ ذقنه مفكّرا و إن بدا عليه الارتياح، في حين جلس طارق و قد انتبه فجأة إلى ما تعنيه المكالمة.

- بس، كده المهمة إيه؟ فركش! أكيد لأ.. إحنا برضه لسه شغالين عشان هويدا.. صح؟
- صح..

كان حازم يرد متمتما و هو غائب في أفكاره لا يستمع لحديث صديقه. كان يريد أن يقطع الشك باليقين.. مرة و إلى الأبد.

- هو المقدّم اللي الراجل التركي دفعهولك فين؟
- في درج المكتب الأول.

فتح حازم درج المكتب، التقط الدولارات، ثم قام من مكانه في حيويّة و اتّجه إلى الباب. تبعه طارق مذهولا.

- إيه؟ رايح على فين؟
- على فندق راديسون بلو أقابل خطيبة أورهان.

- ليه؟
- لازم اطّمن بنفسي.

و بعد اثنين و أربعين دقيقة بالضبط كان حازم شاهين يعبر البوابة الرئيسية لفندق راديسون بلو، متّجها إلى مطعم فيليني مباشرة. و هناك اكتشف أن السيدة سهام الرويني غادرت المطعم منذ عشرين دقيقة بالضبط. و بسؤال كبير الجرسونات أخبره أن رجلا - هو من كان يحضر معها في الأسابيع الماضية – أتى و خرج بها على عجل و دون أن يتناولا العشاء؛ هو رجل أجنبي متوسط البنية، أقرب إلى الطول، ممتلئ الجسم، و تناديه السيدة – و كما هو متوقع - باسم أورهان. أما بخصوص وصف السيدة، فكانت امرأة سمراء، طويلة، شعرها أسود ناعم.. أوصاف لا تنطبق على هويدا سالم على الإطلاق.

زفر حازم في راحة و قد تخلّص من شكوكه أخيرا. لقد اطمأنّ عقله إلى هويدا تماما، و الآن يستطيع أن يسمح لقلبه باستئناف حبها من جديد.

ضحكت في دعة.

- لأ.. هو فيه ممثلة اسمها سهام الرويني؟
- أصل اسمك مش غريب عليا.
- أنا فعلا شغّالة في الفن، بس في مجال غير التمثيل خالص.

انتظر أن تفصح عن كنه ذلك المجال، لكنها سكتت و لم تضف حرفا واحدا، و سرعان ما انتهت المكالمة.

هتف طارق في حسم و فرح.

- أهو يا سيدي، الراجل التركي كان فعلا بيخلص من صديقته الدنماركية عشان واحدة مصرية، بس أهي، طلعت مش هويدا.. شفت بقي، حبيبة القلب طلعت بريئة.

أخذ حازم يحكّ ذقنه مفكّرا و إن بدا عليه الارتياح، في حين جلس طارق و قد انتبه فجأة إلى ما تعنيه المكالمة.

- بس، كده المهمة إيه؟ فركش! أكيد لأ.. إحنا برضه لسه شغالين عشان هويدا.. صح؟
- صح..

كان حازم يرد متمتما و هو غائب في أفكاره لا يستمع لحديث صديقه. كان يريد أن يقطع الشك باليقين.. مرة و إلى الأبد.

- هو المقدّم اللي الراجل التركي دفعهولك فين؟
- في درج المكتب الأول.

فتح حازم درج المكتب، التقط الدولارات، ثم قام من مكانه في حيويّة و اتّجه إلى الباب. تبعه طارق مذهولا.

- إيه؟ رايح على فين؟
- على فندق راديسون بلو أقابل خطيبة أورهان.

- ليه؟
- لازم اطّمن بنفسي.

و بعد اثنين و أربعين دقيقة بالضبط كان حازم شاهين يعبر البوابة الرئيسية لفندق راديسون بلو، متّجها إلى مطعم فيليني مباشرة. و هناك اكتشف أن السيدة سهام الرويني غادرت المطعم منذ عشرين دقيقة بالضبط. و بسؤال كبير الجرسونات أخبره أن رجلا - هو من كان يحضر معها في الأسابيع الماضية - أتى و خرج بها على عجل و دون أن يتناولا العشاء؛ هو رجل أجنبي متوسط البنية، أقرب إلى الطول، ممتلئ الجسم، و تناديه السيدة - و كما هو متوقع - باسم أورهان. أما بخصوص وصف السيدة، فكانت امرأة سمراء، طويلة، شعرها أسود ناعم.. أوصاف لا تنطبق على هويدا سالم على الإطلاق.

زفر حازم في راحة و قد تخلّص من شكوكه أخيرا. لقد اطمأنّ عقله إلى هويدا تماما، و الآن يستطيع أن يسمح لقلبه باستئناف حبها من جديد.

لوفنبرانكه

١٩

تفريغ تسجيل بكرة ممغنطة رقم ١:

يوم الأحد ٢٦ يونيو ١٩٣٨، ٦:٣٠–١١ مساءً

" اسمح لي أن أعلن عن استغرابي و حيرتي الشديدين إزاء زيارتك أيها الشاب، خصوصا و أنت تخبرني، و بعد كل هذه السنين الطويلة من القطيعة و التجاهل، أن الحكومة الألمانية ترغب في التحدث معي، بل و الاستفادة من خبراتي و اتصالاتي!

لم تستطيعوا أن تتوصلوا إليّ، لأن خطابي كان مشفرا بكود غير معروف لديكم! غريب، إذا كيف استطعتم أن تتوصلوا إليّ الآن؟

ثم، اسمح لي، و لست هنا أقصد أية إهانة، ما الذي يؤهلك للقاء رجل دولة عجوز مخضرم مثلي، خدم الدولة الألمانية خدمات جليلة، لسنين طويلة من عمره، لم يلق خلالها أي تحقيق لأي من وعوده الكبرى، بل و في آخر حياته لا يقابل إلا بالإهمال و التجاهل؟ ما الذي يؤهلك يا بني للتفاوض مع عجوز مثلي لا يملك رفاهية الوقت، زاهد في الحياة، و لا يتوقع منه إلا كل غضب و تمرّد و تحامل؟

لو أرادت الدولة الألمانية أن تردّ بعضا من خدماتي الجليلة لها، فليس أقل من إرسال مسئول كبير في الحكومة، وزير أو جنرال في الجيش، بل ليس أقل من استقبال رسمي أمام الفوهرر شخصيا..

من أنت يا بنيّ، حتى ترسلك الدولة الألمانية آملة في مزيد من خدماتي!

تقول أنك جندي في الجيش الألماني؟ عجيب! صحيح أنك تبدو في نظري شاب صغير السن، لكنك في عينيّ العجوزتين تبدو لي أذكي و أنبه من مجرّد فلاح بافاري حامل لبندقية أو حتى عامل من برلين يلقّم المدافع بالذخيرة..

أنت ضابط برتبة كابتن؟ فقط. تقول أنك ضابط لا غير! يا بنيّ، لست أملك رفاهية لا الوقت و لا الصحة لأجادلك، لكن دعني أخبرك في وضوح، و من البداية، أنا لا أصدقك البتّة..

أنت تتبع الأسلوب المخابراتي الساذج في سبر الضحية و الإبقاء على شخصيتك في الظلام.. لا بأس لو أردت إخفاء بعضا من أسرارك، لكن كن على ثقة أني لن أكون بالسذاجة و الجهل الذي يتصوّره أبناء الجيل الألماني العادي عن غيرهم من أبناء الأجناس الغير آرية..

آه، أنت لا تؤمن بذلك! يا لك من كاذب..

يا بنيّ، اعلم أنك و منذ اللحظة الأولى التي انشقّت الأرض فيها عنك أمامي عند مسرح الريحاني، وصولا إلى الآن، لم أخطئ ملمحا أو حركة واحدة صدرت منك، بداية من مصافحتك لي، مرورا بطريقة جلوسك أمامي على الكرسي، وصولا إلى حركات وجهك، نغمة صوتك و درجة علوّه، و بالطبع نظرات عينيك و أنا أتحدث معك الآن..

و ما هو انطباعي عنك؟ ما أنت إلا شاب ألماني آخر، متشبّع و مؤمن بكل النظريات العرقية العنصرية للماكينة الإعلامية النازيّة، حتى لقد صرت ترسا من تروسها..

تقول أنك خريج جامعة، بل و حاصل على شهادة الدكتوراه كذلك..

يا عزيزي لا تضحكني، فلست أملك رفاهية الصحة لأضحك فتصيبني إحدى نوبات القلب اللعينة..

من قال لك يا بنيّ أن التعليم، مهما بلغت جودته أو درجته يمثّل حماية للعقل من الغباء و تصديق الأكاذيب و الإيمان بالخرافات..

يا بنيّ، إن حال الدولة الألمانية الحالية، بعلمائها و فلاسفتها و قاماتها العسكرية المنساقين لمخبول جاهل غير متعلّم مثل أدولف هتلر، لهو خير دليل على كلامي..

و أرجوك لا تغضب مني، فلم أقصد من استفزازي لك أن أغضبك. فقط أردت أن أجبرك على التصريح بمستواك التعليمي و المهني الحقيقي.. ليس لأني لم أعرفه من طريقة كلامك و اختيارك لألفاظك، بل لأكشف لك أمام نفسك أنك غريم غير كفء لي، و أنني أستطيع أن أتلاعب بك كيف أشاء..

و الآن بعضا من الاحترام و التوقير لشخص بمثل قامتي و إلا تركت لك المكان فورا..

اعتذارك مقبول، لكن إياك أن تستهين بي مرة أخرى، و لا حتى بينك و بين نفسك.. سأعرف ذلك حتما، و سيكون رد فعلي غير سار..

و الآن دعني أكمل تحليلي لشخصيتك: أنت لست مجرد خريج جامعي عادي، بل أنت كذلك على درجة عالية من الثقافة و الاطّلاع، بل و يخيّل لي أنك على دراية جيدة بالشئون الشرقية، حتى إني أكاد أجزم أنك تجيد اللغة العربية: حركات وجهك و ردود أفعالك تجاه الجرسون و الزبائن في هذا المقهى تشي بمعرفتك باللغة..

نعم يا عزيزي، أنا جيد، ذكي و ذو خبرة، و عندي قدرة عالية على التخمين و الاستنتاج، و لولا ذلك لما رأيتني أمامك الآن على قيد الحياة و أنا في الرابعة و الثمانين من العمر. و الآن دعني أكمل: أنت عضو في جهاز استخباراتي كبير، لكن ليس بالضرورة أن يكون ألمانيا، و إن كان ألمانيا، فإنه بالطبع ليس جهاز الاستخبارات الرسمي الوحيد، و المفترض حسب علمي أنه و طبقا لاتفاقية فرساي، من المفترض أنه ذلك التابع للجيش الألماني.

تسألني، على أي أساس بنيت تخميني هذا؟

ببساطة لأننا نتحدث هنا في هذا المقهى و ليس في السفارة الألمانية في الزمالك، بل و ليس في أحد البيوت الآمنة. أنت تعمل هنا وحدك يا عزيزي، و لا يربطك بالمؤسسة الرسمية الألمانية أي صلة..

لذا ستكون إجابتي على سؤالك الأوّلي هو التالي: لا، لن أتعاون معك.. يجب أولا أن أعرف يقينيا من أنت و ما هي الجهة التي تتبعها، و ساعتها سأقرر..

تقول أنك عضو في الحزب النازي و تعمل لدي الـSD؟ إذا هذا هو السبب في عدم وجودنا في السفارة الألمانية حتى لا يستفزّ وجودك الملحق العسكري بالسفارة، و الذي أستطيع أن أستنتج أنه لا علم له بوجودك هنا..

هذه إجابة أكثر معقولية، لكني أريد دليلا..

أنت تعرف بوجودي و تعرف عن علاقتي بالأمير بسمارك، البارون هلموت بلامان، الكولونيل مالكوم إدلر.. بداية جيدة لا بأس بها. لكن لا، أريد دليلا ماديا يثبت حقيقة انتمائك للدولة الألمانية، و إنك مثلا، لست عضوا في حزب الطاشناق الأرميني الإرهابي و تريد الفتك بي؟

آوه، هذه الصورة، يا الهي!

هذه الصورة لا تزال موجودة.. يا ربي، حتى أنا ليس لديّ صورة لنفسي منذ ذلك الزمن البعيد.. أتعرف، صورتي هذه مع الأمير بسمارك، التقطت يوم ٢٤ فبراير ١٨٨١، الساعة العاشرة صباحا في حديقة ضيعته الخاصة، الفريدريشرو.. بالضبط بعد حوالي شهر واحد بالتمام و الكمال من إتمامي عامي السابع و العشرين..

هذه الصورة التقطها الكولونيل مالكوم إدلر بنفسه و من المستحيل أن يسلّمها إلا إلى موثوق فيهم.. حسنا، إذا كان لديك هذه الصورة، فهذا يكفيني دليلا لأتعامل معك..

حسنا، ماذا تريد؟ تريد أن تعرف كل شيء.. و من البداية!

يبدو أن الأمير بسمارك استطاع أن يحافظ على أسراره إلى حد بارع، حتى عن الحكومة و المؤسسة العسكرية اللذين ترأّسهما لعقود طويلة.. يبدو أنكم لا تعرفون أي شيء عن خططته العبقرية و شبكاته المتشعّبة..

لا بأس، لكن قل لي إن عندك الكثير من الوقت، لأن القصة طويلة.. لكن لا تقلق، هي شيّقة و مثيرة كذلك.."

✻٢٠✻

"كل تغيير جوهري يعتري أي إنسان لابد له من نقطة بداية.. لكن قبل الوصول لنقطة البداية هذه، لابد من المرور على تجارب و محطات معينة: أحداث صغيرة، لكنها لافتة، تغيّر المزاج العام و تشكّك في الحقائق و المبادئ المسلّم بها، و من ثمّ تزرع بذرة الشكّ داخل العقل و الروح. تنمو نبتة الشكّ متخبّطة بطيئة أول الأمر، حتى يأتي ذلك الحدث الصادم الحادّ، ما يطلق عليه نقطة البداية، فتنطلق النبتة في النمو، صاعدة في عنان السماء، حاملة الإنسان في رحلة من التغيير الشامل الكامل. لذا، و لكي تعرف لماذا التحقت بخدمة الرايخ الألماني القيصري، و قبل أن أبدأ لك من نقطة البداية، يجب أن أعود بك إلى جذور نشأتي و إلى الأسباب التي قادتني، أنا الشاب التركي، ابن التاجر الثري و الجندي في الجيش العثماني، و لاحقا الموظف في الباب العالي و المسئول الحكومي النافذ، إلى خيانة وطني و الأمّة التي من المفترض أن أنتمي إليها.

صحيح أن كلماتي هذه قد تبدو في نظرك مجرد اعتذار أو تبرير لفعلتي، لكنك يا عزيزي ستكون مخطئا إن فعلت ذلك. ما سأرويه على أذنيك لن يكون هدفه أبدا تبرئة ذاتي و الدفاع عن نفسي، و لكن بالأساس كي تفهم و تستفيد، فلربما أضحيت أنت يوما، أو أحد ممّن سيسمع هذا التسجيل، شخصا نافذا في بلدك، و لربما أفادتك قصتي هذه في تفادي الكثير من المآسي التي تعرّض لها وطني الأصلي، و الذي أصبح الآن في خبر كان.

دعني أسترجع في مخيّلتي و أعود بنا عبر الزمن، إلى الوراء، إلى سبعين عاما أو يزيد في الماضي، عندما كنت لا أزال طفلا في الحادية عشرة من عمري.. اللقطة الأولى لتكوّن وعيي الوطني كانت مع أبي، صالح رستم، تاجر المنسوجات الشهير في البيزاستان (السوق المغطّى لبيع الأقمشة في مدينة سالونيك). كان قد قرّر أن يخرجني من المدرسة بضع سنين، يعلّمني خلالها قواعد التجارة و أصول المهنة.. اللقطة الأهم كانت في السنة الثانية من عملي

في تجارة العائلة، عندما قرّر والدي أن يأخذني معه في رحلتي الأولى خارج المدينة.. شمالا إلى بلجراد، عاصمة إمارة صربيا – الشبه مستقلّة وقتها و الخاضعة اسميا فقط لحكم السلطان – المدينة الصربية الأكبر و الأكثر تحرّرا و ثورية في ذلك الوقت.

كان صيف عام ١٨٦٥.

أتذكّر بكل جلاء أحداث ذلك اليوم الصيفي، الرائق السماء و المعتدل الحرارة، و الذي وصلنا فيه إلى بلجراد: بداية من نزولنا من محطة القطار، مرورا بركوبنا عربة يجرّها زوج من الأحصنة الشهباء، وصولا إلى شارع فيشكليا الكبير، حيث أقمنا في نُزل عثماني شعبي قديم، أقرب إلى الفنادق الريفيّة في غرب أوروبا.

كانت النشوة الأولى عندما استأذنت والدي لأنزل إلى الحقل القريب من النزل، حيث جماعة من الصبية و الشباب يلعبون كرة القدم – الرياضة الجديدة وقتها، و التي حملها البحارة و التجار البريطانيون إلى أنحاء المعمورة فانتشرت بسرعة مذهلة. كان ثمّة ملعب بدائي في ركن من حقل كبير، كرة جلد مشدودة و زوجان من العواميد الحديدية مغروسة في الأرض. هؤلاء النفر من الأولاد – مثلي تماما – أتوا من أصقاع السلطنة المختلفة مع ذويهم، وقت موسم الحصاد، للتجارة في المدينة ذات الحركة التجارية الأكبر في البلقان. أولاد من مختلف الجنسيات و النحل، تجمّعوا و قسّموا أنفسهم إلى فرق، يلعبون مباريات متتابعة في شكل أقرب إلى الدوري. أربع فرق مختلفة مقسّمة بالأساس بناءً على الانتماء العرقي الديني: تركي-كردي-بوسني مسلم، صربي أرثوذكسي، كرواتي كاثوليكي، إضافة إلى بعض شباب من بلغاريا و من رومانيا كوّنوا فريقا مختلطا رابعا.. و بالطبع انضممت إلى الفريق التركي المسلم.

أذكر أن سعادتي كانت كبيرة يومها، إذ شعرت بالعزة و الفخر بالانتماء لإمبراطورية كبيرة مترامية الأطراف تضم تحت لوائها شعوبا و أناسا من أعراق و أديان كثيرة و متباينة – دولة كبيرة عملاقة، يفخر المرء بالانتماء لها..

لكني كنت لا أزال صغيرا، و لم يكن عقلي المراهق يستطيع أن يفطن إلى النار التي تضطرم تحت سطح هذا البركان الساكن وقتها.. لم أفطن إلى ما يعنيه ذلك التقسيم الصارم للفرق بناءً على الأعراق و الديانات بالأساس، و لم أفهم مبعث تلك المشاعر المبالغ فيها: من صراخ و فرحة لدرجة القفز عاليا في الهواء و التمرّغ في الأرض عند الفوز، و البكاء لدرجة النشيج و الصراخ عند الهزيمة. كانت تلك المشاعر العارمة تعكس شيئا أعمق من مجرد نشوة الفوز أو ألم الخسارة في لعبة رياضية، لا مكسب مادي أو معنوي ذا قيمة يأتي من ورائها.

لم أفهم وقتها أيضا سر التشجيع المبالغ فيه من الأهالي، و لا تلك المعارك الضارية التي كانت تعقب كل مباراة."

"كان من المفترض أن الهدف من الرحلة تجاري بحت، لبيع تجارتنا من منسوجات أناضولية و سورية، ثم شراء كميات كبيرة من الصوف من المزارعين الأغنياء أو تجّار الجملة بمنطقة البلقان، سواء في صربيا ذاتها أو من البوسنة القريبة.. لكن بعد أيام قليلة من وصولنا إلى بلغراد، اتّضح لي أن للرحلة أبعاد و أغراض أخرى غير اقتصادية على الإطلاق..

كنت، و حتى القيام بتلك الرحلة، لا أري في أبي إلا تاجرا مجتهدا، لطيف المعشر، رائق البال، و لا يهتم عموما بما يدور حوله من أمور اجتماعية أو سياسية. لذا، كانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت أن السبب الأساسي لقطع رحلة الـ ٦٥٠ كيلومتر لم تكن التجارة بالأساس، بل رغبة أبي في المشاركة في إنشاء تنظيم متمرّد يناوئ السلطان العثماني نفسه و يهدف إلى تجريده من سلطاته المطلقة؛ تنظيم تم انشاؤه في هذا المكان القصيّ المتمرّد من الإمبراطورية عبر لقاءات متكررة لبعض مثقفي الأمّة العثمانية، هم رجال من صفوة السلطنة حرفيا، إذ أن كل أعضائها المؤسسين موظفون في الباب العالي – الحكومة العثمانية نفسها!

إنه تنظيم 'الشبان العثمانيون'، ذلك التنظيم الأشهر الذي أنشيء بتمويل مباشر من ذلك النبيل المصري الغاضب، الأمير مصطفي فاضل، ولي العهد المفترض و الذي حرمه أخوه، الخديوي إسماعيل، من ولاية العهد.. بالطبع كان الأمير، الذي نُفي لاحقا إلى أوروبا، غاضبا من أخيه الذي حرمه من إرثه الشرعي، لكنه كان يحمل أيضا مشاعر لا تقل غضبا و حنقا على السلطان العثماني الذي تواطأ مع الخديوي المصري و أصدر فرمانا يسمح بهذه الخديعة.. من وجهة نظري، لم يكن تمويل الأمير للتنظيم إلا وسيلة ينفث من خلالها بعضا من غضبه تجاه العرش العثماني الفاسد و المرتشي.

(كان تنظيم الشبان العثمانيين تنظيما نخبويا بالأساس، لكنه اكتسب نفوذا و تأثيرا بمرور الوقت، خصوصا مع انضمام شخصيات بالغة الأهمية، مثل الأمير مراد و الأمير حميد – السلطانان التاليان في الحكم. يكفي دلالة على تأثيره استطاعته خلال بضع عشرة سنة أن يزيح سلطانا من الحكم و أن ينجح في وضع دستور و إنشاء مجلس نواب – و ذلك للمرة الأولى في تاريخ السلطنة منذ إنشائها أواخر القرن الثالث عشر الميلادي..)

في تلك الرحلة و بصحبة أبي، جلست مع الآباء الروحيّين لهذا التنظيم، أشخاص وطنيون مثقفون اطّلعوا عبر إقامتهم في أوروبا و عبر وظائفهم في الباب العالي على الوضع الأوروبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كانوا يصرخون محذّرين من أن الغرب يتقدّم في كل المجالات صناعيا و اقتصاديا و عسكريا بسرعة مذهلة، و أن الهوّة التي تفصل ذلك الغرب المتحضّر عن السلطنة العتيقة، و التي كانت لا تزال تدار بأفكار و قوانين لا تصلح حتى لدولة في القرن السابع عشر، تتّسع بصورة مفزعة مخيفة.

لكن أحاديثهم لم تنحصر أبدا على التخويف و التحذير، بل امتدّت لتشمل الحلول، العشرات منها.. آراء و أفكار مبتكرة و عبقريّة، سمعتها مرارا و تكرارا من هؤلاء المحدثين العظام: من فطاحلة الأدب و اللغة من أمثال نامق كمال و إبراهيم شناسي و عبد الحميد ضياء باشا، و رجال الدين

الأجلّاء من أمثال علي سوافي، و رجال الدولة الكبار مثل مدحت باشا، أبو الدستور و الصدر الأعظم لاحقا.

كان شعوري بعد كل جلسة شعورا ساميا، مفرطا في التفاؤل بمستقبل سعيد لتلك الدولة الكبيرة التي أنا مواطن من مواطنيها، و التي يقول هؤلاء العظماء أن بإمكانها بسهولة أن تصبح في الصف الأول من الأمم؛ أن تروّض الدب الروسي المتمرّد، و أن تزيح الأسد البريطاني ذاته من على عرش الكرة الأرضية، بل و تحتلّ مكانه. كل ذلك كان ممكنا، قريب المنال، عبر دستور حديث يساوي بين جميع مواطني الدولة العثمانية و يسمح بالحرية و الابتكار، و برلمان يقوده رجال متنوّرون وطنيون، راغبون في تقدّم الدولة و ريادتها.

باختصار، عُدت من هذه الرحلة المفعمة بالنشاط الفكري و العاطفي، و بداخلي إحساس كبير بالزهو و الفخر بالانتماء لهذه السلطنة المترامية الأطراف، بداية من انتشائي بحضور دورة كرة القدم التي عرّفتني على إخوتي من مواطني الدولة المختلفين، وصولا إلى حضوري لتلك اللقاءات الحماسية، التي كانت تعد بالسؤدد و التقدم و حيازة المركز الأعلى بين شعوب العالم.

لكن جهلي هذا لم يستمر لفترة طويلة، إذ، و في سنين لاحقة قريبة، استطعت أن اتفهّم تلك المشاعر الجارفة العنيفة التي انتابت لاعبي كرة القدم و أهاليهم، خصوصا عند ربطها بالأحداث التاريخية الجسام اللاحقة، و خصوصا عند الربط بينها و بين السبب الحقيقي وراء رحلة أبي إلى بلجراد.

لقد كانت السلطنة العثمانية تنهار بالفعل، و ما كانت اجتماعات بلجراد إلا محاولات يائسة لمنع هذا الانهيار الوشيك.. لكن و يا للعجب كانت هذه العصبة من البشر - و دون أن يدروا - يشاركون و بكل همّة في هدم المعبد فوق رؤوس الجميع.."

"كان المركب العثماني المثقوب يغوص إلى أسفل و الكل يصرخ محذّرا من الغرق، لكنهم و يا للعجب، يتصارعون في ذات الوقت على أنصبتهم من أمتعة و أغراض المركب الغارق.

و لسخرية الأقدار، كان بيتي أنا، بيت آل رستم، من هؤلاء المتصارعين، بل و من أشدّهم شراسة و تضاربا في المشاعر تجاه الدولة العثمانية..

و لم يكن اضطراب مشاعر أهل بيتي، و عشيرتي ككل، تجاه الدولة العثمانية قريب العهد، بل كان ذا جذور معقّدة ضاربة في عمق التاريخ، تعود إلى نشأة عائلتي نفسها..

و كانت بداية تعرّفي بحقيقة هذه المشاعر المضطربة عند وصولي لسن الثالثة عشرة، عندما جاءتني المفاجأة الأكبر في حياتي: التحضير لمراسم الـ'بار متسفا': حفل البلوغ للأولاد اليهود! إذ اكتشفت فجأة أني و عائلتي لسنا أتراكا مسلمين، بل دونمة! أشخاص يظهرون الإسلام و يبطنون اليهودية كجزء أصيل من ديانتهم و من التعاليم المقدسة للمسيح تشبطاي تسفي.. اليهود السفارديم و الأشكيناز، الأرثوذكس منهم و العلمانيون على حد سواء، يرفضون الاعتراف بنا و يعتبروننا فرقة مارقة كافرة، و الأتراك المسلمون لا يعرفون حقيقة بقائنا على الممارسة اليهودية، و لو عرفوا، لأقاموا علينا حدّ الردّة بلا تفاهم..

يمكنك أن تتخيّل حجم الصدمة الكبيرة التي عصفت بكياني؛ إذ فجأة تبخّر شعور فخري و عزّي بانتمائي إلى الأتراك المسلمين أصحاب الإمبراطورية المترامية الأطراف و الثراء السكّاني و الذي يضم عشرات الأعراق المختلفة، ليحل محله شعور شخص ينتمي إلى أقليّة عرقية و دينية مضطهدة لا تجرؤ حتى على الاعتراف باعتقادها الأصيل مثل الفرق و الأقليات الأخرى..

و لم أستطع أن أتحمّل هذا الشعور طويلا، إذ و بسرعة و عزم رفضت هذا الوضع الجديد و جاهرت أبي و أسرتي به علنا.. أنا ولدت عثماني تركي مسلم

و سأظل كذلك و لن تجبرني أعراف عائلية أو دينية أيّا كانت، على أن أغيّر ما عشت عمري الصغير أؤمن به و أصدّقه..

تركت البيت لبعض الوقت، لكنني كنت لا أزال صغيرا، و لم أكن لأتحمّل الضغوط العائلية لوقت طويل..

بعد ثلاث ليال خارج البيت عدت.. و سرعان ما خضعت و أعلنت جهرا أمام أسرتي، و سرا أمام نفسي، أني فعلا لا أنتمي للأتراك المسلمين.. لكن كنت لا أزال أتعلّق بقشّة، تلك التي تعلّق بها والدي من قبلي، قشّة الأمميّة و المواطنة الكاملة للجميع داخل الأمة العثمانية.. حتى لو لم أعد فخورا بالتركيّة المسلمة، كان عندي، كما عند أبي من قبلي، الأمل في المواطنة الكاملة: أن يكون الجميع في الإمبراطورية العثمانية كاملي الأهلية، لا فرق بين تركي مسلم أو يوناني مسيحي أرثوذكسي أو يهودي أيّا كان.

لذا وجّهت قلبي و روحي إلى مساندة تلك العصبة التي بدأت من بلجراد، و وهبت لها روحي و عقلي و جهودي. و في غضون سنوات قليلة، و حتى قبل أن أتمّ عامي السادس عشر، كنت أنا مندوب العائلة في تجمّعات الشبان العثمانيين و التي بمرور الوقت امتدّت في أركان السلطنة حتى وصلت إلى سالونيك نفسها.

لكن الظروف و الأحداث التالية سرعان ما أخرجتني من غفلتي الطفولية و مشاعري الطيّبة المتمثّلة في الانتماء لوطن واحد يضمّ الجميع.

البداية كانت في الأناضول عام ١٨٧٣ عام الجفاف، ثم ١٨٧٤ عام السيول، ثم المجاعة الكبرى التي تبعتها نتيجة تلف المحاصيل لعامين متتاليين، ثم كانت الطامّة الكبرى بعجز السلطنة العثمانية عن سداد دينها لعام ١٨٧٥ و اضطرارها ضمنيا بإعلان إفلاس الدولة.. كانت أزمة مالية طاحنة اضطرت السلطنة إلى زيادة الضرائب في جميع أرجاء البلاد، خصوصا في البقاع الأكثر رخاءً، و التي كانت لسوء حظ حكّام استانبول هي المناطق ذات الأغلبية المسيحية في البلقان.. بدأت الاضطرابات في منطقة الهرسك، و سرعان ما

انتشرت في البوسنة كلها.. و هرعت القوات العثمانية بقوة لكبح و ردع المتمردين..

و استغلالا لانشغال العثمانيين في وأد التمرّد في البوسنة، بدت الفرصة سانحة للمتربّصين بالدولة العثمانية في كل مكان؛ و بالفعل، و بمساعدة و تأجيج من الروس الراغبين في تعويض خسارتهم في حرب القرم، قامت الثورة في بلغاريا.. و نتيجة انشغالهم بالبوسنة، لم يكن لدي العثمانيين ما يكفي من قوات نظامية لإرسالهم إلى بلغاريا لسحق الثورة المتصاعدة هناك، لذا ركنوا إلى استخدام الباشي بازوق، و هم مجموعات من جنود غير نظاميين أصولهم من البلغار المسلمين و من الشركس و التتار المسلمين النازحين من المناطق القوقازية نتيجة تهجير الروس لهم منذ حروب القوقاز السابقة.. و أطلقت السلطات العثمانية لهم العنان ليسيطروا على التمرّد البلغاري بأي طريقة كانت.

و محمّلين بعقود من الكره و البغضاء تجاه المسيحيين الأرثوذكس، بالإضافة إلى عدم وجود قوة نظامية حاكمة تضبط بطشهم، كانت تلك فرصة سانحة لتلك القوات الغير نظامية للتنفيس عن غضبهم تجاه المسيحيين.. و قد كان، إذ تم ارتكاب عدة جرائم شنعاء ذبح خلالها ما يقرب من ١٥ ألف بلغاري..

و كان ذلك الفخ الذي وقع فيه العثمانيون، إذ و بسرعة، و باستخدام دعاية عالمية للمجزرة، تم تحييد بريطانيا الحليف الأبرز للسلطنة، و بسرعة اشتعلت الثورات في أرجاء الولايات العثمانية في البلقان، و بسرعة تم تكوين 'تحالف المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين' المكوّن أساسا من روسيا، بالإضافة إلى الإمارات المسيحيّة تحت ولاية السلطان العثماني و التي سرعان ما أعلنت تمرّدها و استقلالها الكامل من السلطنة..

و مطلع عام ١٨٧٧، قامت ما تسمي الآن بالحرب التركية الروسية الكبرى، حرب ضروس طاحنة في منطقتي البلقان و القوقاز، و كانت النتيجة كما تعرف، هزيمة فادحة للعثمانيين و خسارة مناطق واسعة من السلطنة متمثلة في استقلال رومانيا و بلغاريا و صربيا، و استيلاء الإمبراطورية النمساوية

على البوسنة.. هذا بالطبع بالإضافة إلى الفظائع التي لحقت بالسكان المسلمين في كل أنحاء البلقان: مذابح انتقامية لأعداد كبيرة من المسلمين في بلغاريا و صربيا، إضافة إلى تنامي مشاعر الكره و البغض العنيفة تجاه كل ما هو مسلم أو تركي، مما أدي إلى تجريف شبه كامل للحضارة و الآثار العثمانية، و التي مكثت قرابة الأربعة قرون في المنطقة.

و بالمقابل عاد المسلمون الأتراك الفارّون من البلقان محملين بمشاعر لا تقلّ شدة و حميّة و ضراوة، بل و محمّلة بمرارة الهزيمة و التهجير من بلادهم التي عاشوا فيها لأجيال متعاقبة و لقرون عدة.. ثم كان بالطبع موقف المواطنين الأرمن في شرق الأناضول و تشجيعهم و مساندتهم للحملة الروسية في القوقاز و شمال الأناضول و ما استتبع ذلك من مشاعر عدائية من الأتراك و الأكراد تجاههم.

و في هذه الأثناء علا نجم الشبان العثمانيين، عُزل السلطان عبد العزيز و تمت تصفيته، ثم أتى بولي العهد، الأمير مراد، العضو في التنظيم، ليصبح السلطان مراد الخامس. لكن المسكين اضطربت أعصابه و فقد عقله بعد تصفية السلطان الذي سبقه، فسرعان ما تمت تنحيته جانبا و الإتيان بالأمير حميد، العضو الآخر في التنظيم، و توليته ليصبح السلطان عبد الحميد الثاني.. و بسرعة أعلن الدستور قبل انتهاء الحرب و توقيع مؤتمر الصلح بسان ستيفانو في محاولة للظهور أمام العالم بأن السلطنة على أعتاب مرحلة جديدة يتساوى فيها جميع مواطنيها كما في كل دول أوروبا المتحضرة، و من ثمّ يتم إنشاء مجلس نواب يشارك السلطان في الحكم.. لكن المنتصرين لا يعبئون للمُثل العليا و الوعود، لذا تم رفض المحاولة العثمانية و تم إقرار معاهدة سان ستيفانو المجحفة و التي قطعت الجسد العثماني إربا، مما أدي إلى سلطنة أضعف و أصغر، و بلدان جديدة معادية على حدودها، سرعان ما ستتنازعها و تواجهها و تهزمها مرة أخرى، لكن بعد أربعة و ثلاثين عاما أخرى.

و مستغلّا فشل المحاولات الإصلاحية للشبان العثمانيين، انقلب عليهم السلطان عبد الحميد و ألغي الدستور و مجلس النواب و شرّد و سجن من

تبقي من تنظيم الشبان العثمانيين. كانت تصرّفا غبيا من وجهة نظري، لأن السلطان تخلّص من أصدقائه أصحاب النظرة الإصلاحية المترسّخة في الفكرة الإسلامية و المحترمة للعرش و الخلافة.. لا لشيء إلا استئثارا بالحكم.. لاحقا ستقوم حركة أخرى، مستلهمة نشاط هذه الحركة الأم، لكنها ستكون حركة أكثر تشدّدا، وطنية لدرجة الفاشية، و إصلاحية لدرجة العلمانية الكاملة.. حركة ستتعلم من فشل سابقتها و ستتوخى أقصي درجات التشدد و العنف، لدرجة استدراج الدولة العثمانية كلها إلى الحرب العظمي عام ١٩١٤، و من ثم القضاء على السلطنة نفسها بعد ذلك.

و أين كنت أنا خلال هذه الفترة؟

مع ازدياد الزخم و العنف في البلقان، جرت حملة تجنيد موسعة للشباب، و كنت ممن تم إلحاقهم بالجيش و سرعان ما تم إرسالي إلى بلغاريا.. كنت أول الأمر متشوّقا متحمّسا لحماية وطني و لتوطيد تماسك المملكة.. لكن مشاركتي في الحرب، و التي لم تكمل سنة، و التي شاهدت خلالها كمّا هائلا من البغض و الحقد المتبادل بين أعراق السلطنة المختلفة وصولا لدرجة الإبادة اللا إنسانية، كانت كفيلة بنسف كل الأوهام التي عشّشت في عقلي الصغير المراهق، لأخرج أخيرا من خيالات الأحلام الجميلة إلى واقع الحقيقة الصادمة.. حقيقة اللا تسامح و البغض القائمة على القومية الراديكالية و المشحونة بمشاعر دينية و تاريخية تتجاوز الحدود و الحضارات.

لماذا أحكي لك كل هذا؟

أحكي لك كل هذا لأضعك في الإطار التاريخي و السياسي المعاصر لمرحلة تحوّلي الفكري و العقلي في تلك الفترة: من المواطن العثماني الفخور إلى شخص فقد إيمانه بهذه الدولة الهشّة المبنية على أوهام التعايش السلمي، شخص صار يؤمن، كما شعوب أوروبا في ذلك الوقت و حتى الآن، فقط بالمصلحة القومية.. تحوّل تفكيري تدريجيا حتى انصعت إلى توجّهات العائلة تماما، و انصبّ همّي كله لمصلحة فرقتي، فرقة الدونمة.

تزامن هذا التغيير في شخصيتي و طريقة تفكيري و انتمائي مع مجريات ما بعد الحرب، إذ انتابتني مشاعر عظيمة من الخوف و الرعب.. كانت المذابح التي رأيتها ماتزال ماثلة في مخيّلتي ليل نهار: مذابح البلغار و الصرب تجاه المحتلّين المسلمين، و الاضطهاد الذي يرقي إلى المذابح التي يرتكبها المسلمون الفارّون من البلقان تجاه الأرمن و اليونانيين في أرجاء السلطنة، و الذين تم اعتبارهم ضمنيا خونة و عملاء للروس..

كان الكره و البغض تجاه كل ما هو غير مسلم كبيرا و متناميا..

و هنا ثار تساؤل أرعبني و أخافني: ماذا لو انكشف سر الدونمة - و هو شيء وارد الحدوث يوما ما- كيف سيكون مصيرنا؟ سنعامل فورا كخونة وسط صفوف المسلمين وفي ذات الوقت لن نجد أي قوة عالمية تقف إلى جوارنا، و لا حتى بني جلدنا من اليهود، و الذين يعتبروننا مارقين، خارجين عن الدين و الملّة.

و بدأت تراودني فكرة استقلال فرقة الدونمة و القيام على نفسها.. ماذا لو تجمّع كل الدونمة في سالونيك - حيث أغلبية الفرقة - و من ثمّ نعلن عن حقيقة أمرنا و نستقل بسالونيك و نعلنها تحت حكم الدونمة (شيء يشبه ما تهدف إليه الآن الحركة الصهيونية في فلسطين)؟

لكن فرقة الدونمة أمّة ضعيفة مستضعفة لا تقدر على أن تقوم على حالها؛ ليسوا أمّة كبيرة العدد كما البلغار أو الصرب، و ليس لهم من حليف قوي يشاطرهم الدين و العرق كما الإمبراطورية الروسية..

و هنا كانت بداية الفكرة.. صحيح أننا لا نستطيع أن نكبر بأعداد فرقتنا الضئيلة فجأة إلى أعداد تماثل شعوب البلقان المستقلة، لكننا نستطيع أن نكرّر تجربة 'متصرفيّة جبل لبنان'، و المترسخة منذ عام ١٨٦١.. لماذا لا نبحث عن حليف قوي يضمن لنا الحماية كما المارونيين في جبل لبنان.. حكم ذاتي و ربما لاحقا الاستقلال التام..

كان هذا النمط من التفكير البداية الحقيقية في التغيير الشامل.. تحرّرت من ولاءاتي السابقة، و من ثمّ صار قرار تحوّلي إلى جاسوس مسألة وقت، لا أكثر و لا أقل..

لكن تلك قصة أخرى يطول الكلام فيها و الساعة الآن قد قاربت منتصف الليل و المقهى سيغلق. فلنحدّد موعدا آخر.. الغد؟ لا بأس، فلنتقابل في نفس المكان، لكن لنجعلها مبكرا قليلا.. الواحدة ظهرا، ما رأيك؟"

رحلة البحث

٢١

الأحد ١٣ يونيو ٢٠١٠

كانت مهمة طارق عبد الهادي الأولى هي العثور على خريطة قديمة للمنطقة التي تقع فيها فيلا الباشا، من أجل معرفة هوية جيران الباشا القدامى.

تصفّح طارق مواقع الحكومة المصرية على الإنترنت بحثا عن السبل التي تسمح له بإنجاز مهمّته بسهولة، لكن – و كما المتوقع – لم يعثر على أي شيء مفيد. لذا، تحتّم عليه ملاحقة شبح صفوت عبد الرؤوف باشا عبر متاهات الحكومة المصرية البيروقراطية، العتيقة المعقّدة، و هو معصوب العينين.

مبكرا، و من بداية اليوم، اتّجه أولا إلى مبنى حيّ مصر القديمة (الحي الذي تتبعه منطقة المنيل و جزيرة الروضة ككل)، و المتواجد في شارع صلاح سالم على مقربة من حديقة الفسطاط. و هناك دار على المكاتب سائلا عن القسم المختص بخرائط الحيّ، طالبا الاطّلاع على خرائط الروضة و المقياس، خاصة المنطقة الممتدة من شارع الملك المظفر إلى شارع ابن السكري (المنطقة التي كانت تقع فيها فيلا الباشا) للفترة من ١٩٢٠ لـ ١٩٤٠. بعد اللف على موظفين كثر، يطفّشه البعض تارة و يتجاهلونه تارة أخرى، اكتشف أنه في المكان الخاطئ تماما، و أخيرا قام أحد المديرين بتوجيهه إلى المكان الصحيح للبحث عن الخرائط: 'الهيئة العامة للمساحة المصرية'.

و خلال الساعة التالية، كان طارق يعبر النيل من الشرق إلى الغرب. و هناك، على الضفة الأخرى من النيل، بالقرب من حديقة الأورمان الكبيرة، و خلف مديرية أمن الجيزة مباشرة، كان المبني الضخم للهيئة العامة للمساحة. و بعد وقت غير قليل من الاستعلام، وصل إلى المكتب المختص، و هناك اضطر أن يظهر بطاقته الشخصية و أن يقسم بأغلظ الأيمان أن اهتمامه

بالخريطة تاريخي بحت حتى يقنع الموظف ببراءة دوافعه (لأن الموظف استنكر اهتمام طبيب جراح بخرائط تاريخية). أخيرا وافق الموظف على إعطائه نسخة منها، لكنه اشترط الحصول على تصريح من وزارة الداخلية لأن خريطة المنطقة يقع في نطاقها قسم شرطة المنيل!

يئس طارق و كان على وشك مغادرة الهيئة، لو لا أن تبعه ساعي في الخمسين من العمر، يلعق شفتيه باستمرار و لا يكفّ عن العبث بإصبعه في أنفه الضخم.

- عاوز الخريطة دي أوي يا بيه؟
- يا ريت..
- ربنا يسهل و اقدر اساعدك.. شكلك ابن حلال و طيب..

كان طارق غرّ أحمق، لا يجيد التعامل في المصالح الحكومية.

- و هتساعدني ازاي؟
- كلّك مفهومية.. مصاريف الشاي و كده.

إنه يطلب الرشوة بكل وضوح. فكّر طارق في تركه و مغادرة المكان، لكنه كان يدرك أن الرشوة هي طريقته الوحيدة للحصول على الخريطة، خصوصا و أنه لم يكن ينوي الذهاب إلى وزارة الداخلية، إذ بالطبع، سيرفضون إعطاءه التصريح.

متضايقا من نفسه، همس

- ١٠٠ جنية كويس..

لوي الساعي وجهه مستنكرا و نتف أحد شعيرات أنفه.

- يا بيه شخلل جيبك..
- عاوز كام؟

- الـ١٠٠ جنيه دول يادوبك أنا اشرب بيهم شاي.. لسه حلاوة الموظف..
- اللي رفض يورّيني الخرائط..
- أيوه..
- و ده هيعوز كام هو راخر؟
- يا بيه كلّك نظر..

و بعد فصال مرير، دفع ٢٥٠ جنيه. غاب الساعي لمدة ربع ساعة، عاد بعدها و معه ظرف ضخم بداخله نسخ ضوئية من المجموعة الكاملة لخرائط منطقة الروضة و المقياس لعام ١٩٤٣.

و لأن طارق عبد الهادي بدأ يومه مبكرا، استطاع، و برغم كل التعطيلات التي واجهته، إنهاء مهمته بحلول الحادية عشرة صباحا. و في حيوية و نشاط، اتّجه إلى هدفه التالي. عبر النيل عائدا إلى الشرق، قاصدا هذه المرة 'مبنى دار الكتب و الوثائق القومية' بمنطقة رملة بولاق، ليبحث عن صفوت عبد الرؤوف باشا في أرشيف الصحافة المصرية.

وجّهه مكتب الاستقبال إلى المكتبة في الدور الخامس، و هناك، و بمساعدة مشرفة المكتبة، بحث في الحاسب الآلي عن أي كتاب أو مخطوطة عن الباشا، لكن قاعدة البيانات – الغير مكتملة – لم تظهر شيئا عن الرجل. وجّهته المشرفة لينزل إلى الدور الثاني، ليبحث عن الرجل في قسم الدوريات و الجرائد الورقية و الميكروفيلم.

و هناك كانت الأمور أسوأ، إذ لم يكن هناك كومبيوتر مجهّز بقاعدة بيانات أصلا! أخبره مشرف القسم أن كل ما يستطيع القيام به فقط هو تمكينه من الاطلاع على الجرائد و الدوريات القديمة، لكن على طارق أن يخبره أولا باسم الجريدة أو المجلة و بتاريخ العدد الذي يريد الاطلاع عليه.

كاد طارق أن ينصرف مستسلما لولا أن ربّت على كتفه شاب أسمر، ضئيل الجسم، مشرق الابتسامة.

- معلش إذا كنت اتصنّت على كلامك مع المشرف.. هو انت بتدوّر على باشا من أيام السلطان حسين كمال و الملك فؤاد.. بتقول كان موظف كبير في الحكومة المصرية؟
- أيوه.. اسمه صفوت عبد الرؤوف باشا.. انت تعرفه؟
- و لا عمري سمعت عنه.. بس أنا طالب ماجستير تاريخ في كلية آداب جامعة حلوان، و رسالتي عن الحركة العمّالية في مصر في فترة الحرب العالمية الأولى. عندي خبرة معقولة في البحث عن الأحداث و الشخصيات التاريخية في الفترة دي، و ممكن اساعدك لو تحب.
- فعلا! دانا ابقي شاكر ليك جدا.
- الصفحات الاجتماعية..
- ايه؟
- البحث عن أي شخصية ضئيلة الأهمية و قليلة الظهور في الأحداث التاريخية بيبدأ من الصفحات الاجتماعية. الحفلات و المناسبات العامة هي الفرصة المناسبة لضبط الشخصيات الهامشية دي و هي واقفة جنب الشخصيات الأكثر شهرة و أهمية.. و لو هو موظف في الحكومة يبقي ممكن ندوّر كمان في الصفحات الداخلية الخاصة بالشأن الداخلي و الإداري، بالإضافة طبعا لصفحات التهاني و التعازي.

و في سرعة و حيوية أخذ الباحث الشاب يوجّه المشرف لإخراج أعداد معينة من جرائد الأهرام و المؤيد و المقطم، و مجلات الهلال و المصور، محدّدا تواريخ تسبق و تلي مواعيد احتفالات رسمية و شعبية كبيرة في ذلك الوقت. و في خلال الساعات القليلة التالية كانت المعلومات الشيّقة تأتي تباعا.

فبالاطلاع على عدة أعداد من مجلة الهلال في الفترة من ١٩١٦ - ١٩٢٠، جاء ذكر الباشا بطريقة مختصرة عدة مرات: تهاني عديدة بمناسبة ترقياته الوظيفية، و شكر خاص من الجالية اليونانية إذ أسدي لهم خدمة بتسهيل تصريح بناء دار للأيتام. و من بين السطور عرف عنه التالي: هو صفوت عبد

الرؤوف باشا، نجل الحاج صالح عبد الرؤوف بك من أعيان بني سويف، ولد في السنين الأولى من ولاية الخديوي إسماعيل. لم يكن ثمّة معلومة ذات قيمة عن تعليمه و لا عن المدارس التي حصل فيها على شهاداته، لكن ذُكر أنه التحق بالحكومة منذ وقت مبكّر من عمره و تدرّج في السلك الوظيفي وصولا لمنصب وكيل وزارة الأشغال العمومي، في بداية تولّي السلطان فؤاد الأول الحكم، أثناء رئاسة حسين رشدي باشا الرابعة و - الأخيرة - لمجلس الوزراء. و يبدو أنه استمر في ذلك المنصب لفترة كبيرة، كما يتبيّن من خبر مقتضب قصير في إحدى أعداد جريدة الأهرام لشهر فبراير لعام ١٩٢٥، بركن المناسبات، يحمل شكرا و إشادة بالرجل الذي أحيل إلى المعاش و هو يحمل ذات المنصب.

أما بخصوص حياته الاجتماعية فلم يعثرا له إلا على صورة وحيدة في مجلة المصوّر، في أحد أعداد عام ١٩٣٠؛ و فيها يحضر أحد الحفلات الخيرية في نادي هليوبوليس الرياضي، بمناسبة الاحتفال بيوم وفاء النيل، و في الصورة تصحبه طفلة جميلة أنيقة، في زيّ أوروبي و ترتدي قبّعة ريش راقية.. و تحت الصورة، كتب في خط دقيق: "سيادة وكيل وزارة الأشغال العمومية السابق، صفوت عبد الرؤوف باشا، و في صحبته ابنته، دولت، الطالبة المتفوّقة في الكلية الأمريكية للبنات."

و كان ذلك أمرا ملفتا، فالرجل كان يبدو في أواخر عقده السابع، في حين لم تتجاوز الفتاة عامها العاشر بأي حال من الأحوال.

لم يخرج طارق عبد الهادي بعد ذلك بأي معلومة أخرى، لكنه كان راضيا بما توصّل إليه. قام بتصوير كل الصفحات بكاميرا الموبايل قبل أن يعيد المجلات و الجرائد إلى مشرف المكتبة، شكره هو و الباحث الشاب في حرارة ثم انصرف و قد غالبته سعادة غامرة بما أتيح له من فرصة الغوص في عالم الماضي كما لم يسمح له وقته و أسلوب حياته من قبل.

****

دخلت هويدا إلى مطعم 'سيكويا' الراقي، المتربّع على الطرف الشمالي لجزيرة الزمالك، و المطلّ على النيل في منظر بانورامي خلاب. كانت الساعة قد جاوزت الرابعة عصرا، و الجو حار خانق، لذا اختارت طاولة مطلّة على النيل مباشرة. إذا كان حازم شاهين هذا يريد أن يقابلها ليتودّد و ليتغزّل فيها، فلا بأس من تكبيده ثمنا مناسبا. يبدو من ملبسه و هيئته أنه ميسور الحال، و لن يرهقه ماديا دفع الـ'minimum charge' الخرافي لهذا المطعم. ثم، ألا تستحق أن تدلّل نفسها قليلا وسط هذا الضغط العصبي الكبير الذي تتعرض له في الفترة الأخيرة.

كانت تأكل التشيز كيك، تتبعها برشفات الكابتشينو، عندما ظهر حازم شاهين أخيرا.

متأنّقا، يفوح منه العطر الراقي، مختالا كنجوم السينما في ثيابه ذات الماركات العالمية. صحيح أنه متعالي اللهجة، بارد السلوك، خشبي الوجه، لكن غناه و جماله و ذهنه الوقّاد يشفعون له. في ظروف أخرى، كانت هويدا حتما ستعطيه فرصة حقيقية و لفكّرت فيه جديا كحبيب أو صديق مقرّب.

بعد تبادل التحية و طلب قهوته، تطلّع حازم في طلّة هويدا الساحرة، المزدانة بكمّ محسوب من التدلّل و الشقاوة الأنثوية الفتانة.

دفعت هويدا إليه بملف كبير.

- دي نسخة من ورق أورهان اللي طلبته مني امبارح.. هتلاقي فيه القائمة اللي فيها أسماء العائلات اليهودية و حاجات تانية كتير.

اطّلع حازم على الملف بسرعة، ثم نحاه جانبا، و قد علت وجهه ابتسامة حب.

- طلعتي بريئة، بل و ضحية كمان.
- طلعت بريئة؟

- أنا آسف، بس انا لحد آخر لحظة كنت لسّه شاكك في كلامك.. بس خلاص انا اتأكدت من صدقك، و ان انتي فعلا ما ساعدتيش أورهان حقي يتخلص من لارا عشان تاخدي مكانها.. انتي كنتي مجرد أداة في خطته الشريرة.

و تواثبت فئران القلق في صدرها.

- مش فاهمة..

وصلت قهوته.. رشفها في بطء.

- امبارح، بعد ما مشيتي، جرّبت أتصل برقم أورهان اللي اداهولنا.
- إيه؟ رد عليكم؟
- مش هو، خطيبته هي اللي ردّت.

خطيبته!

امتقع وجهها، لكنها تمكنت بسرعة من رسم دهشة خفيفة على وجهها بدلا من الصدمة التامة.

- لا، مش معقول.. عمره ما قالّي انه خاطب حد.
- زي ما بأقولك كده.. طلعت الخطة اللي رسمها للتخلص من لارا حقيقية.. و طلع فعلا هربان مع واحدة و عاوز يتجوزها.. واحدة اسمها سهام الرويني.. تعرفيها؟
- عمري ما سمعت الاسم ده قبل كده..
- واضح انه كان عارفها من فترة، بس كان مخبّي الموضوع ده عنك..

كانت تفقد سيطرتها على أعصابها بسرعة، فاختلج وجهها لوهلة. أكمل حازم

- لما ردّت عليّا، قالت ان أورهان طلب منها توصّل لنا رسالة مفادها إنه لغي تكليفه لينا بخصوص البحث عن صفوت عبد الرؤوف

باشا. قالت إن فيه تطورات حصلت خلّته مش محتاج لمساعدتنا. واضح إن مقابلته لمندوب عائلة الدونمة كان ليها نتيجة إيجابية.

- هو اللي قال الكلام ده بنفسه؟
- لأ، ما انا عمّال اقولك خطيبته هي اللي ردّت عليّا.

و انتابت هويدا حالة من التوهان الشامل.

- يعني انت ما سمعتش صوته خالص؟
- أبدا.. صحيح ده حيّرني شوية.. يعني، ليه بيهرب مننا و مش بيردّ بنفسه.. بس عمليا ما تفرقش.. الراجل استغنى عن خدماتنا و ما عدش يفرق معانا.. ثم إنه ثبت فعلا انه راجل واطي و أريح ان ما يكونش بينّا أي شغل.. كان نفسي بس أرمي له مقدم الـ٣٠٠ دولار في وشّه.

و اضطرب قلب هويدا قلقا، لكنها سرعان ما سيطرت على انفعالاتها الداخلية. اعتصرت عقلها ثم أتت بردّ الفعل المناسب: تقلّصت ملامح وجهها في حزن عميق، اغرورقت عيناها بالدموع، ثم اكتسي وجهها فجأة بغضب طفولي.

- ده حيوان.. إزاي يعمل فيّا كده.. إزاي يستغل ثقتي فيه و صداقتي للارا و يعمل فيّا كده.. يخلّيني أنا الخنجر اللي يطعن بيه لارا، و بعدين يخلع و يتجوّز.. طب، و البحث اللي بيني و بينه.. هو كده هيخلع و ينسب الموضوع كله لنفسه و لا إيه؟

مرتبكا، تمتم حازم

- هو انتي يعني اشتغلتي معاه كتير في البحث ده؟
- سنة و نص من عمري.. مستحيل اسيب مجهودي و وقتي يروحوا هدر.

ثم بتوسل و بضعف أنثوي جبار، انقضّت هويدا بيدها على يديّ حازم و قلبه.

- أرجوك يا حازم، لازم تلاقي الحيوان ده، و تنتقم لي منه.

تململ حازم في جلسته.

- بجد يا هويدا الموضوع مش مستاهل.. على كلام خطيبته، المفروض هيسافروا بكره.. إرمي الموضوع ورا ضهرك.
- و اموت من القهر اني اتضحك عليّا للدرجة دي.. ثم البحث، البحث اللي هياخد الشرف العلمي ليه لوحده.. أرجوك يا حازم، أرجوك ساعدني الاقيه.. لازم انتقم منه.
- تنتقمي منه ازاي بس..
- أهزأه و أهزأ أهله و ادّي له بجزمتي و بعدين ارفع عليه قضية تلزمه بوضع إسمي معاه على الكتاب اللي هينشره عن الدونمة.
- مين عارف ممكن يتّصل بيكي بعد شوية بخصوص البحث، أو لوحده يحطّ إسمك معاه على الكتاب.
- ده ما بيردّش عليّا بقي له تلات أيام، ثم من تصرفه الحقير ده بقي واضح انه إنسان واطي و لا يمكن أثق فيه. و انا لا يمكن اسيب جهدي و حقي أبدا لحيوان زي ده.
- يا هويدا، الكلام ده مفيش منه فايدة.

سحبت يديها من على يديه فجأة و قد نضحت الدموع من عينيها.. مسحتها، ثم قامت معتذرة.

- أنا آسفة.. واضح انّي أنا اللي فهمتك غلط امبارح. كنت فاهمة انّك وافقت تساعدني فعلا.. عن إذنك..

أمسك حازم بيديها في سرعة.

- اقعدي بس..

وقفت مكانها في تحدّي. خفض حازم رأسه و إرادته.

- خلاص، اقعدي بقي.. هاساعدك تلاقي سي زفت.

و جلست، مبدّلة بسرعة وجهها الباكي بوجه آخر مبتسم جذّاب.. لكن في داخلها كان القلق يعتصر قلبها في قسوة.

****

بعد يومه الشاق، عاد طارق إلى بيته بعد السابعة مساءً. تناول غداءً متأخرا، ثم جلس إلى الكومبيوتر ليتصفّح الإنترنت. كانت عنده فكرة مناسبة لاستكمال البحث عن صفوت عبد الرؤوف باشا؛ فبدلا من تكرار البحث المباشر الذي قام به الباحث التركي عن الباشا و أنجاله عبر الوسائل الحكومية و الأكاديمية، لِمَ لا يتّبع طريقة أخرى، طريقة غير مباشرة. ماذا لو لم يبحث عنهم في الأوراق الرسمية و الكتب و الوثائق التاريخية، بل في النواحي الاجتماعية و الحياتية للفترة التي عاشوا فيها.. كأن يبحث مثلا عن دولت، ابنة الباشا، و يقتفي أثرها في المراحل التعليمية المختلفة، و يري إلى ماذا قد يوصّله هذا الطريق.

بحث عن اسم دولت صفوت عبد الرؤوف، فلم يعثر على شيء، لكنه عندما قام بإدخال اسم مدرستها في خانة بحث جوجل، أتت له نتائج عديدة مفيدة.

‘الكلية الأمريكية للبنات’، مدرسة إرسالية تابعة للـ‘كنيسة المشيخية المتحدة في أمريكا الشمالية’ (كبري كنائس أمريكا البروتستانتية في ذلك الوقت)، قام بتدشينها الرئيس الأمريكي السادس و العشرون، ثيودور روزفلت شخصيا عام ١٩١٠، لتكون منبرا للتعليم النسوي في الشرق، معتمدة على التعليم باللغات الثلاثة: الإنجليزية، الفرنسية، و العربية. كانت المدرسة، و لفترة طويلة، مركز كوزموبولتاني عظيم تتجمّع فيه الفتيات من كافة أصقاع الأرض: أرمينيات، يونانيات، لبنانيات، سوريات، يهوديات، إثيوبيات، و بالطبع المصريات. كان التعليم الراقي و التربية الصارمة من أهم

صفات المدرسة التي اجتذبت الكثير من الأسر الراقية لإلحاق بناتهم بها. استمرت المدرسة على نهجها أمدا طويلا، لكن خلال عقد الستينات فقدت المدرسة غالبية طالباتها الأجانب نتيجة التغييرات الملحمية التي اعترت المدرسة، بداية من عام ١٩٦٠، عام تأميم التعليم الخاص و الذي شهد انتقال ملكية المدرسة من الكنيسة الأمريكية إلى 'سنودس النيل الإنجيلي' (هيئة بروتستانتية مصرية)، وصولا لعام ١٩٦٧، عام هزيمة مصر العسكرية المدوّية و انهيار العلاقات المصرية الأمريكية، و فيه تغيّر اسم المدرسة نفسها، لتصبح 'كلية رمسيس للبنات'.

تصفّح طارق موقع المدرسة الرسمي و الصفحات الرسمية و الغير رسمية الخاصة على مواقع التواصل الاجتماعي، ثم طوّف على عدد من المواقع و المدوّنات الشخصية و التي تحوي عشرات الصور، الأبيض و الأسود و الألوان، للأجيال المتعاقبة في تلك المدرسة العريقة.

تجاوز مواقع الصور و الحكايات الفردية، و هبط على الكنز: 'منتدي المدارس التاريخية في مصر الخديوية و الملكية'.. موقع يرتاده من لهم جذور عائلية تعود إلى تلك الحقبة التاريخية، بالإضافة إلى المهتمّين بتاريخ الملكية المصرية و المتعلقين وجدانيا بتلك الفترة الغنيّة.

بحث في أقسام المنتدي حتى توصّل إلى قسم مدارس الإرساليات، و من ضمن قائمة طويلة من مدارس الجيزويت و الرهبان المختلفة، كانت 'مدرسة كلية البنات الأمريكية (كلية رمسيس للبنات حاليا)' تحتل موضع الصدارة. كانت الصفحة الخاصة بالمدرسة بها نشاط مقبول، و بها العديد من مشاركات الأعضاء في الأيام و الأسابيع الماضية.

سجّل نفسه في المنتدي، ثم دخل إلى صفحة المدرسة و كتب مشاركة عبارة عن سؤال، عمّا إذا كان أحد من الأعضاء قد عرف السيدة دولت صفوت عبد الرؤوف أو سمع عنها في أي وقت من الأوقات، و إن كان يعرف عن مكانها الآن أو مكان أحد من أبنائها أو أقاربها؛ و مع تدوينته قام بتحميل صورة مجلة المصوّر، صورة دولت مع أبيها في احتفال نادي هليوبوليس.

مرهقا من مشاوير اليوم، نام طارق عبد الهادي أربع ساعات متتالية، ثم قام بعد منتصف الليل. كان يعدّ لنفسه كوب الشاي في المطبخ عندما تناهي إلى سمعه صوت تنبيه قادم من غرفته. كان مصدره جهاز الكومبيوتر.. رسالة على بريده الإلكتروني، عنوانها، "عرفت دولت عبد الرؤوف في يوم من الأيام."

و قفز طارق من الفرح فعليا، فانسكب كوب الشاي الساخن على بيجامته، لكنه لم يبالي سخونة الشاي و ما خلفه من ألم. جلس على كرسي المكتب و قد غمرته نشوة عارمة، ثم نقر الماوس ليفتح الرسالة بسرعة.

❋٢٢❋

الإثنين ١٤ يونيو ٢٠١٠

منذ ترك هويدا بالأمس، و طوال نهار هذا اليوم و حازم شاهين مستغرق في التفكير في جدوي البحث عن أورهان حقّي و مطاردته. و برغم عدم اقتناعه، استقرّ على المضيّ قدما في البحث عن هذا الوغد؛ أولا، استجابة لهويدا و تودّدا إليها، و ثانيا، مدفوعا بالفضول نحو التعرّف على هذا الباحث التركي ذي التخصص الشيّق، صاحب التصرفات المريبة و المُصرّ على مراوغة الجميع و خداعهم طوال الوقت.

الخيوط التي تؤدي إلى الرجل قليلة و متهافتة، لكن إحداها كان واعدا.. إنها خطيبته المزعومة. لم يكن يعرف إلا اسمها: سهام الرويني، أما الوظيفة، فهي تعمل في شيء ماله علاقة بالفن، لكنه لا يعرف ما هو بالضبط. منذ متي و هي و أورهان حقّي يعرفان بعضهما البعض و متي تمّت خطبتهما؟ هل تعرّف عليها خلال زيارته الحالية لمصر، و التي لم تستغرق سوي شهر؟ أم تراها معرفة قديمة، قدم معرفته بهويدا منذ زيارته الأولى لمصر من سنة و نصف؟ أم تراه تعرّف عليها في زيارات أخرى لا تعرف هويدا عنها شيئا؟

لماذا ترك التركي لها هاتفه المحمول و طلب منها تبليغ رسالة لمكتبهم إذا اتّصلوا به؟ لماذا لم يقم هو بالاتصال؟ لما ترك هاتفه لها من الأصل؟

ثم لماذا حضر و أخذ خطيبته بسرعة من المطعم قبل وصول حازم لرد الـ ٣٠٠ دولار؟ هل يريد تفادي رؤية حازم لهما معا؟ لماذا؟

و هل هي خطيبته بالفعل، أم تراها خدعة أخرى من ذلك التركي الوغد؟

عشرات الأسئلة لا يتوقع لها إجابة في الوقت الحالي، لذا نحّي حازم تساؤلاته هذه جانبا، و راح يفكر في استراتيجية تمكّنه من العثور على سهام الرويني و من ثمّ إلى التركي اللعين. الساعة العاشرة صباحا، و لو كانت تلك الخطيبة المزعومة صادقة في معلومة سفرهما اليوم، فإن ما تبقي من وقت للعثور عليهما قليل للغاية، و لربما فاتت الفرصة أصلا.

منحّيا ضيقه من صعوبة المهمة جانبا، قام بالخطوة الأولى: رفع سماعة الهاتف و اتّصل بدليل التليفونات ١٤٠، و سأل عن رقم الأستاذة سهام الرويني. موظف الخدمة استنكر طلبه الخالي من أية تفاصيل، لا مهنة و لا عنوان و لا حتى الاسم الثلاثي أو الرباعي؛ و سرعان ما أنهيت المكالمة.

فتح حازم جهاز الكومبيوتر للبحث في مواقع الشبكات الاجتماعية على الإنترنت، بادئا بالشبكة الأكثر شعبية، الفيس بوك. فتح الموقع و أخذ في البحث عن اسم سهام الرويني بكل تنويعاته، بالعربية و بالإنجليزية.. بعد تجربة عدة حسابات شخصية، عثر على صفحة بدت أنها للفتاة المطلوبة.

لحسن الحظ، كانت الصفحة مفتوحة جزئيا، بحيث تظهر صور صاحبة الحساب الشخصي و بعض أهم مشاركاتها على الموقع الاجتماعي. كانت فتاة في أوائل الثلاثينات، ذات ضحكة عريضة خرقاء، ترتدي نظارات عريضة على وجه غير جذاب. ما أكد لحازم أنه قد عثر على الشخصية الصحيحة كانت بعض صور للفتاة في مطعم تركي، كما يظهر من الكتابة فوق اللافتة، و كما يظهر من ارتداء الجرسونات للزي العثماني التقليدي (من طربوش أحمر و صديري مطرز و سروال فضفاض). كذلك كانت لها صورة و هي تبتسم ابتسامة واسعة بلهاء تظهر أسنانها الغير متساوية، في قاعة واسعة و خلفها بانر ضخم يعلن عن حفل ما برعاية القنصلية التركية بالإسكندرية. كذلك كانت لها صور و هي ترسم في ستوديو قديم، و أخرى و هي تستعرض بعض اللوحات في معرض ما. هي إذن رسّامة. غير تلك التي تُظهر مهنتها، كان هناك عدد غير قليل من الصور تجمعها مع أصحابها في منتزهات و مطاعم أكلات سريعة. كانت من غير كثير من الشك من عشاق البرجر،

خصوصا مطاعم ماكدونالدز، و التي لها فيه عدة صور التقطت في مناسبات عديدة.

ما استرعي انتباهه هو عدم وجود أورهان حقي في أي من تلك الصور.. بل و عدم وجود أي رجل إلى جوارها في صورة توحي بعلاقة حميمية كالخطوبة.

أغلق حازم صفحة الفيس بوك، ثم فتح صفحة محرّك البحث جوجل، و بدأ في البحث عن 'سهام الرويني + الفنانة / الرسامة'؛ أتت له سبع صفحات من النتائج، لكن للأسف كانت غير ذات صلة و لا تفضي إلى شيء. بحث بعد ذلك عن 'لوحات سهام الرويني': جاءته عشرات صفحات النتائج غير ذات القيمة، لكن من بينها، و في الصفحة الثانية، كانت نتيجة تحمل بعض الأمل: 'أتيليه السماحي لبيع اللوحات الفنية في الزمالك'. عندما فتح الموقع الإلكتروني للأتيليه، وجد معلومة وحيدة لكنها مفيدة إلى حد ما. المحل يبيع إحدى لوحات سهام الرويني: زهرية ورد على طاولة في شرفة تطلّ على حديقة، و على مبعدة يجلس أمير أو ثري في زيّ تركي تقليدي و حوله فتيات لاهيات يقمن على خدمته في بهجة و دلال.

بحث في الموقع حتى عثر على رقم الهاتف في الركن الأيمن السفلي من الصفحة الرئيسية. التقط حازم سمّاعة التليفون و اتّصل على الفور. سأل عن مبتغاه مباشرة.

- عاوز اشتري لوحة للرسامة سهام الرويني.
- عندنا لوحة ليها يا فندم.
- قصدك على اللوحة اللي موجودة على الكتالوج بتاعكم اللي عالنت.. لوحة الزهرية؟
- أيوه يا فندم.
- بس انا كنت شفت ليها لوحة تانية من فترة، و هي دي اللي عاوز اشتريها.

استرجع حازم شكل إحدى لوحات سهام التي رآها في ألبوم الصور على الفيس بوك.

- .. لوحة لجزء من قلعة مطلّة على البحر.
- للأسف مش عندي يا فندم.
- طيب ما تعرفش ممكن الاقيها فين.. أو حتى ازّاي ممكن أوصل للفنانة دي.. أصلي الحقيقة معجب بفنّها، و بفكّر اطلب منها ترسم لي عمل خاص عمولة..
- الحقيقة يا فندم، مش من سياسة الأتيليه إنه يقدّم معلومات أو خدمات زي كده.
- دي تبقي خدمة كبيرة من حضرتك.

سكت الرجل متردّدا.. تنهّد و قال متحرّجا

- هي الفنانة سهام من الناس المحترمة جدا، و ما اظنّش ينفع نضيّع عليها زبون.. انتظر معايا لحظة، عندي رقم تليفونها.

و بعد لحظة عاد و أملي رقمها إلى حازم.

- و يا تري مفيش عند حضرتك عنوان ليها..
- للأسف لأ..

شكر حازم الرجل، ثم أنهى المكالمة.

و بسرعة اتّصل برقم سهام الرويني.. كان الهاتف مغلقا، تماما مثل هاتف التركي.

عاود الاتصال عدة مرات.. لكن لا فائدة.

كان حازم يفقد الحماس و الرغبة في هذه المهمة المملة و العديمة الفائدة، عندما خطرت بباله فكرة، أقسم أن تكون آخر مجهوداته في هذا البحث العبثي عن التركي و خطيبته.

التقط هاتفه المحمول مرة أخرى و اتّصل بمطعم ماكدونالدز، و طلب برجر و كولا.

- الأوردر هيكون على الرقم اللي بتتصل منه يا فندم؟
- لأ.. على عنوان تاني.
- العنوان ده ليه تليفون عندنا يا فندم؟
- أيوه..

ثم أملاه رقم تليفون الرسّامة.. ضرب موظف الخدمة الرقم عنده.

- باسم الأستاذة سهام الرويني؟
- أيوه..
- أأكد العنوان مع حضرتك؟
- اتفضّل..

و خلف الرجل، كتب حازم العنوان في سرعة، شكره ثم أنهى المكالمة.

نزل حازم من بيته على عجل، ركب سيارته و اتّجه إلى العنوان.. عمارة حديثة الطراز، بشارع الملك الأفضل بالزمالك، بالقرب من برج أم كلثوم. و هناك انتظر في سيارته يراقب مدخل العمارة لبعض الوقت (احتياطيا حتى يكون الدليفري قد وصل و انصرف).

و بعد انقضاء ساعة منذ أجرى المكالمة مع مطعم الوجبات السريعة، خرج حازم من سيارته و اتّجه إلى العمارة المقصودة، صعد إلى الدور الثالث، شقة ٣٠٢. طرق الباب، فخرجت له فتاة في أواسط العشرينيات.

- أفندم؟
- بادوّر على الأستاذة سهام الرويني..
- إيه؟ دليفري كنتاكي المرة دي؟
- نعم؟
- معلش، ما تخدش في بالك.. خير يا فندم؟

- هيا موجودة؟
- لا يا فندم.. سافرت. عاوز منها حاجة؟
- سافرت مع خطيبها التركي؟
- أيوه فعلا.. نزلت له من ساعتين.
- ممكن اعرف هما سافروا فين و هيرجعوا امتي؟
- حضرتك مين؟

أخرج من جيبه مظروف.

- أنا من مكتب كنج توت.. دول ٣٠٠ دولار يخصّوا خطيبها التركي.. شغل بين مكتبنا و بينه و كنت متّفق مع الأستاذة سهام إنها تاخدهم و توصّلهم له.
- للأسف، دول سافروا اسكندرية بالعربية رايحين معرض لسهام و هيقعدوا هناك أسبوع.

زفر حازم في ضيق.. هتف متمالكا نفسه بصعوبة.

- طيب، ممكن اسيب المبلغ ده معاكي، توصّليه لأستاذة سهام و خطيبها.

التقطت الفتاة المظروف على مضض.

- ماشي..

نزل حازم من العمارة غاضبا من إضاعة وقته في هذه المهمة العبثية. قرّر أن يطوي صفحة ذلك التركي اللعين إلى الأبد. ركب سيارته، ثم أخرج هاتفه يتّصل بهويدا. في صوت بادي التلهّف، ردّت

- إيه الأخبار يا حازم؟ وصلت لحاجة؟
- وصلت للست اللي ردّت علينا، اللي قالت انها خطيبته.
- فعلا.. الست دي ليها وجود..
- أيوه.. فنانة.. رسّامة بترسم لوح وكده..

- و لقيت أورهان فعلا معاها؟
- أورهان فعلا معاها.
- شفتهم هما الاتنين مع بعض؟
- لأ، كانوا خلاص سافروا.. هو مسافر معاها معرض في اسكندرية و هيقعدوا هناك أسبوع.

لم يأته من الناحية الأخرى إلا الصمت المطبق.

- خلاص بقي يا هويدا، شيلي القصة دي من دماغك.. الموضوع كده طوّل و بوّخ.

ردّت أخيرا

- عندك حق..

لم يعرف إن كانت قالتها بفتور، أم بخيبة أمل.. لكن لا يهم، المهم هو التالي. تخيّر كلماته في حذر، ثم همس في ترقّب

- بقولّك يا هويدا.. فاضية النهاردة بالليل؟
- خير؟
- يعني، لو كنا نتقابل في نفس مطعم امبارح.. يعني نتكلم و كده.

صمت آخر، لكنه أقصر زمنا. خرجت كلماتها متألّقة منوّمة هذه المرة.

- ليه لأ.. هخلّص شغلي على الساعة ستة.. عدّي عليّا قدام الجرنال و اتّصل بيّا و انا انزلّك.
- تمام، يبقي معادنا ستة..

أنهى حازم المكالمة و قد تحسن مزاجه كثيرا تحت تأثير صوت هويدا الساحر.

تحرّك بسيارته مغادرا المكان و قد أفرغ عقله من قضية أورهان التركي تماما.. و قريبا من مشروع مكتب التحري كله. و راح يفكر في أمور أخرى، مثل حبّه لهويدا و طرق كسب قلبها، و من ثمّ إمكانية خطبتها في الفترة القادمة.

٢٣

بدأ طارق عبد الهادي يومه متحمّسا لحدثين مشوّقين.

أولهما أن اليوم كان لستة عمليات الدمرداش.. صحيح أن حازم لن يأتي اليوم (اتّصل به مبكّرا و أخبره أنه مشغول في مطاردة خطيبة أورهان المزعومة)، لكن حماسه لم يقل قيد أنملة، كيف لا و هنالك سميّة مسعود، طبيبة التخدير الشابة التي ملكت عليه قلبه منذ رآها أول مرة.

صحيح أن تعارفهما بدأ بموقف سخيف، لكن لحسن الحظ طواه النسيان، و تدريجيا أخذت علاقته بسميّة في التحسّن، حتى صارت حسناء التخدير تبادره بالسلام و الكلام، بل و تخدير بعض حالاته الجراحية بنفسها.

و بالفعل، لم يكن اليوم إلا استمرارا في تحسّن وتيرة تعامل سميّة معه. فعند لقائه صباحا، ابتسمت له و حيّته، ثم بعد قليل، دخلت غرفة العمليات المتواجد بها لتخدّر له حالته الجراحية. و مما زاد من دواعي سروره، أنها، و أثناء طقس أطباء التخدير اليومي من تجميع طلبات الإفطار، مالت إليه تسأله إن كان يريد مشاركتهم.

وافق بالطبع.. و بعد انتهاء العملية الجراحية الأولى، أتته بنفسها في غرفة استراحة الأطباء حاملة السندوتشات و زجاجة مياه غازية.

بالنسبة لطارق، كانت هذه إشارة واضحة من سميّة.

من وجهة نظره كان تصرّفها معه دليل على إدراكها لحبه لها، و يبدو أنها قد راقبته بتمعّن في الفترة الماضية فأدركت طيبته و احترامه، و بالتالي حدث نوع من الميل من ناحيتها تجاهه. لا شك في أن الأمر كذلك، و إلا كيف يفسّر تحوّلها المفاجئ و الكامل نحوه؟

لا ينقصه إلا المبادرة.

بالفعل، و في ظل تحسّن معنوياته - بفضل تعامل سميّة الإيجابي معه و بفضل انشغاله في قضية الباحث التركي - كان طارق قاب قوسين من مفاتحة سمية بإعجابه و برغبته في التقدّم لطلب يدها من والدها. لكن ليس الآن، ربما الأسبوع القادم، أو الذي يليه على الأكثر.. عليه فقط أن يستيقن من قراره، ليس إلا.

و في ظل هذه الأجواء المفعمة بالإيجابية، أنهى طارق عملياته بسرعة (كما اتّفق مع النائب السينيور)، ثم هرع إلى سيارته، يقودها بسرعة إلى حيث الحدث المشوّق التالي: لقائه بالسيدة أوديت عبد النور، السيدة التي ردّت على رسالته في 'منتدي المدارس التاريخية'.

كان ردّها بالأمس ودودا مشجّعا.

"أنا كنت زميلة دولت عبد الرؤوف في المدرسة، مش زميلتها بالظبط، هي كانت أكبر مني بتلات سنين، لكني كنت معها في نفس فريق الباسكت بول، و كنت أعرفها شخصيا و علاقتنا كانت كويسة جدا."

ردّ عليها شاكرا و طالبا اللقاء.. ردّت عليه برسالة بها رقم الهاتف، فبادر بالاتصال مباشرة، و رتّب معها للقاء اليوم، في الخامسة عصرا.

تسكن السيدة أوديت عبد النور في شقة كبيرة واسعة في عمارة بنيت في أواخر ثلاثينات القرن المنصرم على الطراز الرومانسكي الحديث، لتكون سكني الطبقة الفوق متوسطة، المزدهرة في ذلك الوقت. تقع العمارة في شارع المستشفى بشبرا، بالقرب من المعلم الأثري الأبرز في المنطقة، 'مستشفى شبرا العام' (ذلك المبني العريق ذو الثلاثة طوابق، ذو المعمار الأوروبي الملكي الراقي، لدرجة أنه شاع بين العامّة أن المبني كان في يوم من الأيام قصرا لـ'هوراشيو كتشنر'، قائد الغزو الأنجلو-مصري للسودان، و المعتمد البريطاني في القاهرة من ١٩١١ إلى ١٩١٤، ثم وزير الحربية البريطانية إبّان الحرب العالمية الأولى. لكن الحقيقة هي أن المبني من يومه الأول كان مجرد مستشفى - منذ بنائه عام ١٨٩٦ لخدمة الجالية النمساوية، مرورا باستيلاء

الجالية الإنجليزية عليه أثناء الحرب العالمية الأولى، وصولا إلى ١٩٦٧ و تحويله إلى مستشفى عام).

حضر دكتور طارق عبد الهادي قبل ميعاده بنصف ساعة كاملة. ركن سيارته الفيات في مكان مناسب، ثم دار يتمشّى في المنطقة حتى ميعاد اللقاء. و بالفعل، قبل الخامسة بدقيقتين كان يركب المصعد إلى الدور السادس، ثم عند الشقة ١٤ ضغط جرس الباب.

السيدة أوديت عبد النور امرأة عجوز تجاوزت الرابعة و الثمانين من العمر، جسدها ضئيل، مئات التجاعيد تملأ وجهها المتغضّن، لكنها لا تخفي جمالها الأصيل؛ راقية، روحها خفيفة و خلقها دمث، و رغم ظهرها المحني بقسوة الزمن، كانت لخطواتها حيوية يحسدها عليها أبناء الأربعين. استقبلته في ود و ترحاب، و أجلسته في غرفة الجلوس على أنتريه كلاسيك – يبدو من قماشه الرخيص أنه قد تم تجديده مؤخرا – ثم دفعت أمامه بعربة الشاي. قام طارق يساعدها.

- حضرتك عايشة هنا لوحدك؟
- من بعد وفاة جوزي و هجرة ولادي الاثنين لكندا، أيوه..

قالتها دون حزن أو انكسار. تمتم طارق

- ربنا يعينك.
- هتقولّي طبعا، ليه ما تروحيش تقعدي معاهم هناك؟
- يعني، حد يساعدك.
- رحت قعدت مع ابني الكبير و مراته خمس سنين في مونتريال. تستغرب لو قلت لك، حسّتها مدينة بايخة؟
- طبعا استغرب أوي.
- مدينة بايخة و باردة.. كانت مقبولة بالنسبة لي في أول سنة. بعد كده، زي ما بيقولوا، عصرت على نفسي ليمون أربع سنين.. و في الآخر، اتحدّيت الكل و رجعت مصر لوحدي.

بعد شرب الشاي و أكل الكيك، دخل طارق في الموضوع مباشرة.

- حضرتك قولتي في الإيميل إنك كنتي تعرفي الأستاذة دولت عبد الرؤوف.
- أيوه.. مدام الصاوي.
- نعم؟
- هي تبقي حرم الباشمهندس كريم الصاوي.. كان مهندس في إدارة القصور الملكية، شاب وسيم و مهذب جدا، من عيلة باشوات تمام زي دولت هانم.
- آه..
- دوِّلي دي كانت الـrole model بتاعتي و انا في المدرسة، و هي، الله يرحمها، كانت حبيبتي.. حتى بعد المدرسة ياما اتقابلنا و خرجنا مع بعض.. بس للأسف ده كان طبعا قبل يوليو ٥٢.. بعد انقلاب الظباط ماقدروش يقعدوا في البلد و سافروا على فرنسا.
- و صفوت عبد الرؤوف باشا ما كنش عندوا ولاد تانيين.. دولت هانم ما كانش ليها اخوات؟
- كان ليها أخ من زوجة الباشا الأولى، بس كان أكبر منها كتير، حوالي ٢٧ سنة فرق سن.. افتكر انه كان دون جوان بيمشي مع بنات كتير و قاعد في البارات ليل نهار، و اللي اعرفه انه مات قبل ما يتم الخامسة و الأربعين من غير ما يتجوز.
- آه، عشان كده..
- عشان كده، إيه؟
- أصل فيه ناس كتير بيدوّرا على أنجال عبد الرؤوف باشا، و مش عارفين يوصلوا لهم.. دلوقت عرفت ليه مش لقيينهم، اللي مات و اللي هاجر بره البلد.
- و اللي بيدوّرا عليهم، يبقوا مين و بيدوّرا عليهم ليه؟
- ناس بيدوّرا على مذكرات الباشا، يعني تقدري تقولي عشان ليها قيمة تاريخية.

- أمم..
- و يا تري اقدر الاقي عند حضرتك أي معلومات عن دولت هانم بعد ما سافرت و سابت البلد؟ معارف مشتركة، عنوان إقامتها في الخارج، أي حاجة؟
- بقولك دوللي كانت حبيبتي.. إحنا فضلنا نراسل بعض لغاية لما ربنا افتكرها سنة ٩٩.. استني أقوم ادور لك على جواب من جواباتها القديمة.. أكيد هلاقي فيه عنوان.

و قامت إلى حجرة نومها، غابت فترة ثم عادت تحمل صندوق حليّ كبير، يكاد من ثقله يهوي بها إلى الأرض. هرع إليها طارق مساعدا، حمل الصندوق الضخم و وضعه على طاولة جانبية. فتحت السيدة أوديت الصندوق، ثم دسّت يدها في أحشائه لتخرج برزمة خطابات كبيرة مربوطة برباط حريري. نزعت الأول، ثم قلبته على ظهره.

- أهو، العنوان أهو..

أخرج طارق ورقة و قلما و نسخ العنوان شاكرا.

- بس طبعا مش شرط تلاقي حد هناك دلوقت.. جوزها، الباشمهندس الصاوي، مات من قبليها بعشر سنين.
- و يا تري ما لهمش ولاد؟
- اللي اعرفه منهم، و اللي المرحومة كانت بتحكي عنه كتير، كان ابنهم علاء. أعرف انه كان فاشل في دراسته و ماعرفش يطلع مهندس زي والده.. تقريبا اشتغل كوميديان في بارات باريس.. بس ربنا فتحها عليه بعد كده و أصبح صاحب فرقة متنقّلة أو صاحب مسرح، مش فاكرة الحقيقة.. دميان، ابني، مرة ورّاني فيديو ليه على النت..

ثم فردت كفّيها أمامها، علامة على نضوب ما لديها و على انتهاء المقابلة. سلّم طارق عليها شاكرا ممتنّا ثم انصرف منتشيا باللقاء و منفعلا بمقابلة تلك

العجوز المتحدّية للزمن و الظروف، و سعيدا باطّلاعه على لمحة من تاريخ عائلة صفوت عبد الرؤوف، بل و البلد في زمن سابق نسيه الجميع.

مساء ذلك اليوم، و بعد العشاء، التفت طارق إلى الإنترنت بحثا عن علاء الصاوي، الكوميديان صاحب الفرقة المتنقّلة أو صاحب المسرح الفرنسي.. و هذه المرة كان حظه مع الشبكة العنكبوتية أوفر من ذي قبل.

علاء الصاوي، أو Aladdin، رجل في الثالثة و الخمسين من العمر، كوميديان متوسط الشهرة، صاحب مسرح كوميدي متنقّل، استقرّ أخيرا في مبنى بالقرب من حديقة 'دي لا فيليت' في باريس؛ لعلاء الصاوي أدوار في بعض مسلسلات السيت كوم الفرنسية، و هو أيضا أحد أكبر فناني الستاند أب كوميدي في العاصمة، و له فقرة أسبوعية في ملهي الليدو الشهير بالشانزليزيه منذ ما يزيد على العشرين عاما.

بحث طارق عن موقع إلكتروني أو صفحة فيس بوك رسمية للكوميديان الفرنسي، المصري الأصل، لكنه لم يجد شيئا. لكن مسرحه " Jokers de Paris" كان له موقع رسمي به عنوان بريدي إلكتروني للاستفسار عن حجز التذاكر. نقر طارق وصلة البريد الإلكتروني و كتب رسالته

"السيد علاء الصاوي،

توصّلت إلى سيادتكم عبر السيدة أوديت عبد النور، صديقة المغفور لها والدتك. ثمّة باحث في التاريخ مهتم بتراث جدّك، صفوت عبد الرؤوف باشا، و يرغب في الاطلاع على مذكّراته. لو كان بالإمكان التواصل، أكون شاكرا لسيادتكم.

دكتور طارق عبد الهادي."

أرسل الرسالة، قام من كرسيّه متمطّعا في رضا، ثم انطلق إلى المطبخ ليحضّر لنفسه كوبا من الشاي.. لكن قبل أن يصب الماء الساخن في كوبه، رن جرس الإنتركم، معلنا وصول حازم شاهين.

****

زوّد طارق ماء البرّاد و حضّر كوبين من الشاي، في حين تمشّي حازم في المطبخ في مرح و الراحة بادية على وجهه. ابتسم طارق هو الآخر.

- شكلك مبسوط على غير العادة.. خير اللهم اجعله خير.
- إيه مش من حقي؟ ما انت برضه شكلك مبسوط أهو.
- أنا فعلا مبسوط النهادرة.. مبسوط جدا كمان. قابلت سميّة، و كانت لطيفة جدا معايا. عملت حسابي في السندوتشات، لأ و جابتهم لي بنفسها كمان.
- دي لعبت معاك بقي..
- و كمان شغلي في البحث عن صفوت عبد الرؤوف باشا في اليومين اللي فاتوا عامل لي حالة يوفوريا عظيمة.. النهاردة قابلت مدام أوديت اللي حكيت لك عليها في التليفون.. ست لطيفة.. قعدنا نص ساعة نرغي في حكاوي الزمن الجميل بتاع زمان..

صبّ طارق الماء المغلي، و أخذ يقلّب الشاي؛ أكمل

- ده غير طبعا إنها أفادتنا جامد.. كانت تعرف دولت، بنت صفوت عبد الرؤوف باشا، و كمان ادّتني عنوان العيلة في باريس، بس ده مش مهم، عشان جايز ما يكونش حد ساكن هناك دلوقت.. الأهم بقي إني عرفت عن ابنها علاء، حفيد صفوت باشا و اللي..

أخذ حازم منه كوب الشاي و عدم الاكتراث يطفح على وجهه. رمقه طارق في استغراب.

- أنا مالي عمّال اتكلم و انت ساكت كده؟ هو انت ما عملتش حاجة اليومين اللي فاتوا؟ إلا صحيح، فين ملفّات حقّي اللي المفروض كنت تاخدها من هويدا؟

ردّ حازم في عدم اهتمام

- باينّها تحت في العربية.

- إيه؟ مالك مش مركّز معايا و مش مهتمّ كده؟

- كده.. عشان المهمة بتاعت الباحث التركي خلاص.. فاكس..

- إيه؟ ليه؟

- أولا، عشان هو بنفسه وصّلنا الرسالة دي عن طريق خطيبته.

- بس احنا دلوقتي شغّالين عشان خاطر هويدا، مش كده؟

- ده طبعا كان قرار غلط و ناتج عن انفعالات مش مظبوطة، و الحمد لله من خلال نشاطي اليومين اللي فاتوا قدرت اني أحيّد الانفعالات دي..

- انفعالات؟ انفعالات مين؟

- انفعالات هويدا و رغبتها في الانتقام من حقّي، و انفعالاتي الشكّاكة ناحية هويدا و شكّي انها جايز تكون بتحب أورهان فعلا و انّها تكون السبب ورا انفصاله عن لارا، الدنماركية.

- و الانفعالات دي إيه؟ بح!

- أيوه، الحمد لله.. النهاردة كنت بأطارد سي أورهان حقّي و خطيبته. و الحمد لله طلع ان خطوبتهم حقيقية و انّهم فعلا مع بعض، و الحمد لله سافر هو و خطيبته اسكندرية و هيقعدوا هناك فترة.

- طب و هويدا؟

- هتعمل ايه يعني.. هتخلّينا نطارده في اسكندرية كمان؟ ثم واضح ان غضبها قلّ بعد الفورة الأوّلانية..

- طب و احنا؟

- إحنا أصلا مش من المصلحة إننا نفضل منشغلين بالقضية دي..

- أمّال هننشغل بإيه؟ هو احنا عندنا غيرها؟

- أنا عندي هويدا، معجب بيها و سعيد بعلاقتنا الجديدة و بفكّر في الخطوة الجاية.. و انت عندك سميّة..

- بس انا ابتديت احب القضية دي.. أنا فعلا مستمتع بالشغل البوليسي و التاريخي.

- يا عم نقضّيها كتب بوليسية و كتب تاريخ زي زمان.. و ننسي الليلة دي بقي.
- قصدك إيه؟ انت عاوز نقفل المكتب؟
- على بلاطة كده، أيوه.. أنا وافقت من الأول أصلا بس عشان ما ازعّلكش.. إنما الحقيقة، الموضوع كله نكتة بايخة.

غضب طارق و سحب كوب الشاي من أمام حازم.

- تصدق انك عيّل واطي.. خسارة فيك كوباية الشاي.
- أحسن، ده حتى الشاي بتاعك مُرّ.. يلا بينا ننزل على قهوة، نضرب كوبّايتين شاي معتبر و حجرين شيشة.

تمالك طارق نفسه بصعوبة و زفر في ضيق.

- ماشي.. انسحب انت من المكتب.. أنا هكمّل.
- هتكمل في إيه يا كابتن؟ ما الراجل التركي خلاص استغني عن خدماتنا.
- في القضية دي أنا هكمّل عشان مزاجي.. بس انا باتكلم كمان على بعد كده.
- براحتك..
- انت دفعت في تجهيز المكتب سبع تلاف جنيه، هدفعهم لك الأسبوع اللي جاي.
- يا راجل بطّل هبل.. أنا عمري ما كنت بتكلّم في فلوس.
- أنا بقي بتكلّم عن الفلوس.. و خلّيك فاكر، لو رجعت تاني المكتب، هخلّيك تشتغل عندي.. مش هتبقي شريك.
- ها ها..

تناول طارق كوبي الشاي و سكبهما في الحوض، ثم عاد مواجها حازم.

- يلا بينا على القهوة يا عيّل..

٢٤

متأخرا في سهرته مع صديقه، عاد حازم شاهين إلى بيته مع حلول الثانية صباحا.

أثار استغرابه أن أخته ريم كانت لا تزال في غرفة المعيشة، مضطجعة على الأريكة العريضة، تحملق في التليفزيون و هي تقاوم النعاس بصعوبة. ما إن لمحته داخلا حتى التقطت ريموت التليفزيون تغلقه، قامت من مكانها تستقبله.

- إيه ده يا أبيه؟ هو انت كل يوم بتسهر للفجر؟
- ساعات..
- أصلي مستنّياك بقالي كتير.. كنت عاوزة اكلمك..
- و ما كلمتنيش في التليفون ليه؟ كنت جيت لك بدري مخصوص.
- يعني، مش حاجة مستعجلة.. زائد، كنت لسه بافكّر في الموضوع.

أخذها من يدها و جلسا على الأريكة الكبيرة.

- خير؟
- كنت عاوزة أتكلم معاك في موضوع أشرف محجوب..

انتصب في جلسته متحفّزا.

- إيه؟ كلمك تاني و لا إيه؟
- هو من ساعة ما فسخ مع بابا و *معاك* من أسبوع و هو ما بيردّش عليّا، و دلوقتي موبايله مقفول على طول.. مش بعيد يكون خلّي رقم موبايلي بلاك ليست.. شيء منطقي بعد ما عمل لي بلوك على الفيس بوك.
- أحسن..
- ليه؟

- أحسن ليه؟
- لأ.. أنا عايزة أعرف هو قطع معايا أصلا ليه. ده حتى يوم ما فسخ الخطوبة، كنا لسه خارجين مع بعض الصبح، كان لطيف معايا و كنا في منتهي السعادة.. فيه إيه حصل من الصبح لليل عشان يتغيّر التغيير الكبير ده؟
- ما انا قولت لك انه قالي إنك مش البنت اللي كان متخيّلها، و كلام تاني سخيف زيّ وشّه.. ده واد لعبي، و مصلحة انه خلع و خلصنا منه.
- النهاردة على العشاء، كنت باتكلم مع بابا في الموضوع ده.. قال لي بمنتهي الثقة إن انت أكيد ليك يد في الموضوع.

كانت تتطلّع إليه بعينين خائفتين.

- ده صحيح يا أبيه؟

حملق حازم في وجه شقيقته الناطق بالاتّهام. نحّي وجهه جانبا.

- ممكن تطلّعي الموضوع ده من دماغك.
- يعني فعلا انت أجبرت أشرف إنه يسيبني.. ليه؟

واجهها و عيناه تنطق بالحسم.

- عشان مصلحتك..
- إيه؟!

قام من مكانه، فقامت وراءه تستوقفه.

- مصلحة إيه؟
- عاوزاني أكذب عليكي..
- لأ، طبعا..
- يبقي سيبي إيدي..

تركت يده، الدهشة مرسومة على وجهها و عيناها تملؤها الدموع. كان يغادر الغرفة، عندما باغتته

- طلعت ما تفرقش عن بابا في حاجة.. زيّك زيّه..

التفت حازم إلى ريم ليتلقّى أول توتّر يصيب علاقتهما الأخوية: أول مرة ترفع صوتها عليه، و أول مرة ترمقه بنظرات البغض الصريحة.. أول مرة منذ حملها و هي في اللفة طفلة رضيعة منذ أكثر من ثمانية عشر عاما.

أكملت في نبرة حادة تطعن قلبه و روحه بسكين ماض.

- رأيك هو الصح و مزاجك هو اللي تمشّيه.. عشان بتكره أشرف، معندكش مشكلة تحرمني منه. ما يفرقش معاك بحبه و لا لأ. زيك زي بابا.. قلبكم جامد و معندكمش رحمة.

ألجمت الصدمة لسانه فانسحب من الغرفة دون أن ينبس بحرف.

و تبدّلت حاله - و التي كانت منذ بعض دقائق هي السعادة الخالصة - إلى الحنق؛ الحنق من أشرف و من أبيه، بل و من أخته الحمقاء كذلك.

صعد إلى غرفته، و استلقى على سريره دون أن يغيّر ملابسه.

لكن، النوم اللعين تأخر و لم يغشي عينيه و عقله إلا بعد ساعة من آذان الفجر. و عندما حلّ أخيرا، أبي أن يأتي إلا في صحبة كابوس لعين؛ قتل فيه أباه و أخته التي كانت تهرب مع أشرف الملعون، ثم قتل صديقه طارق الذي اعترض على شناعة أفعاله. أخيرا جاءت هويدا؛ لكنها كانت صاحبة اليد العليا هذه المرة، استدرجته إلى ملهي مهجور، ثم ها هي تربط حبلا غليظا حول رقبته و تخنقه في شبق و سعادة شيطانية.

و جاءت رنّة طويلة ممطوطة من هاتفه لتنقذه من وطأة الاختناق داخل الكابوس المروّع. استيقظ مفزوعا.. التقط أنفاسه ثم التقط الهاتف الصارخ. لازال الوقت مبكرا، و يا للعجب، كان الاتصال من هويدا.

- ألو..

كان صوتها مرتجفا متقطّعا

- إلحقني يا حازم، أورهان لقوه ميّت.

- إيه اللي حصل؟

- أورهان اتقتل يا حازم.. اتقتل.

ثم انهارت في البكاء و النحيب، تنشج في ألم حقيقي.

تواثبت الخواطر تركل عقله المتكلّس بالنوم، لكنها سرعان ما توارت جانبا لتفسح المجال أمام ذلك اليقين الذي تمكّن منه بغتة. هذا ليس صوت إنسانة حسّاسة أو انفعالية.. لا، إنه صوت امرأة فقدت شخص عزيز، غالي على قلبها. وضحت الرؤية و تأكّدت و لن يبقي في قلبه أو عقله ذرّة واحدة من شك بعد الآن.

دعك عينيه ليطرد ما بقي بها من نوم. همس حانقا

- احكي لي كل حاجة من الأول.

ثم قاطع نفسه

- لأ، استني.. لازم نتقابل.

كانت تجربة لابد من مواكبتها صوتا و صورة.

****

الثلاثاء ١٥ يونيو ٢٠١٠

لم يكن عقله قد استعاد كفاءته في التفكير بعد.. عيناه زائغتان و أذناه يصمّها أزيز.. إنه ذلك الصداع السخيف الذي يجتاحه مع كل وعكة صحية أو نفسية.

كانت معنوياته في الحضيض: لقد ظهر للتو الشرخ الأول في أخوّته الراسخة مع أخته الحبيبة، و الآن هويدا.. لماذا هو ملعون إلى هذه الدرجة التي تحتّم عليه بمثل هذه العقوبة المضاعفة: فقدان أقرب امرأتين إلى قلبه، و في أقل من ١٢ ساعة ؟

بعد عشر دقائق من الخوض في خواطره السوداوية، انتزع نفسه انتزاعا و خرج من سيارته. عبر الطريق، ثم دخل إلى كافيه كوستا، الواقع على شارع الميرغني.

جارّا قدميه بصعوبة، و محاولا نصب رأسه فوق كتفيه، دخل إلى الكوفي شوب. و هناك في الركن الأقصى للمقهى، كانت هويدا تجلس في خضوع و استسلام. على عينيها نظّارات شمسية كبيرة، و ترتدي الملابس السوداء!

تقدّم على مضض. ما إن ظهر في مجالها البصري حتى قامت إليه متلهّفة و الدموع تسيل من عينيها. صافحت يده في ود، لكنها سرعان ما سحبتها بغتة. جلسا، تكلمت دون أن تخلع النظارات.

- شكرا يا دكتور حازم على اهتمامك.. أنا فعلا منهارة، و محتاجاك جنبي.. عمري ما هنسى وقفتك معايا أبدا.

أخرج علبة سجائره و أشعل واحدة، كاتما الغيظ في صدره و متظاهرا باللامبالاة.

- إيه اللي حصل؟

- لما اختفي أورهان – عن قصد – يوم الاثنين اللي فات.. يعني من حوالي ثمان أيام، رحت أنا و لارا بلّغنا البوليس و السفارة التركية. أنا و لارا سبنا أرقامنا في كل حتّة.. إمبارح بالليل البوليس اتّصل بيّا.

تنهّدت لتحبط نوبة أخرى من البكاء.

- بيقولوا إنه عمل حادثة كبيرة على طريق مصر اسكندرية الصحراوي.. إمبارح العصر. بيقولوا إنه مات على طول، و اللي معاه اتكسّرت مية حتة و مرميّة في المستشفى.
- تقصدي خطيبته؟

ردّت بحسم، لكن دون أن ترفع رأسها إليه.

- دي ماكنتش خطيبته.. أنا متأكدة ان أورهان عمره ما شاف و لا سمع عن الست دي أبدا.
- و جبتي الثقة دي كلها منين؟

تمتمت

- أنا و أورهان متجوّزين من سنة و نص.. و انا حامل دلوقت في الشهر التالت.

و صفعته المفاجأة لترديه إلى هوة من الانسحاق و الدونية.

إزاي كنت مغفّل للدرجة دي؟

انتابته رغبة قوية في ضربها حتى الموت، على الأقل أن يسبّها، يلعنها هي و أسلافها. لكن انعقد لسانه و خارت قواه. حاول القيام و الهروب من المكان، لكن ساقيه لم تحملاه.

رفعت هويدا النظارات ليظهر وجهها البائس الباكي: وجه قبيح كريه لمخلوق آخر غير ذلك النوراني الذي خلب لبّه في الأيام الماضية.

- أنا اسفة يا حازم إني ما قولتلكش الحقيقة كاملة من البداية..

ارتدّ له لسانه حرّا لوهلة.

- ليه؟
- خفت أخسرك.

قالتها في رقة و انكسار أنثوي طاغي. ها قد عادت ريما لعادتها القديمة.. عادت الساحرة الشريرة تعبث بعصاها و تلقي بسحرها على ضحيّتها.. ها هو وجهها يستردّ بؤسه المحبب.. عيناها الدامعتان تتّسعان و شفتاها ترتجفان في ضعف و سحر غريب.

- أنت راجل محترم و إنسان، و ما كنتش عاوزة أكسر بقلبك من البداية.. أنا فعلا استريّحت لك، و ما كنتش عاوزة أخسرك.. ثم، إني فعلا كنت محتاجاك يا حازم.. و لسّه محتاجاك.

و مدّت يدها مستجدية في ضعف و بؤس تتحطم له قلوب الفرسان و النبلاء.

لكن ليس اليوم.. لن يفلح كل ما بجعبتها من ألاعيب بعد الآن.

كان جسده قد استردّ قوته.. كان عقله الغاضب يفكّر في كل السيناريوهات الممكنة لإهانتها و الانتقام منها. لكن الفضول باغته من وسط أفكاره.. فضول عارم، مدفوع بسؤال ضخم لا إجابة له عنده: ما الذي يجبر هذه الحرباء المتلوّنة الجالسة أمامه على التمثيل عليه و التودّد إليه أملا في استجلاب شفقته و استثمار مشاعره نحوها؟ لماذا تقوم بمثل هذا الفعل المنحطّ الذي لا ترضاه أي امرأة لنفسها؟ لماذا فعلت ما فعلته سابقا، و لماذا تكرره الآن مرة أخرى؟

إنها تحتاج إليه بشدة.. لكن لماذا؟

- اتّصلتي بيّا النهاردة ليه؟

انخسف نظرها إلى حجرها و امتدّت يدها تعبث حتى وصلت للنظارات. أعادتها على وجهها مرة أخرى.

- لمّا البوليس اتّصل بيّا امبارح بالليل، ما كنتش مصدّقة.. رحت بنفسي المشرحة و اطّلعت على الجثة بنفسي.. كانت مكسّرة ميت حتة، لكن الوش كان سليم.. اتأكّدت إن الجثة جثته.

كتمت نشيجها، لكن الدموع سالت على خدها.. لكنه نظر إليها في برود.

- سؤالي واضح؟ اتّصلت بيّا ليه؟
- زي ما انت اكيد واخد بالك دلوقت.. أنا طول الوقت، من ساعة ما جيت لكم المكتب يوم السبت، ساعة ما جيت من غير لارا، و انا بقولّكم إني شاكّة إن أورهان في خطر.. الحقيقة إني ما كنتش شاكّة.. أنا كنت متأكدة.

و أجهشت في البكاء.. لكن حازم لم يكترث، و لا حتى ناولها المنديل الورقي كما في المرة السابقة.

رمقته في هدوء. تماسكت و أكملت.

- دي مش أول مرة تحصل إن أورهان يتعرّض للخطر.. حكي لي قبل كده إنه لمّا كان بيتعرّض لجماعات الدونمة، كتير كانوا بيتوتّروا و بيطلع منهم ردود فعل عنيفة. لكن أورهان برضه كان باحث قديم و عنده خبرة و كان دايما بيعرف يتعامل مع المواقف دي، غير إنه دايما كان بيأمّن نفسه. بس المرة دي، ماحصلش كده.. قصدي على الإيميل اللي كان مفروض يوصلني و فيه أسماء الدونمة اللي هيقابلهم.. كان فيه حاجة غلط من البداية.

دفع حازم كرسيه للخلف، إيذانا بالرحيل.. ذعرت هويدا و مدّت إليه يدها مستنجدة.

- انت رايح فين؟

- من غير لفّ و دوران يا هويدا.. إنتي عاوزة منّي إيه؟
- عاوزاك تساعدني نلاقي اللي قتلوا جوزي..

حام بعينيه في وجهها بغيّة كشف ما يمور في باطن تلك الحرباء الجالسة أمامه.

- ليه؟
- عاوزة انتقم له.. آخد بتاره..

ردّ في برود و غلظة.

- ما اظنّش ده السبب الحقيقي.. على الأقل مش السبب الوحيد..

التوي وجهها في ألم كبير، و سالت دموعها تتدفّق.

- حرام عليك القسوة دي..

أكمل حازم دفع كرسيه ثم قام. هبّت من جلستها و أمسكت ذراعه تمنعه، و قد تطايرت كل المشاعر و الدموع من وجهها. طالعته، و لأول مرة، بوجه جامد ينطق بالشرّ حرّا صريحا.

- اقعد يا حازم.. أنا هاتكلّم أهو..
- من غير لفّ و دوران يا مومس.

ابتلعت إهانتها في صمت، ثم أومأت برأسها أن نعم.. تمتمت

- من غير لفّ و دوران.. اقعد.

****

كونه عضو هيئة تدريس في كلية الطب، يعمل طارق عبد الهادي أربعة أيام في الأسبوع، يومان من الدوام الطويل يقضيهما في العمليات الجراحية، و الآخران في العيادة الخارجية و المرور على المرضي أو في إلقاء المحاضرات على طلبة السنة السادسة. و لأنه من الفئة الملتزمة، فإنه يواظب على حضور

أيامه الأربعة و على القيام بمهامّه جميعا. لكنه، و لأنه لا يعمل في أي مكان خاص يتبقى له ثلاثة أيام في الأسبوع دون التزام أو عمل معيّن.

يوم الثلاثاء هو أحد تلك الأيام الخوالي. لكن طارق، و برغم سهره في اليوم السابق مع حازم، قام في ميعاد استيقاظه المعتاد، الرابعة فجرا، ليبدأ يومه في نشاط. فطارق، و تحت تأثير التربية و الواعز ديني، لم يكن ممن يتركون أوقاتهم تضيع هباءً. كان له جدول منظّم كامل لكل أيام الأسبوع، سواء التي يذهب فيها إلى مستشفى الدمرداش أو تلك التي لا يعمل فيها، يتمحور أساسا على نظام صباحي ثابت: بداية من الاستيقاظ و الوضوء فالنزول للصلاة في المسجد القريب، العودة و تناول الإفطار مع والده و والدته، ثم التوجّه إلى حجرته لترتيل ورد القرآن اليومي - جزء كامل - ثم النزول إلى الشارع مرة أخرى و المشي لمدة نصف ساعة، آملا في تراجع محيط كرشه المتنامي (لكن بلا فائدة للأسف)، و مع ارتفاع الشمس في السماء يعود إلى البيت. في أيام العمل، يجهّز نفسه و ينزل إلى المستشفى، أمّا في أيام اللا عمل فيعود إلى غرفته و يمضي فيها ثلاث ساعات يخصّصها للدراسة الطبية، من إشراف على الرسائل العلمية و مراجعة كتب الجراحة و الاطلاع على الدوريّات الطبية الحديثة.

لكن خلال الأسبوع الماضي، قرّر طارق قلب نظامه اليومي في أيام الإجازة رأسا على عقب، مركّزا جهوده بالأساس على قضية الباحث التركي: من تفريغ أسماء أصحاب الفيلات، جيران صفوت عبد الرؤوف باشا، ثم البحث عبر الإنترنت - خصوصا المنتديات و الفيس بوك - على من بقي منهم على قيد الحياة من أبناء و أحفاد، ثم الاتّصال بهم، و من ثمّ زيارتهم. كما أنه، و ليكون على دراية بالفترة التاريخية التي يتعامل معها، قرّر مراجعة تاريخ الخلافة العثمانية، خصوصا الحقبة الأخيرة و الثورات و الحروب التي اجتاحتها في أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين، و أيضا عن الدونمة و ديانتهم و أدوارهم في حركة تركيا الفتاة و السياسة العثمانية و التركية عموما. بعض الكتب وجدها على الإنترنت (نسخ مصوّرة مسروقة) و الباقي قرّر البحث عنها في المكتبات. قام بتقسيم الكتب و وضعها في

جدول، حتى يقوم بقراءتها تباعا بعد الانتهاء من الورد اليومي من القرآن الكريم.

طوال الأسبوع كان متحمّسا، متشوّقا لهذا النشاط الجديد في حياته.. لكن ماذا عساه أن يفعل الآن، و حازم، صديقه العزيز و شريكه في المكتب، قد تخلّي بالأمس عنه و عن القضية بالكليّة.

كان قد أنهى نشاطه المعتاد، من تناول فطور و قراءة قرآن و تمشية، و عقله طوال الوقت مشغول في كيفية العمل منفردا. جلس إلى الكمبيوتر يطالع في حسرة ملف الـword المحتوي على الجدول متعدد الخانات و الممتلئ بالنشاطات الخاصة بالقضية.

هل يستسلم ببساطة، و يقوم بإلغاء الجدول و مسح الملف بكل بساطة، أم يثابر و يخوض غمار المغامرة وحيدا..

مخنوقا من صديقه و نذالته، و من نفسه و عدم صلابتها، قام و تجوّل في غرفته مفكّرا لبضع دقائق دون أن يصل إلى حل. التقط أحد مراجع الجراحة من المكتبة، فتحه و راح يبحث عن موضوع طبي شيّق يقوم بمراجعته حتى يشغل باله بشيء آخر، لكن كل المواضيع بدت باهتة، مملة.

وضع المرجع الطبي على المكتب، ثم التقط هاتفه المحمول باحثا في دفتر الأسماء.. وقف أمام اسم هويدا متردّدا.. هل يفعلها؟ هل يلتفّ حول إرادة صديقه، و يتّصل بها محاولا إقناعها باستكمال بحثها عن أورهان من وراء حازم؟ لو عرف حازم، لا شك أن ذلك سيضايقه بشده.. عبث في دفتر الأسماء حتى عثر على الرقم الذي أعطاه إياه أورهان حقّي، خلال زيارته الوحيدة الأسبوع الماضي. ضغط زرّ الاتصال، لكن الهاتف، و كما المتوقع، كان مغلقا.

رمي الهاتف على سريره في ضيق، و دار منكسرا إلى المرجع الطبي، المفتوح و المحملق إليه في تشفّي. لم يكد يلتقط الكتاب حتى ندت عن جهاز الكمبيوتر النغمة المحبوبة: رسالة إلكترونية جديدة.

فتح شاشة جهاز الكمبيوتر لتطالعه رسالة باللغة الإنجليزية. نقر الكيبورد ليفتح الرسالة، فإذا هي من علاء الصاوي، الكوميديان، حفيد صفوت عبد الرؤوف باشا.

"دكتور عبد الهادي،

إنه لمن دواعي سروري أن يأتيني خطاب من وطني الأم، خصوصا من شخص يبدي اهتماما بجذوري العائلية العريقة و التي عفي عليها الزمن و نساها. يسرّني أن أكون في عونك. بالفعل سمعت عن مذكّرات جدي، و كثيرا ما جاء ذكرها على لسان المرحومة والدتي. سأبحث عنها في متعلقات الأسرة في شارع فيرو، حيث سكن العائلة، و سأرد عليك في أقرب وقت ممكن.

تحياتي لك، و خصوصا للمحترمة أوديت هانم.

علاء الدين الصاوي."

رفع طارق عبد الهادي قبضته في سعادة و قد عاوده الحماس. أغلق مرجع الجراحة في حسم، ثم طوّح به إلى الحائط في عبث طفولي. و بسرعة عاد إلى ملف الـword، مطّلعا على جدول الأعمال و قائمة الكتب. و من بين عشرات الكتب، قرّر البدء بكتاب "تاريخ الدولة العليا العثمانية" للكاتب محمد فريد بك (السياسي و الحقوقي الشهير ذو الأصول التركية، و رفيق المناضل مصطفي كامل)، المطبوع عام ١٨٩٣ و المعاصر للحقبة الأخيرة من عمر الخلافة العثمانية؛ شغّل طارق الطابعة و بدأ في طباعة الكتاب على الفور.

****

تطلّع حازم شاهين إلى الجالسة أمامه و الدهشة تغمره.. مخلوقة أخرى تختلف تماما عن تلك الحسناء المتغنّجة المرهفة التي عرفها طوال الأسبوع المنصرم.

في ناظريه بدت رأسها غابة من أغصان شوك متنافرة تحوط عينيّ أفعي جاحظتين و فم ذئب هائج.. حتى جلد وجهها الناعم الرائق بدا الآن لامعا مشدودا بشدة، مظهرا من تحته أوردة جبهتها و رقبتها في منظر بغيض منفر.

هتفت في جدّية ملؤها التحدي

- عايز تعرف إيه؟
- إحنا هنبدأ بالاستعباط..

كشّرت في وحشية.

- استعباط إيه؟
- أنا قاعد عشان انتي اللي عاوزاني أسمعك.. ما تستخدميش تكتيكاتك و مناوراتك الحقيرة معايا. اتكلمي دوغري، من غير لفّ و دوران.. و صدّقيني، في اللحظة اللي هاحسّك فيها بتستعبطي أو بترجعي لحركات السهوكة، هاقوم في لحظة و لو جيتي ورايا أو شفتك تاني في أي حتة، هأكسر دماغك.

كانت صدمتها حقيقية، لكنها صاغرة كظمت غيظها. مدّت يدها عبر الطاولة و التقطت علبة سجائر حازم و القداحة. توقفت أصابعها المتسلّلة بغتة و رفعت رأسها إلى حازم طالبة الإذن، هزّ رأسه أن نعم. التقطت سيجارة و أشعلتها، ثم نفخت دخانها لتفرغ بعضا من توترها الداخلي.

- مش كل الكلام اللي قولتهولك قبل كده كان كذب. بالعكس، جزء كبير منه حقيقي.. فيه شوية حاجات بس اللي خبّيتها.

استعاد حازم عدّة تدخينه و أشعل لنفسه سيجارة هو الآخر. أكملت هويدا، دون النظر إليه، هامسة و كأنها تكلّم نفسها و قد استعادت هدوءها و بعضا من ثقتها.

- أنا فعلا عرفت أورهان من حوالي سنة و نص. كنت ساعتها لسه مجرد متدرّبة في أرشيف جريدة الأهرام.. عيّلة بنت ٢٢ سنة، فجأة

دخل عليها راجل أوروبي، وسيم، شيك، و أكبر منها بعشرين سنة. طبيعي، انبهرت بيه من أول نظرة.. و هو طبعا خد باله.

ابتسمت ساخرة في أسي

- كان، الله يرحمه، نسوانجي مجرم، ليه طريقته مع الستات.. مهذّب، ابن نكتة، و كريم لأبعد الحدود.

نفخت دخان سيجارتها.

- بس محسوبتك برضه مش سهلة.. زي ما جننّي، جننته.. و لأول مرة في حياته، أورهان حقّي، الكزانوفا التركي اللي دوّخ النسوان في الشرق و الغرب وراه، لقي نفسه متجوّز. لكن أقسم لك إنه عمره ما ندم و إنه فعلا كان مبسوط و سعيد معايا.. بدليل إننا فضلنا متجوّزين طول الفترة اللي فاتت دي، بالإضافة طبعا لإني أصبحت شريكته في الشغل. كان بيموت فيّا.. عشان كده مستحيل اصدّق إنه هرب مع واحدة تانية أبدا.

لوي حازم قسمات وجهه استهزاءً.

- و انتي إيش عرّفك؟ ما يمكن فعلا هرب منك، و زي ما ساب لارا عشان خاطرك، يكون سابك عشان خاطر التانية، و استغلّك بس عشان يعرف يهرب من لارا.
- مستحيل.. العلاقة اللي بيني و بين أورهان كانت علاقة حب حقيقية..
- تقصدي علاقة مش مزيّفة زي علاقته بلارا و زي علاقتك بيّا.
- أنا بكرر أسفي..
- مش مقبول.. اتفضّلي كمّلي.
- أرجع لك من بداية أورهان حقّي نفسه.. بداية أورهان مع القصة دي، زي ما قولتكم قبل كده، كانت من حوالي عشر سنين لمّا زار سالونيك. الزيارة دي كانت نقطة بداية اهتمامه بالدونمة.. من

ساعتها و هو بيتبع آثارهم في كل حتّة في العالم يسمع إنهم استقروا فيها أو حتى زاروها: في تركيا طبعا، في أوروبا، و برضه في بعض الدول العربية. بعد تلات سنين من الشغل المتواصل، طلّع أول شغل ليه عن الدونمة: كتاب تاريخي و أكاديمي تقيل، و في نفس الوقت بيتفادي التعرّض لأي شخصية أو فئة بالهجوم أو الاتّهام. من غير إطراء لأورهان، أقدر أقول بضمير مستريّح إنه كان أول عمل أكاديمي محترم يصدر عن الدونمة على الإطلاق. الكتاب تم استقباله بطريقة كويسة من الأكاديميين، و طبعا عمل صدي كبير و إزعاج شديد في أوساط الدونمة عبر العالم. لكن للأسف الكتاب ما سمّعش جامد مع الجمهور التركي العادي عشان الصبغة الأكاديمية و البحثية للكتاب، و ده طبعا أثّر على المبيعات، و بالتالي أثّر بالسلب على معنويات أورهان اللي توقّع الشهرة و الفلوس بعد نشر الكتاب. لكن، و لأنه شخصية مثابرة و غير انهزامية، ما استسلمش و قرر يعمل كتاب تاني عن الدونمة، لكن المرة دي باستخدام أسلوب و حيل الصحافة التجارية: قرر إنه يكتب كتاب فضائحي عن الدونمة و عن أبنائهم و ذرّيتهم الحالية و ازّاي إن جذورهم سبب لشرور العالم و مصايبه.. كتاب زيّ أي كتاب فضائحي شعبي عن الماسونيين أو الشيعة مثلا.. من الآخر كده، حاجة تجيب فلوس. و فعلا، في أواخر ٢٠٠٦ بدأ يسافر من جديد عشان يجمع المادة العلمية للكتاب، لكن المرة دي كان مالوش غير هدف واحد: إنه يصطاد الدونمة أصحاب القصص المثيرة من كل حتة في العالم.

سحبت النفس الأخير من سيجارتها و كتمته لحظة لتثبّت أعصابها مرة أخرى. دهست السيجارة في المطفأة و هي تنفث الدخان.

- و نزل كتابه التاني في ٢٠٠٨.. و في الكتاب ده كشف عن شخصيات عايشة في الوقت الحالي، أسماءهم الحقيقية و أماكن سكنهم الفعلية و طقوسهم المريبة، بالإضافة لنسج شوية من

الحكايات و الاستنتاجات المثيرة لزوم البهاريز. بعضها حقيقي طبعا زي إنهم لسه بيمارسوا طقوسهم اليهودية في السر برغم استمرارهم في إظهار مظاهر التديّن الإسلامي، و البعض الآخر كان تخمين و تأليف، زي إن بعضهم مثلا بتربطهم علاقات بإسرائيل، بل و جواسيس للموساد كمان، و حكايات تبادل الزوجات.. في الكتاب ده ما خلّاش، فضح أسماء كبيرة و صغيرة، شخصيات تركية و سورية و عراقية.. و طبعا ما اقولّكش عالنجاح: الكتاب صدر منه أربع طبعات بالتركي، إضافة لطبعتين بالعربي.

- أكيد الكتاب عمل مشاكل كبيرة.
- أكبر مما تتخيّل.. لكنها جابت لأورهان الشهرة و الفلوس، أكتر مما كان بيحلم.. خصوصا الفلوس.
- الفلوس؟ إشمعني الفلوس؟
- أورهان كان جمع كمّ كبير من المعلومات عن الدونمة، أصدر جزء منها في كتاب ٢٠٠٨، و كان ناوي ينزّل الباقي في كتاب تالت ينزل السنة الجاية.. البداية الحقيقية للفلوس بدأت باتصال من أحد عائلات الدونمة اللي عرفوا إن أورهان كان بيتجسّس عليهم.
- إيه؟ عرضوا عليه رشاوي عشان ما يكتبش عنهم؟

هزّت رأسها في تأكيد.

- أيوه.. و هو وافق.

صفّر حازم في تهكم.

- و بعدين؟
- الموضوع طلع منه بمبلغ تلات أضعاف الفلوس اللي طلع بيها من حقوق طبع الكتب.. و زي ما انت عارف الشيطان شاطر.

أشارت للجرسون و طلبت قهوة، في حين لم يطلب حازم شيئا.. بعد انصراف الجرسون، أكملت.

- الموضوع حلي في عين أورهان، و بدأ هو بنفسه بالاتصال بعائلات الدونمة الأغنيا، و يبتزّهم عشان ما يحطّش أسماءهم في كتابه التالي.. برّر لي تصرفه بأنه كان وسيلة مش أكتر لتمويل بحثه و تنقّلاته. صدّقته في الأول، لكني عرفت الحقيقة لما اتجوّزنا و أشركني معاه في واحدة من عمليات ابتزازه.. عملية كانت هتقضي على حياتي أنا شخصيا.

استعارت سيجارة أخرى، أشعلتها ثم نفخت و عاودها التوتر من جديد.

- من سنة أخدني معاه سوريا، و هناك أشركني معاه في عملية ابتزاز لواحد من الدونمة التقال. بس زي ما تقول كده، أورهان ما حسبش حساب الراجل كويس.. كان رجل أعمال ناجح بدرجة كبيرة و غني.. لكن المشكلة الحقيقية كانت إنه بتجمعه علاقة قوية بنظام بشار الأسد.
- أوبّا..
- أوبّا كبيرة.. بعد ما قعدنا مع رجل الأعمال الدونمة و عرضنا عليه المعلومات اللي معانا، ابتسم في وشّنا و قال إنه هيتواصل معانا قريّب. لكن يومها بالليل، قوات الشرطة السورية اقتحمت أوضة الفندق بتاعتنا و قبضت علينا و سجنتنا بتهم كومبو: دعارة و تجسس و ترويج المخدرات.
- و بعدين؟
- و لا قبلين.. و من غير تحقيق و لا يحزنون، أخدونا على المعتقلات.. هو دخل معتقل صدنايا الجبلي المرعب، و انا دخلت سجن العدرا الرهيب.. إترمينا هناك و اتنسينا لمدة أسبوع. عدّت عليّا أيام سودا في السجن، صحيح الحمد لله ماحدش لمسني، لكن أصوات المعتقلين اللي كانوا بيتعذّبوا كانت بتجنّني من الرعب. أمّا

أورهان، فبرغم تعذيبه، كان متماسك للرمق الأخير. كان عامل احتياطه كالعادة.. كان متّفق مع أخوه في أزمير: لو ما اتّصلش بيه لمدة أكتر من أسبوع، يبعت رسالة للدونمة السوري، فيها كل التفاصيل عنه و يهدّد إنه يبعتها للصحافة. و بالفعل في اليوم الثامن، أُفرج عنّا.. و الضابط اللي أفرج عنّا أخدنا للمطار مباشرة، و هناك إدّى أورهان جوازات سفرنا و تذاكر سفر عودة لتركيا و شنطة فيها خمسين ألف دولار.. مع تهديد صريح بعدم العودة لسوريا مرة أخرى، و إن أسماءنا تم وضعها على قوائم ترقب الوصول.

- مغامرة عنيفة..
- جدا، لدرجة إني قعدت شهرين بعديها عشان ارجع لطبيعتي بعد تجربة سجن العدرا المريرة.. و لدرجة إني قرّرت ما يبقاش ليّا دعوة بشغل أورهان بعد كده خالص. بقيت دايما بعيدة عن الأحداث و براقب كل شيء من بعيد، و تدريجيا حلّيت محل أخوه، يعني من ناحية التأمين لحركاته و ما شابه.
- و بعدين؟

أحضر الجرسون قهوتها.

- و بعدين أورهان قرر البحث عن طلعت رستم..
- إيه، قرر إنه يرجع للشغل الأكاديمي الجاد و يسيبه من شغل الابتزاز.
- هو طبعا كان له اهتمامات أكاديمية بخصوص طلعت رستم، لكن قصته برضه كانت منجم دهب.
- ازّاي؟
- طلعت رستم ده من الشخصيات الغامضة المثيرة و اللي أورهان خبّط فيها كذا مرة خلال أبحاثه.. بداية من ولادته بسالونيك، مرورا بزخم حياته السياسية في الباب العالي باسطنبول، وصولا لرحلاته المكّوكية الغير مفهومة المغزى لحتت كتير من أوروبا:

فيينا، برلين، ميونيخ، ليون، و مانشستر، انتهاءً بمصر كمحطة أخيرة و مأوي من أعداء كتير كوّنهم عبر رحلته السياسية الحافلة بالنشاط و الغموض. المهم، أورهان استنتج، نتيجة لتتبّعه لرحلة طلعت رستم الشخصية و المهنية، إنه رجل الدولة التركي ده كان جاسوس، و إنه كان في كل مكان يبقي فيه بيشكّل شبكة جاسوسية كبيرة.. بيتجسّس لمين؟ أورهان كان بيشك في تلاتة من الخمس قوي الدولية في الوقت ده.. لكن موضوع الدولة اللي رستم كان بيشتغل لحسابها عمره ما شغل أورهان قوي قد موضوع تاني أكتر أهمية..

- إيه؟
- أورهان كان عنده نظرية مجنونة.
- اللي هيّا؟
- بما إننا تاريخيا ما نعرفش عن أي شبكة جاسوسية اتمسكت و كان بيرأسها طلعت رستم، فمين عارف، مش يمكن الشبكة دي تكون عايشة لحد دلوقت.
- ها ها.. طول الوقت ده كله؟
- صحيح، هي واسعة شوية.. رستم وصل مصر ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٥، الفترة اللي ما بين هروبه من تركيا بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية و الوقت اللي شافه فيه صفوت عبد الرؤوف باشا، و طبعا هو كان مكوّن شبكة التجسّس دي قبل كده بفترة، يمكن بسنين كتيرة.. و دلوقتي إحنا في ٢٠١٠، ففعلا، فكرة إن شبكة جاسوسية تفضل عايشة ٩٠ سنة، و يمكن أكتر من كده بكتير، شيء غير متوقّع و غير منطقي.
- ده حتى لو ما كنتش اتكشفت في وقت من الأوقات، وارد جدا إنها تتفكّك لوحدها من بلد المصدر.
- فعلا، أورهان كان حاطط الاحتمال ده في الحسبان.. لكن حتى لو كان ده صحيح، فأفراد الشبكة دي هم أبناء و أحفاد.
- و دول بقي يبتزّهم بتاريخ جدودهم.

- لو أغنيا، يبقي طبعا..
- و طبعا بدأ من مصر، نقطة رحلته الأخيرة، عشان يدوّر على الناس اللي طلعت رستم استخبّي عندهم..
- صح.. و عن طريقهم يقدر يوصل لآثاره و مقتنياته اللي لسّه فاضلة عندهم.. مين عارف ممكن يوصل لإيه.
- دي غير إنه ممكن يبتزّ الناس دول همّا كمان..
- شيء وارد طبعا.
- و بعدين؟
- و بعدين كنقطة بداية، هداه التفكير المنطقي إن طلعت رستم كونه دونمة، طبيعي إنه أوّل ما ييجي مصر شريد مطارد، هيدوّر أوّل حاجة على أفراد دونمة زيّه يستقرّ عندهم، و يكونوا ستر و غطا عليه.
- مش شرط.. ممكن الجهة اللي كان بيشتغل جاسوس ليهم يكونوا همّا اللي ساعدوه.
- وارد طبعا.. بس نقطة الدولة اللي رستم كان بيتجسّس لها دي كانت خارج إيد أورهان معلوماتيا، عشان كده اتجاوزها، و زي ما هيبان بعد كده هتطلع ملهاش لزمة.
- عمل إيه؟
- كان قدّام أورهان طريقتين للعثور على العائلة اللي رستم استخبّي عندها.. الطريقة الأولى الأسهل، إنه يلاقي مذكّرات صفوت عبد الرؤوف باشا على أمل إنه يلاقي فيها اسم العائلة اللي رستم استقرّ عندهم. و زي مانت عارف ما وصلش لحاجة في الآخر. الطريقة التانية كانت أصعب و الأمل فيها أضعف، لكنها هي اللي جابت نتيجة.
- تقصدي العائلات القديمة ذات الأصول اليهودية اللي في مصر من وقت وجود شبتاي تسفي بتاعكم ده و اللي دلوقتي نسلها مسلمين، و الجوابات اللي بعتها لهم و فيها طُعم يجيب رجلهم و الكلام ده؟

- أيوه.. طبعا مهمة النجاح فيها بيعتمد على الحظ بالأساس، بس اهو عملها، و بالفعل، هي اللي جابت النتيجة، و أثبتت صحة نظريته في إن طلعت رستم جه مصر و استقرّ عند أسرة من الدونمة.. المهم، مندوب العيلة دي اتصل بأورهان يوم الأربعاء اللي فات و المفروض كان هيقابله الخميس، اليوم التالي.. لكن طبعا، و من ساعتها، أورهان مختفي.. طبعا قابلهم و هم اللي قتلوه.

نظر إليها في شك.

- مش حاسة إنك ممكن تكوني غلطانة في نظريتك دي؟
- في إيه؟
- زي مثلا في خطيبته اللي ردّت عليّا في التليفون و اللي انا رحت شقتها بنفسي، و زي إنه فعلا مات في حادثة العربية؟
- كل ده متلفّق.. كل ده هينكشف لو دوّرنا كويس..

متململا، ضجرا

- و لو فرضنا إن الكلام ده كله صح، إنتي بقي عاوزة مني إيه؟
- عاوزاك تساعدني إننا نلاقي العيلة دي.
- و عاوزة تدوّري على الناس دول ليه؟
- أولا عشان انتقم لجوزي..
- ثانيا..

تململت و نظرت في يديها.

- عشان الفلوس..

.. و استقرت كل قطع البازل في مكانها الصحيح. تطلّع حازم إليها مستهزئا في بغض

- عاوزة تكمّلي في كار المرحوم؟

- أنا و أورهان كنا متجوّزين في السر، عقد عرفي، عشان علاقته مع لارا ما تدّمرش..
- ما اتدمرت فعلا، و الفضل ليكي..
- قصدي قبل كده.. و نتيجة علاقتنا اللي في السر، أنا مش هأورث منّه حاجة و كل ثروته هتروح لعيلته في تركيا.. دلوقتي أنا حامل و فيه عيّل جاي في السكة.. أنا محتاجة فلوس فعلا.
- و عاوزاني معاكي ليه؟ ما انت عارفة كل حاجة، و مش ناقصك لا عقل ولا خبرة.. ما تتحرّكي لوحدك.
- أنا محتاجاك عشان حاجتين..

رفعت إليه عينيها دون أن ترفع رأسها.

- انت راجل بحق و حقيقي، ذكي و شجاع، و فعلا اقدر اعتمد عليك..
- هاعتبر ده الحاجة الأولى.. إيه الحاجة التانية؟

هزّت رأسها مستسلمة.

- بعد تجربة سوريا و انا حالفة إن عمري ما احطّ نفسي في موقف زي كده تاني.. من الآخر مش مستعدّة أعرّض روحي للخطر.
- من الآخر كده، مش مستعدّة تتعاملي مع ناس زي دول، و عاوزة تفضلي بره الصورة..
- بالظبط.. و قصاد كده هدّيك نسبة كويسة جدا من المبلغ اللي هنحصل عليه من العائلة الدونمة بعد ما نعرف همّا مين.. مستعدة أدّيك ٣٠٪ من المبلغ.

ضحك حازم

- ٣٠٪؟
- مش هنختلف.. خليهم ٤٠، لأ، أنا باقولّك أهه من دلوقت، هاخلّيهم ٥٠٪.. انت بالفعل اللي هتخاطر أكتر واحد و..

أكمل حازم ضحكه الهازئ.. أكملت هويدا بلهجة عملية.

- انت مستقلّ بالـ ٥٠٪؟ انت عارف احنا ممكن نطلع منهم بقدّ إيه؟ مبلغ محترم جدا.. آخر مرة أورهان قدر يطلع من عيلة في الأردن بـ ٥٠٠ ألف دولار. المرة دي لو العائلة ليها حيثيّة، ممكن نطلع بمبلغ أكتر من كده.

دفع حازم كرسيه للوراء، إيذانا بقيامه.. نظرت إليه هويدا في عدم فهم و استنكار.

- انت رايح فين؟
- ماشي..
- ماشي فين؟ استنّي بس، قول انت عاوز إيه؟ ما تقولش انك هتستغني عنّي بالسهولة دي؟
- عالأقل، ابقي ردّيت ليكي القلم اللي ضربتيهولي.. لكن للأسف، حتى كوني أسيبك دلوقتي ما يعتبرش استغناء عنّك.. أنا في الأصل مش ملزم ليكي بأي حاجة.
- أمّال قعدت تسمعني كل الوقت ده ليه؟
- كنت عاوز اعرف الدافع اللي يخلّي واحدة تبيع نفسها و تخدع إنسان و تخليه يحبّها. صحيح قصتك مثيرة و ممتعة، بس صدّقيني، التمن ما يتساهلش.. مش على آخر الزمن هابقي مجرم و شريك في جريمة ابتزاز.

قامت متعلقة بيده، و عيناها مغرورقتان بالدموع.

- حازم.. أنا عارفة إنك لسه بتحبني. أرجوك ما تسيبنيش.. أنا حامل و لوحدي من غير سند قصاد الدنيا كلها.. أنا محتاجاك.. ثم أنا كمان، بجد معجبة بيك و باحبك.. أنا متأكدة إنك هتسامحني و مين عارف يمكن في يوم أنا و أنت..

احتشد الغضب في صدر حازم و صعد إلى دماغه في فورة من الدماء الحارة. حدجها بنظرات ملؤها الكره و الاحتقار، ثم صفعها على وجهها في قوة. ألقى بورقة مائة جنيه على الطاولة في ازدراء ثم غادر الكافيه وسط ذهول الزبائن و الجرسونات.

انطلق إلى الشارع يلهث و قد غامت الرؤية عن عينيه. متعثّرا في خطواته، وصل أخيرا إلى سيارته، فتح الباب و ركب ثم انهار على كرسي القيادة و قد ضربت عقله موجات متلاحقة من الغضب و الإحباط.

لقد حذّرها.. بدلا من المرة ألفا.. لكنها لم تلبث أن عادت إلى ابتزازه العاطفي. هي تستحق الصفعة و فوقها ألف صفعة، على عهرها و كذبها المتواصل. لكنه يحتقر نفسه كما لم يحتقرها من قبل.. لم يكن يتصوّر أن يصل به الانحدار إلى صفع الفتاة، لا لشيء إلا لأنها ذكّرته بضعفه تجاهها!

كان يدير السيارة ليهرب من موقع هزيمته عندما رنّ هاتفه المحمول في إصرار.. تجاهله مرة و أخرى، لكن الهاتف لم يكفّ عن الرنين. نظر إلى شاشة الهاتف ليطالعه رقم غير مسجّل في سجل الهاتف.

- ألو..

رد عليه صوت أنثوي مألوف، لكنه ضعيف متهالك.

- ألو.. مكتب كنج توت؟

- مين معايا؟

- كنا اتكلمنا من كام يوم.. أنا سهام الرويني، خطيبة أورهان حقي.

٢٥

كان الوقت قد جاوز الخامسة مساءً، عندما ترك حازم شاهين مدخل طريق القاهرة-الإسكندرية الصحراوي وراءه و انطلق يسارا بسيارته المسرعة في محور ٢٦ يوليو حتى وصل أخيرا إلى مدينة الشيخ زايد. تجاوز مباني جامعة القاهرة الجديدة، دلف إلى أحد الشوارع الجانبية وصولا إلى مبنى كلية الهندسة الجديدة، و بعدها مباشرة كانت بغيته: مستشفى الشيخ زايد التخصصي.

ركن سيارته على مقربة من المستشفى، ثم نزل مترجّلا إليها. توقّف عند مكتب الاستقبال ليسأل عن غرفة سهام الرويني، ثم ركب المصعد ليصل أخيرا إلى تلك المرأة الغامضة التي أمضى نهار أمس كاملا في مطاردتها.

و فوق سرير طبي عريض، كانت كما رأي صورها على الفيس بوك، لكن في حال أسوأ: وجهها متعب مرهق و قد تناثرت فوقه الجروح و الكدمات، وباقي جسدها في حالة مزرية، فقد وضعت كلا ساقيها، و ذراعها الأيمن في جبائر طبية. بجانبها كانت رفيقة شقتها و التي استقبلت حازم بالأمس.

ما كاد ليجلس حتى صرفت سهام الرويني زميلتها إلى خارج الغرفة.

بدأ حازم، المتعاطف مع حال المصابة و لكن في ذات الوقت المرهق عصبيا و جسديا، في الحديث آملا في إنهاء المسألة التي استدعي لها بسرعة.

- ألف سلامة عليكي يا آنسة سهام.. إيه اللي حصل؟
- أنا و أورهان كنا مسافرين على طريق مصر-اسكندرية الصحراوي. فجأة ظهرت عربية نقل ضخمة و راحت خابطة فينا بمنتهي القوة و كأنها متعمّدة. حصلت لنا حادثة فظيعة.. أورهان، الله يرحمه، و انا زي ما انت شايف بقيت ميت حتة.
- ألف سلامة عليكي..

ساد الصمت لبرهة.

- إنتي عاوزاني في إيه يا آنسة سهام؟
- عاوزة آخد رأي حد أثق فيه في حاجة غريبة حصلت ساعة الحادثة.. انت كنت شغّال مع أورهان وحسب ما فهمت إنتم شركة أمن أو شيء من هذا القبيل.
- أولا القضية بتاعة المرحوم معانا خلاص انتهت. حتى المقدّم، الـ ٣٠٠ دولار رجعتهلكم. هتلاقيهم مع الآنسة صاحبتك، تقدري تندهي لها و تتأكدي.

أقامت نفسها على السرير بصعوبة.

- مصدّقاك.. بس انا بارجوك تسمعني دقيقة.. أنا حاسّة إن حياتي في خطر.

ثم أخبرته عن ذلك 'الموقف الغريب' الذي تعرّضت له حين كانت بين الصحو و الغيبوبة بعد الحادثة مباشرة، إذ أنها انتبهت إلى شخص ما يخرج أورهان من السيارة، و هو مصاب لكن حيّ، ثم يعيده مرة أخرى و هو جثة هامدة. و أن ذلك الشخص الذي نقل أورهان انتبه إلى صحوها، و أنه كاد أن يقتلها لولا اقتراب سيارة ما من موقع الحادث، فهرب، قائلا لزميل له أنه سيعود إليها لاحقا.

ثم قالت أنها عندما أخبرت وكيل النيابة الذي حضر للمستشفى ليحقّق معها بمخاوفها، استخفّ بكلامها و اعتبره من هلاوس الحادث، لكنها تشعر أن ما حدث لها حقيقة واقعة.

استمع حازم إليها و قد دار رأسه من غرابة ما سمع. أخرج هاتفه المحمول، فتح ألبوم الصور و بحث حتى وصل إلى الصورة التي عرضتها هويدا عليه في أول زيارة لها للمكتب. وجّه حازم شاشة هاتفه ناحية المصابة المستلقية على السرير.

- تعرفي الشخص ده؟

هزّت رأسها أن لا. هتف و هو يعيد هاتفه إلى جيبه

- ده يبقي أورهان حقّي الحقيقي.
- نعم؟ أمّال انا كنت مخطوبة لمين؟
- لشخص نصّاب منتحل شخصيته..

نظرت إليه سهام و هي زائغة النظرات.

- أمّال اللي مات جنبي ده يطلع مين؟
- اللي كنت مخطوبة ليه و راكبة جنبه قبل الحادثة كان شخص مزيّف.. لكن، الجثة اللي اتبدلت كانت أورهان حقّي الحقيقي.
- و عرفت منين؟
- فيه شخص يعرف أورهان كويس جدا اتعرّف عليه في المشرحة بالفعل..

هتفت سهام في غضب

- انت عمّال تخرّف تقول إيه؟
- معاكي صورة للراجل اللي كنتي مخطوبة له؟

اكتسي وجهها بصدمة كبيرة. خفضت رأسها لوهلة و قد بدا عليها انعدام التوازن.

- ده كان موته و سمّه التصوير، و عمره ما رضي يتصوّر معايا. كان بيقول موضوع التصوير ده عاملّه عقدة من ساعة علاقته القديمة بواحدة دنماركية كان يعرفها من فترة..
- حتى ساعة الخطوبة ما اتصوّرتوش..
- أنا أصلا علاقتي بأهلي مش قد كده، فماكنتش حفلة خطوبة و لا حاجة.. أنا و هو اتعرّفنا من تلات أسابيع بس في حفلة بالقنصلية

التركية في اسكندرية، عشنا قصة حب مجنونة، و لسّه لبسين الدبل من خمس أيام.

- فيه حدّ غيرك، من زمايلك، صاحبتك في الشقة مثلا، شافوه قبل كده؟

هزّت سهام رأسها في ضعف و ضياع.

- دايما بنتقابل برّه.. لكن كنا متّفقين انه لما نرجع من السفر، أعرّفه على أصحابي و آخده أعرّفه على أهلي في الصعيد.
- من الآخر، ماحدّش غيرك انتي شاف النصّاب ده..
- نصاب؟
- أنا آسف اني اقولّك يا آنسة سهام إنك كنت ضحيّة لمجموعة من المجرمين.. وسيلة ليهم مش أكتر، عشان يثبتوا إن أورهان حقّي كان لسه عايش لغاية امبارح بالليل.. الغرض كان إنك تكوني شاهدة إثبات إن أورهان في الفترة من الخميس اللي فات لحد امبارح بالليل كان حيّ و حرّ طليق.. و طبعا كانوا عاوزينك توزّعي المعلومة دي و تأكّديها، زي لما ردّيتي عليّا لما اتّصلت و قولتي إنك مع أورهان و إنه خلاص أنهى تكليفه لمكتبنا.. ليه عملوا كده؟ عشان في الفترة دي كان مخطوف و مش بعيد يكون كان اتقتل كمان و كانوا عاوزين يشتروا وقت يدبّروا خلاله خطة يقدروا يتخلصوا فيها من جثة أورهان و منّك.
- و منّي أنا ليه؟
- لأنك الشاهد الوحيد اللي يعرف وشّ الشخص اللي انتحل شخصية أورهان في الفترة اللي فاتت..
- يعني أنا فعلا ما كنتش بأهلوس.. يعني همّا خرّجوا جسم الشخص المزيف، و حطوا مكانه جثة أورهان الحقيقي..
- أيوه..
- و معنى كده إن حياتي فعلا في خطر؟

- طبعا، العصابة دي ممكن تحاول تتخلّص منّك تاني.. نصيحتي، اتّصلي بأهلك و خلّي فيه ناس دايما حواليكي..
- بس انا معنديش حد اعتمد عليه، و عشان كده اتّصلت بيك.. عشان تحميني.. مش انتم مكتب أمن و حراسة؟
- لأ، أنا مش مكتب أمن و حراسة.
- أنا هادفع المبلغ اللي انت عاوزه..
- يا آنسة مش هينفع..
- محدّش معايا إلا زميلتي اللي انت لسه شايفها.. حتى علاقتنا ببعض مش متينة زي ما ممكن تتصوّر.. ما كنتش اعرف حد الفترة اللي فاتت اللي جيت فيها القاهرة إلا أورهان.. زميلتي دي هتمشي في أي وقت.. أرجوك، إفضل معايا.. أخويا و اختي فعلا اتحرّكوا من نجع حمادي.
- يوصلوا بالسلامة.
- بس انا هادخل العمليات دلوقتي ضروري عشان عندي كسر في رجلي لازم يتردّ. أنا خايفة يعملوا فيّا حاجة و انا في العملية، أو و انا لسه ما فوقتش من التخدير.. أنا مرعوبة.

كان حازم في موقف غريب، غير اعتيادي.. لكنه، و بعد موقفه المخجل مع هويدا منذ بضعة ساعات، لم يكن ليطيق من نفسه أي موقف جديد غير رجولي تجاه أي أنثي.

وافق.. بل إنه دخل معها غرفة العمليات، معلنا مهنته الأصلية و مستأذنا الطاقم الطبي، مدّعيا أنه أحد أقاربها، ثم انتظر معها حتى أفاقت. وصل أهلها من الصعيد بعد منتصف الليل بساعتين، و لم ينصرف حازم إلا بعد أن أكّد على سهام، بأشد الكلمات حزما، أن تعود مع أهلها و تحتمي بهم، و ألا تتكلم عن أورهان بعد الآن حفاظا على حياتها.

خرج من المستشفى إلى الشارع المظلم، الخالي تماما من المارّة، و جسده و عقله يصرخان من الإرهاق و التعب. كان يمشي إلى سيارته متحاملا على نفسه

عندما تناهت إلى مسامعه صوت خطوات متلصّصة تتبعه. التفت فإذا برجل يرتدي نظارات شمسية و قبعة تخفي ملامح وجهه بالكامل يمشي وراءه!

عند انتباه حازم له، تحرّك الرجل بعيدا حتى توقّف عند سيارة ميكروباص لها زجاج داكن؛ اتّكأ عليها يراقب حازم حتى وصل إلى سيارته. تحرّك حازم بها دون أن تتبعه السيارة الميكروباص، لكن هذا لم يطمئنه على الإطلاق.

لقد وطأ عش الدبابير بقدميه، و لم يعد مجال للتراجع بعد الآن.

لوفنبرانكه

٢٦

تفريغ تسجيل بكرة ممغنطة رقم ٢:

يوم الأربعاء ٢٩ يونيو ١٩٣٨، ١:١٠ – ٤ مساءً

"كنت قد حدّثتك بالأمس عن حالتي النفسية السيئة بعد الحرب التركية الروسية، عامي ١٨٧٧-١٨٧٨، و إحباطي و خذلاني في فكرة وطن واحد يجمع كل أطياف و أعراق السلطنة العثمانية، و يأسي التام من إمكانية إصلاح الصدع الهائل الذي خلّفته الحرب. أضف إلى ذلك انقلاب السلطان عبد الحميد الثاني على الموجة الإصلاحية و إقصاءه و تهميشه لروّادها من المصلحين، و بالتالي انعدم الأمل في أي إصلاح سياسي في السلطنة. كل هذا الفشل الداخلي تزامن مع علوّ نبرة الحسّ القومي في أوروبا، و التي صارت سبيلا تلجأ إليه الأقليات في كل مكان. إذ نجح البلغار و الصرب في الاستقلال، فلمَ لا ينجح الأرمن و المقدونيون و الألبانيون كذلك؟

’و ماذا عن الدونمة؟ هم حتما ليسوا أقل أهلية و استحقاقا..‘

كانت هذه هي النغمة السائدة في اللقاءات الاجتماعية و الدينية للجماعة؛ حميّة دينية و عشائرية سرعان ما تسرّبت إليّ أنا الآخر.. تدريجيا تخلّيت عن فكرة الأمة العثمانية و توقّفت عن التفكير في سبل تحقيق المواطنة الكاملة، و التعايش السلمي في وطن يسع الجميع، دون أدني تمييز أو تفرقة.

و صرت أفكر و أدعو و أصلي، كما أي أقلية أخرى في السلطنة، آملا في فرصة تسمح لنا بالاستقلال عن حكم الأتراك..

لكن و كما قلت لك بالأمس، ما يصلح للأعراق الكبيرة في السلطنة كالبلغار و الصرب، و حتى للأرمن، لا يصلح للدونمة، فأعدادنا قليلة، و لا حليف لنا على الإطلاق.

لذا عند توصّلي لتلك النقطة توقفت عن التفكير و أصابني الإحباط و الضيق، إذ وجدت نفسي غير قادر على فعل أي شيء يشبع الرغبة المتّقدة في صدري للانتماء و للإنجاز. و بلغ الضيق بي مبلغا جعلني أفكر في الخروج إلى خارج الحدود العثمانية؛ بالأساس، هروبا من الوضع الحالي و آملا في تغيير حالتي النفسية السيئة، لكن أيضا لتعريض عقلي لأفكار و آفاق جديدة. فكرت في السفر إلى دولة حرّة ذات مناخ متسامح يسمح بالعمل دون تضييق؛ كانت مصر أول دولة تخطر ببالي، نظرا لازدهار حالتها الثقافية و الحضارية تحت حكم الخديوي إسماعيل و لقرب المسافة بينها و بين السلطنة. لكن و بعد تأنّي في التفكير، وجدتني ميّالا أكثر لفكرة السفر لدولة غربية ذات توجّه و تفكير حداثي متحضّر، و بالطبع كانت الولايات المتحدة الأمريكية أول ما خطر على بالي، خصوصا مع اشتداد موجة الهجرة إليها من كل ركن في العالم، حتى من السلطنة العثمانية ذاتها. في ذلك الوقت كانت موجة الهجرة من الأراضي العثمانية إلى الولايات المتحدة لا تزال في بدايتها، و كان أقطابها الأوائل من مسيحيّي العرب من جبل لبنان و من سوريا و من الأرمن، لكن تدريجيا بدأ الأتراك المسلمون ينضمون إليهم، من المزارعين و العمّال، خصوصا مع تسارع وتيرة إعادة إعمار الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥) و بعد انتهاء آثار الأزمة المالية لعام ١٨٧٣.

و بالفعل حسمت أمري و ودّعت أهلي - برغم اعتراضاتهم الكبيرة - و اتّجهت إلى استانبول بحثا عن إحدى الرحلات البحرية و التي تقطع شهريا البحر المتوسط و المحيط الأطلسي، محمّلة بعشرات العمال الباحثين عن الرزق و الراغبين في المغامرة.

لكن لم يكتب لي أن أقوم بتلك الرحلة أبدا.

عند وصولي لدار السعادة، عاصمة السلطنة، لأول مرة في حياتي أصابتني حالة غريبة، هي خليط من الدهشة و الإعجاب، سرعان ما تحوّل إلى وله و انجذاب. ثمّة حركة و حياة و نشاط لم أره في حياتي من قبل، في مدينة ضخمة، كثيفة السكان، متشعبة الأحياء، باهرة العمارة. قضيت أيامي الأربعة الأولى أتمشى مشدوها ممتّعا حواسي بمناظر المدينة الخلابة و روحها الغنية.

لكن، كل تلك المشاعر الإيجابية الرائعة لم تكن السبب وراء تغيير قراري المحسوم سابقا في مغادرة البلاد..

ما غيّر حالي رأسا على عقب كان لقائي ذات صباح بالصدفة بصديق قديم، أونباشي من سريّتي في الجيش على الجبهة البلغارية. رحّب بي زميل السلاح و استضافني في بيته، تغدّينا مع أهله، و في المساء خرجنا ليطوّفني بأنحاء المدينة التي لم أزرها بعد. عبرنا خليج القرن الذهبي، إلى منطقة جلاطا التاريخية؛ أخذني إلى حيث مدرسته الثانوية، 'مدرسة جلاطا سراي السلطانية' الشهيرة، و برج جلاطا التاريخي، و بالطبع إلى بيت جده لأبيه في حيّ قاسم باشا، المنطقة ذات التقاليد البحرية العريقة و القريبة من المرفأ القديم للبحرية السلطانية. بعد التعب من المشي لمسافات طويلة، توقفنا لنستريح و نلتقط أنفاسنا عند الكورنيش القريب. و في مطعم شعبي، مطلّ على مضيق البسفور مباشرة، جلسنا نتناول عشاءً مبكرا، وجبة كباب تركي شهية.

كنا سنفترق، كل إلى حال سبيله، عندما تساءل صديقي الأونباشي إن كنت أريد أن أصحبه في نزهته الأخيرة لهذا اليوم، لقاء سياسي اجتماعي يجمع بعضا من أنبه العقول و أكثرها تحضّرا.. و بما أني كنت غير مرتبط بأية مواعيد و لا شيء ورائي، وافقت.

و بالقرب من برج جلاطا التاريخي، كانت عمارة سكنية حديثة تملكها عائلة كامندو، المصرفيين اليهود، مبنية على الطراز الأوروبي، تقع في شارع السردار أكرم. كانت وجهتنا شقة في الطابق الثاني، حيث اللقاء الأسبوعي للجمعية

الماسونية التي انضم الأونباشي إليها مؤخرا، جماعة أسّسها الشيخ توفيق حافظ أحد تلامذة الشيخ التنويري و المجدد الشهير، السيد جمال الدين الأفغاني، و الذي جاء إلى الأستانة قبل ثماني سنوات..

بدأت الجلسة بخدمة القهوة و بتوزيع قطع حلوي الحلقوم الشعبية، و سرعان ما دخل الشيخ توفيق حافظ، و أخذ في الحديث في حماس و تفاؤل محاولا التسرية عن الحضور و محاولا التخلص من جوّ الوجوم – السائد بشدة منذ انتهاء الحرب – معلنا للحضور في سرور آخر أخبار أستاذه المستقرّ وقتها في مصر، و عن قدرته على اجتذاب صفوة مثقفي و ضباط مصر إلى صفّه و نجاحه في تأليب الرأي العام ضد التدخل الأجنبي في مصر، لدرجة أجبرت الخديوي إسماعيل شخصيا على الوقوف في صف الإصلاحيين في مصر و ضد التدخل السافر لصندوق الدين – تحت السيطرة البريطانية الفرنسية – في الشئون المصرية..

(و بالفعل كان الشيخ جمال الدين الأفغاني ساعتها ينفخ في نار التغيير التي سرعان ما ستأكله هو و أتباعه من بعدها.. ستودي بالخديوي إسماعيل الذي صار في صفّهم، و سرعان ما ستؤدي بعد ذلك إلى طرد الشيخ نفسه من مصر. تدريجيا سيزداد الاحتقان في البلاد مؤدّيا إلى الثورة العرابية و ما تلاها من اضطرابات جلبت التدخل البريطاني الصريح في مصر.)

كان الشيخ توفيق حافظ يري في التطورات الإصلاحية في مصر علامة خير، و أنها سرعان ما ستنتقل كالعدوي إلى الأستانة و تحدث تغييرا مشابها، يتبعها نهضة في أسلوب الحكم في السلطنة.

ما أثر فيّ حقا و قلب حالي رأساً على عقب في تلك الجلسة كان التدخّل المباغت لرجل مهيب عجوز – فهمت أنه موظف قديم في وزارة الأشغال و رجل مطّلع واسع الثقافة – إذ فجأة و وسط ترديد الجميع لأحاديث تدور في نفس الفلك، تدخّل الرجل مقاطعا و مفنّدا لكل الادّعاءات الإيجابية، و محطّما لكل الأحلام المفرطة في التفاؤل.

الإمبراطورية العثمانية هي رجل أوروبا المريض.. هكذا أسماها الغرب منذ نهاية القرن الثامن عشر.. بل زاد الرجل و أكّد أن حالها تدهور بالفعل إلى درجة أصبحت فيها هي و الموت سواء، و أن نهاية السلطنة أكيدة لا محالة.. السؤال لم يعد بخصوص زوالها من عدمه أو عن وجود طرق لتفادي هذه النهاية المؤلمة. بالنسبة له، الزوال النهائي للدولة العثمانية أمر محتوم، لذا لا ينبغي إضاعة الجهود في التفكير و التنظير لشيء محسوم.. الأسئلة الحقيقية من المفترض أن تكون: متي و كيف ستنتهي، من سينهيها، و على من ستوزّع الغنائم..

في نظر الرجل كانت الأمور كلها واضحة: شرق الأناضول سيحصل عليه الأرمن بمساعدة الروس، إستانبول و المضايق سيحصل عليها الروس أو البريطانيون أو يتفقان على أن تصبح منطقة دولية، منطقة تراقيا سيحصل عليها اليونانيون أو البلغار بمباركة البريطانيين و الفرنسيين..

كان الرجل يقترح في صراحة و برجماتية مطلقة أن يبحث الأتراك المسلمون هم الآخرون عن راعي من القوي الأوروبية يضمن لهم ما تبقّي من الأناضول و الشام و العراق؛ هذا و إلا تفرّقت البقية الباقية من أراضيهم بين القوي الأوروبية أيضا، مما يعني تحوّل الأتراك من أغلبية حاكمة إلى أقلية مضطهدة مشرّدة.

كان الخيار واضحا من وجهة نظره: إما قوة عالمية حاضنة أو الهلاك..

كان كلام الرجل صادما مستهجنا من الجميع، لكنه أثار اهتمامي و إعجابي إلى حد بعيد.

خرجت من اللقاء الماسوني و لا يسيطر على عقلي إلا ذلك التساؤل العظيم: ماذا لو..

ماذا لو بحث الدونمة عن قوة أوروبية، يتحالفون معها استعدادا لتلك اللحظة الحاسمة التي تكلّم عنها الرجل، اللحظة التي ينهار فيها رجل أوروبا المريض و يتوزّع إرثه بين الأمم؟ ماذا لو تدخّلت دولة عظمي في

الوقت المناسب و أخذت نصيبها من التركة و جعلت من الدونمة، جزاء تعاونهم معها، الفئة الغالبة المسيطرة عليها؟

لكن ما هي القوة الإقليمية و الدولية التي تصلح أن تكون الحليف الأنسب للدونمة؟

بريطانيا و فرنسا و الولايات المتحدة قوي عظمي، لكن أنظمة حكمهم ديمقراطية، و بها صحافة قوية تستطيع التأثير على الرأي العام الداخلي، و ذلك مما له تأثير سيء على أي تحالف يتم مع هذه الدول. أولا هذه الأنظمة يسيطر عليها سياسيون ذوو طبيعة انتهازية لا أمان لهم، و بالتالي يخضعون للرأي العام أيا كان، أملا و رغبة في توطيد شعبيّتهم و بالتالي كسب صندوق الانتخابات، لذا ستكون بنود أي اتفاق بيننا و بين هذه الدول دائما تحت رحمة الرأي العام في تلك اللحظة من الزمان. لا يمكن نسيان تجربة استقلال اليونان (١٨٢١-١٨٣٢)، و اضطرار حكومة بريطانيا، تحت ضغط الرأي العام، التخلّي عن حليفها العثماني بل و محاربته آخر المطاف.

و حتى لو كان حظنا طيّبا و استطعنا التحالف مع رجال دولة من حزب سياسي يحترم كلمته و عهوده و يستطيع أن ينفّذها دون انحناء لأي تأثيرات داخلية أو خارجية، فإن ذلك لا يعدّ ضمانة للمستقبل، إذا هنالك دائما إمكانية عقد صفقة مع سياسيي حزب معين في فترة معينة، ثم يتغيّرون - عن طريق الانتخابات الديمقراطية - بحزب آخر، يأتي فينفض يديه عن أي صفقة عقدها من سبقوه في الحكم.

هناك بالطبع الإمبراطوريات الأوتوقراطية، روسيا و النمسا، لكنها دول ديكتاتورية قمعية، يستشري فيها الفساد و المحسوبية.. الأهواء الشخصية لحكّامها و وزرائها متقلّبة و غير مأمونة الجانب (مثلها مثل الرأي العام في الدول الديمقراطية، بل و ربما أسوأ).

لذا استقرّ رأيي، و دون كثير من التفكير، على ألمانيا، الدولة الحديثة الوجود، و القوة العظمي الصاعدة بسرعة لتحتل الصدارة في القارّة العجوز. صحيح

أن ألمانيا دولة ذات نظام أوتوقراطي، لكن قادتها في ذلك الوقت كانوا مجموعة من البيروقراطيين المنظّمين المتنوّرين، تحت قيادة المستشار المخضرم أوتو فون بسمارك. و ممّا زاد من إقبالي على ألمانيا أنها وقتها كانت في مرحلة الانتشار الاستعماري، تبحث عن موطئ قدم لها في أي بقعة من بقع العالم، مما يسهّل من استعدادها للتعاون مع أي فئة كانت، حتى و لو كانت ضئيلة ضعيفة. (إضافة بالطبع إلى اعجابي الشخصي بشخصية بسمارك الكاريزمية و نجاحاته المذهلة في الارتقاء بالدولة الألمانية الحديثة التي استطاعت في زمن قياسي أن تحتلّ مكان فرنسا كالدولة المحورية في القارة الأوروبية.)

و طوال الثلاثة أيام التالية تملّكتني الفكرة بدرجة كبيرة، لدرجة أنستني السبب الأساسي وراء حضوري إلى العاصمة.. يكفي دليلا على هوسي بالفكرة أني في نهاية الأيام الثلاثة، و بعد اقتناعي بالفكرة تماما، رحت أبحث في استانبول عن مقر السفارة الألمانية.. لكن في اللحظة الأخيرة عدلت عن فكرة دخولها، خوفا من المقابلة الرسمية المباشرة و من تسلّط عيون الشرطة العثمانية على زوّار السفارة. بدلا من ذلك، رُحت اتقصّى في اجتهاد، بحثا عن نوادي المدينة و مقاهيها التي يرتادها دبلوماسيو السفارة الألمانية..

و بعد بحث لا يزيد عن خمسة أيام استطعت التوصّل إلى مكان يرتاده الهرر هلموت ديتمر، نائب السفير الألماني في أوقات فراغه: هو مقهي خلوصي بالقرب من سوق قاضيكوي، مقهي شرقي يرتاده المتصوّفون من أبناء الطريقة النقشبندية (و التي علمت لاحقا أن الهرر ديتمر يهتمّ بأمرها منذ فترة طويلة لدرجة تتبّعها و حضور حلقات الذكر مع أتباعها. علمت أيضا أنه أصدر كتابا موسوعيا عن هذه الطريقة الصوفية، حصل به على درجة الدكتوراه من جامعة فرايبورج).

و في اليوم المقرّر، قمت بالذهاب في وقت مبكّر من المساء إلى مقهي خلوصي و جلست منتظرا أرقب الشارع و أشرب القهوة، الفنجان تلو الآخر.. بعد التاسعة حضر الدبلوماسي الألماني بصحبة بعض من دراويش الطريقة الصوفية. أمضوا قرابة الساعة و النصف، يتناولون الشاي و القهوة، و

يتبادلون المواعظ و الأشعار الصوفية المتفلسفة، و الهرر ديتمر يجلس مستمعا إلى كبيرهم في خشوع، يهزّ رأسه في تواضع و أدب و لا يكاد يرفع عينيه أبدا، كما التلميذ بين يديّ شيخه.

و أخيرا انفضّ السامر، و قام الجميع، و لحسن الحظ، بقي الهرر ديتمر ليطلب النرجيلة الذي لم يكن ليجرؤ على طلبها في حضرة شيخ الطريقة..

و متشجّعا بانفراد الدبلوماسي الألماني بدخّانه في ركن المقهى، اقتربت، و بعد الاستئذان جلست و أخذت في التحدّث هامسا. دون كثير من مواربة، عرّفت نفسي و عائلتي و فرقتي الدينية السريّة، ثم عرضت أن أقدّم خدماتي إلى الرايخ الألماني.

لم يرفع عينيه إليّ ، لكن استهزاءً و احتقارا هذه المرة.

- هل جئت لتمزح معي يا سيد رستم؟
- على الإطلاق يا هرر.. يمكنك التأكّد من كل المعلومات التي قلتها لك.. يمكن أن تذهب بنفسك، أو أن آخذك معي إلى سالونيك و هناك يمكنني أن أعرّفك بعائلتي و أن أريك بعضا من طقوسنا الخاصة..
- كم عمرك؟
- تسعة عشر عاما..
- هل حصلت على أي شهادة؟
- البكالوريا..
- هل يعلم أحد من أهلك بهذه المقابلة؟
- لا..
- و هل أخبرت أحدا غيري بقصتك هذه؟
- بالطبع لا، أقول لك أن هذا سر العائلة.. لك أن تتخيل ما يمكن أن يجلبه فضح سر عظيم كهذا.. معناه ببساطة قتل و حبس أفراد أسرتي و التنكيل بكل أبناء الطائفة، أقل شيء سيكون التهجير الكامل من سالونيك..

- و إذا كنت تعرف حقا خطورة ما تقول، لماذا تفضي به إليّ يا أحمق؟
- كي أكسب ثقتك و كي أثبت لك استماتتي في خدمة الرايخ الألماني..

نفخ دخان نرجيلته و الغضب و الغيظ على كل قسمة من قسمات وجهه، ثم هتف بي

- انصرف الآن و لا تعود إليَّ قبل عام، تكون ساعتها موظفا في الباب العالي، في وزارة الداخلية أو الخارجية.. و أحضر معك مستندا ذا قيمة.. ساعتها فقط قد تكون جديرا باهتمامي و اهتمام الرايخ.. شيء آخر، إذا كنت تريد أن يكتب لك نجاح في هذه المهنة، أو بالأحرى إن أردت أن تبقي على قيد الحياة، فألجم لسانك هذا و ضع أسرارك في قلبك و لا تخرجها لمن لا تعرف.. و الآن هيا انصرف من أمامي يا أحمق قبل أن تُضيّع تأثير قطعة الأفيون من دماغي..

و انصرفت و كلّي عزم و تصميم على تنفيذ كل كلمة قالها الهرر ديتمر.. أرسلت إلى أبي أبثّ إليه بشري تغيير رأيي و أني قرّرت أن أبقي في السلطنة، بشرط توسّطه لي للتوظّف في الباب العالي.. و مباشرة نشط أبي في الاتصال بأصدقائه القدامى من أذناب جمعية الشبان العثمانيين الذين لم يتم كشفهم أبدا. و بالفعل، و بفضل إجادتي للغة الفرنسية، استطاع أحد أفراد الجمعية تعييني في مكتب الترجمة بوزارة الخارجية.

و عدت إلى مقهي خلوصي مرة أخرى.. ليس بعد سنة، و لكن بعد سبعة أشهر فقط و في يدي نسخة خطيّة من وثيقة رسمية تحمل المواصفات القياسية المطلوبة من إحدى الشركات الفرنسية بخصوص زيادة غاطس ميناء سينوب، أحد أكبر الموانئ التابعة للأسطول العثماني على البحر الأسود. هذه المرة نظر الهرر ديتمر في عينيّ مباشرة، و نحّي الدخان جانبا و هو يفحص نسخة الوثيقة في اهتمام.. و الأهم أنه لم يدعني بالأحمق هذه المرة.

أخبرني الهرر ديتمر أني سأصبح تحت رعايته الشخصية، و أن أمر عملي معه يجب ألا يتسرّب إلى أي شخص كان، لا إلى أهلي و فرقتي، و لا حتى إلى أي شخص يعمل في السفارة الألمانية، و لا حتى السفير شخصيا.. لو لم أستطع أن أتوصّل إليه شخصيا، كان عليّ أن أحبس معلوماتي و أنتظر، مهما كانت المعلومات مهمة، و مهما طالت غيبته.

لاحقا عرفت السبب، و أنت الآن تعرفه بلا شك: فالهرر ديتمر كان قد كُلّف للتو بتكوين الشبكة الشخصية للأمير بسمارك في الشرق الأدنى، و أنا كنت الجاسوس الأول في هذه الشبكة..

و لم أستمر طويلا مع الهرر ديتمر، إذ سرعان ما تدهورت صحته بعد إصابته بالسلّ و اضطرّ إلى العودة إلى ألمانيا طريح الفراش ليموت بعد أقل من عامين..

و سريعا التقيت الكولونيل مالكوم إدلر، أحد أبطال حرب ١٨٧٠، ثم العميل السري في المخابرات العسكرية الألمانية، و صاحب أكثر من عملية استخباراتية ناجحة في روسيا و فرنسا في الفترة من ١٨٧١ إلى ١٨٧٥، و الذي تقاعد من الخدمة مبكرا ليصير الحارس الشخصي للمستشار بسمارك، و رجل مهمّاته الخاصة في كثير من الأوقات، و لاحقا همزة الوصل بين المستشار و بين شبكات التجسّس المختلفة.

الكولونيل إدلر هذا هو من علّمني قواعد المهنة.. مهنة التجسّس أقصد: من طرق تتبّع، إلى أساليب تحضير مختلف الأحبار السرية، وصولا إلى طرق كتابة الشفرات و كيفية فكّها.

و في الفترة المبكّرة من توظيفي في مكتب الترجمة استطعت، تحت إشراف الكولونيل إدلر بالطبع، تسريب عدد من الوثائق، بالإضافة إلى القيام بالعديد من العمليات الناجحة و التي أثلجت صدر الأمير بسمارك، لكن أيّا منها لا يقترب على الإطلاق من تلك العملية الكبرى و التي استطعت من خلالها تسريب عدد من الوثائق و الأخبار عن المفاوضات المتعثّرة بين

الحكومة العثمانية و شركات بريطانية و فرنسية بخصوص مدّ السكك الحديدية في الأناضول.. تلك الوثائق التي مكّنت الحكومة الألمانية من الدفع بالبنك الألماني لتقديم عرض أفضل و سيولة مادية مغرية للحكومة العثمانية، و من ثمّ فاز البنك بامتياز مدّ خطوط السكك الحديدية الجديدة إلى مدينة أنقرة.

كان نجاحا لوجستيا و استراتيجيا كبيرا للنفوذ الألماني في السلطنة العثمانية و منطقة الشرق الأدنى، و هي الخطوة التي سيتم العمل عليها و استثمارها في سنين لاحقة بالحصول أيضا على امتياز مدّ خطوط السكك الحديدية إلى بغداد، في خطوة عظيمة من القيصرية الألمانية لتصل إلى حقول البترول المكتشفة حديثا في العراق و ليكون لها موطئ قدم على الخليج الفارسي..

و من وجهة نظر المستشار بسمارك كان هذا إنجازا عظيما يستحق التكريم.. لذا، و برفقة الكولونيل إدلر، تم استقدامي في سرّية تامة إلى ضيعة الفريدريشرو، و هناك شرفت بمقابلة الأمير بسمارك شخصيا، حيث سلّمني هدية شخصية عبارة عن وشاح و خاتم ياقوت أزرق ثمين من مجوهرات عائلة بسمارك (بالطبع لم يستطع أن يمنحني وساما أو قلادة رسمية لأن تكليفي كان سرّيا حتى بالنسبة للحكومة و الجيش الألماني).

و على العشاء و في وجود الكولونيل إدلر، أبدى المستشار الألماني تقبّله المبدئي لإمكانية تنفيذ الطلب الذي طلبته من الهرر ديتمر ساعة المقابلة الأولى: خدماتي الكاملة للدولة الألمانية، و في المقابل، عند تقسيم السلطنة العثمانية، ستحرص الدولة الألمانية أن تكون سالونيك تحت الحماية الألمانية أو جزء من أراضيها، و أن تكون ولايتها إرثا شرعيا لعائلة رستم..

لكن المستشار العصبي المُتطلّب كان صريحا و أخبرني أنه لم يكن ليعطينا عطيّة كبيرة كسالونيك دون دفع الثمن المناسب.. و لدفع الثمن المناسب، يجب أن أكون أنا في المكان المناسب و أن أقدّم للعرش الألماني من الخدمات ما يستحق مثل هذه العطيّة..

و بمساعدة الكولونيل إدلر، قام المستشار بسمارك برسم خطة كاملة لمستقبلي المهني في الباب العالي و الخدمات المتوقّع منّي تقديمها في الآجال القصيرة المدي و البعيدة منها. و لأن جهودي أنا وحدي لم تكن لتفي أبدا بمتطلبات المستشار، تم توجيهي لإنشاء شبكة اتصال كبري تشمل عملاء من داخل الحظوة السلطانية، و مكتب الصدر الأعظم، و بالطبع، من داخل المؤسسة العسكرية العثمانية. كل هذا مع وعد بتحمّل كافة التكاليف النقدية و اللوجستية الضرورية سواء لتجنيد الأشخاص أو لتنفيذ أي عملية كانت، مع إمكانية تقديم الضغط السياسي اللازم إذا ما اقتضي الأمر (لكن في أضيق الحدود طبعا).

و بالفعل، و خلال الأربع سنوات التالية، كان جلّ اهتمامي هو إنشاء هذه الشبكة المطلوبة. في البداية كان اختياري للعملاء المناسبين يتم عن طريق انخراطي وسط التجمّعات الثقافية و السياسية المختلفة في المقاهي و النوادي. كانت مهمة صعبة محفوفة بالمخاطر، لكن بعد صعودي في السلم الوظيفي و خصوصا بعد زواجي، استطعت أن أتسلّل بسهولة أكبر إلى التجمّعات الأسرية و الاجتماعية للموظفين الكبار و المسئولين الحكوميين، دون أن أثير ريبة أحد. كنت أبحث أولا بين المظلومين، الغاضبين، و المطحونين، خصوصا من أبناء الأقليات العرقية و الطائفية، بالإضافة طبعا إلى أصحاب الديون و أصحاب العادات المكلّفة من إدمان الخمور و الأفيون و مصاحبة النساء..

كانت الأمور تتمّ أول الأمر تحت إشراف الكولونيل إدلر شخصيا، لكن بمرور الوقت و اشتداد عودي أوكل كل أمور الشبكة إليَّ، لتصبح تحت سيطرتي الكاملة. و بعد عامين من التدريب و التوجيه اختفي الكولونيل من حياتي للأبد، غالبا لينشئ شبكات تجسّسية في أماكن أخرى من أوروبا.

و بالتالي صرت أرسل تقاريري مباشرة إلى ضيعة الفريدريشرو عبر رسول خاص..

بحلول عام ١٨٨٣، كنت رجل المستشار الأول في السلطنة العثمانية بلا منازع، بل و في الشرق الأدنى كله.. و ليس من دليل أشد على ذلك من تكلفة المستشار لي شخصيا، في مطلع عام ١٨٨٤، بالسفر إلى مصر للقيام بمهمّة من الطراز الأول."

حازم و طارق

حازم و طارق

٢٧

الثلاثاء ٢٢ يونيو ٢٠١٠

و مضي أسبوع دون أن يغادر حازم شاهين بيته: من غرفته إلى بيت النباتات، و منه إلى غرفته مرة أخرى. كان قد اتصل بأحد زملائه في قسم التخدير و طلب منه تغطيته في العمل، ثم أغلق هاتفه المحمول تماما.

كان قد نسي، و بسرعة، عملية تتبّعه عند مستشفى الشيخ زايد؛ كيف لا و هو طوال الأسبوع يعاني مما هو أفدح و أثقل وطأة على روحه.. حالة من الإحباط الناتج عن خيبته في حب هويدا و من اهتزاز ثقته بنفسه و برجاحة عقله.

كان يحاول النسيان و التعافي من تلك الانتكاسة، لكن دون جدوي. بالعكس، ازدادت حالته النفسية سوءا بعد تدهور علاقته بأخته ريم و تفاديها المستمر له. تستيقظ في الصباح الباكر، و تنصرف على عجل قبل استيقاظه، تمضي اليوم كاملا في الجامعة الأمريكية ثم في التسكّع مع أصدقائها؛ تعود إلى البيت في المساء، في حدود الساعة التاسعة، لكنها تتّجه مباشرة إلى غرفة نومها و في لحظات تغلق أضواء غرفتها و تغطّ في النوم العميق.

بعد أسبوع كامل من الحنق و الاكتئاب، قرّر حازم أن يكسر الدائرة المغلقة التي يعيش فيها. فليبدأ مع أخته.. مجرّد مصالحتها و عودة علاقتهما إلى طبيعتها سيحسّن من معنوياته كثيرا.. دون تبرير أو عتاب، سيتكلم و يمزح معها كما المعتاد، سيضحكان سويا و دون شك ستعود الأمور إلى سابق عهدها. لكن كان عليه أولا أن يتمكّن من مقابلتها وجها لوجه. و طبعا، أفضل موعد لضبطها هو في الصباح، قبل انصرافها إلى الكلية مباشرة.

و هكذا، مرغما نفسه، استيقظ حازم اليوم مبكرا و نزل إلى مائدة الإفطار. و بالفعل، كانت ريم هناك، جالسة على يسار الوالد، سيادة اللواء أحمد شاهين. كان هناك أيضا شاب جديد في الزيّ الشرطي.

نعم، إنه لابد بديل أشرف محجوب.. شرطي آخر لزج.

نزل حازم السلم في هدوء و اتجه إلى المائدة وسط دهشة الجالسين.

- صباح الخير يا سيادة اللوا..

رفع أبوه عينيه في تحيّة مقتضبة، بينما دار هو حول المائدة و قبّل رأس أخته.

- صباح الخير يا ريومة يا حبيبتي..

ابتسمت ابتسامة مبتسرة مخلوطة بتهكّم، سحب هو كرسيا و جلس، ثم أشار لمارجيك، مدبرة المنزل، لتحضر له إفطارا.

و عبر الطاولة حملق فيه مساعد أبيه الجديد.. شاب في أوائل الثلاثينات من العمر، ممشوق القوام، مقبول الهيئة و المنظر، و على كل كتف من كتفيه نسر لامع متألق. على وجهه نظرة واثقة، لكن ملامح وجهه مسترخية و ودودة للغاية. قام ضابط الشرطة مادّا يده إلى حازم في ودّ.

- أنا رائد عصام الدمياطي يا دكتور.

رفع حازم عينيه إليه في برود. حدجه اللواء أحمد شاهين بنظرة نارية، فمدّ يده يسلّم على الضابط الجديد، لكن بأطراف أصابعه.

- أهلا..

التقط الرائد عصام يد حازم في حيوية و صافحه في قوة، ثم جلس.

- إزيك يا دكتور حازم.. حظّي ما أسعدنيش اليومين اللي فاتوا إني اشوفك.. واضح إنك سهرانجي و بتاخد راحتك في النوم شوية..

إنه لزج بالفعل. لوى حازم فمه في ابتسامة تحكمية.

- و عرفت منين اني دكتور حازم؟ انت شفتني قبل كده؟
- واحد نازل من الدور الفوقاني و لابس بيجاما، هيبقي مين يعني غير ابن سيادة اللوا؟
- يمكن ضيف..
- مين؟ أحمد الضيف..

ضحكت ريم على خفّة دم الضابط، و كتم الأب ابتسامته بصعوبة، في حين اتسعت عينا حازم استياءً.

أنهى اللواء فطوره و سرعان ما قام، يتبعه الرائد عصام، الذي لم ينسى مصافحة ريم في أدب ثم الالتفات إلى حازم و مصافحته مرة أخرى في تهريج.

- مع السلامة يا سيادة الضيف..
- حد قالك انك ظريف قبل كده؟
- الحقيقة كلهم يا دكتور.
- ضحكوا عليك..
- أتاريهم رفضوني في موجة كوميدي.. معلش، نقضّيها شرطة و شحططة بقي.

كان ظريفا، مهرّجا متواضعا، و مزاحه لا يحمل أدني ضغينة أو استعلاء.

غريبة..

لم يشغل باله بمساعد أبيه الجديد و التفت بسرعة إلى أخته التي كانت تمسح فمها و تقوم من كرسيها.

- استني يا ريم.. هاطلع بسرعة ألبس و اوصّلك..
- لا، مش مهم..
- هتروحي الكلية ازاي؟

- ممكن حمدي السوّاق يوصلني بالمرسيدس.. و ممكن انا اللي أسوق بنفسي.
- إيه؟ هو انتي رجعت تسوقي تاني؟
- أيوه.. ما هو الواحد لازم يعتمد على نفسه.
- بس بعد الحادثة، إنتي عارفة ان يعني.. لازم سنة كاملة على الأقل من غير تشنّجات.

و دون مقدّمات، صرخت فيه.

- أنا مش قاصر و لا عاجزة عشان تفضل وصي عليّا، تقولّي إعمل ايه و ما اعملش إيه.. أحبّ مين و ما احبّش مين.. إيه يا أخي.. هتفضل كده وصي عليّا صحيا و حياتيا و عاطفيا لحد إمتي؟
- أنا باحبك يا ريم.. إنتي أختي و خايف عليكي.
- مالكش دعوة بيّا.. بطل تحسّسني اني ناقصة، إني غير مؤهلة للحياة.. إني معاقة ما تقدرش تعمل حاجة من غيرك.

و انصرفت دون انتظار ردّه، تاركة إياه و قد ازدادت وطأة الإحباط على روحه.

صعد إلى غرفته، و أغلق بابه عليه ليومين آخرين.

و لم يكن ليخرجه من غرفته إلا حادث قوي مزلزل.. مثل عودة إيلين فجأة.

****

الخميس ٢٤ يونيو ٢٠١٠

عندما دقّت مدبرة المنزل باب الغرفة، لم يردّ عليها إلا بعد طرقتها الخامسة.

- إمشي يا مارجيك.. مش عاوز إزعاج.
- مدام إيلين جت يا دكتور..

قفز من سريره، و في خطوتين كان عند الباب، فتحه و تطلّع إلى المرأة الإندونيسية في صدمة.

- إنتي بتقولي إيلين رجعت؟
- أيوه.. جت دكتور.. هي في أوديتها، أوزة تشوفاك.

خرج حازم من غرفته إلى الممر الطويل. استوقفته مدبرة المنزل هامسة.

- بس شكلها موش تمام.. هي أيانة..

ثم خفضت صوتها أكتر

- أو سكرانة..

غاضبا، هرول حازم إلى غرفة إيلين. طرق الباب في قوة.

- إدخل..

دخل حازم ليجد إيلين ممدّدة على شيزلونج بطرف الحجرة الواسعة. كانت مستلقية و عيناها مسترخيتان و سيجارة مارلبورو حمراء في فمها. بصوت متثاقل متقطّع، حيّته

- إزيك يا حازم؟
- ممكن نتكلم برّه شوية.. الأوضة هنا كاتمة..
- ما تخافش..

و أشارت إلى زهرية مهشّمة على الأرض، ثم أشارت إلى مطفأة السجائر.. نظر حازم مذهولا ليجد سمّاعة إلكترونية محترقة. عاد بنظره إليها و عيناه تنطقان بالشر.

- إيه اللي رجّعك بدري يا إيلين؟

سحبت نفسا عميقا من سيجارتها ثم نفثته على مرات متقطعة. اقترب منها حازم.

- ردّي عليّا يا إيلين؟ إحنا مش كان بينّا اتفاق؟ ثم إيه المنظر اللي انتي رجعة بيه ده؟ إنتي خدتي هيروين تاني؟

نظرت إليه مازحة في ابتسامة لا تخلو من توتر.

- N’est il pas evident?
- مش ناقصة تهريج.

اختفت الابتسامة من على وجهها، و ركّزت نظرها على السيجارة في يدها المهتزة.

- من أول ما نزلت من الطيّارة و شمّيت هواء القاهرة الملوّث، و انا فجأة هاموت و آخد جرعة هيروين تانية.. أخدت التاكسي من المطار على الديلر.. يعني، quelques grammes et une bouteille de bourbon

هزّ حازم رأسه غير مصدّق لما يسمع.

- ليه عملتي كده؟ إيه اللي رجّعك بدري، دانتي ما قعديش غير أسبوعين اتنين بس؟
- باباك قعد يتّصل و يسأل عليّا من ورا ضهري.. و عرف طبعا إني ما كنتش عند أخويا في زيورخ.. اتصل بيّا من يومين و هو عمّال يجعّر.. إنتي فين و انتي بتلعبي من ورا ضهري.. و كلام قبيح بتاع ناس voyous..
- و ردّيتي قولتي له إيه؟
- اضطريت أقول الحقيقة طبعا.. قولت له إني باتعالج في مصحّة.. بس طبعا ما قولتلوش من الهيروين.. قولت له من المهدئات و المنومات اللي باخدها للأرق..
- كويّس قوي..

- Non, pas bon، لأنه ما صدّقنيش.. قولت له اسأل في المصحة، مارضيش.. قالي أنزل اتعالج في مصر و أدخل أي مصحة بس ابقي تحت عينه.. و حلف عليّا لو ما رجعتش خلال أسبوع ابقي طالق.

ثم نفثت دخان سيجارتها و ضحكت ضحكة عابثة.

- المرة الوحيدة اللي ماكنتش باخونه فيها هي المرة اللي شك فيها.. quelle ironie..

كان الحنق و الإحباط قد بلغا بحازم مبلغا، لكن الحيلة أعيته فلم يجد ما يقول، لذا دار خارجا من الغرفة.

- إستنّي يا حازم، ou va tu؟ انت هاتسبني كده.. انت لازم تساعدني.. أنا هارجع للهيروين أكتر من الأول.. من ساعة ما جيت أخدت ٢ جرام و شربت نص إزازة بربون.. دي حاجة عمري ما عملتها قبل كده.

ثم خفضت رأسها في نوبة يأس.

- هقابل شاهين ازّاي دلوقتي؟ لو شافني بوضعي الحالي أكيد هتحصل كارثة و فضيحة..
- اقفلي الأوضة عليكي و نامي، و ما تفتحيش غير الصبح، لغاية ما الزفت ده يخرج من جسمك.. و انا هاكلّم مارجيك اقولّها انك تعبانة من السفر و مش عايزة حدّ يصحّيكي، و برضه انبّه عليها و اقولّها ما تفتحش بقّها و تقول حاجة كده و لا كده قدام سيادة اللوا..
- شكرا يا حازم.

خرج و أغلق الباب وراءه، و هو يكاد ينفجر من الغيظ.

ماكنتش ناقصاكي يا إيلين..

كان ينزل السلم إلى البهو، قاصدا بيت النباتات، عندما فوجئ بأبيه داخلا، متأنقا متألقا و السعادة بادية عليه. يبدو أنه قادم رأسا من الكوافير الرجالي: وجهه متورّد إثر حمام بخار، شعره مقصوص و وجه حليق تفوح منه رائحة كولونيا بعد الحلاقة.

لاشك لديه الآن في السبب الحقيقي وراء استدعاء اللواء العجوز لزوجته الشابة.. إنه الشوق و الوله الحاد.

اقتحم اللواء البهو في حيوية، يتبعه عصام الدمياطي، الرائد الظريف، يحمل بعض الملفات. كان اللواء يناقش الرائد في بعض أمور العمل عندما لمح حازم. سأله في أريحية

- إيلين رجعت مش كده؟
- عرفت ازاي؟
- مارجيك اتصلت بيّا و قالت لي.. هي فين صحيح؟
- مين؟ مارجيك؟
- مارجيك إيه! أنا باسأل على إيلين؟ هي فين؟
- جت تعبانة من السفر؛ دخلت أوضتها، قفلتها عليها و نامت.

كان حازم يتكلم بحدّة لا ضرورة لها ظاهريا، لكن باطنيا، كان ينفث بعضا من غضبه و كرهه لأبيه. في نظره هو السبب في كل أزمات البيت عموما، و في أزماته هو شخصيا.

بدا الامتعاض على اللواء اللامع.

- غريبة! يعني جت من السفر و نامت من غير ما تستنّاني و لا حتى تكلمني؟

علّق حازم هازئا

- خسارة الحلقة الجديدة و حمام البخار.

فار الدم في وجه لواء الشرطة، الأب سابقا..

- احترم نفسك يا مهزّأ..

اتسعت ابتسامة حازم في تحدّي.

- ما هو البيت كله يعني مش تحت أمرك زي ما انت فاكر يا سيادة اللواء.. الناس مش هتصحى و تنام بالأمر.. انت مش في المديرية هنا.

تنحنح رائد عصام في حرج لينبههما لوجوده.

- طب انا أستأذن سيادتك..
- لسه ما اتكلمناش عن خلية السودانيين في عين شمس.. استنّاني في الجنينة لما أخلص من الحيوان ده.

حنى عصام رأسه متفهّما ثم انصرف محرجا إلى الخارج. دار أحمد شاهين إلى حازم و قد علا صوته درجة و اتسعت عيناه بدرجة مخيفة.

- انت هترجع لجنانك القديم و لا إيه؟
- تقصد حالتي لما قتلت صاحبي من عشرين سنة، و لا لما اتحدّيتك و أخدت تخدير مش جراحة قلب..
- طول عمرك ابن عاق و حيوان.
- بس عمري ما أذيت حدّ.. مش زيّك، عمّال تأذي الكل، جوا و بره..

طوّح اللواء يده في قوة نحو وجه حازم، لكن الأخير تراجع و أمسك ذراع أبيه في قوة. تلاقت عيناهما في غلّ.

- انت فعلا اتجننت؟
- أنا برضه اللي اتجننت، و لا اللي بيوقّع بين الأخ و اخته يا باشا هو اللي عقله خفّ؟

نزع أحمد شاهين ذراعه من يد ابنه، و دفعه بعيدا في قوة.

- انت بتهلفط بتقول إيه؟
- انت ليه قلت لريم إن انا السبب ان أشرف محجوب سابها؟
- أنا أقول اللي انا عاوزه.. مش انت اللي هتيجي تقولّي أقول ايه و ما اقولش إيه..
- أنا عارف انت قولت لها كده ليه يا سيادة اللوا.. انت بتكرهني و عاوزها تكرهني زيّك.. انت قولت لها كده عشان بتغير من حبها و احترامها ليّا أكتر منّك.

أمسك اللواء أحد كراسي السفرة، و طوّح بها ناحية حازم في غضب شديد. التقط حازم الكرسي بصعوبة و ألقاه جانبا ليتهشّم في قوة، محدثا جلبة عظيمة.

و على رأس السلم وقفت مدبرة المنزل مرتبكة، و من خلفها كانت إيلين تتسنّد.

- أحمد.. quel est ce bruit؟ ده بدل ما تيجي تقولّي حمد لله على السلامة.

تطلّع اللواء إلى زوجته و صدره يعلو و ينخفض من جرّاء الغضب و المجهود العضلي المباغت.

- إيه ده؟ إنتي صاحية؟
- معلش، رجعت من المطار عندي دوخة فظيعة.. أخدت دوا الدوار اللي بينيّم، فخلاني همدانة و مش على بعضي.
- ألف سلامة..
- اطلع تعالي، مش هتصدّق جبت لك إيه معايا.. كرافت و une bouteille de parfum speciale. نوع أنا متأكدة إنك هتحبّه يا حبيبي.

تبدّلت هيئته لتحل أخرى، جادة و لكن أقل غضبا. التفت إلى ابنه في ضيق.

- امشي من قدّامي دلوقت.. مش عاوز اشوفك قدّامي.

ثم التفت إلى زوجته

- ارجعي انت على الأوضة دلوقتي يا إيلين، هاتكلم مع واحد من ظباطي و جاي لك على طول..
- Non, pas possible.. فيه حاجات كتير جايبهالك.. و لازم اورّيهالك حالا.. حاجات مخصوصة.

و غمزت عينيها. ارتبك اللواء و وقف حائرا للحظة. أخيرا تقدّم إلى السلم، يصعده في حماس.

- بصّي يا مارجيك.. انزلي هتلاقي رائد عصام، قولي له، الموضوع يستنّي.. يمشي دلوقتي و انا هابقى أكلمه بكره الصبح.

و صعد إلى ايلين يحضنها في شوق. كانا يتّجهان بعيدا عن رأس السلم، عندما التفتت إيلين إلى حازم و أشارت إليه من طرف خفيّ أن لا يقلق.

و بجانب الكرسي المهشّم، وقف حازم، و داخله أكثر تهشيما و تبعثرا.

لقد صار هذا البيت الموبوء بالظلم و الخداع كريها بغيضا إلى قلبه. لولا ريم، لتركه في الحال. ففي كنف أب يعبد ذاته و تتمركز حياته حول عمله فقط، و في كنف أم مدمنة، سيكون مصير ريم مظلما. يجب أن يبقي إلى جوار ريم حتى يسلّمها إلى رجل آخر، رجل يثق فيه حازم شخصيا. سيجبر نفسه على البقاء في هذا المنزل الملعون لفترة أطول.. لكنه الآن عليه أن يخرج. سيختنق لو لم يغيّر هواء البيت المسمّم.

غادر البهو ميمّما ناحية بيت النباتات، عندما مرّ بجوار رائد عصام المنتظر في الحديقة. كان الأخير قد انتهى توّا من الاستماع من مارجيك إلى رسالة اللواء.

- دكتور حازم..

التفت إليه حازم متربّصا. تقدّم منه رائد عصام، باسطا يديه أمامه في استسلام.

- أنا صديق، و الله مش عدو.
- خير؟
- يعني، أنا شايفك مبوّز و واخد الدنيا قفش..
- مش شغلك يا أخي..
- طبعا مش شغلي، بس يعني كنت عاوز اقولك إن اللواء أحمد شاهين مش وحش قوي زي ما انت متخيل. ما تنساش إن الشدة جزء من طبيعة شغلتنا.. حاجة كده زي ما الدكاترة شغلتهم بتخليهم ساعات برضه يبانوا للناس انهم باردين و مش متعاطفين مع أمراضهم..

نظر إليه حازم في تبلّد.

- خلّصت؟
- أيوه خلّصت..
- طب اتفضل، مع السلامة..

ابتسم عصام في ودّ.

- ماشي، بس ما تزقّش..

دار عصام لينصرف، لكنه توقّف بغتة.

- بقولّك..
- خير، إيه تاني؟
- ليك في الإستيميشن؟
- نعم؟
- الإستميشين.. لعبة الكوتشينة، أربع لعّيبة و ورقة و قلم و..

- عارفها..
- ليك فيها؟
- إشمعني؟
- رايح العب دور دلوقت مع شلة، و الرابع اعتذر.. لو بتعرف تلعب و فاضي، يبقى تعالى..

تطلّع حازم إليه تائها.

- يا عم انا اعرفك؟

أمسكه عصام من يده، و جرّه وراءه.

- شكلك بتعرف تلعب.. يالا تعالى و المشاريب عليّا يا سيدي.. هاه؟ هتطلع تغيّر، و الا انت بتروح بالبيجاما دي في كل حتة؟

و دون كثير من كلام، عاد حازم إلى الفيلا ليغيّر ملابسه، ثم نزل إلى رائد الشرطة، لينطلقا إلى مقهى في منطقة الكوربة.

و هناك، كان حازم شاهين جامدا واجما أول الأمر، لكنه تراخى تدريجيا في جو اللعب و الشيشة، و سرعان ما تبادل القفشات و النكات و اندمج مع الجميع. و لم تكد تمضي الساعة، حتى ضحك ملء فيه لأول مرة منذ عشرة أيام.

٢٨

بالرغم من زيارته للمنطقة مرات عديدة في الفترة الماضية، إلا أن علاء الصاوي كان يتمشّى في الدائرة الإدارية السادسة Le 6ᵉ arrondissement de Paris – المنطقة الراقية جنوب نهر السّين – و كأنها المرة الأولى منذ تركها منذ خمسة و ثلاثين عاما. كانت المشاعر تعود إليه جيّاشة متدفقة.. فها هنا كانت طفولته و سنين شبابه الأولى.

هناك، عند تقاطع شارعيّ سانت جيرمان و سان بونوا يقبع كافيه 'دي فلور'، المقهى الراقي و ملتقى أشهر مثقفي فرنسا و العالم، و مستقرّ والده المسائي في سنين استقرارهم الأولى في فرنسا. وقتها، لم تكن ثروة العائلة قد نضبت بعد و كان باستطاعة والده، سليل العائلة المصرية الأرستقراطية، أن يقضي وقت راحته في كافيهات و نوادي راقية لا تقل في المستوى عن تلك التي كان يقصدها في القاهرة، تلك المخصوصة لأثرياء و وجهاء العاصمة المصرية.

عبر من أمام المقهى، يتطلّع إليه في شغف و الحنين يجيش في صدره؛ كان المقهى لا يزال كما يتذكره تماما، بتصميمه و ديكوره الأرت ديكو، من مقاعد حمراء و خشب ماهوجني ومرايا.

أكمل نزهته في المنطقة في تراخي و استجمام و استرجاع للماضي. على البعد لاح له مبنى دار النشر الأشهر في فرنسا، 'دي جاليمار' 'Editions Gallimard'. يتذكّر، كما و لو كانت الواقعة بالأمس، زيارته لدار النشر العريقة بصحبة والدته منذ أربعين عاما أو يزيد، بغية ترجمة و نشر مذكرات ابيها الباشا. ساعتها استقبلهما أحد محرّري دار النشر في ترحاب أول الأمر، لكن بعد أن استفسر عن تاريخ الباشا (و وجده غير ذي شهرة أو أهمية عظمي) رفض في أدب و وجّههما إلى دار نشر صغيرة متخصصة في ترجمة الآداب العربية. لكن اهتمام دار النشر الأخرى بشئون العالم العربي لم يشفع

للمذكرات، إذ رفض صاحب الدار (تونسي مهاجر على ما يذكر) نشرها لنفس الأسباب، من عدم شهرة الجد و قلة قيمته التاريخية، بالإضافة إلى حجم المذكرات الضخم، و الذي يتجاوز ١٦٠٠ صفحة.

(لكن المذكرات لم تكن عديمة القيمة كما كان يعتقد وقتها. فها هو الآن، و بعد أكثر من أربعة عقود من تلك الواقعة و بعد وفاة والدته، يتلقّى رسالة من شخص مهتم بتاريخ الجد و ذكراه لدرجة البحث عن مذكراته الشخصية. من يدري؟ لربما أخذت فرصتها في النشر أخيرا بعد كل هذه السنين الطويلة.)

كان عامل السن قد أثّر في جسده فلم يعد يقوي على التمشية كما كان من عشر سنين سابقة مثلا. كانت قدمه اليمنى قد بدأت في التورّم، تكاد تصرخ ألما من ضيق الحذاء. عبر الشوارع الضيقة المحفورة في ذاكرته ليختصر المسافة إلى وجهته: شارع سيرفاندوني، مبنى رقم ٢٢.

في شبابه كان لا ينتظر المصعد أبدا و كان يصعد الدرجات قفزا دون أن تنقطع أنفاسه مرة واحدة.. لكن ليس الآن. انتظر هبوط المصعد المتهالك ثم استقلّه إلى الدور الرابع حيث تكمن شقة العائلة، المهجورة منذ أكثر من عشر سنوات، منذ وفاة أمه العزيزة.

و فتح باب الشقة، ليغرق في طوفان الذكريات.. دفقة هائلة من المشاعر غمرت علاء الصاوي، الفنان المرهف و الابن الوحيد لعائلة عريقة لم يتبق منها أحد إلا هو. فعلاء الصاوي، و برغم علاقاته الطويلة الراسخة مع اثنتين من أنبل سيدات العالم، لم ينجب قط، و بوفاته هو شخصيا سيندثر تاريخ أسرته العريقة إلى الأبد.

طاف في الشقة الرحبة، المتعددة الغرف و الراقية الأثاث و الديكور، و التي رغم تجديدها في أوائل الثمانينات لا تزال محتفظة بتصميم 'الأرت ديكو' الأربعيني الأصلي، من خطوط و تصاميم هندسية مبسّطة في عمارة الشقة، أو في الأثاث المطعّم بالمرايا و المغطّى بالطلائات المعدنية الجذابة. دخل إلى

غرفته، و وقف طويلا أمام سريره يتطلّع إلى بوسترات الحائط المتنوّعة و المتشاكسة في الذوق، منذ أيام طفولته وصولا إلى أيام مراهقته و شبابه: صور ميكي ماوس تجاور صور البيتلز و لد زبلين، و بالطبع ذلك البوستر الكبير لجون وين في زيّ الكاوبوي، من فيلم 'True Grit'. هذا بالإضافة إلى صورة شخصية متوسطة الحجم، كانت دوما مقرّبة إلى قلبه: صورته المفضّلة خلال زيارته الوحيدة إلى وطنه الأم: هو في الثالثة عشرة من عمره يواجه الكاميرا مبتسما واثقا، يقف فاردا ذراعيه في سعادة و خلفه أبو الهول محملقا في لامبالاته الأزلية، و بجواره المرحومة سلوى (أخته الكبرى المثقفة و المرهفة الحس و التي ماتت في حادث سير بعد عودتهم من رحلتهم إلى مصر بقليل). كانت إجازة كريسماس ١٩٧١-١٩٧٢، بعد عام من وفاة الديكتاتور الذي أفقر أبويه و صعّب حياتهما في مصر. كانت تلك أول زيارة للعائلة منذ خمسة عشر عاما، منذ هروب العائلة إلى فرنسا بعد فشل حملة ١٩٥٦ لإسقاط الديكتاتور و انقطاع أملهما و أمل كل طبقة الأرستقراطيين و الوجهاء في استرداد مصر التي عاشوا فيها كل عمرهم. لقد كانت تلك هي اللحظة التي أدركوا فيها أن مصر لن تعود كما كانت، و أن عبد الناصر المنتصر - بتخاذل الغرب المتحضّر و تواطؤ الشيوعيين السوفييت - سرعان ما سيقضي على من تبقي من معارضة، بل و يتوسع في الانتقام من الجميع.. و قد كان.

ابتسم و هو يتذكر مهاترات والديه السياسية مع ضيوفهم من أبناء العائلة المالكة و الأرستقراطيين و ثلّة من المثقفين و الأدباء المصريين و الشوام، هنا في شقتهم و أحيانا - في فترات الرخاء المادي - في كافيه 'دي فلور' أو 'لي دو ماجو'.

ترك غرفته و دار في بقية غرف المنزل حتى انتهى به المطاف إلى حجرة نوم والديه.. غرفة واسعة راقية الأثاث، مرتّبة تماما كما كانت كل صباح طوال الخمسين عاما أو يزيد الماضية. طاف في المكان، و توقّف عند الصندوق الخشبي الضخم، الرابض في طرف الغرفة في فخر.. كيف لا و هو مخزن ذكريات العائلة و حافظ أسرارها و كل ما يدل على مجدها التليد.

حمل الصندوق الضخم بصعوبة و راح يجرجره إلى الفيراندا الواسعة، المطلّة على حديقة لوكسمبورج القريبة. هنا، و لفترة طويلة من عمره كان يشرب شاي المساء مع والدته في مواسم الربيع و الصيف، ثم من بعد ذلك صارت مستقرّ مذاكرته أيام المدرسة و أيام الكلية قبل أن ييأس تماما و يتجه إلى الفن. هنا كانت العديد من أصائص نباتات الزينة المبهجة، و التي اهتمت بها والدته حتى آخر أيامها.. لكن الأواني الفخارية كلها فارغة الآن، ليس بها إلا بواقي النبات الميّت.

اختار أحد المقاعد الخشبية، نفض التراب عنه و جلس، جذب الصندوق أمامه، ثم فتح طاقة الذكريات: علبة كرتون تجمع بعض ألعاب طفولته، مثل دمي كوماندو كودي و توم كوربيت رائد الفضاء؛ صندوق أصغر به حليّ والدته و بعض إكسسواراتها؛ ثم ألبومات الصور ذات الأغلفة المزركشة و الحاملة لشعار عائلة الصاوي. التقط الألبومات متلهّفا، يتصفّحها في حنين. صور والديه في طفولتهما، كل منهما مع عائلته، في ممتلكاتهما، سواء أطيان أهل عائلة أبيه في الشرقية أو إقطاعية جده لأمه في الصعيد. كانت هناك بعض الصور لذلك الجد، صفوت عبد الرؤوف باشا، و الذي كان وكيلا لإحدى الوزارات (لا يتذكر الآن ما كانت).. هذه صورة تجمعه بالملك فؤاد الأول شخصيا، و تلك مع سعد زغلول، و هذه مع ذلك الرجل.. ما اسمه؟ كان رئيس الحكومة عدة مرات و كان أبواه رغم خصومتهما مع حزبه، يحترمونه كثيرا.. آه، مصطفي النحاس باشا.. طواه النسيان بعد ١٩٥٢ كما طوى الكثيرين غيره.

و تحت الألبومات كان ملف ضخم دسم، كتب على غلافه الخارجي بالفرنسية، Pour les yeux de la famille seulement – أي لعيون العائلة فقط، و بداخلها كان الكثير من أسرار العائلة: من عقود ملكية لأملاكهم التي صادرها عبد الناصر، وصولا إلى وثائق تحوي مؤامرات و تحالفات طفولية ساذجة قام والداه بها في سنوات الستينات الصاخبة، خصوصا بعد هزيمة مصر المنكرة في ١٩٦٧، و التي نشط خلالها والداه،

يجتمعان مع الساسة الفرنسيين و الإنجليز النافذين، أملا في إمكانية قلب نظام الحكم في مصر بمساعدة الغرب المتعاطف مرة أخرى.

و أخيرا و في أسفل الصندوق، في كيس قماشي مخملي ناعم، كانت الثلاثة مجلدات لمذكرات صفوت عبد الرؤوف باشا المكتوبة بخط يده.. تلك الوثائق التاريخية القيّمة و التي وجدت أخيرا من يهتم بها.

أخرج علاء الصاوي المذكرات ثم أعاد محتويات الصندوق إلى داخله، ثم أودعه مكانه مرة أخرى.. و بعد دقائق معدودة، كان يغلق الشقة، و ينزل إلى الشارع.

هذه المرة لم يمشي و لا خطوة واحدة. أوقف أول سيارة أجرة تمرّ من أمامه، ليستقلّها عائدا إلى مقر إقامته.

بعد عبور نهر السين شمالا، و بعد قطع أحياء باريس الأرقي، انتهى إلى الدائرة التاسعة عشر.. المنطقة الأفقر في باريس، و مستقرّ ذوي الأصول الجزائرية و الأفريقية. نزل بالقرب من حديقة 'دي لا فيليت'، عند مبنى بلدي قديم استأجره قبل ثلاث سنوات (عندما قرر الاستقرار أخيرا) ليحوّله إلى مقر دائم لمسرحه المتنقّل.

دخل المسرح في خطوات نشيطة، محيّيا بعض العمال و الموظفين، ثم صعد إلى الدور الثاني حيث حجرة مكتبه و غرفة نومه. جهّز لنفسه كوكتيل سريع، ثم فتح جهاز اللاب توب ليرسل رسالة إلكترونية إلى الدكتور المصري ليخبره أنه قد وجد المذكرات.

بعد إرسال الرسالة، تمدّد على كرسيه، يرشف الكوكتيل و يرمق مذكرات جده في كيسها المخملي. في نوبة فضول أخرجها من كيسها و فتح المجلد الأول لتستقبله رائحة الورق القديم الخلّابة. طافت عيناه بسرعة فوق الصفحات، لكن الكلمات المكتوبة بخط يد جده المنمّق استوقفت نظره، مجبرة إياه على قراءتها بتمهّل.. و سرعان ما استسلم الحفيد لسحر كلمات الجد، ينهم صفحات المذكرات نهما.

و في الأيام التالية، ستكون هواية علاء الصاوي الوحيدة - في وقت فراغه من عروض المسرح و البروفات - هي قراءة الصفحات الـ١٦٢٣ لمذكرات جده الثرية بالتاريخ و الغنية بالأسرار.

و لكم خلبت مذكرات الجد لب الحفيد، و لكم أصابه الحنين لذلك البلد الذي يُحكى عنه في كل تلك الصفحات.. و بفضل التأثير العاطفي الكبير للمذكرات، قرّر علاء الصاوي النزول إلى مصر في أول إجازة للمسرح.

٢٩

السبت ٢٦ يونيو ٢٠١٠

دخل طارق عبد الهادي بلوك عمليات الجراحة العامة في حماس و حيوية.

كانت هذه الفترة من أكثر فترات حياته متعة. كيف لا و هو يمارس الآن الدور الذي كان يحلم به طوال عمره، منذ نعومة أظفاره عندما بدأ بقراءة مغامرات أشرف الشريف على صفحات مجلة سمير و مغامرات ع x ٢، ثم في مراهقته بقراءة مغامرات شيرلوك هولمز و هيركول بوارو، وصولا لأبطال الـhard boiled الأمريكي، سام سباد و فيليب مارلو طوال سنين الكلية.

كان مبعث نشوته الحالية هي الرسالة التي وصلته من علاء الدين الصاوي منذ أسبوع، و التي أخبره فيها أنه قد وجد بالفعل مذكرات الجد الباشا في منزل أسرته في باريس، ثم فاجأه الكوميديان الفرنسي أمس برسالة جديدة تحمل مفاجأة سارة أخرى، ألا و هي قدومه إلى مصر منتصف الشهر القادم، و أنه بالإمكان وقتها أن يقابله و أن يسمح له بالاطّلاع على مذكّرات الجد.

ابتسم و هو يغيّر ملابسه في غرفة الملابس، و في مرآة خياله تواترت مشاهد من فانتازيا طفولته يتخيّل فيها نفسه في دور المحقّق المحترف. نظر طارق إلى نفسه في مرآة الغرفة في ثقة و أخذ يربط غطاء الرأس و الوجه في حركة تمثيلية طفولية.

لكن تذكر فجأة ما عكّر مزاجه العالي، فشريكه و صديق عمره، حازم شاهين، لا يشاركه اللحظة. لقد عاد إلى الاختفاء مرة أخرى، اعتذر عن العمل طوال الأسبوع الماضي ثم أغلق هاتفه المحمول، قاطعا أي سبيل للتواصل معه. فقط أرسل إليه برسالة مقتضبة يخبره فيها أنه بخير و يطلب منه ألا يحضر إلى فيلا شاهين للاطمئنان عليه كما فعل من قبل!

طارق يعرف أن علاقة حازم بأسرته متوترة و كثيرا ما تحتدم المواجهة مع أبيه، و غالبا ما تتأثر معنوياته فينكفئ على نفسه و يقاطع العالم الخارجي حتى يستعيد توازنه. لا شك في أنها إحدى تلك النوبات. عسى أن يكون بخير.

و استعادة للمزاج المرح، نحّي طارق ذكرى صديقه مؤقتا وراء ظهره و انطلق يعبر الخط الأحمر باحثا عن المصدر الأول للسعادة في عالمه الصغير: طبيبة التخدير، سميّة مسعود.

كانت هناك، في غرفة ٢، تحضّر عقاقير التخدير و في نفس الوقت تفحص جاهزية جهاز التخدير قبل بدء العمليات. تبادلا تحيّات الصباح في مرح، ثم انطلقت تكمل عملها في تحضير باقي غرف العمليات.

و إن هي إلا دقائق معدودة و بدأ العمل في وتيرته المتسارعة المحمومة.

انهمك طارق في عمليته الأولى حتى نهايتها دون أن يحضر مدرس تخدير اليوم. تلك إشارة على أن حازم شاهين هو من سيحضر اليوم، فقط سيتأخر كعادته. أخيرا، سيتمكن من رؤيته و الاطمئنان عليه.

ما إن أنهى طارق العملية، حتى نادت عليه سميّة معلنة وصول الإفطار. نزع طارق القفّازات الجراحية و مريلة العمليات، و بعد أن غسل يديه و وجهه اتجه إلى غرفة الأطباء. كان معظم الزملاء قد انتهوا من فطورهم، فلم يكن بالغرفة غيره. كان يتناول ساندويتشه الأول عندما دخلت سميّة حاملة علبة صودا.

التقط طارق المشروب في حماس، شاكرا حسن الحظ الذي جمعه وحيدا مع سميّة؛ لعلها الفرصة المناسبة للتقدم خطوة و إشعارها أنه يكنّ لها مشاعر خاصة.. لكن برفق، و حذر. سيسألها أولا ذلك السؤال الموحي بنيّته: سيسألها إن كانت مخطوبة أو مرتبطة عاطفيا في الوقت الحالي.

لكنها سبقته بالكلام.

- هو صحيح يا دكتور طارق، هو فين دكتور حازم؟ ما جاش الأسبوع اللي فات، و النهاردة برضه لسه ما ظهرش.. هو عيّان و لا حاجة؟
- يعني، حاجة زي كده.
- اصلنا قلقنا عليه..
- لا، عادي، هو بيغيب شوية و يظهر.. زي الفل عادي..
- أصل دكتور حازم ليه معزّة عند الكل..
- فعلا؟
- أيوه.. خصوصا أنا.. أنا بأعزّه جدا.. شاطر علميا، بيساعد الكل و ما بيتأخرش عن حد و كمان يُعتمد عليه.
- إنتي بتتكلمي عن حازم؟
- أيوه.. و كمان ظريف و مهذب..

ناقص تقولي لي و كمان عريس ممتاز..

طارق بالطبع يحب حازم و لا يكره الاستماع إلى أي حديث يطري عليه، حقا كان أو غير ذلك.. لكن حتما ليس من الفتاة التي يحبها و يريد التقدم إليها.

و كما جاءت، انصرفت سميّة على عجل. ابتلع طارق ساندويتشاته دون كثير من مضغ، ثم أفرغ علبة المشروب الغازي في غير استمتاع، ثم قام لعمليته الثانية.

و في خضمّ العملية، حضر حازم.. عرف طارق بحضوره من ضجيج الترحاب و من انسحاب سميّة من غرفة العمليات على عجل. و عبر نافذة باب العمليات الزجاجي، رأي طارق التفاف الجميع حول حازم، تتقدّمهم سمية التي مدّت يدها تسلّم في حماس و على وجهها نظرة خجلة مرحبة.

متوترا، جرح طارق شريان صغير في بطن المريض و اضطر أن يضغطه لبضع دقائق حتى يتوقف النزيف. و في خضم توتره من خطأه الجراحي، دخل حازم غرفة العمليات، تتبعه سميّة.

كان حازم مبتسما، مهرّجا، يكاد يتقافز في خطواته.

- طرّوق.. ازيك يا شقيق؟

متضايقا من تجاهل حازم له طوال الأسبوع الماضي، و حائرا من حماس سميّة تجاهه، و مغتاظا من خطئه الطبي، نظر طارق إلى صديقه العائد بعد غياب في ضيق.

- أهلا..
- أهلا كده حاف.. ثم انت مالك حاطط إيدك في بطن العيان و مش شغّال؟
- اتجرح مني شريان و مستنّي يوقف النزيف..
- يخرب بيت اللي علّمكم الشغلانة دي يا عم..

إنه يمزح، كما يمزح دائما و كما يمزح أي صديق مع صديقه.. في الظروف العادية، كان تعليقه سيمرّ على أذن طارق دون كثير من مشاعر.. لكن ليس الآن.

تجاهل طارق صديقه عن عمد و ركّز نظره على موضع الجرح مدّعيا الاهتمام. حار حازم في ردّ فعل صديقه، لكنه سرعان ما انشغل بالحديث مع ممرضة الغرفة، و بعد دقيقة انصرف ليتابع أعمال أطباء التخدير في باقي الغرف.

سيطر طارق على المضاعفة الجراحية بنجاح، و بعد ساعة أو يزيد قليلا، أنهى العملية على خير. نزع ملابس تعقيمه و غسل يديه و وجهه ثم انطلق إلى غرفة الأطباء، و كما المتوقع، كان حازم في انتظاره. كان الأخير يدخن سيجارة و يتجاذب الحديث مع بعض الأطباء المقيمين، شارحا لهم أحد المواضيع الطبية. و في دقائق معدودة، أنهى حازم شرحه و صرف الأطباء إلى أشغالهم.

بادره طارق

- إيه يا حازم؟ فينك طول الأسبوع اللي فات؟
- عادي.. شوية اكتئاب على الماشي.. أبويا و البيت و كده..
- طب، و ينفع يعني تقفل موبايلك و تبعدني عنك كده، أمال صحاب ازاي بس؟
- ما حبتّش اكئبك معايا..
- بس جاي النهاردة مفرفش و لا أيتها اكتئاب و لا حاجة..
- الحمد لله.. أنا فكّيت فعلا بقالي كام يوم.
- باين عليك فكّيت خالص.. دانت عمّال تشرح و تساعد النواب.. حاجة يعني على غير العادة.
- فعلا أنا النهاردة مودي حلو.. عارف، الواحد فعلا ماكنش عايش يا طرّوق. فيه ظابط جديد جه مساعد لابويا.. رائد، بس إيه، حكاية.. واد راجل يعجبك، و في نفس الوقت روش، و كل صحابه زيّه روشين؛ مقضّيين الحياة بالطول و العرض.. ساعة الشغل، شغل صح، لكن ساعة الراحة، ما اقولكش: ضحك و عفرتة و لعب و سهر.. حاجة غيرنا خالص و غير الدكاترة و قرفهم و كآبتهم.
- و انت إيه، قضيتها معاه؟
- خرجت معاه مرتين، و الحقيقة رائد عصام ده هو اللي خرّجني من المود الزفت اللي كنت فيه.. لازم تشوفه و تخرج معانا مرة.

انا اللي اخرج معاكو؟ مش هو اللي يخرج معانا!

أحسّ طارق بغصّة في حلقه من أريحية حازم و سروره البادي من صديقه الجديد. هو يعرف أنه ليس بأمتع الرفقاء و لا أكثرهم إثارة، لكنه لا يحب أن يذكّره أحد بذلك، خصوصا صديق عمره.

- و انت قضّيت الأسبوع اللي فات في إيه يا طارق؟ ما تقولّيش قعدت تراجع مرجع الجراحة الاحمر ولا بتقرا في الأوراق البحثية؟

- أبدا.. أنا كنت شغّال على قضية الباحث التركي، أورهان حقّي..
- أيه؟ أنا مش قايل لك تسيب القضية دي؟
- و انا رفضت، و قلت لك مالكش دعوة بالمكتب..
- بس انا قلت لك تسيب القضية دي.. هو مش ده سحب التوكيل مننا.
- أنا قلت لك اني هاكمّل في الموضوع ده عشان مزاجي..
- طب يا سيدي، سيبك منه عشان صاحب الموضوع خلاص..
- خلاص إيه؟

محرجا، أدار حازم وجهه، منشغلا بإشعال سيجارة جديدة.

- خلاص مات.
- مات.. مات إمتي؟
- من أسبوع..
- و انت عارف طول الوقت ده و ما قولتليش؟

هزّ حازم رأسه في ضيق أن نعم. سأل طارق في ضيق

- و مين اللي قال لك؟ هويدا؟
- أيوه.. المومس هي اللي قالت لي.
- المومس!

ثم سرد حازم ما كان بينه و بين هويدا على عجل. حاول طارق التعاطف مع صديقه، لكنه لم يستطع

- و ليه ما اتّصلتش بيّا و قلت لي على اللي حصل ده؟
- أقولك على إيه؟ على خيبتي؟ ثم يعني كنت هتعمل إيه؟
- كنت هاواسيك..
- مش محتاجك تواسيني..
- ...
- ثم انا مش قايلّك أصلا تسيب القضية؟ انت ليه قاصد تتحدّاني؟

و انفجر بركان الغضب في قلب طارق وعقله. كان ضيقه بحازم قد بلغ مداه: من تجاهله له لأكثر من أسبوع و تفضيله لصداقة الضابط المرح الظريف، و الآن استعلاؤه المتواصل في التعامل معه، ناهيك عن الغيرة التي تأكل قلبه من إعجاب سميّة به.

قام من مكانه، و قد استحال وجهه الأسمر إلى الأحمر القاتم.

- هو انت متخيّل إن العالم بيدور حوليك يا حازم يا شاهين.. لازم كل الناس يكونوا تفصيل على مزاجك و إلا ما ينفعش؟ لازم اعمل اللي على مزاجك و إلا ابقي بتحداك؟

صُدم حازم من ردّ فعل صاحبه، لكن روحه المتمرّدة أبت الاعتراف بتجاوزه، ردّ في تحدي

- أنا غلطان اني بقولّك على مصلحتك.. خلّيك تقرف نفسك و بعدين تتورّط في مشاكل تودّيك في ستيّن داهية.. بس ما تجيش ساعتها و تقول ساعدني..
- انت ليه متخيّل ان انت الوحيد اللي بيفهم في الكون؟ و ليه متخيّل اني محتاج لك.. يا ريت تسيبني في القضية دي من غير أي تدخّل منك..
- يا ريت انت اللي تسيبني في حالي دلوقتي عشان صدّعتني..

ضحك طارق ضحكة عصبية، مخلوطة بحزن و قهر. كانت ثمّة دموع في عينيه.

- حاضر يا حازم.. أنا هاسيبك في حالك.

و هرول خارجا من المكان.

و رغم أنه كان قد أنهى عملياته لليوم، لم يعد طارق لغرفة الاستراحة و لا لغرفة تغيير الملابس إلا بعد ساعة كاملة حتى يتأكد أن حازم قد غادر الغرفة تماما.

لم يكن يعرف أن حازم قد انصرف بالفعل بعد خمس دقائق لا غير من المواجهة المؤسفة. كان الإحباط و الاكتئاب يعودان إليه بسرعة و بشدة، لكن حازم لم يكن مستعدّا لأسبوع آخر من المرض النفسي و البقاء في المنزل.

أخرج هاتفه و اتصل بعصام الدمياطي سائلا إياه أين هو.. لحسن الحظ كان قد أنهى عمله للتوّ.. اتفقا بسرعة على لم شلة الكوتشينة و اللقاء في إحدى الكافيهات.

٣٠

الأثنين ٢٨ يونيو ٢٠١٠

كان طارق عبد الهادي راقدا على سريره، يرشف شاي ما بعد العشاء و يطالع كتيّب "تاريخ الدونمة" لـ "محمد علي قطب"، الكتاب الثاني في قائمة الكتب التي قرّر قراءتها بخصوص قضية الباحث التركي.

حوالي الساعة الثامنة مساءً، أتاه أزيز الإنتركم المثبّت فوق مكتبه مباشرة. وثب في سرعة و حماس، و التقط السماعة.

- ألو..
- دكتور طارق؟
- أيوه..
- أنا هويدا سالم.

متوترا

- عاوزة إيه يا انسة هويـ.. أقصد مدام هويدا؟
- ممكن تنزل أتكلم معاك دقيقة واحدة.

حائرا، خجلا كعادته

- حاضر..

أبدل ملابسه على عجل و نزل.

كانت تنتظره على عتبة الدرج.. واثقة، جميلة، جذابة كما في زيارتيها السابقتين. لكن بفعل كلمات حازم المسمومة عنها، وقف طارق و عقد

ذراعيه أمام صدره، واضعا حاجزا بينه و بينها، و موحيا أنه لن يفتح باب المكتب و أن اللقاء سيكون على الواقف.

- خير يا أستاذة هويدا؟
- انت عارف ان حازم أنهى شغلكم معايا..
- أيوه.. و ده يخلّيني مستغرب انتي جاية ليه..
- كنت عاوزة أسترجع الدوسيه بتاع أورهان اللي اديّتهولكم عشان عايزة أشتغل عليه..

نظر إليها طارق محرجا

- آه، تقصدي اللي حازم أخده منك من أسبوعين؟
- أيوه..
- هو فعلا قال لي إنه أخده منّك، لكن ما أطلعنيش عليه.. هو لسّه مع حازم، و تقريبا لسّه في عربيته لحد دلوقت.
- ممكن تتطلبهولي منه؟

رد متردّدا

- علاقتي أنا و حازم متوترة شوية اليومين دول.. ممكن انتي تبعتي له أي حد و انا أؤكد لك إنه هيسلّمه الدوسيه من غير مشاكل.

ظهرت لمعة في عيني هويدا عند سماعها عن توتر علاقة الصديقين.

- هو حازم قالّك على كل حاجة دارت بينّا؟
- أيوه..
- بس واضح من أسلوبك معايا إنه حطّ شوية توابل و شطة على الحكاية..
- أنا مش طرف في الموضوع ده يا مدام.. يا أستاذة هويدا.
- أنا ما غلطش و لا أجرمت للدرجة اللي تخلّيه يضربني في الكافيه قدّام الناس.

اندهش طارق عند سماع المعلومة التي أغفل صديقه ذكرها.

- ضربك؟
- بالقلم على وشّي، و قدام كل الناس اللي في الكافيه..
- أنا باعتذر ليكي.. دي حاجة غير لائقة خالص.

خفض طارق رأسه خجلا، في حين أخذت هويدا ترقب الواقف أمامها في اهتمام بالغ. همست بصوت مخنوق باكي

- أنا فعلا في ظروف صعبة، و ما كنتش ناقصة معاملة صاحبك المهينة دي..
- أنا باعتذر لك نيابة عنّه تاني..
- مفيش داعي.. ما كنتش غلطتك..
- أنا عارف..
- بس ده ما يعفيكش من المسئولية لأنك جزء من المكتب اللي انا اعتمدت عليه إنه يساعدني في قضيتي..

نظر طارق إليها في حرج مخلوط بضيق

- صدّقيني الموضوع خارج إيدي..
- طب ليه خلّيتوني أعتمد عليكم..
- ما تنسيش يا أستاذة هويدا ان انتي برضه ما كنتيش واضحة من الأول..

و تحوّلت ملامحها من الدعة إلى الشراسة بسرعة غريبة، اقتربت بوجهها و جسدها لتخترق المسافة المريحة التي تفصل بين أي رجل و امرأة.

- هو انت كمان هتهينّي زي صاحبك؟

ازداد توتّر طارق مع اقتراب هويدا المفاجئ، فتراجع بسرعة للخلف حتى أن رأسه ارتطمت بالحائط من ورائه.

- انا ما اقصدش يا فندم..

كشّرت في وجهه.

- أنا على فكرة أقدر اشتكيكم للبوليس، و هاخلّيهم ييجوا يشوفوا الخرابة اللي انتوا قلبينها مكتب دي و يشوفوا درجة قانونيتها.. عارف، أنا فعلا لازم اعمل كده عشان أحمي أي حد تاني من إنه يقع ضحيّة في شبكة النصب دي..

توتّر طارق.

- أرجوكي يا أستاذة هويدا.. ما تبالغيش في غضبك و عداوتك تجاهي.. أنا ما عملتلكيش حاجة.

تراخت ملامحها بغتة. نظرت إليه في حزم

- يبقي تساعدني..
- حازم محذّرني منك.

رمقته بعينين قاسيتين، ثم دارت في حسم متجّهة إلى بوابة العمارة.

- إبقى خلّي حازم ده ينفعك..
- إستنّي هنا لحظة يا أستاذة هويدا..
- عاوز إيه؟

قالتها دون أن تلتفت إليه.

و هنا ارتكب طارق المتوتّر المرتبك غلطته الكبرى.

- أنا مش خايف منّك و من تهديدك.. لكني برضه معترف إن احنا عطلناكي.. و عشان كده هاقدّم لك خدمة.. معلومة صغيرة.. بس ما فيش غيرها، و بعدها أرجوكي ما ترجعيش هنا تاني.

استدارت و نظرت إليه في ترقّب، فأكمل.

- أنا وصلت لحفيد صفوت عبد الرؤوف باشا، و هو لسّه معاه مذكّرات الباشا.. هاشوفه الشهر الجاي، و ممكن ابقي اديّكي نسخة من المذكّرات.

تألق وجه هويدا من المفاجأة السارة. اقتربت منه متهلّلة و قد استعادت تألقها الأنثوي العارم المكتسح.

.. و بالطبع، لم تكن تلك زيارتها الأخيرة للطبيب الغرّ، طارق عبد الهادي.

٣١

الأربعاء: ٧ يوليو ٢٠١٠

كان الحيّز الشخصي الضيّق لحازم شاهين على أسوأ ما يكون: علاقته بأبيه لازلت مضطربة (بل أكثر من اضطرابها المعتاد)، علاقته بأخته فقدت الكثير من دفئها و خصوصيّتها، و إيلين انتكست و عادت إلى إدمان الهيروين.. بالإضافة طبعا للبرود المفاجئ الذي اعترى علاقته بصديق عمره طارق عبد الهادي.

و برغم أن كل تلك التوتّرات كانت كافية في الظروف العادية لإسقاط حازم في دوّامة من الإحباط و الاكتئاب، إلا أن صحبته الحالية لعصام الدمياطي، الضابط المفعم بالحياة و الحيوية و المغامرة، كانت بمثابة طوق نجاة من وسط هذه الأجواء البغيضة. لذا جعل حازم من هذا الضابط بوصلة حياته، يتبعه أينما يوجّهه و يضبط نمط حياته ليكون متواجدا حوله و حول شلّته من الضباط. و يا لسخرية الأقدار أن يأتي هذا التصرّف من حازم شاهين المعتزّ بنفسه، و المزدري عموما لمهنة الشرطة.

و كان اليوم مثالا جيدا للعلاقة الوثيقة التي جمعت حازم بالضابط و شلّته. فمنذ ساعة مبكّرة حضر عصام الدمياطي بسيارته الهوندا سيفيك إلى فيلا شاهين؛ نزل إليه حازم على عجل لينطلقا سويا إلى العين السخنة. هناك اجتمعت شلّة عصام كاملة ليمضوا النهار في شاليه عائلة أحد الضباط. انطلقوا في عبثهم المعتاد. نزلوا البحر حتى ارتفعت الشمس في السماء، قاموا بشواء اللحم على الشاطئ، تناولوا وجبة غداء مبكّرة، ثم انهمكوا في لعب أدوار متلاحقة من الكوتشينة حتى الرابعة عصرا.

و قبل غروب الشمس كان الجميع يركبون سياراتهم عائدين إلى القاهرة.

لكن لم تكن هذه الرحلة القصيرة الممتعة نهاية اليوم. فبعد ساعة من مغادرة العين السخنة، انطلق خلالها عصام على سرعة ١٥٠ كم/ ساعة، توجّها إلى محطتهما التالية: نادي الصيد، حيث بطولة النادي للبلياردو، و التي يشترك فيها عصام. المزيد من اللعب و التشجيع و العبث مع الفتيات ثم بعد ذلك التوجّه إلى أحد المطاعم على النيل لتناول وجبة سمك شهيّة.

هذه هي الحياة و إلّا فلا.

لكن، و بانحسار مسبّبات السعادة و بحلول التعب، لا يكون بوسع العقل إلا أن يجترّ بعضا من مشاكله.

و دونا عن كل المنغّصات العديدة المتراكمة، خطر ببال حازم صديقه العزيز و انقطاع تواصلهما معا في الفترة الأخيرة. اجتاحه إحساس جارف أنه بالفعل إنسان بغيض، متعالي، و أنه قد أساء بالفعل إلى طارق في آخر لقاء جمعهما في المستشفى.

لكن ما الجديد؟ طارق يعرفه منذ سنين عدة، و يعرف من هو حازم شاهين، و يعرف تقلّباته و مزاجه السيء و نبرة التعالي التي تتخلّل خطابه بين الحين و الآخر.. إذا لمَ كل هذا الغضب هذه المرة؟

هل تجاوز هذه المرة عن المرات السابقة؟ هل أهان صديق عمره بالفعل؟

و خطر بباله خاطر: أوليس تسكّعه و مصاحبته لعصام الدمياطي - و الذي لم تمرّ على معرفته به إلا شهر - و تجاهله لطارق دليلا على استخفافه و استهانته به بالفعل؟

وخزه ضميره فتوقّف عن الطعام تاركا طبقه لم يأكل منه إلا قليلا.

- مالك؟ بطّلت أكل فجأة كده ليه؟

تساءل عصام و هو يلتهم سمكته البوري في استمتاع. أشعل حازم سيجارة.

- أبدا.. افتكرت حاجة ضايقتني.

- خير؟
- صاحبي طارق عبد الهادي، دكتور الجراحة اللي حكيت لك عنه.. صاحبي اللي كنّا فاتحين مع بعض لعبة مكتب التحرّي إياها..
- ماله؟
- يعني.. قافشين على بعض بقالنا شوية.. ضميري مأنبني عشان حاسس إني غلطّ فيه..
- خلاص، روح صالحه..

لوى حازم رأسه متمنّعا، و أطلق دخان سيجارته ليسربل الفضاء بينهما.. ابتسم عصام

- نفسك كبيرة و مش قادر تروح تعتذر؟
- مش كده.. أصل انت ما تعرفش طارق.. أول ما اروح اعتذر له، هيسوق فيها و هيقعد يعايرني بالجديد و القديم، و يقول لي ما انت طول عمرك بتعمل كيت و كيت و بتعاملني مش عارف ازّاي.
- خلاص يا سيدي، خدني معاك نروح نزوره كأنك هتعرّفني عليه، و في النصّ تقوم تعتذر له في السريع.. كده مش هيقدر يسوق فيها قدّامي و هيتكسف و يصالحك على طول.

أعجبت الفكرة حازم جدا، دسّ سيجارته في المطفأة و قام من فوره.

- يالا بينا..

كان المرور خفيفا يومها فاستطاعا الوصول إلى بيت طارق عبد الهادي في جسر السويس قبل التاسعة. ركن عصام سيارته في شارع خلفي قريب، ثم تمشّيا إلى بيت طارق.

كانت البوابة الرئيسية للعمارة مفتوحة كعادتها، فدخلا إلى مدخل العمارة دون قرع الجرس الخارجي. و في مدخل العمارة وقف حازم أمام باب شقة المكتب بالدور الأرضي، لكن، و قبل أن يمدّ يده ليضغط زر الإنتركم ليتّصل بطارق، لاحظ ضوءً متسرّبا من تحت عقب باب المكتب.

- إيه ده؟ ده طارق في المكتب.. يا ترى عنده زبون و لا قاعد مع نفسه؟

و باغتتهما ضحكة أنثوية متدلّلة، أقرب إلى الخلاعة، آتية من وراء الباب. ابتسم عصام و رفع حاجبيه عابثا.

- إلعب..

لكن حازم لم يبادله الابتسام، إذا تعرّف صاحبة الضحكة.. إنها هويدا.

و قرأ عصام الوجوم على حازم، فكفّ عن عبثه مباشرة.

- إيه؟ مش هتخبّط على الباب و لا إيه؟

ثم تطوّع هو و طرق الباب طرقتين سريعتين. بعد وهلة قصيرة، فتح الباب عن القصير الأسمر البدين، طارق عبد الهادي.

تطلّع طارق في وجه عصام مستفهما، لكنه ما إن رأي حازم حتى امتقع وجهه على الفور. خرج صوته متهدّجا مرتبكا

- حازم، إزّيك؟ خير، فيه حاجة؟

تقدّم حازم دون أن يردّ عليه، دفع الباب و دخل. و هناك في الغرفة الداخلية، كانت هويدا تجلس على سطح المكتب، ترشف الشاي و تهزّ رجلها في غنج.

ثبّتت رجلها و تجمّد وجهها و انتابها الخوف لوهلة عندما سقطت عيناها على وجه حازم، لكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها و اتّسعت ابتسامتها في تحدّي. ضيّقت عينيها في تدلّل يقطر سمّا و غيظا.

- إزيّك يا دوك؟ سلامات..

التفت حازم إلى طارق و عيناه تدقّ شررا.

- إيه اللي جاب البتاعة دي المكتب يا طارق؟

- هويدا عاوزة حد يساعدها في القضية، و أنا مهتم بالموضوع زي ما قلت لك.
- أنا قولت لك تسيب القضية دي.
- مالكش حكم عليّا يا حازم.
- ثم انا مش قايل لك هي عملت معايا إيه.. إزّاي تأتمنها بعد اللي حكيت لك عليه.. ثم ازاي تسمح لنفسك تقعد لوحدك مع واحدة زيّ دي يا متديّن يا ملتزم؟

و أشار حازم إلى جلسة هويدا المتغنّجة على سطح المكتب. خفض طارق عينيه خجلا، و خفض صوته ليردّ

- أصلها كانت عاوزة تشوف معايا ورق، قامت قعدت كده، و انا الحقيقة فعلا مكسوف منها و مكسوف اقولّها ترجع تقعد مكانها على الكرسي.
- أما إنك صحيح خرونج..

امتقع وجه طارق، و اكتسى وجهه غضبا.

- انت جاي ليه دلوقتي يا حازم؟

و هنا تقدّم عصام و التقط يدّ طارق مصافحا.

- أنا رائد عصام الدمياطي.. يا تري حازم حكى لك عني؟
- أيوه.. أهلا و سهلا.
- إحنا بقى يا سيدي راجعين بعد سفر و مشاوير قد كده، و حازم طول الوقت عمّال يتكلّم عنّك، أبو طارق حبيبي واحشني و لازم اشوفه، و حوارات كده و لا العشّاق.. قلت له يا سيدي، خلّيها بكره و لّا بعده.. قال لي أبدا.. و اهو يا عم جاي يشوفك.

تبادل الصديقان نظرات التحدّي. امسكهما عصام من كتفيهما و قرّبهما من بعض.

- يالّا يا جماعة، استهدوا بالله و صلّوا على النبي.

و بعد هنيهة تعانقا في فتور.

طوال الوقت كانت عينا عصام مصوّبة إلى الغادة الجالسة على المكتب. تكلّم هامسا

- بقول يا جدعان، عشان بس انا مش فاهم الحوارات اللي بينكم.. واضح إن المزّة اللي جوّه دي عاملة لكم مشاكل.. هي تبع مين فيكم؟

هزّ طارق رأسه نافيا في شدة، في حين همس حازم في ضيق.

- مش تبع حد..

عدل عصام من ياقته في حركة كوميدية، ثم تقدّم.

- كده، يبقي عن إذنكم أخشّ انا بقي اتعامل و اسيبكم تتصالحوا مع بعض..

و بعد إلحاح من حازم، صعد طارق معه إلى شقة العائلة. دخل حازم، فسلّم على عائلة طارق، ثم دخلا إلى المطبخ، ليحضرا الشاي. كان تصالحهما تدريجيا بطيئا. تكلّم حازم أولا.

- أنا آسف يا طارق..

نظر إليه طارق مندهشا. كاد يقول له: "على إيه و لّا إيه"، لكنه آثر ألا ينكأ الجروح القديمة.

- شكرا.
- لأ، مش شكرا.. أنا فعلا واجب عليّا الاعتذار، بس أرجوك قدّر ان الفترة اللي فاتت كانت و لازالت فترة عصيبة عليّا..
- بدليل صحوبيّتك الجديدة و خروجاتك يوميا مع رائد عصام.

- ما انكرش اني مستمتع بصحبة عصام و شلّته.. لكن صدّقني خروجي معاهم أساسا هروب من الواقع مش أكتر.

- ربنا يسعدك.. أنا ما اتمنّاش ليك إلا كل خير..

- و انا كمان ما اتمنّاش ليك غير كل خير، و عشان كده عاوزك تقطع علاقتك بهويدا دي حالا و نهائيا..

- تاني إملاءات و أوامر.

- مش قصدي.. طب، يا سيدي أتوسّل اليك سيبها.. دي حرباية لا تؤتمن..

- أنا باتكلم معاها بس عشان مهتمّ بالقضية دي، مش أكتر من كده.

- بصّ يا طارق كده على بلاطة، أنت غرّ عبيط و البنت دي لعبية و سافلة. أوعى تنكر إنها أكيد حاولت تتلاعب بمشاعرك و انّك أكيد ضعفت قدّامها.

خفض طارق رأسه و قد دمعت عيناه من الإحراج.

- أنا و الله ما بحبّها، بس مش هانكر إني فعلا بأبقى مبسوط بقعدتي معاها. انت عارف انّي مش زيّك، لا وسيم، و لا غني، و عمري في حياتي ما كنت جذّاب للبنات، و عمري ما لقيت اهتمام من واحدة جميلة و جذّابة زي هويدا.. أكدب لو قلت لك اني ما بابقاش مبسوط لما بتضحك لي أو بتمدح فيّا. صحيح أنا عارف انّها نصابة و انّها خدعتك قبل كده.. لكن زيّ ما تقول كده، هيّا و القضية بالنسبة لي، زي ما عصام و شلّته بالنسبة لك، هروب جميل من الواقع المرير.

تطلّع حازم إلى صديقه في شفقة و قد أصابت الدموع عينيه هو الآخر.

- أبوس إيدك يا طارق، خلّي بالك منها.. أبوس إيدك.

علاء الصاوي

٣٢

بعد الانتهاء من البروفات النهائية للعرض القادم لفرقة ' Jokers de Paris' و المفترض بدايته أوائل شهر أغسطس، منح علاء الصاوي، مدير المسرح، نفسه و كل أفراد الفرقة إجازة عشرة أيام.

على الأقل مرّة في العام، يسافر علاء و يستجمّ. كان قد سافر خارج الأراضي الفرنسية عدة مرات من قبل، عبر الحدود إلى اسبانيا الدافئة في الشتاء، و عبر البحر المتوسط أثناء انتقال فرقته المسرحية إلى المراكز الفرانكفونية المختلفة في القارّة السمراء، مثل تونس و الجزائر و مراكش و دكار. لكن في السنوات الأخيرة كان يقضي أجازته السنوية على شواطئ الريفيرا الفرنسية، تقليصا للنفقات و تماشيا مع كبره في السن و تدهور صحته في السنين الأخيرة.

لكنه لم يزر مصر، وطنه الأم إلا مرة واحدة منذ ما يقرب من الأربعين عاما عندما كان لا يزال في أولي سنين المراهقة.

كان تعلّق والديه و حديثهما المتواصل عن مصر *التي كانت* و عظمتها و رقيّها دافعا و محفّزا لزيارة البلد الأم، لكن حديثهما البارد المتحفّظ عن مصر *التي صارت* كان لا يشجّع على السفر إليها كذلك. يكفي دليلا على برود مشاعرهما، بل و نفورهما أنهما لم يكرّرا زيارتهما لمصر بعد زيارة عام ١٩٧١.

كان والده يقول في حسم: "مصر الحريّة و الديموقراطية تحولت إلى دولة فاشيّة قمعيّة أيام عبد الناصر، و بعد وفاة هذا الطاغية تحوّلت مرة أخرى، لكن إلى الأسوأ، من مصر الجميلة المبهرة إلى مسخ مشوّه. أولا فقدت حريّتها و إنسانيتها، ثم فقدت حضارتها و جمالها. لم تعد البلد الذي أعرفه."

و عندما قابل أحد معارف والديه قبل عشر سنوات - أثناء زيارته لوالدته في مرضها الأخير - عرف أن ذلك السوء صار أسوأ، و بمراحل.

لذا لم يكن لديه ما يكفي من رغبة لزيارة مصر: هو أصلا لم يولد بها مثل أخته المرحومة سلوى، و لا عاش بها، لذا لا يحتفظ بأية ذكريات لتلك البلد الفقيرة العشوائية من دول العالم الثالث. ليس له من أقارب هناك و لا يتوقّع أن يزور أو يري بها أكثر من أي سائح عادي، مجرد الآثار الفرعونية القديمة و ربما القبطية و الإسلامية كذلك.

لكن كان عنده دوما فضول و رغبة – و إن كانت بسيطة – في زيارة موطن آبائه و أجداده للتعرّف عليه، إضافة إلى شعور حنين للماضي يباغته بين الحين و الحين كلّما تذكّر والديه.. ذلك الماضي الذي لم يعشه هو بنفسه، لكنه عاشه مع والديه في الصور و الأفلام الأبيض و الأسود و في الحكايات المسرودة بتلك اللهجة المصرية الخفيفة المبهجة، و التي أصرّت والدته، رغم إجادتها الفرنسية منذ نعومة أظفارها، على جعلها لغة حديثها اليومي مع أولادها و زوجها إلى آخر يوم في عمرها.

ثم جاءت رسالة البريد الإلكتروني من ذلك الطبيب المصري الغامض لتنفض الغبار عن كل تلك المشاعر الخاملة تجاه ذلك الوطن المنسي.. و كأنها مكالمة من القدر تدعوه لتلبية الدعوة المحتومة.

و بعد زيارته لشقة العائلة في شارع سيرفاندوني، و بعد قراءة مذكّرات جده، تحوّل فضوله تجاه وطنه الأصلي إلى حنين جارف ملك عليه حواسّه.. ساعتها حسم أمره و قرّر أخيرا زيارة مصر.

و بالفعل، و في يوم الجمعة ١٦ يوليو، كان علاء الصاوي يركب الطائرة من مطار شارل ديجول متجّها إلى القاهرة.

زار الأهرامات و المتحف المصري، لكنه، و رغم شغفه بقصص التاريخ و الحضارات، لم يجد نفسه مشدودا لآثار حضارة السبعة آلاف عام.. لذا نحّي سياحة الآثار جانبا، و انطلق يبحث عن الأماكن و الأبنية و الأحياء التي طالما سمع عنها من أبويه و ضيوفهما. طلب خصيصا من أحد المرشدين

السياحيين أن يأخذه في جولة في شوارع قاهرة الثلاثينات و الأربعينات ليفرّجه على فيلات كتلك التي عاش فيها والداه، لكن المرشد طوّف به في بضعة قصور تحوّلت إلى متاحف و مراكز إدارية مهملة. ركب باخرة في النيل، ذلك النهر الخالد الرائع، و الذي قال أبوه أنه أبو الأنهار، و أن السين و الراين ترع حقيرة بالمقارنة به.. لكنه أيضا لم يستمتع بنيل العاصمة.

لم تشبع تلك الرحلات ما في قلبه من رغبة و حنين. بالعكس، فالذكريات الجميلة التي استمتع بها في حكايات والديه، تشوّهت عند مقاربتها بوضعها الحالي.

كانت أجازته توشك على الانتهاء. لم يعد وراءه إلا مقابلة طارق عبد الهادي، و بعدها تنتهي هذه الرحلة دون أن يظفر بشيء مما منّي نفسه برؤيته.

لكن قبل أن يرفع سماعة الهاتف ليتّصل بالطبيب المصري، خطرت بباله تلك الفكرة.

****

كان قد مرّ شهر و نصف منذ استقبل طارق الباحث التركي في المكتب، و حوالي الشهر منذ إرساله رسالة البريد الإلكتروني لعلاء الصاوي، و في هذه الفترة قابل هويدا سالم سبع مرات، بمعدّل ثلاث مرات أسبوعيا (انخفضت إلى مرة واحدة الأسبوع الماضي بعد تحذير حازم الأخير). استطاع طارق خلال تلك الزيارات العديدة أن يعرف من هويدا كل شيء عن عمل أورهان حقّي و عن تحرّياته و أبحاثه عن الدونمة، و في نفس الوقت كان قد أنهى أكثر من ٨٠٪ من الكتب التي وضعها في قائمة القراءة بخصوص القضية، بالإضافة بالطبع إلى كتابيّ أورهان السابقين. مما كان نتيجته أن طارق عبد الهادي، برغم قصر الفترة الزمنية، صار مطلعا بدرجة معقولة في تاريخ 'شبتاي تسيفي' المتنبّي اليهودي، و في تاريخ الدونمة عبر العالم.

و تدريجيا، انتقلت له عدوى البحث عن الدونمة و كأنما تلبّسته روح الراحل أورهان حقّي، و راح يفكر في حماس في كيفية استئناف البحث عنهم في مصر؛ لكن عوّقته مشكلة كبيرة.

فبتتبّع خطوات أورهان، كان يحتّم عليه أن يبدأ من حيث بدأ الباحث التركي: من قائمة العائلات المنحدرة من الجذور اليهودية و المتواجدة في القاهرة بداية من القرن السابع عشر الميلادي. و هنا كانت المشكلة: القائمة، كما كل أوراق أورهان حقّي، كانت في ملف أحمر كبير أعطته هويدا لحازم قبل تدهور علاقتهما. بسؤال حازم عن ذلك الملف، أكد أنه كان قد تركه في تابلوه سيارته منذ يوم المقابلة، لكنه لم يهتمّ بتفقّده من ساعتها. و في غير كثير من نقاش، وافق أن يمرّ على طارق في خلال الأسبوع - أو عند التقائهما في عمليات الدمرداش، أيهما أقرب - و أن يقوم بإعطائه الملف.

لكن في مساء ذات اليوم، عاد حازم و اتّصل بطارق ليخبره في أسف و حيرة أنه لم يجد الملف الأحمر في سيارته.

و كان ذلك أمرا غريبا.

هويدا طبعا اتّهمت حازم بإخفاء الملف نكاية فيها و تعطيلا لها، لكن طارق أبي إلا أن يصدّق صديقه، و إن وافقها على غرابة الموقف.

هل سرقه أحدهم؟

الملف كان مهمّا بالطبع، ففيه مستندات تاريخية و أوراق بحث و صور، بالإضافة طبعا لمسودّة ما انتهى أورهان من كتابته في كتابه الثالث.

كان حازم، في خضمّ مصالحته مع طارق، قد أخبره بزيارته لسهام الرويني و اكتشافه أن شخصا ما انتحل شخصية أورهان و أنه قد صحب الرسّامة لمدة ثلاثة أسابيع، تقدّم لخطبتها في آخرها، و عن الحادث المدبّر الذي تعرّضت له بصحبة تلك الشخصية المزيّفة و قصة تبديل الجثتين؛ أخبره حازم أيضا عن واقعة مراقبته أمام المستشفى.

إذا، و بربط تلك المحاولة باختفاء الملف، كان لدي طارق شك في أن عائلة الدونمة، و التي توصّل إليها أورهان حقّي قبل اختفائه مباشرة، قد تكون هي المسئولة عن اختفاء الملفّ، و أن حازم و هويدا، بل و هو شخصيا، ربما يكونون مراقبين من أفراد تلك العائلة.

انتابه الخوف و القلق بعض الوقت، لكن بعد التفكير المنطقي سرعان ما طمأن نفسه: فحتّي لو كانت عائلة الدونمة وراء مقتل أورهان و سرقة الملفّ، فأغلب الظن أن اهتمامهم قد انتهى الآن، خصوصا بعد انتفاء كل السبل الممكنة لملاحقتهم أو التعرف عليهم.

و في هذه الحالة من الاطمئنان و الغفلة، استقبل طارق اتّصال علاء الصاوي. شخص بالغ عجوز، يتكلّم العربية بلهجة عاميّة مصرية، لكنها غير محكمة و أحيانا مضحكة.

- عاوزي اقابلك يا دكتور طارق.. أنا معاي المذكّرات.

كتم طارق ضحكته.

- يا ريت يا فندم.. أنا مش عارف اشكرك ازّاي.
- بس اني عاوز مقابل الاطلاع ع مذكّرات.

تفاجأ طارق من طلب العجوز الفرانكو- مصري. لم يكن مستعدا لدفع أية مبالغ مادية.. لكنه عندما استمع إلى المقابل الذي طلبه الرجل، ابتسم و هتف في ثقة.

- طلبك عندي يا خواجة..
- خواجا؟ يعني إيه خواجا؟

و اتفق طارق مع العجوز على مكان و زمان المقابلة، و بعد أن أنهى معه المكالمة، اتّصل بأفضل من يساعده على تلبية رغبة الكوميديان الفرنسي.

- ألو، أيوه يا حازم..

- خير، يا طارق..

- عندك طلعة يا معلّم.. حاجة كده من طلعات زمان اللي كنت بتاخدني فيها معاك..

- مش فاهم..

- في واحد خواجة عاوز يشوف القاهرة، قاهرة أبوه و امه و جده اللي ماحدّش من المرشدين السياحيين عارف يورّيهاله: قصور و نوادي و خروجات الباشاوات و الناس الهاي لايف في قاهرة الثلاثينات و الأربعينات.. قلت مفيش احسن منّك يا حزّوم، رحّالة على حق و عندك خبرة و دراية بالقاهرة و كل تفصيلة من تفصيلاتها.

- إوعى تقولّي إنه حفيد صفوت عبد الرؤوف باشا؟

- هو بعينه..

في الظروف الطبيعية، كان حازم ليرفض أي علاقة تربطه بقضية أورهان حقّي مرة أخرى، لكنه أيضا لا يستطيع أن يرفض أي فرصة للسفر و السياحة، خصوصا في حيّز جميل بديع مثل أجواء القاهرة الملكية. أناهيك عن الفضول الذي يقتله لرؤية حفيد الرجل و تلك المذكّرات الغامضة.

كان له شرط وحيد

- إوعى هويدا تيجي..

- بس..

- مفيش بس.. مش عاوز اشوف وشّها خالص و إلا مالكش دعوة بيّا خالص..

مستسلما، خضع طارق

- حاضر

و خائفا من هويدا و من ضغطها عليه إن أخبرها بحضور حفيد الباشا (لعلمه مسبقا بانهزامه أمامها و أنها ستجبره على حضور اللقاء) قرّر طارق ألا يقول لها أي شيء عن مكالمة علاء الصاوي.. على الأقل، حتى تنتهي مقابلته هو و حازم بالرجل.

٣٣

الخميس ٢٢ يوليو ٢٠١٠

في تمام التاسعة صباحا، كان علاء الصاوي يتّخذ مقعده في كافيه قريب من فندقه، في انتظار الطبيبين.

حضرا بعد تأخير جاوز العشرين دقيقة: الأول هو طارق الذي تواصل معه من قبل: شخص أسمر بدين، خجول، يتكلّم في نوبات من الاندفاع و الحماس، أما الآخر، حازم، فهو وسيم، مهندم، و إن كان شحيح الكلام، لاذع الكلمات. ليسوا بأفضل رفقة في رحلة سياحية، لكنهما مهذبان راقيان إلى حدّ مقبول.

تناولوا إفطارا سريعا، قاموا خلاله بتعريف أنفسهم و خلفيّاتهم الاجتماعية المختلفة، ثم سأل حازم، الخبير في خبايا القاهرة، بخصوص ما يريد علاء رؤيته في المدينة. أخبره علاء عن رغبته في معايشة نفس الأجواء التي عاشها والداه في قاهرة النصف الأول من القرن الماضي، من خلال زيارة القصور و الفيلات، و أماكن التسوّق و الترفيه التي كانت في ذلك الوقت.

أطرق حازم مفكّرا لبعض الوقت، ثم رفع رأسه أن نعم.

ركبوا سيارة حازم، الفورد الأمريكية، لينطلق بهم إلى القاهرة الخديويّة، أو ما يُتعارف عليه شعبيا باسم منطقة وسط البلد. ركن السيارة في أحد الشوارع الجانبية خلف مجمّع التحرير، ثم نزلوا مترجّلين. أخذهما حازم في جولة عبر شوارع وسط البلد الرئيسية، شارحا في إسهاب كما المرشدين السياحيين؛ كانت نقطة البداية مبنى الجامعة الأمريكية في ميدان التحرير، و منه إلى عمق المنطقة، شمالا و شرقا. كانت جولة موسّعة، مرّوا خلالها بالمحال القديمة، مثل عمر افندي و شيكوريل و بونتريمولي، و المقاهي مثل

جروبّي و ريش، و حازم يتحدث طوال الوقت عن أصحابها الأصليين و عن زبائنها المشاهير؛ و توقّفوا أيضا عند العمارات السكنية العريقة، مثل الأيموبيليا و يعقوبيان، ليخبرهم عن تاريخ بنائها و عن سكّانها من أعلام المجتمع. و من عند دار القضاء العالي سلكوا شارع ٢٦ يوليو و منه إلى شارع الجمهورية حتى وصلوا إلى منطقة العتبة. هناك عرّفهما حازم على الملامح العامة و التاريخية للمنطقة، من مكان دار الأوبرا القديمة (مكانها الآن جراج الأوبرا)، إلى حديقة الأزبكية، بحدودها التاريخية القديمة و بالأجزاء التي اقتطعت منها و تحوّلت إلى مباني. أسهب حازم في الحديث عن تاريخ الحديقة و عن الأماكن التي كانت تُخصّص للحفلات، ثم أشار إلى الأماكن التي كانت تحتلّها نوادي طبقة الأمراء و الباشوات المصريين، بداية من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر.

كان قد مرّ على تجوّلهم أكثر من ثلاث ساعات، انفكّت خلالها مفاصل علاء الصاوي، الرجل الخمسيني المريض. طلب منهما التوقّف، للراحة و رغبة في رؤية أماكن جديدة.

- ده مباني و مواقع و شوارع جميلة، و حكاياتك ممتعة جدا. أنا فعلا مستمتع.. بس، أنا عاوز اشوف حاجات تانية كمان.

كانوا قد جلسوا على مقهى شعبي في أحد حواري المنطقة، طلبوا شاي و حلبة حصي و ينسون، في حين استزاد حازم بشيشة. ارتشف الينسون، و نفخ دخان المعسّل متفهّما.

- عارف، انت عاوز تشوف بيوت زي اللي أهلك كانوا عايشين فيها.. أنا بس كنت بأورّيك الأماكن الطبيعية اللي الناس الراقية، اللي زي عيلتك، كانت بتتسوّق و بتقضي أوقاتها فيها في الزمن القديم ده. الدور جاي على البيوت و القصور، بس انا قلت أسيبها للآخر عشان المسافة بعيدة..

قاطعه طارق

- بعيدة؟ بعيدة ليه؟ هو مش الطبقة الراقية و الباشوات كانوا عايشين هنا في وسط البلد و جاردن سيتي؟

- في منطقة وسط البلد و الجزيرة و الروضة، الأجانب و المصريين من الطبقة فوق المتوسطة كانوا ساكنين في شقق في عمارات زي اللي شفناها، لكن طبقة الأرستقراطيين و الأغنياء كانوا طبعا عايشين في قصور و فيلات كبيرة، و دي كانت منتشرة في كل حتّة من القاهرة الكبرى. القصور و الفيلات دي وضعهم دلوقتي كالتالي: القصور الملكية الرسمية تم ضمها بعد ١٩٥٢ للقصور الرئاسية، أما القصور التابعة لأبناء العائلة المالكة فدي تمّت مصادرتها، بعضها ضُمّ للقصور الرئاسية برضه زي قصر الطاهرة بتاع الأميرة أمينة، و الباقي اتحوّل لمنشئات حكومية زي القصر الضخم بتاع الأمير يوسف كمال في المطرية اللي بقي معهد بحوث الصحراء، و قصر الزعفران اللي بقي إدارة جامعة عين شمس؛ قصور النبلاء و الوجهاء اتحوّلوا لمتاحف، زي قصر عائشة فهمي في الزمالك و اللي اتحوّل إلى مجمع الفنون، و قصر محمد محمود خليل و حرمه و اللي اتحوّل لمتحف يضم مجموعته الفنية؛ ده طبعا غير القصور و الفيلات اللي ياما اتهدّت و اتقلبت عمارات زي فيلا صفوت عبد الرؤوف باشا، أو أهملت و بقت خرابات و مقالب زبالة، زي قصر الأمير سعيد حليم في شارع شامبليون و قصر الأميرة نعمت مختار في المرج.. أما البقية الباقية من القصور، و دول قليلين جدا، فأصحابها قافلين على نفسهم و أنا شخصيا ما اعرفش حدّ منهم.. من الآخر كده مش هنلاقي في المنطقة هنا الحاجة اللي الأستاذ علاء الصاوي عاوز يشوفها.

- أمال هنلاقي فين؟

- أقرب قصور من الناحية الشكليّة هنلاقيها في منطقة ترعة المريوطية و المنصورية.. هناك فيه فيلات و قصور قليلة بناها أصحابها - أغنياء الانفتاح في السبعينات و التمانينات - على طرز معمارية قريبة من قصور الأمراء والباشوات.. هناك ممكن نلاقي

قصور مبنيّة على مساحات شاسعة، و فيها كمان إسطبلات خيل و ملاعب بولو.

- بولو؟!
- أيوه بولو، و تراكات خيل كمان..
- و انت تعرف حدّ هناك؟
- أنا لأ، لكن إيلين، مرات ابويا، اتكلّمت قدّامي قبل كده عن الفيلات دي.. عيلتها كان ليها فيلا أول المريوطية و ليهم معارف و جيران كتير في المنطقة.. هاكلّمها دلوقتي و هي ممكن تعمل اتصالات تفتح لنا أبواب كام فيلا و قصر من معارفهم القديمة.

و بالفعل، أنهى حازم تدخينه، ثم أجرى اتصالا سريعا، أومأ بعدها برأسه أن هيّا. قاموا عائدين إلى المكان الذي ركنوا فيه سيارة حازم الأمريكية. و انطلقوا إلى ضاحية الجيزة. كانت الساعة قد جاوزت الرابعة عصرا عندما نزلوا من الطريق الدائري إلى طريق ترعة المريوطية.

و هناك وجد علاء الصاوي ضالّته بالفعل.

إذ، و بالرغم من أن معظم الفيلات و القصور في المنطقة بنيت في وقت لاحق – خصوصا في فترة السبعينات و الثمانينات، و معظمها مشيّدة على طرز حديثة، إلا أنه كانت بالمنطقة عدد لا بأس به من القصور و الفيلات المبنية على طرز أوربية (من عمارة أرت نوفو و أرت ديكو) مشابهة لفيلات النصف الأول من القرن العشرين.. و من تلك القصور النادرة، استطاع حازم، و عبر اتصالات زوجة أبيه، أن يدبّر لزيارة ثلاثة من تلك التحف المعمارية.

المدهش أن أحد تلك القصور كان يشبه إلى حد كبير ذلك القصر الخاص بجدّ علاء لوالدته، و الذي اُلتقطت به الكثير من صور طفولتها.

و عند سؤال أصحاب القصر الحاليين عن سر ذلك التطابق، كانت المفاجأة اللطيفة، و هي أن القصر – و الذي كان من أوائل القصور في المنطقة في ذلك الوقت – بُني تحت إشراف مهندس أرميني عجوز، كان تلميذا

للمهندس المعماري الشهير، أنطونيو لاشياك، كبير مهندسي القصور الخديوية (مصمم العديد من التحف المعمارية مثل قصر الزعفران و الطاهرة و قصر الدوبارة و العمارات الخديوية بشارع عماد الدين، و محطة الرمل بالإسكندرية). كان أصحاب القصر الأصليون قد استجلبوا ذلك المهندس المعماري خصيصا لبناء قصرهم على نفس تصميم قصر معيّن قام بتصميمه أنطونيو لاشياك العظيم في جزيرة الروضة، في منطقة المنيل.. نفس المكان الذي كان به قصر صفوت عبد الرؤوف باشا!

و في نظر علاء الصاوي – الرجل الوحيد، ذي القلب المرهف و المزاج الحزين منذ بضع سنوات – كانت هذه المعلومة أكبر من مجرد مفاجأة سارة.. كانت أقرب إلى حادث قدري محتوم، و منحة من السماء.

و لأول مرة منذ قدومه القاهرة، يجد علاء الصاوي ضالّته، و تجتاحه موجة من الأشواق القديمة، لأماكن و عصور لم يرها يوما، لكنه عاشها بعقله و وجدانه في صور أهله و حكاياتهم منذ عقود خلت.

تمشّي في القصر تغمره السكينة و الهيبة من المكان و الذكري، يتلمّس الأركان و يلقي ببصره إلى الأسقف العالية، ثم ينحدر به في إجلال إلى النوافذ الكبيرة العالية و الجدران و الأعمدة المنحوتة. يصعد الدرج و هو يتحسّس الدرابزين الخشبي الضخم المخروط على شكل لبلاب عملاق، يتمشّى في الممرّ الواسع بين الحجرات، ثم بعد الاستئذان، يدخل حجرة النوم الرئيسية، و يتطلّع من خلال نافذتها الكبيرة إلى الحديقة، فينجذب بشدة إلى منظر حوض الورود، فيقرّر النزول بسرعة.

و هناك، ينحني فيتلمّس الورود في إشفاق.

اقترب منه طارق متأثّرا، و همس في أدب

- حضرتك بتعيّط؟

مسح علاء دموعه، و ابتسم مداريا خجله.

- أصل كان فيه صورة في ألبوم ماما و هي طفلة بتلعب في وسط حقل ورد كبير.. افتكرتها لما شفت حوض الورد ده..
- تعيش و تفتكر يا فندم..

و انهمرت الدموع على وجه الرجل. انصرف طارق محرجا، في حين جلس علاء على أريكة خشبيّة تطل على حوض الورود ليبكي في صمت، مستسلما لكمّ الذكريات المنهمرة على عقله و وجدانه في غزارة.

غمرته موجات متتالية من المشاعر الجيّاشة: مشاعر حنين لوالديه، و مشاعر حنق من نفسه لتمرّده عليهما طوال الوقت (غير عابئ بمآسيهما الإنسانية المتتالية، بداية من فقدان الوطن الذي انتموا إليه، مرورا بفقدان ابنتهم الكبرى، وصولا لخيبه آمالهما في أن يكون مهندسا)، و مشاعر ندم على تركهما يصارعان الشيخوخة وحدهما حتى النهاية.. و الآن يشعر و كأن القدر ينتقم منه، فها هو أيضا في خريف حياته وحيدا لا يجد أحدا بجواره.

و سرعان ما حلّ الغروب و معه نسمة مسائية لطيفة، ليصبغ السماء و المنظر ككل بجوّ حزين، لكنه عاطفي مريح إلى حد كبير.

و بعد آذان المغرب بقليل، ركبوا سيارة حازم عائدين إلى القاهرة.

و من الكنبة الخلفية للسيارة، هتف الكوميديان بصوت متحشرج.

- شكرا إنكم اتاحتوا لي الفرصة دي.. شكرا إنك خلتوني أشوف جزء من تاريخ البلد اللي أهلي كانوا بيعتزّوا بها..

بدا السرور على طارق و دار إلى علاء منتشيا

- طبعا.. مصر بلد جميلة جدا، و لو قعدت فيها فترة أطول هتشوف حاجات جميلة تانية كتير؛ الناس و المباني و الآثار و التاريخ اللي عمرك ما هتلاقيه في أي مكان تاني.. مفيش حد يقعد في بلدنا إلا و يحبّها.. فعلا أهلك كان عندهم حقّ يحسّوا بالفخر انهم مصريين.

أطلق حازم ضحكة هازئة مستهجنة، ثم همس ساخرا

- على إيه يا حسرة..

رمق طارق صديقه بنظرة استنكار

- ..على حضارتها العريقة.. الأقصر فيها تلت آثار العالم، إسكندرية جوهرة المتوسط و فيها كنوز الحضارة الإغريقية و الرومانية، و القاهرة جوهرة العمارة الإسلامية في العالم..
- كل مكان و ليه جماله، و لو هنتكلم عن جمال و عراقة فرنسا أو ألمانيا او حتى بلد صغيّرة زي بلجيكا، ممكن نقعد نتكلم ساعات.. انا مش باتكلم عن المباني و الآثار و روعتها و كثرتها، عشان دي حاجات أنا ذات نفسي باحبّها.. أنا باتّريق على كلمتك إن ممكن إنسان يكون فخور دلوقتي بإنّه مصري..

احتدّ طارق

- أيوه طبعا، إحنا شعب عريق و له حضارة، ناهيك عن قيادتنا و ريادتنا للعالم العربي و الإسلامي..
- فكّك من الكلام الاهبل اللي جايبنا ورا بقالنا ستّين سنة..
- يعني إيه؟ انت مش شايف انّ مصر دولة عظيمة..
- لأ طبعا..
- و على كده مش بتحبّها؟
- لأ طبعا مش بحبّها، أحبّها على إيه؟ على النظام القمعي اللي حاكمنا، و لّا على تخلّفها و فقرها و لّا على قذارة شوارعها و جهل ناسها..
- أنا عارفك شخص متعالي و متشائم، لكني عمري ما اتخّيلتك شخص غير وطني..
- بلا خيبة..

كظم طارق غيظه و طوّح بوجهه ينظر إلى الطريق بعيدا. تدخّل علاء

- أظن أنا فاهم دكتور حازم يقصد إيه.. والدي كان بيقول دايما إن مصر قبل ١٩٥٢ كانت بلد ديموقراطية نظامها ملكيّة دستورية، و عشان كده كانت بلد غنيّة و راقية..

قاطعه حازم هازئا منه هو الآخر

- ما اسخم من ستّي الّا سيدي..
- يعني إيه؟
- يعني النظامين زفت.. الفرق بس في درجة السوء. كنّا على وشّ صفيحة الزبالة و دلوقتي بقينا في القاع.

هتف به طارق مغتاظا

- يعني انت مش عاجبك حاجة أبدا؟
- لأ.. و يا ريت نفضّها سيرة.

و ساد الصمت حتى وصلوا إلى القاهرة.

٣٤

و بعد أن لبّي حازم و طارق طلب علاء الصاوي كاملا، كان الدور على الكوميديان الفرنسي ليتمّ جانبه من الصفقة.. و بالفعل، اتجّهوا إلى الفندق الذي يقيم به علاء الصاوي. صعد الكوميديان الفرنسي إلى غرفته، و عاد بعد عشر دقائق حاملا حقيبة سامسونيت جلديّة متوسطة الحجم.

كانوا يفكّرون في مكان يجلسون فيه لتناول الطعام و ليطّلعوا على المذكّرات، عندما اقترح حازم - و كهديّة إضافية لعلاء المتيّم بقاهرة أوائل القرن العشرين - أن يتجّهوا إلى كازينو تولوز (نفس الكازينو الذي استدرج إليه أشرف محجوب من قبل)، فالمكان مثال حيّ على عمارة و فن تلك الحقبة الذهبية التي يتوق علاء الصاوي لمعايشتها. (بدا على طارق الضيق من فكرة دخول كباريه تُقدّم فيه الخمور، لكنه لم يجاهر باعتراضه خجلا.)

و بالفعل، و من لحظة دخولهم إلى الكازينو، كان انبهار علاء عظيما.

- ده زاي كباريهات أفلام أبيض و أسود..
- الديكورست اللي جدّد الصالة دي في الستينات، خلّى ديكورها زي صالة كازينو بالاس في بورسعيد.. ده الكازينو اللي اتصوّر فيه جزء من فيلم 'إشاعة حب' بتاع عمر الشريف و سعاد حسني..
- أنا فعلا شفت الفيلم ده مع بابا و ماما..

جلس علاء ينهم المكان بعينه، في حين غاب في ذكريات طفولته و شبابه.

- عارفين، لما طلع الفيديو الـ VHS، ماما خلّت بابا يجمع لها مكتبة كبيرة من شرايط أفلام.. كلها كانت أبيض و أسود.. كانت تقعد تتفرّج بالساعات، و تقولّي عارف الفيلم ده، خالك الله يرحمه، كان عاوز يمثّل فيه دور الكومبارس ده، بس جدّك رفض.. و بعدين تقولّي شايف المبني ده، يبقي مبنى كذا.. شايف الشارع ده، ده كان

في آخره كافيه كذا، و محل كذا، و مدرسة كذا.. و تقولّي عارف الفيلا دي، دي كانت لفلان.. كتير كانت من الشوق و المشاعر تقعد تعيّط من التأثر.

ارتجف صوته من جلال الذكري، و اغرورقت عيناه بالدموع.. تمالك نفسه متأسّفا و جفّف عينيه بسرعة.

كان الوقت في حدود العاشرة مساءً؛ الكازينو مزدحم، بالإضافة إلى فقرات المسرح الصاخبة.. كان المكان بقعة تلوّث سمعي لا مثيل لها. اختاروا طاولة بطرف المكان لتجنّب الضوضاء قدر الإمكان. و في انتظار الطعام، طلب علاء الصاوي كأس فيرموت، في حين اكتفي الصديقان بالعصير.

و أخيرا، جاءت اللحظة المنتظرة. فتح علاء الحقيبة السامسونيت و أخرج منها الحقيبة القماشية المخملية؛ فتحها برفق، و أخرج منها الثلاثة مجلّدات.

في لهفة التقط طارق أولاها.. تحسّس الغلاف الصلب المزيّن، ثم فتح المجلّد ليطالع صفحة المقدّمة الممهورة بإمضاء رب الأسرة مشفوعا بالتاريخ، ١٥ يناير ١٩٣٥، و تحتها مباشرة طبعة من خاتم العائلة بالحبر الأحمر.

قرّب طارق أنفه من الورق القديم ليستنشق عبق ٧٥ عاما من التاريخ.

دخّن حازم و علاء السجائر، يتجاذبان أطراف الحديث في هدوء، في حين غاص طارق مستكشفا المذكّرات..

و بعد عشر دقائق، كان علاء الصاوي يشعل سيجارته الثانية و هو يتطلّع في ودّ إلى طارق المنغمس في المطالعة.

- عجبتك؟
- المذكرات دي كبيرة جدا.. أكتر مما كنت أتخيّل.
- ١٦٢٣ صفحة..
- دي هتاخد مني وقت كبير قوي في القراية عقبال ما الاقي اللي انا عاوزه..

- انت عاوز إيه؟ قول لي و انا أساعدك.. أنا لسه مخلّص قراية المذكرات دي قريّب..
- فعلا؟
- أيوه.. و يا ريت بالمرّة تقولوا لي إيه اللي يخلّي اتنين دكاترة في الجامعة فجأة يهتمّوا بمذكّرات جدّي، بعد ٧٤ سنة من وفاته.

و على عجالة روى له طارق القصة من أولها، في حين استمع علاء مأخوذا.

- دي حكاية غريبة.. تنفع تتعمل فيلم أو مسرحية..
- و تعرضها على المسرح عندك في باريس..
- مش انا.. أنا كوميدي بس.. لكن دي حكاية فعلا غريبة.. بس فين بقى دور جدّي في حكاية الباحث التركي ده و الدونمة و الجاسوس التركي..
- فيه باحث بلجيكي اطّلع على مذكّرات جدّك أثناء زيارته لمصر في الأربعينات.. في كتاب من كتبه بيقول انه قرأ في مذكرات جدّك انّه قابل الراجل التركي ده مرتين..
- في المذكّرات، جدي قابل عشرات الأتراك، منهم اللي قابلهم بصفته الرسمية - بداية من تعيينه في الحكومة كموظف حكومي شاب وصولا لخروجه على المعاش بمنصب كوكيل وزارة - و منهم اللي قابلوه بصفته الشخصية، كونه من أعيان القاهرة..
- الجاسوس التركي كان اسمه طلعت رستم..

ضيّق علاء عينيه و دسّ سيجارته في المطفأة.

- أيوه فاكر الاسم ده، فعلا سيرته جت في المذكّرات أكتر من مرة..

التقط المجلد الأول من يد طارق، و راح يقلّب فيه باحثا.. تهلّل وجهه.

- أيوه.. يناير ١٨٨٤.. اتفضّلوا. الصفحة الشمال.. تحت عنوان "زيارة وفد الباب العالي".

ثم أدار المجلّد ناحيتهما.. قرأ الصديقان في اهتمام، في حين التقط علاء المجلّد الثالث و أخذ في تصفّحه بتمعّن.

- و هنا برضه، أغسطس ١٩٢٥.. تحت عنوان "مقابلة غير متوقّعة لشخص غير متوقّع".

قرأ حازم مندهشا، في حين فغر طارق فاه في ذهول.. إذ بالفعل، كانت القصة مثيرة للغاية.

****

كان التعب من مجهود اليوم قد أنهك جسد علاء الصاوي المريض، ناهيك عن ضرورة استيقاظه مبكّرا صباح اليوم التالي، كي يحزم حقائبه و يتّجه إلى المطار عائدا إلى باريس، لذا استأذن الصديقين في الانصراف.

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، عندما غادروا الكازينو. كانوا يتمشّون في شارع عماد الدين - الخالي نسبيا في ذلك الوقت - عندما احتضن علاء الصاوي الحقيبة المخملية فجأة و طيف من حزن يطفو على وجهه.

- دي جزء من تاريخ عائلتي.. أنا كنت ناوي انّي أطلعكم عليها بس، و اخلّيها معايا، أحاول انشرها تنفيذا لرغبة أمي الله يرحمها.. بس بعد ما جيت مصر، و لفّيت فيها، اكتشفت إن العصر اللي كانوا بينتموا ليه خلاص راح.. راح بدرجة أكبر من اللي كنت متخيّلها.. مفيش حد فاكر عيلة الصاوي باشا و لا عبد الرؤوف باشا.. و ما اظنّش إن حدّ هيهتمّ يقرا حاجة عنهم..

ردّ طارق في تأثّر

- المصريين، رغم العيوب و العبر اللي فيهم، إلا إنّهم..

ثم رمق حازم بنظرة ذات مغزى و أكمل

- ..إلا إنهم بيحبّوا بلدهم و بيحبّوا تاريخهم، و أكيد هيحبّوا يقرأوا تاريخ مشاهير و أعلام بلدهم..

بادره علاء في لهفة

- تفتكر فعلا، ممكن حدّ يهتمّ بنشر المذكّرات دي..

ردّ طارق في ثقة

- طبعا..
- بس للأسف، أنا خلاص مسافر بكره..
- سيبها لي و انا هاحاول أنشرها..
- فعلا؟
- أيوه.. أنا بنفسي هالفّ بالمذكرات على كل دور النشر لحد ما تتنشر..

دلفوا إلى الشارع الجانبي الذي تركوا فيه سيارة حازم. كانت لحظة الوداع، حازم و طارق عائدان إلى منازلهما، و علاء الصاوي ليركب سيارة أجرة و يعود إلى فندقه.

صافح حازم الكوميديان في حرارة و ودّعه، ثم دار حول سيارته ليركب، بينما وقف طارق و علاء على الجانب الأيمن يتبادلان الكلمات الأخيرة. كان علاء يمدّ بحقيبة المذكّرات القماشية إلى طارق شاكرا، عندما باغتتهم سيارة مسرعة.

ضرب قائد السيارة الفرامل بشدة، لتتوقف السيارة عندهم.

- إرفع إيدك فوق انت و هو..

السيارة بها رجلان ملثّمان، أحدهما يطلّ من شبّاك السيارة و في يده مسدس مصوّب ناحيتهم.

رفع حازم و طارق أيديهما إلى أعلي، في حين احتضن علاء الحقيبة القماشية في قوة.

أشار الملثّم بمسدسه لحازم و طارق أن يبتعدا عن السيارة، مدّ الملثّم يده في سرعة، ليجذب الحقيبة القماشية من يد علاء، لكن الأخير تشبّث بها لا إراديا.

و دون كلمة زجر أو تحذير، أطلق الملثّم النار على رأس علاء الصاوي فأرداه قتيلا في الحال. التقط الحقيبة من يد الرجل القتيل بسرعة، ثم أشار لرفيقه لينطلق بالسيارة في الحال.

في غضون أقل من دقيقة، تحوّلت السهرة المفعمة بالحنين و النشوة إلى فاجعة.

قبل هذه الرحلة المحتومة لطالما تساءل علاء الصاوي إن كان من الممكن أن يحب مصر، و إن كان من المحتمل أن يستقرّ بها يوما، لكنه حتى في أكثر أحلامه جموحا، لم يكن يتصوّر أن تجمعه بهذا البلد هذه العلاقة الأبدية.

لقد ولد علاء الصاوي و عاش حياته كلها في فرنسا، و لم يمضي في مصر، طوال عمره الذي جاوز الخمسين، إلا أياما معدودة. لكن لا بأس، سيعوّض كل ما فاته منها، لكن تحت التراب هذه المرة.

لوفنبرانكه

٣٥

تفريغ تسجيل بكرة ممغنطة رقم ٣:

يوم الأحد ٣ يوليو ١٩٣٨، الساعة ١:٠٠ – ٥:٠٠ مساءً

"في الشهور الأخيرة من العام ١٨٨٢، و بعد الاحتلال البريطاني لمصر بفترة قصيرة، وصلتني رسالة من الأمير بسمارك تطالبني بالقيام بتجنيد عملاء و إرسالهم إلى مصر فورا: أشخاص أذكياء، ذوو حيثيّة، و يفضّل أن يكونوا مؤهّلين للاندماج في الكيان البريطاني المتغلغل بسرعة و كفاءة في المؤسسات الحكومية، أو على أقل تقدير قادرين على التسلّل إلى قصر الخديوي المتحالف مع الاحتلال.

كنت، بحكم موقعي في وزارة الخارجية، على اطلاع دائم بالنشاطات السياسية و الإدارية المختلفة في كافة أركان السلطنة. في بداية العام، و عبر واحدة من مئات المراسلات اليومية، جذب نظري تقرير من ولاية دمشق عن النشاط الملحوظ للقنصلية البريطانية، و المتمثّل في الزيارات و التنقلات المريبة التي يقوم بها الموظفون البريطانيون إلى 'متصرفية جبل لبنان' في الفترة الأخيرة. ذكر وكيل مكتب الوالي في تقريره أن تلك الزيارات لم تكن إلا حملة لتوظيف عدد كبير من الموارنة - من خريجي المدارس العليا و المُجيدين للّغات الأوروبية - في خدمة التاج البريطاني.

حيّرتني هذه 'الحملة التوظيفية'.. لكن مع توالي شهور السنة، بدأت أفهم المغزى من وراء هذه التحركات البريطانية الغريبة: كان البريطانيون في خضمّ إعدادهم لغزو مصر يجهّزون للسيطرة الكاملة على الدولة سياسيا و إداريا و إعلاميا، لذا كانوا يحتاجون في صفوفهم إلى أعداد كبيرة ممّن يجيدون التحدّث باللغة العربية و في نفس الوقت لا يدينون بالولاء إلا للإنجليز.

صحيح أن قصر الخديوي و الهيكل الحكومي و الإداري الحالي في مصر سيكونون خاضعين، تابعين لهم، إلا أن البريطانيين، الحذرين بطبعهم، لا يستطيعون أن يعتمدوا و يثقوا بالكليّة في أبناء البلد المحتلّ.

و من هذه المعلومة تحديدا، بدأت في تنفيذ رغبات المستشار الحديدي. أرسلت رجلي المخضرم في مدينة حلب آمرا إيّاه بالسفر من توّه إلى جبل لبنان، ليقوم بالتقصّي عن العائلات التي تمّ توظيف أبنائها في خدمة الحكومة البريطانية. و بعد فترة من التنقّل بين مناطق بعبدا و جبيل و الكسروان، توصّل الرجل إلى تلك العائلات و اجتهد بسرعة في عقد صداقات مع أبنائها من الشبّان الواعدين. كانت الخطة كالتالي: يتم تجنيد الشخص المناسب لصالح الدولة الألمانية، و من ثمّ يتم الدفع به للتقدّم إلى القنصلية البريطانية للسفر و العمل في مصر. (كانت فكرتي في اختيار أفراد من نفس العائلات، التي سبق أن التحق بعض أبنائها بخدمة الحكومة البريطانية، مبنيّة على سببين: أولا هم أشخاص من عائلات عندها استعداد للتعامل مع الأجانب، ثانيا، عند تقدّمهم للحكومة البريطانية ستكون فرصة قبولهم كبيرة لأن عائلاتهم اجتازت التحرّي الأمني مسبقا).

لكن، كانت هناك مفاجأة غير سارّة في انتظاري: جميع العائلات المارونية يدينون بولاء غريب صلب للبريطانيين و الفرنسيين، لكنهم في نفس الوقت يرتابون بشدة في الألمان.. كيف لا و هم الحليف الجديد للسلطنة العثمانية و الأتراك، عدوّهم اللدود.

و بعد مكوثه في المتصرفية لأكثر من سبعة أشهر، لم يفلح المبعوث الذي أرسلته إلى جبل لبنان في تجنيد أحد، إلا شخص واحد تنطبق عليه الشروط البريطانية في التشغيل، شاب ذكي نشيط يدعي ناعوم فخري. و بالفعل تقدّم هذا الشاب لمثلي الحكومة البريطانية في منطقته، و لحسن الحظ تمّ قبوله، و من ثمّ ترحيله إلى مصر صيف عام ١٨٨٣، و هناك عمل في قسم خدمات التوريدات و التعيينات للجيش البريطاني في مدينة السويس. كان يرسل إليَّ بما تيسّر من معلومات قليلة يتوصّل إليها بين الحين و الآخر، و أقوم أنا

بدوري بتجميعها و تحليلها في ضوء الأحداث المحلية في مصر، و الإقليمية في المنطقة، و من ثمّ أرسلها ضمن تقريري الشهري للمستشار بسمارك.

و كان من ضمن الأخبار الأولى التي وصلتني من رجلي في مصر خبر عن شارلز جوردن - الميجور جنرال الشهير و حاكم السودان أثناء حكم الخديوي إسماعيل - بخصوص استقدامه من لندن على وجه السرعة ليسافر مباشرة إلى الخرطوم على رأس حملة ليقوم بإخلاء المدينة من الموظفين الحكوميين و عائلاتهم، بالإضافة إلى الجالية الأجنبية بالمدينة و الراغبين في الرحيل من تجّار و أعيان، و ذلك قبل سقوطها الحتمي في أيدي دراويش المهدي. من المتوقع أن يصل جوردن إلى القاهرة منتصف شهر يناير ١٨٨٤، سيتلقى تعليماته على عجالة من المندوب السامي، السير إيفلين بارينج (اللورد كرومر)، و من ثمّ سينطلق على الفور على رأس حملته العسكرية إلى مدينة الخرطوم، ليصلها أواسط شهر فبراير.

و بالطبع، أرسلت بهذه المعلومة إلى الأمير بسمارك كجزء من تقريري الشهري المعتاد. و لعجبي الشديد، يعود الرسول الخاص من الفريدريشرو في زمن قياسي، حاملا تعليمات المستشار الصارمة، و التي تأمرني بالتوجّه فورا إلى مصر للإشراف و التنسيق شخصيا على تواجد ناعوم فخري، العميل الجديد، ضمن الفوج الذي سيصحب شارلز جوردن إلى الخرطوم. و كان الدافع المفترض لهذه المهمّة المستحيلة هو البحث عن شخص يدعي 'صلاح الدين المصري'، مختبئ في تخوم مدينة أم درمان، و توصيل مظروف كبير من الأمير بسمارك، مغلق و مختوم بالشمع الأحمر، إليه.

و كان تنفيذ تلك المهمّة على هذا الوجه و بهذه السرعة صعبا للغاية و يكتنفه مخاطرات لا حصر لها.

وقت استلامي لرسالة الأمير بسمارك كان في حدود منتصف شهر يناير، يوم ١٤ أو ١٥، و لم يكن أمامي الكثير من الوقت لتنفيذ رغبات المستشار الحديدي.. و كان أمامي معضلتان: الأولى هي تدبير ذريعة مناسبة لإلحاق ناعوم فخري بحملة جوردن إلى السودان، و الثانية بالطبع، هي إيجاد سبب

مقنع لسفري أنا المفاجئ إلى مصر: كنت أحتاج إلى عذر لا يثير شكوك رؤسائي في العمل في وزارة الخارجية، و إلا عرّضت نفسي و بالتالي كل أعضاء الشبكة في استانبول للافتضاح.

لن أكون مبالغا إن صرّحت أني، و برغم استحالة تحقيق مطالب الأمير بسمارك، استطعت أن أحقّق نجاحا مذهلا لا يقدر على تحقيقه حتى المخضرمون من أهل مهنة التجسّس و الاستخبارات.. يكفي دليلا إشادة المستشار ذاته، و التأكيد على وضعه في الاعتبار طلباتي السابقة بشأن وطن خاص بالدونمة، هذا بالطبع بالإضافة إلى حصولي على مكافأة خاتم ذي فصوص آخر و قلادة فضية فنية من ممتلكات عائلة بسمارك العريقة..

كانت مهمّة غير عادية، وضعتني وجها لوجه أمام شخص من أذكي و أجرأ العسكريين و المغامرين الذين التقيت بهم طوال حياتي.. أنا أتحدث بالطبع عن 'صلاح الدين المصري'، ذلك الرجل الغامض الذي كلّفني المستشار بتوصيل المظروف إليه. كان الهدف من وراء إيصال ذلك المظروف طلب شخصي من المستشار بسمارك بخصوص إنقاذ حياة شخص معيّن، و أيضا دعوة للرجل للعمل في خدمة القيصرية الألمانية.. لكن الأحداث أخذت منحي غير لطيف، و سرعان ما تدهورت العلاقة مع الرجل، لتخرج الأمور عن السيطرة و تتحوّل إلى مواجهات عنيفة، بلغت ضراوتها حدّ الوصول إلى عتبة المستشار بسمارك ذاته..

بالطبع، هو ذاته نفس الشخص الذي اقتحم ضيعة الفريدريشرو صيف عام ١٨٩٨ و صرخ في الأمير بسمارك المحتضر، طالبا منه الكشف عن شبكة جاسوس الدونمة (و الذي هو بالطبع أنا)..

لكن أعذرني، فعلا، لا ينبغي لي أن أتحدّث بمثل هذه العشوائية، فلأعد من البداية، لأسرد بطريقة معتبرة..

كنت أقول أنه لتنفيذ أوامر المستشار بسمارك بخصوص المهمّة في مصر، كان عليّ البحث أولا عن دليل للسفر لمصر (للأسف لم يوجد في الأستانة في ذلك

الوقت دليلا معتبرا مثل الكتيّب الممتاز لتوماس كوك للسيّاح للسفر في مصر و النيل و الصحراء). ثانيا، كان عليّ البحث عن مبرّر أُقنع به رؤسائي في وزارة الخارجية ليسمحوا لي بالسفر إلى مصر. خطرت ببالي فكرة معتبرة، و هي أن أستعين بأحد الأعيان المصريين المقيمين في الأستانة و المناوئين للخديوي في مصر، و إقناعه باصطحابي معه و ..."

-- الصفحات من ٦٦ إلى ٩١ مفقودة - -

طلعت رستم

٣٦

في اللحظة التي تلت ارتطام جسد علاء الصاوي بالأرض و هروب سيارة القتلة، كان عقل حازم في أقصي درجات انتباهه. التقطت عيناه بسرعة رقم و نوع و لون السيارة الهاربة، أودع تلك المعلومات في ذاكرته، ثم دار حول سيارته بسرعة و هبط عند جثة علاء الصاوي ليتحقّق من نبض الرجل.. كانت الرصاصة مباشرة في مقتل، و كان الرجل قد ودّع الحياة بالفعل.

لم يكن مقتل علاء الصاوي، الكوميديان الفرنسي، ليمرّ دون تعقيدات.. فسرعان ما تتدخّل السفارة الفرنسية و يطلب دبلوماسيّوها إشراكهم في التحقيقات، تهتمّ الصحافة المحلية و العالمية بالموضوع، و سرعان ما يضحى هو و صديقه فريسة لآلة الإعلام المفترسة.

رأى حازم شاهين كل ذلك بعين خياله، لذا و منذ اللحظة الأولى، فعل ما يوقن أنه الصواب المطلق. جذب صديقه الذاهل من يده و دفع به إلى داخل السيارة، ثم انطلق بها بأقصى سرعة.

خرج طارق من صدمته بسرعة. قال و هو يمنع دموعه بصعوبة

- إحنا بنعمل إيه؟
- بنهرب..
- بنهرب من إيه؟
- من مسرح الجريمة.. عشان ما نلبسهاش.
- ليه؟ هو احنا عملنا حاجة؟
- تفتكر الكلام ده هيفرق مع البوليس.. ما حدّش هيصدّقنا.
- طبعا هيصدّقونا.. هو احنا بلطجية، داحنا دكاترة في الجامعة..
- الراجل اللي اتقتل ده فرنساوي و ده هيخلّيهم مش متفهّمين أيّ حاجة.. أقل واجب هنتحبس على ذمّة القضية أسبوعين..

التفت طارق إليه في دهشة

- حبس؟ أمّال ابوك بيعمل إيه؟ اتّصل بيه و هو أكيد هيساعدنا..

حاول حازم الابتسام برغم توتره الشديد.

- حبسة الزنزانة أكرم لي من إنّي احتاج لأبويا.. لو اتّصلت بيه دلوقتي عمري ما هاعرف أرفع عيني في عينه بعد كده.

أمسك طارق يدّ صديقه في حزم و الدموع تطرف من عينيه.

- اللي بنعمله ده غلط.. أولا إحنا مسئولين عن اللي حصل للراجل ده..
- إحنا!
- أنا مسئول عن اللي حصل له.. أنا السبب في إنه جه من فرنسا..
- ياما حذّرتك من الجري في القضية دي.. آدي آخرة جريك ورا خيالك و ورا واحدة مومس زيّ هويدا..
- أرجوك يا حازم، ده مش وقته.. إجلدني زيّ ما انت عاوز بعدين، بس مش دلوقت.. لازم نرجع و نتّصل بالبوليس عشان يدوّروا على القتلة و يلحقوا يمسكوهم..

أوقف حازم السيارة و واجه صديقه بوجه وحشي

- و ناوي تقول لهم إيه إن شاء الله..
- كل حاجة..
- كل حاجة؟! هتقولّهم إننا فاتحين مكتب تحقيقات من غير ترخيص.. انت عارف دي فيها كام سنة سجن؟ ده غير طبعا مجلس تأديب في الجامعة، و مش بعيد رفد.. و أكيد لازم تيجي سيرة أورهان حقّي و حكاية إننا شاكّين انّه اتقتل مش مات في حادثة.. تقدر تقولّي هنقولّهم ليه كنّا ساكتين كل الفترة اللي فاتت دي؟

حملق طارق في وجهه و قد غامت الرؤية في عينيه.

- بس انا مش قادر أسيب الراجل ده ميّت في دمّه و ما اعملّوش حاجة.. البوليس لازم يدوّر على المجرمين و يمسكهم.
- البوليس بتاعنا عمره ما هيعمل حاجة ليها لازمة و عمره ما هيلاقي القتلة.. آخره هيقعد يحقّق معانا، و بعد ما يشكّ فينا عشان حركاتنا المريبة الفترة اللي فاتت، هيطلّع ميّتين اللي جابونا في التحقيق، و هنتسجن لحدّ ما يبان لنا صحاب..
- بس انت أبوك أكيد مش هيسمح إن ده يحصلّنا..
- طلّع سيادة اللوا من القصة دي.. أنا أرحم لي إنّي كنت اتقتل بدل الراجل ده و لا إنّي اتحوج لسيادة اللوا اللي انت بتسمّيه أبويا..
- حتى لو هنفكّر في سلامتنا احنا الأول.. انت عارف لو اتعرف إن احنا كنّا معاه، و ده وارد طبعا يتعرف بعدّ زيارة البوليس للكازينو.. ساعتها هيكون موقفنا وحش قوي..
- أولا، فرصة إن البوليس يمشّط المنطقة كلها، و يسأل في كل المحلات فرصة ضئيلة جدا.. حتى لو عمل كده، و حتى لو أصحاب الكازينو قالوا إن الراجل كان مع اتنين رجّالة، هيعرفوا يوصلولنا ازّاي؟
- يمكن المكان كان فيه كاميرات مراقبة..
- مفيهوش..
- ثم إن ممكن تكون فيه آثار للجريمة على العربية..
- النقطة دي مش تايهة عن دماغي.. هاغسل العربية كويّس أول ما اوصل البيت..

نظر طارق إلى صديقه في رجاء

- حازم.. أرجوك.. أنا مش قادر افكّر، لكني برضه مش قادر اعمل الغلط الكبير اللي بتقول عليه ده..

انحنى حازم عبر السيارة و فتح الباب المجاور لطارق.

- الباب مفتوح قدّامك اهو يا طارق.. اعمل اللي انت عاوزه..
- أنا يا حازم أضعف و أجبن من إني أواجه الموقف ده لوحدي.. أرجوك نرجع و نواجه الموقف ده مع بعض زيّ الرجالة..

صمت حازم و نظر أمامه في حسم، كان وجهه جامدا رغم توتّره. عاد طارق متوسّلا

- حازم، أرجوك..
- اللي عندي قولته خلاص.. و انت احسم أمرك، يا إمّا تنزل و تروح تواجه لوحدك، يا إمّا تقفل الباب عشان نتحرك و نبعد عن مسرح الجريمة بسرعة..

.. و أغلق طارق باب السيارة صاغرا.

و في الأيام التالية، انقطعت كل أشكال الاتصال بين الصديقين. راح كل منهما يلعق جراحه من آثار الحادث المأسوي في صمت: طارق عبد الهادي اعتكف في غرفته بعيدا عن أهله و عن العالم، و لأول مرة منذ تسلّم عمله طبيبا مقيما للجراحة العامة، اعتذر عن لستة عمليات الأسبوع. أمضى أيامه الثلاثة التالية في الصلاة و الاستغفار، تنتابه بين الحين و الآخر نوبات من البكاء المرير، آسفا على أفعاله التي أدّت إلى مقتل إنسان برئ، و ندما على تركه مسرح الجريمة دون إبلاغ الشرطة. و ما إن هدأ روعه، حتى حلّ به الغضب الشديد: من نفسه لأنه رضخ لقرار حازم بالهروب من المسؤولية، و من حازم لأنه أجبره على ذلك.

و لأن هذا الحادث جاء في أعقاب تدهور علاقتهما أخيرا، كان غضب طارق على حازم أكبر من المعتاد، حتى إنه فكر جديّا في إنهاء صداقتهما و قطع كل صلة تربطه به إلى الأبد.

و لحسن الحظ، جاءت زيارة هويدا سالم له في فترة حنقه من نفسه و من تخاذله المتواصل. فبفضل غضبه هذه المرة كانت لديه الشحنة المعنوية الكافية لمواجهة هويدا.

حضرت ذات مساء و ضغطت الإنتركم كعادتها.. نزل طارق إليها، لكنه لم يدعها إلى المكتب. بدأت هويدا كلامها ممتعضة، لائمة إياه و غضبانة في دلال، من أنه لم يردّ مكالماتها مؤخرا. و صعقها ردّ فعله.. إذ، و دون مبرّر، صرخ فيها و طردها إلى الشارع، محذّرا إيّاها من العودة إلى بيته مرة أخرى، معلّلا غضبه بأنه قد سئم كذبها المتواصل و سلوكها الشائن! ردّت عليه في جرأة و تحدّي، مهدّدة باللجوء إلى الشرطة و كشف مكتبه الغير مرخّص. نزع طارق لوحة المكتب المعدنية و طوّح بها إلى الأرض، معلنا انتهاء عمل المكتب نهائيا. دفعها إلى الشارع في غلظة، ثم أغلق باب العمارة وراءها بالترباس.

و للعجب، أضفي تخلّصه من هويدا سكينة على نفسه، ما سهّل تعافيه التدريجي من تأثير الحادث.

لكن بالنسبة لحازم، كانت الأمور تسير إلى الأسوأ..

بعد الحادث مباشرة، و نتيجة للضغط العصبي الكبير، راح حازم ينفث حنقه و غضبه في المشاجرة مع كل من حوله. كانت البداية مع حليفته الوحيدة المتبقية في بيت العائلة.. إيلين. إذ عاد يوما من بيت النباتات (و الذي صار كالعادة ملجأه الوحيد) و مرّ بغرفتها ليجدها غارقة مرة أخرى في إحدي نوبات إدمانها. و دون تردّد، صرخ فيها، مهدّدا بفضح أمرها إن لم تنته عن تعاطي الهيروين فورا و نهائيا. بل و في غمرة الغضب، اتّهمها بأنها مصدر شقاء البيت و أنها سبب سوء علاقته بأخته، و أمرها أن تسعي بكل وسيلة ممكنة حتى تصلح علاقته بأخته، حتى لو تطلّب ذلك منها أن تعترف لها بالحقيقة كاملة، و إلا قام هو بذلك.

استيقظت إيلين من نشوة المخدّر و حدجته بنظرة نارية، لكنها لم تردّ عليه و اكتفت بإغلاق باب غرفتها عليها. لم يكسب حازم شيئا باستفزازه لها. فلا هي توقفت عن تعاطي المخدرات، و لا سعت إلى إصلاح علاقته بأخته، و هو لم يجرؤ على البوح بالحقيقة لا لأبيه و لا لأخته.. فهتك سرّ إيلين، لن يضرّها وحدها، بل سيهدم كيان المنزل بأكمله.

و وسط الكره المشعّ من كل أفراد البيت، من أبيه و أخته و زوجة أبيه، بالإضافة إلى نفور صديقه المقرّب منه، اتّجه تفكير حازم مباشرة إلى الشخص الوحيد الذي استطاع أن يؤنسه في الفترة الأخيرة.. رائد عصام الدمياطي.

كان حازم قد لاحظ فتورا من ناحية الضابط مؤخرا، إذ لم يعد يرتاد منزلهم في صحبة والده كالعادة، بالإضافة إلى تلكّؤه في الردّ على مكالماته، و الاعتذار عن مقابلته و الخروج معه، متعلّلا بانغماسه في العمل أو السفر في مأموريات خارج القاهرة.

لكن حازم الذي سئم حبسة المنزل، قرّر يوما النزول إلى الشارع و التوجّه إلى الكافيه الذي ترتاده الشلّة، عسى أن يجد فيه بعض أصدقاء عصام ليلعب معهم الكوتشينة أو ليتبادل معهم الحوار.

و لدهشته، كان عصام هناك، كعادته يلعب و يعبث مع زملائه.

تسلّل حازم في هدوء و جلس في ركن قريب من الشلّة، لكن بحيث لا يستطيعون رؤيته.

كانوا في مزحهم و هزلهم المعتاد.. و بعد ربع ساعة من تنصّته، جاء أخيرا ذكر حازم على لسان أحد الحضور.

- إلّا صحيح يا عصام، فين الأخ الدكتور ابن اللوا بتاعك؟
- ماله؟
- هو فين، ما بقاش بيجي معاك يعني؟
- إيه، وحشكم؟

- أبدا، ده كان دمّه واقف.. أنا مش عارف أصلا انت كنت مستلطفه و بتجيبه معاك في الخروجات ليه..
- يعني، كان صعبان عليّا في الأول و حاسس إنه يجي منّه..
- أمّال طلع إيه؟
- طلع زي ما بتقول كده..
- و إيه اللي رماك على الصحوبية دي يا جدع؟
- كان شكله ابن ناس و كان صعبان عليّا في موقف كده.. لكن لمّا عاشرته، لقيته الحقيقة لا يطاق.. إنسان كئيب، سخيف و دمّه تقيل و تفكيره منصبّ على نفسه و بس.
- يالا في داهية..

انجرحت كرامة حازم كما لم تجرح من قبل. قام و تسلّل خارجا في صمت.

عاد إلى البيت كالوحش الجريح ينفث نيران غضبه في الجميع؛ تشاجر مع ريم التي عادت متأخرة، ثم مع إيلين المنتشية في الرووف، و أنهى يومه باشتباك عنيف مع والده، تطوّر بسرعة حتى وصل إلى مرحلة العراك بالأيدي.

كان شجارا و فوضى لم يشهدهما بيت شاهين من قبل. و أصاب هذا المشهد المأسوي ريم، المنهارة بالفعل من إهانة أخيها لها، بنوبة عنيفة من التشنّجات، انهارت على إثرها فاقدة الوعي.

هرع حازم ليسعف أخته و ليحميها من تأثير التشنّجات. بعد دقائق، عادت ريم إلى وعيها، لكنها ما إن فتحت عينيها و رأت حازم، حتى أغلقتها من جديد في شدة و شرعت في نوبة بكاء هيستيرية، طالبة منه أن يتركها و أن يترك المنزل.

متشجّعا بموقف ابنته، اتّخذ اللواء شاهين - الذي فاض به الكيل - قراره، و طرد حازم من البيت نهائيا.

حائرا و ليس بجواره أحد يحتوي غضبه، لم يجد حازم أمامه إلا شخص واحد مخلص يلجأ إليه.

في الساعة الثالثة صباحا، صحي طارق عبد الهادي على صوت الإنتركم. رفع السمّاعة، ليأتيه صوت حازم كما لم يسمعه من قبل.. ضعيفا، منكسرا.

- طارق، ممكن لو سمحت أبات عندكم النهاردة؟

٣٧

الثلاثاء ٢٧ يوليو ٢٠١٠

نزل طارق إلى صديقه حاملا مرتبة و وسادة و غطاء. فتح له شقة المكتب، أدخله دون كثير من كلام و ساعده على تحضير مكان نومه في عجالة.

- هتحتاج حاجة تانية يا حازم؟

جلس حازم على طرف المرتبة في ضعف. هزّ رأسه أن لا، ثم رفع عينيه في انكسار إلى صديقه

- مش هتسألني إيه اللي جابني؟
- شكلك تعبان، نتكلم بعدين..
- أنا تعبت و زهقت يا طارق..

كان طارق لا يزال غاضبا حانقا على صديقه من يوم مقتل علاء الصاوي، و لولا عشرة السنين لما فتح له الباب و أدخله.

- انت راجل و تقدر تواجه المشاكل لوحدك و عمرك ما احتجت حدّ يساعدك.. مش كده؟

في ظروف أخرى، لم يكن حازم ليسكت على مدلول الكلمات و لترك المكان على الفور، لكنه الآن يتطلّع إلى صديقه في استسلام.

- عاوزني أقوم امشي؟
- لأ..

خفض طارق رأسه خجلا و انصرف مغلقا باب المكتب وراءه.

استلقى حازم على المرتبة و قد ضربت رأسه نوبة من الصداع العنيف. منذ زمن بعيد و هو شخص سوداوي المزاج، لكن لم يتملكه يوما الاكتئاب و اليأس كما الآن. هذا لأنه الآن، و بعد إعلان الجميع كرههم و نفورهم منه، لا يجد فكاكا من مواجهة نفسه و تقييمها – ذلك الفعل الذي يخشاه و يتفاداه طوال الوقت.

تذكّر حواره القديم مع إيلين حول تقسيمه للبشر إلى مثاليين و نفعيين و ما بينهما من مجموعات، و تذكّر سؤال إيلين المفاجئ له عن المجموعة التي ينتمي إليها. ساعتها ردّ سريعا أنه لا ينتمي إلى أي مجموعة حتى لا يضطر إلى التفكير في الإجابة؛ لكن الآن عند تقييم نفسه، يجد أنه من خلال تصرفاته خلال الأحداث الأخيرة بالفعل لا ينتمي لأي مجموعة، و هذا لأنه لا يأخذ الدنيا على محمل الجدّ. هو شخص مستعلي مغرور، لا يفيد و لا يستفيد.. إن هو إلا متفرّج على العالم الذي يدور من حوله، مجرّد متفرّج متذمّر لا يقوم إلا بالتصفير مستهجنا من رداءة المسرحية التي يتفرّج عليها ليل نهار.. شخص عاجز حاقد، يسخر من سذاجة المثاليين و سفالة النفعيين. شخص حرم الجنة و النار، لكنه ما ينفك يسخر من الجميع.

حسنا، حتى لو كان هذا صحيحا، فإن هذه هي شخصيته منذ زمن؛ ما الذي جدّ الآن حتى يكرهه كل من حوله إلى هذه الدرجة؟

لماذا يكره أباه و زوجته طوال الوقت، لماذا فشل في إقامة صداقة مع عصام الدمياطي، و لماذا يخسر الآن علاقته الراسخة بطارق و ريم؟

و حلّ الجواب على ذهنه بغتة: إن شخصيته كما هي، لم تتغيّر. ما جدّ هو أن الظروف الأخيرة أخرجت كل قناعاته و أفكاره كاملة إلى السطح لتكشف حقيقته الباردة القاسية للعيان، و لتكشف عدم قابليته للعيش بصورة طبيعية بين الناس.

حسنا، ماذا عساه يفعل الآن؟

لقد هزمته الدنيا و لفظه المجتمع في احتقار، لكنه يرفض أن يكون مثل الضعفاء الجبناء، المستسلمين في استكانة، أو حتى الهاربين باستمرار.. مثل إيلين، الهاربة في إدمانها و سكرها الدائمين. لا، لن يرضي لنفسه بهذا الهوان، حتى لو اضطر إلى إخراج أفكاره النظرية في طرق الانتحار إلى طور التجربة العملية.

لكن هل به ما يكفي من الشجاعة كي ينهي هذه المأساة المسمّاة حازم شاهين؟ ثم هل التخلص من حياته شجاعة بالفعل، أم أنه أيضا ضرب من ضروب الجبن و الاعتراف الصريح بالهزيمة من هذه الحياة اللعينة؟

اعتصر اليأس روحه و دمعت عيناه حسرة على نفسه.

حاول الهروب من أفكاره السوداوية بالنوم، لكن لم يستطع. قام من رقدته هربا من الأفكار التي تحاصره و بحثا عن شيء يشغله.

****

تجوّل حازم في الشقة على غير هدى.

دلف إلى غرفة المكتب الداخلية فإذا به يجد على سطح المكتب رزمة من الأوراق مكتوبة بخط طارق. جلس حازم خلف المكتب، و أمسك برزمة الأوراق الفلوسكاب متصفّحا إيّاها. كانت مليئة بإسكتشات و تأمّلات لطارق بخصوص قضية طلعت رستم؛ فيها ملاحظاته و استنتاجاته عن كل مرحلة من مراحل البحث، بداية من زيارة الباحث التركي قبل أكثر من شهر و نصف، مرورا بجولاته في المصالح الحكومية و مقابلة السيدة أوديت، و انتهاءً بلقاء علاء الصاوي و مقابلاته المتكرّرة مع هويدا.

.. و في الصفحة الأخيرة من رزمة الورق، كان آخر ما توصّل إليه طارق.

"تحديث النقاط الخاصة بقضية طلعت رستم بعد مقابلة المرحوم علاء الصاوي:

١. بعد الاطّلاع على مذكّرات صفوت عبد الرؤوف باشا، عرفت سبب حضور طلعت رستم إلى القاهرة في المّرة الأولى، ألا و هو مقابلة فوج الجنرال شارلز جوردن قبل مغادرة القاهرة يناير ١٨٨٤. هل لهذه المقابلة من أهمية؟

٢. بالبحث في المصادر التاريخية المختلفة توصّلت إلى كتاب "العلاقات البريطانية المصرية - مذكّرات السيد إدجر ويلسون"، أحد كبار موظّفي القنصلية العامة البريطانية في مصر، في فترة ١٨٨٤ - ١٨٩٢. و بقراءة الكتاب توصّلت إلى حادث ذي صلة، ألا و هو اعتراض السفارة البريطانية (أواسط عام ١٨٨٧) لخطاب مرسل من أم درمان (عاصمة الدراويش، أتباع محمد أحمد المهدي، الحكام الفعليين للسودان في ذلك الوقت). الخطاب مرسل من جاسوس ألماني، و كان في طريقه إلى مقر السفارة الألمانية في القاهرة. لكن البريطانيين لم يستطيعوا فك طلاسم الخطاب لأنه مكتوب بشفرة معقدة. يعلّق صاحب الكتاب مستغربا عن كيفية وصول ذلك الجاسوس الألماني إلى السودان بالأساس و هي تحت قبضة دراويش المهدي الكارهين للغربيين المسيحيين في الوقت الحالي؛ ثم يعلّق في ثقة أنه لا سبيل لوصول هذا الجاسوس إلى السودان إلا إن كان قد دخلها في وقت سابق، و من ثمّ يطرح إمكانية دخوله إلى السودان ضمن قافلة الجنرال شارلز جوردن و التي كانت آخر الأفواج الرسمية التي انطلقت إلى الخرطوم عام ١٨٨٤، لإنقاذ الجالية الأجنبية قبل سقوط المدينة في أيدي الدراويش.

٣. بربط النقطة ١ و ٢، يمكن الاستنتاج أن طلعت رستم حضر إلى القاهرة لمقابلة قافلة شارلز جوردن قبل مغادرتها عام ١٨٨٤، حتى يجنّد أحد أفرادها في خدمة الدولة الألمانية، و أن هذا الشخص هو نفسه الذي أرسل الخطاب إلى السفارة الألمانية عام ١٨٨٧. و بالتالي يمكن الاستنتاج أن طلعت رستم نفسه كان يعمل في خدمة الإمبراطورية الألمانية.

٤. بالرغم من أن مذكّرات صفوت عبد الرؤوف باشا تحتوي على الاسم المستعار الذي استخدمه طلعت رستم في مصر - ألا و هو 'زكي الشامي' - إلا أنه لم يكتب أي معلومة عن المنطقة التي استقرّ فيها أو عن الناس الذين أقام عندهم.

٥. بالبحث الآن عن اسم 'زكي الشامي' في الإنترنت، لم أتوصّل إلى أي شيء على الإطلاق.

٦. إن كان من مخرج للبحث عن طلعت رستم فهو زيارة الأرشيف الألماني، و الاطّلاع على ملفّه هناك.

٨. أرسلت إلى الأرشيف الألماني عن طريق الإنترنت و طلبت الاطّلاع على ملفّ طلعت رستم. تلقّيت رسالة ترفض طلبي و توجّهني بتقديم الطلب بصفتي الشخصية في إحدى مقرّات الأرشيف في ألمانيا.. إذن طريق مسدود."

و لم يسع حازم إلّا أن يُعجب بصديقه، الذي و برغم سقوطه فريسة للاكتئاب هو الآخر كان لا يزال يتابع تحرّياته في القضية في هدوء. ها هو، و لأول مرّة يكتشف أن صديقه - و الذي كان يعتبر نفسه ضمنيا أفضل منه و أشجع - يظهر أمامه كإنسان أكثر مثابرة و إيجابية منه.

لمَ لا ينزل من عليائه المزيّفة، و يكفّ عن سلبيته الدائمة و يفعل مثل صديقه؟ لماذا لا يشغل نفسه بمساعدته الآن، على الأقل حتى يستطيع الخروج من هوّة الإحباط التي انزلق فيها؟

ترك الأوراق على المكتب، أطفأ أنوار المكان و استلقى على المرتبة و قد تحسّنت معنوياته قليلا. استهلكه التفكير في ما عساه يفعل للقضية في الأيام القادمة، و سرعان ما سقط في النوم.

استيقظ قبيل الظهيرة ليكمل تفكيره من حيث انتهى قبل النوم؛ قام أخيرا و قد اختمرت الفكرة المثيرة في عقله. طوى الغطاء و حمل المرتبة و الوسادة، و صعد إلى شقة أهل طارق. سلّمها إليه شاكرا، ثم ودّعه في حرارة.

- إيه؟ مش هتحكي لي إيه اللي جابك امبارح؟

ابتسم حازم في هدوء

- مش مهمّ.. بعدين.
- و دلوقتي هتروح فين؟ هتروح بيتكم؟
- لأ، هاروح أدوّر على أي مكتب سفريّات.
- إيه؟ هتسافر؟
- أيوه.. لازم أسيب كل حاجة بتضغط على أعصابي، و إلّا هانفجر و ارمي نفسي من فوق أي عمارة.. لازم ابعد عن ابويا و مراته اللي بكرههم، و اختي اللي بتكرهني.. حتى انت ما بقيتش تطيقني. هاعمل زيّك و اشغل نفسي بحاجة أهرب بيها من الفراغ القاتل اللي مخلّيني فريسة للإحباط و الجنون.

خفض طارق رأسه آسفا لحال صاحبه و قد خلا قلبه الطيب من كل ضغينة يحملها تجاهه.

- هتسافر فين؟
- مكان انت بِنفسك تسافر له.. المكان اللي تحريّاتك وقفت عنده.

حدّق طارق فيه في عدم تصديق

- إيه؟
- أنا قريت المذكّرات اللي انت كاتبها عن القضية.. أنا قرّرت أرجع اشتغل معاك في القضية و أكمّل التحريّات من النقطة اللي انت وقفت فيها.
- تقصد..؟
- أيوه، هسافر ألمانيا.

٣٨

الأربعاء ٢٨ يوليو – السبت ٣١ يوليو ٢٠١٠

حازم شاهين، و بحكم ثراء عائلته و عشقه للسفر، كان سائحا متردّدا على أوروبا؛ إلا أن هذه كانت المرّة الأولى له في ألمانيا.

كان يقصد في أوروبا البلدان التي يجيد التحدّث بلغة أهلها، إضافة إلى المدن الكبرى و الأماكن السياحية الأشهر في الدول الأكثر تأثيرا في تاريخ مصر و العالم العربي و الإسلامي. لذا، كانت جولاته السياحية السابقة في فرنسا و بريطانيا – الدول الاستعمارية الكبرى – و اسبانيا، الشاهد على حضارة العرب في أوروبا.

أمضي حازم اليومين الأوّلين في التسكّع مستكشفا و متنزّها في شوارع و معالم المدينة الأوروبية العظيمة. في اليوم الثالث، و بعد اتّصال مطوّل مع طارق عبر سكايب، اتّجه حازم إلى وجهته الأساسية: 'البوندس أركايف' Bundesarchiv، 'الأرشيف الألماني الفيدرالي' بمنطقة فيلمسدورف.

الكفاءة و التفاني في العمل تعتبر من السمات الأبرز في تعريف الألمان دوما، لذا تخيّل حازم ألا تستغرق زيارته للأرشيف الألماني أكثر من نصف ساعة يحصل خلالها على مبتغاه: يقابل الموظف المختصّ، يقدّم طلبا، ثم يتسلّم الرد سواءً كتابيا أو يسمح له بالاطلاع على الوثائق التاريخية، ثم يعود إلى الشوارع مستمتعا برحلته السياحية ما تبقي له من أيام قليلة.

لكن من الدقيقة الأولى لدخوله مبنى الأرشيف تبيّن له خطأ تصوّره، بداية من تطلّع موظف الاستقبال إليه في فتور.

- ماذا تريد سيدي؟

- أريد أن أبحث في الأرشيف عن شخص معيّن.
- هل معك بطاقة عضوية/ تصريح؟
- لا.

هزّ الموظف رأسه في ملل

- حسنا، قبل أن تخبرني بإسم الشخص الذي تبحث عنه، رجاءً، أخبرني عن أية حقبة أو حقب تاريخية في التاريخ الألماني سيكون بحثك..
- أريد البحث في الفترة ما بين ١٨٨٤ إلى ١٩٢٥..

التقط الموظف ورقة فارغة و كتب عليها و هو يقرأ

- تلك فترتان تاريخيتان.. الفترة الأولى هي الرايخ القيصري ١٨٦٧- ١٩١٩، و الفترة الثانية تنتمي لجمهورية فايمر ١٩١٩- ١٩٣٣.

هزّ حازم كتفيه في لامبالاة. سأله الموظف سؤاله التالي.

- هل المعلومة أو المادة العلمية التي تبحث عنها لها علاقة بالجيش؟
- أبحث عن شخص أعتقد أنه جاسوس..
- إذن تندرج تحت شئون المؤسسة العسكرية.

تخيّل حازم أن يضرب الموظف جهاز الكومبيوتر ثم يوجّهه إلى القسم المختص، لكنه كان يكمل كتابته على الورقة في ميكانيكيّة. أخيرا، ناوله إياها.

- أنظر سيدي.. بالنسبة لما يتعلق بالمؤسسة العسكرية الألمانية ابتداءً من ١٨٦٧، فستجد أن السجلات موجودة حصريا في فريبورج. هذا هو العنوان..
- فريبورج!
- إنها مدينة في جنوب ألمانيا، على بعد ٨١١ كم من برلين.

- ماذا؟

- يمكنك الذهاب بالقطار.. تستغرق الرحلة حوالي سبع ساعات. كما لن يضيرك أن تتفقّد المركز الرئيسي للأرشيف في مدينة كوبلنس.. هي في الجنوب أيضا، لكنها أقرب كثيرا.. على بعد ٦١٢ كم.

كان حازم يتطلّع إلى ورقة العنوان في صدمة.

- نحن في العام ٢٠١٠، أليس لديكم كتالوج أو فهرست إلكتروني لمحتويات الأرشيف.
- بالطبع، لدينا.
- إذن لماذا لا أستطيع أن أطلع على ما أرغب فيه على جهاز الكومبيوتر الذي أمامك..

زفر الموظف في خفوت و عضّ شفته السفلي ليسيطر على ملله من الحوار الجاري.

- لأنك لا تحمل تصريح لذلك.
- حتى عندما أذهب إلى فريبورج أو كوبلنس لن يكون لديّ تصريح..
- بالفعل، لكن المشرفين على الأرشيف سيجرون معك مقابلة قصيرة بخصوص احتياجك للمعلومة. هم فقط من لديهم الخبرة الكافية بخصوص المعلومة و درجة خصوصيّتها أو سريّتها. إذا اقتنعوا بطلبك و لم يروا ضيرا من إعطائك المعلومة التي تريدها، فسيعطونك إيّاها على الفور.
- هذا مرهق و مكلّف للغاية..
- آسف، ليس بوسعي فعل شيء.. دعني أضيف أيضا أنك يجب أن تضع في الاعتبار أنه من الوارد جدا أن لا تجد ما تبحث عنه حتى في مراكز الأرشيف في تلك المدن.
- ماذا؟!

- حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كان الأرشيف الألماني كاملا في مدينة بوتسدام، الضاحية الجنوبية الغربية لبرلين.

- ثم؟

- في عام ١٩٤٥ قام الجيش النازي بحرق معظم محتوياته قبل سقوط برلين خوفا من وقوع أوراق مهمة في أيدي السوفييت. و من المعلوم أيضا، أن كثيرا مما تبقّي من وثائق انتقل كذلك إلى موسكو. بعض تلك الوثائق عادت إلى ألمانيا، لكن لا يزال الكثير منها مفقود حتى الآن.

حملق حازم في الموظف في ذهول.

- أنت تمزح؟

ضيّق الموظف عنينه في ضيق

- لا.. بالفعل، جزء كبير من تاريخ ألمانيا الرسمي ما قبل ١٩٤٥ فُقد للأبد، لذا نقوم بملء الكثير من الفراغات بواسطة الوثائق و المذكّرات الشخصية و الكتب التاريخية.

حاصر حازم الموظف بنظراته المستنكرة.

- و تريد منّي أن أقطع كل تلك المسافات سعيا وراء أمل كاذب؟ على الأقل ساعدني في معرفة إذا ما كان الشخص الذي أبحث عنه له مستندات في فريبورج أو كوبلنس.. لا تجعلني أضيّع وقتي و مالي من أجل لا شيء.

لوى الموظف وجهه ممتعضا، لكنه هزّ رأسه متفهّما.

- لا أستطيع أن أبحث لك في الأرشيف الإلكتروني، لكني سأوجّهك لمسئول أعلى، لديه صلاحيات منح بعض الاستثناءات.

و اضطر حازم أن ينتظر لأكثر من ساعة حتى يؤذن له بالدخول على أحد المديرين.. رجل ضخم، أصلع، في نهاية الأربعينات، و العصبيّة بادية في كل حركة من حركاته. طالع الرجل تقرير موظف مكتب الاستقبال، ثم رفع وجهه إلى حازم في تربّص.

- ماذا تريد يا سيدي؟
- أبحث عن شخص اسمه طلعت رستم..
- من هو؟
- هو رجل دولة تركي.. كان موظفا في الحكومة التركية، لكني لا أعرف شيئا عن طبيعة عمله أو تخصّصه المهني. فقط أظن أنه كان جاسوسا لألمانيا القيصريّة و أنه في غضون عام ١٨٨٤ كان مكلّفا بمهمّة ما في القاهرة.. أعرف أيضا أنه كان حيّا على الأقل حتى عام ١٩٢٥ و كان ساعتها في القاهرة أيضا.
- من أنت، و ما أهمية هذا الرجل بالنسبة لك؟
- أنا طبيب تخدير، و مدرّس المادة في كلية الطب.. أما اهتمامي بالموضوع فأكاديمي و شخصي..
- أكاديمي و شخصي؟ هلّا وضّحت؟
- هذا الرجل جزء من بحث أحد الأصدقاء الباحثين في تاريخ تركيا.
- و الشخصي؟
- أعتذر عن التصريح به..

رمقه الرجل في عصبيّة ثم أخذ في ملء ورقة رسميّة أمامه. نقر جهاز الكومبيوتر أمامه، فاستيقظت الشاشة. كان يملأ بعض البيانات على الكمبيوتر و هو يسأل حازم.

- ماذا الذي تريد أن تبحث عنه؟
- أي شيء عن الرجل.

- أي شيء! يا سيدي أنت في أرشيف ألمانيا الفيدرالي، و أمامي قاعدة البيانات الكاملة للنظام.. لو بحثت عن اسم الرجل مجرّدا لربما غمرنا طوفان مهول من المعلومات، قد يستغرقنا أياما فقط لتصفّح صفحة النتائج.. صحيح أن كثيرا من الأوراق الرسميّة و المراسلات مفقودة، لكن توجد عشرات الألاف من أوراق مصوّرة و من كتب و مذكّرات و دوريّات.. لو كان لرجلك هذا وجود، سيظهر في عشرات، إن لم يكن مئات النتائج.. أرجوك كن دقيقا و أعطني كلمات مساعدة (tags) مناسبة للبحث.
- لست أعرف عنه الكثير.. أكتب عندك، طلعت رستم، تركي، القاهرة، ١٨٨٤، شارلز جوردن.

نقر الرجل أزرار الكيبورد ليدخل الكلمات. ضيّق عينيه في ضيق عندما رجع البحث دون نتيجة. أخذ في إزالة المدخلات كلمة كلمة: أزال شارلز جوردن ثم ١٨٨٤، ثم تركي.. بل إن حتّي اسم طلعت رستم مجرّدا، لم يأت بأيّة نتيجة.

هزّ الموظف رأسه في عصبية.

- لا شيء هنا.. إما أن الاسم غير موجود بالأرشيف أصلا، و هذا أمر وارد لكنه صعب.. أو الأوقع هو أن الاسم الذي معك اسم خاطئ.. آسف، لا استطيع مساعدتك.
- ربما كان الاسم يكتب بطريقة أخرى..
- نظام البحث قوي للغاية، و يستطيع أن يخرج باقتراحات للأشكال المختلفة للاسم..
- ربما كان طلعت رستم هذا اسمه الحقيقي، و ربما كان هو مدوّنا في وثائقكم تحت اسم كودي أو حركي آخر..
- وارد جدا أن يكون اسمه مدوّنا تحت اسم كودي في أثناء خدمته، و لبضع سنين بعد وفاته.. لكنه عندما يتم إدخال أيّة وثائق إلى

الأرشيف بعد نزع سريّتها، يتم إضافة كل المعلومات، حتى أسماء الأشخاص الحقيقية.

نظر الموظف العصبي لحازم في حسم، و بدأ يدور بكرسيه بعيدا عن شاشة الكمبيوتر. استوقفه حازم.

- أرجوك، حاول مرة أخرى.

توقّف الرجل في حركته و حدّج في نفاذ صبر.

- أعطني كلمة بحث مناسبة..

خطرت ببال حازم فكرة.

- دونمة.. اكتب جاسوس دونمة..

و عاد نظام الأرشيف هذه المرة بنتيجة وحيدة.. صحيح أن الوثيقة التي أفضت إليها (جزء من تحقيق قديم لشرطة محليّة) كانت غير مفيدة بالنسبة لحازم شاهين، إذ لم تشر صراحة لطلعت رستم، لكنها كانت غريبة جدا و محيّرة للغاية.

****

قبل يوم واحد من مغادرة ألمانيا و السفر عائدا إلى مصر، كان حازم شاهين يتسكّع في شوارع ميونيخ، يزور نادي البايرن و يجمع بعض التذكارات له و لأخته، و لطارق، عندما أتاه اتصال من رقم غريب.

- ألو..
- ألو.. السيد حازم شاهين؟
- نعم، من معي؟
- أنا بروفيسور يورجن شميدت.. أستاذ العلوم السياسية بجامعة برلين، عضو المجلس الألماني للعلاقات الخارجية (DGAP)، و مستشار لوزارة الخارجية الألمانية.

- أهلا و سهلا..

- أنا من أكبر الباحثين المتردّدين على الأرشيف الألماني، و في أثناء زيارتي الأخيرة، عرفت عن حضورك مؤخرا و بحثك عن بعض المواضيع التي أهتم بها أنا الآخر، أهمها 'الدونمة'، و 'طلعت رستم'.

- طلعت رستم؟ هل تعرف عنه شيئا؟

- نعم، و لا.. بالإضافة لمشاوراتي بخصوص العلاقات الألمانية – الأوروبية، فأنا أحد أكبر المحاضرين في تاريخ الحقبة القيصرية الألماني، و متخصّص في السير الشخصية للساسة في ذلك الوقت. لذا تستطيع أن تقول أن عندي بعض المعلومات أكثر مما وجدت في الأرشيف الألماني. يمكننا أن نتقابل و نتبادل بعض المعلومات.

- سأضطر للاعتذار، لن أستطيع أن أتكلم بحريّة في الموضوع. للقصة أبعاد أخرى، و بالفعل أدّت إلى الإضرار بالكثير من الأشخاص.

- أنا باحث يا سيدي العزيز.. و أقسم لك أن معلوماتك في أمان معي.

- أنت قلت أنك تتعامل مع وزارة الخارجية الألمانية.

- كباحث و مستشار فقط.. لست موظفا في الحكومة و ليست لي علاقة رسمية ملزمة بالحكومة التنفيذية. ثم إن القانون الألماني يحمي الباحث و يعطيه الحصانة ضد كشف مصادر معلوماته.. حتى لو كنت متورّطا بشكل من الأشكال في أي عمل غير قانوني، فلن يطاردك أحد.

- لست متورّطا في شيء.. لكن أرواح بعض الناس أزهقت في عملية البحث عن طلعت رستم هذا.

- دعنا نجلس و نتكلم، و لن أجبرك على شيء لا تريده..

تأفّف حازم، و حاول إنهاء المكالمة.

- صدّقني، معلوماتي عن الرجل معلومات قليلة جدا.. ثم إن ميعاد طائرتي للعودة للقاهرة غدا صباحا..
- لنتقابل اليوم..
- أنا الآن في ميونيخ..

صمت الدكتور الألماني برهة، ثم تكلم راجيا..

- انظر يا سيد حازم.. موضوع طلعت رستم هذا جزء من معضلة تاريخية مثيرة، هي من أكثر النقاط غموضا في تاريخ شخصية عظيمة مثل شخصية المستشار الأشهر، باني الدولة الألمانية.
- من؟ بسمارك؟
- نعم، أوتو فون بسمارك، رئيس وزراء بروسيا، ثم مستشار الإمبراطورية الألمانية الموحدة.
- غريب..
- هل اطلعت على الوثيقة التي أخرجها لك نظام الأرشيف الألماني بويلمسدورف؟
- نعم، لكن لم أفهم منها أي شيء.
- ربما استطعت أن أرفع بعضا من حيرتك و إمدادك بما ترغب من معلومات. لن أنكر، غالبا أنا من يحتاج إليك اكثر من احتياجك إليّ.. أرجوك، وافق على مقابلتي. إن طلعت رستم هذا هو الصندوق الأسود، الذي ربما حمل بداخله الحل لمشاكل بحثي و متناقضاته.
- للأسف، معلوماتي عن الرجل قليلة للغاية، و سأخيّب أملك.
- دعني أنا أحكم..
- و طائرتي بالغد؟
- إلغي حجز سفرك و استردّ ثمن التذكرة، و سأعوضك خسارتك المادية..
- لن أغيّر مواعيدي من أجلك يا سيدي.. إجازتي من عملي في القاهرة تنتهي بعد غد، و عليّ استلام العمل.. لكن عندي رأي..

هتف الباحث الألماني متلهّفا

- تفضّل..
- يمكنني مقابلتك غدا عند وصولي إلى محطة برلين الرئيسية للقطارات، و يمكن أن نتكلم بعض الوقت حتى ميعاد طائرتي.
- عظيم.. سأنتظرك في محطة قطارات برلين الرئيسية غدا.. ما هو ميعاد وصول قطارك؟

٣٩

الأحد ١ أغسطس ٢٠١٠

هبط حازم شاهين من القطار القادم من ميونيخ، في تمام الساعة ١١ و ١٨ دقيقة صباحا، ليتّجه كما الاتفاق إلى الأريكة الرخامية المقابلة لمخرج العربة الرابعة؛ و هناك بالفعل كان البروفيسور يورجين شميدت جالسا في انتظاره، يرشف القهوة من كوب ورقي في هدوء و بين ساقيه حقيبة يد كبيرة. خمسيني، متوسط الطول، أقرب إلى القِصَر، نحيل، ضخم الرأس أصلعه، و على وجهه لحية بيضاء كثة منمّقة بعناية.

- دكتور شميدت؟

قام الرجل بسرعة، مادّا يده في احترام.

- السيد حازم شاهين..
- أنا هو..
- أشكر لك تنازلك و تلبيتك رغبتي في المقابلة..
- لابأس، لكن عليّ تذكيرك أنه يفصلني عن موعد طائرتي أقل من ثلاث ساعات. يمكننا الجلوس في أحد الكافيهات أو المطاعم القريبة من المطار، و الحديث و تناول الفطور في نفس الوقت.
- بكل سرور.

و على كوبيّ كابتشينو و قطعتيّ كرواسون كبيرتين، بدأ الحديث. طلب حازم من البروفيسور أن يبدأ هو بما عنده. بدا على الرجل الامتعاض لوهلة، لكنه رضخ.

- بدأ انتباهي لهذا الموضوع قبل خمسة عشر عاما، أثناء إشرافي على رسالة ماجستير عن سكان إقطاعية ’فريدريشرو‘ Friedrichsruh في غابة ساكسون، بالقرب من هامبورج، تلك الإقطاعية التي منحها القيصر ولهلم الأول للمستشار بسمارك مكافأة له بعد توحيد ألمانيا و بعد النصر المدوّي لألمانيا على فرنسا الإمبراطورية عام ١٨٧١. انتقل إليها رجل الدولة العجوز بعد استغناء الرايخ الألماني عن خدماته و بعد وفاة زوجته، و فيها قضي الأمير بسمارك آخر ست سنوات من عمره، و هو الآن مدفون في ضريحه هناك الذي تحوّل إلى كنيسة صغيرة.

- ما علاقة هذا التاريخ الذي تحكيه بطلعت رستم؟

- اصبر، سآتي على ذكر كل شيء. كنت أقول أني من خمسة عشر عاما كنت أشرف على رسالة ماجستير عن سكان إقطاعية المستشار بسمارك.. و كما هو متوقّع أثناء تحضيري أنا و طالب الماجستير للمادة العلمية، لجأت للأرشيف الألماني، و ساعتها وقع تحت يدي ذلك المحضر الشُرطي، و الذي اطلعت أنت عليه قبل يومين.

- كان وثيقة غريبة محيّرة لم أفهمها.

- دعني أعيدها عليك باختصار. الوثيقة عبارة عن محضر شرطة تم بناء على استدعاء أهل بيت بسمارك للشرطة بعد اقتحام أحد الغرباء للبيت أواسط عام ١٨٩٨، بالضبط في ٢٠ يونيو ١٨٩٨، تقريبا قبل شهر من وفاة باني ألمانيا الموحّدة و رجل دولتها الأعظم. أتت الشرطة و حقّقت مع ساكني إقطاعية الفريدريشرو. البيت كان خاليا في ذلك الوقت تقريبا إلا من خدم المنزل، و الذين شهدوا بدخول رجل غريب عبر نافذة البيت حاملا سلاح ناري، و اقتحامه في سرعة غرفة رجل الدولة المحتضر، و هنالك صرخ فيه على مسمع و مرأي من خادم بسمارك الخاص، قائلا: "أريد القائمة الكاملة لشبكة جاسوسك الدونمة العثماني."

- هذا بالضبط ما كان بالوثيقة.

- و الجملة الأخيرة هي السبب في ظهورها عند بحثك في الأرشيف الإلكتروني عن تركيبة كلمتي دونمة و جاسوس.

- المهم، ما معنى هذه الحادثة؟

- المعنى واضح. بسمارك كانت له شبكة معيّنة من الجواسيس بمعزل عن المؤسسة القيصرية الألمانية، و هو كان الشخص الوحيد المسئول عنها..

- أليس هذا باستنتاج مبالغ؟ ربما كان هذا الزائر الغريب مجرد شخص مجنون؟

- ردّ فعل بسمارك لهجوم ذلك الغريب المقتحم يثبت أن المقتحم ليس شخصا مجنونا و أنه لم يقل كلاما غريبا بالنسبة لبسمارك. إذ و كما تقول الوثيقة، قام الأمير المحتضر بطرد خادمه من الغرفة و اختلي بالغريب لبضع دقائق، انصرف بعدها الغريب في هدوء. و عند محاولة رجل الشرطة التحقيق مع بسمارك ذاته، اعتذر متعلّلا بسوء حالته الصحية.

- ربما خيّل للخادم سماع الكلمات..

- يا ربي، كيف يخطئ المرء في سماع كلمتيّ جاسوس و دونمة.

- حسنا، أكمل..

- بالطبع أصابتني قراءة الوثيقة بالدهشة.. جُبت الأرشيف الألماني طولا و عرضا، و سألت أساتذتي المتخصصين في تاريخ بسمارك، لكن أحدا لم يسمع عن هذه الحادثة الغريبة.. ناهيك عن عدم معرفتهم أصلا بموضوع شبكة بسمارك الجاسوسية الخاصة.. و هنا كانت أمامي فرصة ذهبية لاكتشاف جزء مجهول من التاريخ.

- مستشار الإمبراطورية و المتحكّم في كل الأمور، يكوّن شبكة جاسوسية خارج النطاق الرسمي؟ هذا أمر غريب.

- بالعكس، إن هذا يتماشى تماما مع شخصية بسمارك العبقرية و الغير تقليدية، الشديدة الوسوسة و الشك، و المبالغة في ردود أفعالها و حذرها.

- و إذا كنت قد عرفت عن 'الشبكة الجاسوسية' المفترضة لبسمارك عن طريق الأرشيف الألماني، فكيف عرفت باسم طلعت رستم ذاته، و هو غير موجود في الأرشيف؟

- نظرا لطبيعة عملي كأستاذ أكاديمي مختصّ بتلك الحقبة التاريخية، تفتح أمامي بعض الأبواب، تتاح لي فرصة الاطلاع على المقتنيات و التراث الخاص ببعض الشخصيات التاريخية و التي تحتفظ بها عائلاتهم بعيدا عن الأرشيفات نظرا لتضمّنها بعض التفاصيل الشخصية و العائلية المحرجة. و في تراث البارون هلموت بلامان وقعت على اسم طلعت رستم. و البارون هذا رجل ارستقراطي من شونهاوزن، مسقط رأس بسمارك، و أحد كبار معاوني بسمارك حتى آخر أيامه في المستشارية. في الوثائق الغير رسمية الموجودة في تراث الرجل، وجدت قائمة ممهورة بتوقيع بسمارك يأمر فيها بصرف مبالغ مالية معينة إلى خمسة من رجاله في البلدان الخمسة الأهم في ذلك الوقت: الولايات المتحدة و بريطانيا و فرنسا و روسيا، و بالطبع الإمبراطورية العثمانية. هل تستطيع أن تخمّن اسم رجل المستشار بسمارك في إسطنبول؟

- طلعت رستم!

- بالضبط..

- الآن أجد نفسي مضطرا لتصديق نظريتك..

- إنها حتما صحيحة..

نظر شميدت إلى ساعته متوترا

- و الآن أرجوك.. جاء دورك.. بقيت أقل من ساعتين على ميعاد طائرتك. من فضلك، أخبرني بكل ما لديك.

كان حازم قد اطمأن للرجل، لذا نحّي حذره جانبا و حكي لأستاذ الجامعة الألماني عن كل شيء: بداية من زيارة أورهان حقّي لمكتب التحرّي في جسر السويس، مرورا بمقتله و رحلة البحث عن مذكّرات الباشا المصري، و

انتهاءً بمقتل علاء الصاوي و توصّل طارق إلى قصة الجاسوس الألماني الذي التقاه طلعت رستم قبل تحرّك حملة شارلز جوردن إلى الخرطوم عام ١٨٨٤.

كان يوهان شميدت فاغر الفم منبهرا، مشدوها طوال الوقت. بعد انتهاء حازم من روايته، التقط البروفيسور حقيبته و أخرج منها جهاز لاب توب.

- ماذا ستفعل؟
- سفر طلعت رستم من القسطنطينية إلى القاهرة خصيصا لمقابلة شخص في حملة شارلز جوردن لابد و أن يكون لهدف مهم للغاية. ربما كان لهذه المهمّة أثر في وثيقة ما هنا أو هناك. سأدخل حالا على الأرشيف الفيدرالي الألماني، لعلّ الحظ يحالفنا و نجد شيئا ذا قيمة.
- هل تستطيع الدخول على الأرشيف من أي مكان؟
- أنا باحث اكاديمي و ليس من المنطقي أن أقطع الطريق إلى الأرشيف في كل مرّة أرغب في البحث عن معلومة ما.. لي حساب مفتوح على موقع الأرشيف، أستطيع الدخول إليه في أي وقت.
- و عن ماذا ستبحث؟

كان بروفسير شميدت قد فتح صفحة الموقع، أدخل بياناته، و سرعان ما ظهرت له خانة البحث.

- لتكن كلمات البحث مثلا: جاسوس ألماني، مصر، السودان، ثورة المهدي، ١٨٨٠-١٨٨٩، مراسلات.

ثم ضغط زرّ الإدخال، لتظهر له عشرات النتائج. كان بروفسير شميدت يضغط الوصلات و وجهه يتألّق مرة بعد الأخرى. أخيرا هتف في فرحة عارمة.

- لن تصدّق ما وجدته.
- أكاد أرى السعادة على وجهك.. أخبرني..

- من بين النتائج، هناك واحدة عبارة عن خطاب مرسل من القاهرة، عام ١٩٢١، إلى وزارة الخارجية الألمانية، موجّها إلى رعاية البارون هلموت بلامان شخصيا.
- من هلموت بلامان هذا؟
- إنه مساعد بسمارك الشخصي الذي رأيت في تراثه وثيقة الخمس جواسيس.
- لحظة، أنت تقول عام ١٩٢١؟ أي بعد زيارة طلعت رستم الأولى إلى القاهرة و حملة تشارلز جوردون بـ٣٧ سنة!
- نعم، و بعد سبع سنوات من وفاة بلامان نفسه.
- نعم!
- و كما مكتوب في النص الرسمي المرافق للرسالة، فبوفاة بلامان تم إرسال المظروف إلى المسئول الحكومي الذي حلّ محل بلامان.
- و ما هو محتوي تلك الرسالة؟
- سأخبرك حالا.. يقول التقرير أنه عند فتح الرسالة، وجد بداخلها خمس عشرة ورقة مكتوبة بلغة مشفّرة لم يتسنّى لهم فك طلاسمها وقتها و لذلك أودعت الأرشيف في بوتسدام.
- لا تقل لي أنها أحرقت في حريق ١٩٤٥، عندما أحرق الجيش النازي الأرشيف..
- أنت تعرف عن ذلك الحريق! لكن لا تقلق لم تُحرق الرسالة و لازالت محفوظة حتى الآن..
- الحمد لله.. الآن عليك أن تجدها و أن تحاول فك شفرتها بأي طريقة و ساعتها قد نعرف الكثير.
- لكن كما مكتوب هنا، الرسالة، و كجزء من حملة الأرشيف الألماني لمراجعة وثائقه، أعيد اكتشافها و تمّ فك شفرتها بواسطة طاقم متخصص عام ١٩٩٩، و تم عرض النتائج على المتخصصين، و انتهى الأمر بحفظ الرسالة الأصلية و ترجمتها في الأرشيف.

و لكم تمنّي حازم لو كان طارق معهما ليشهد هذه اللحظة.

- و هل تستطيع الاطلاع على هذه الرسالة؟
- أنا أقوم بتنزيلها الآن.. لكن خمّن ماذا كانت اللغة الأصلية التي كتبت بها هذه الرسالة المشفّرة؟
- لا أعرف..
- لغة اللادينو..
- ما هي؟
- إنها إحدى لغات اليهود السفارديم.
- و بالتالي الدونمة!
- بالطبع.

نزل ملف الرسالة و قام بروفسير شميدت بفتحه مباشرة، ثم أخذ في قراءة النص الألماني و ترجمته حرفيا إلى حازم.

[illegible]

وصلت الطائرة العائدة من برلين في تمام الرابعة صباحا.

[illegible]

الدونمة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

❊٤٠❊

الاثنين ٢ أغسطس ٢٠١٠

وصلت الطائرة العائدة من برلين في تمام الرابعة صباحا.

كونه لا يحمل متاعا يذكر، إلا بعض الهدايا، استطاع حازم إنهاء إجراءات المطار بسرعة، و قبل انقضاء الساعة كان يخرج من صالة الوصول. اتّجه إلى ساحة الانتظار حيث ترك سيارته طوال مدة السفر، دفع الإيجار المكلّف، ثم انطلق خارجا من مطار القاهرة الدولي. و لأول مرة يعود من السفر دون التوجّه مباشرة إلى فيلا شاهين.. حيث الطعام و الخدمة و الراحة المطلقة.

عوضا عن ذلك، توجّه إلى شارع جسر السويس، إلى تلك العمارة الباهتة ذات الثلاثة أدوار.. منزل صديقه طارق عبد الهادي.

كان قد اتصل بصديقه قبل يومين من نزوله، طالبا الإذن في السكن في شقة المكتب حتى يجد لنفسه مكان إقامة آخر. وافق والد طارق على الفور، دون حتى استشارة أسرة أخيه المتوفّي، بل و رفض أخذ أي إيجار من حازم طوال إقامته في الشقة.

ضرب حازم زرّ الإنتركم، فردّ عليه صوت طارق الناعس

- مين؟
- أنا جيت يا طرروق..
- طب ادخل انت المكتب، و انا أصحصح و انزل لك..
- مستنّيك.. و يا ريت تجيب معاك شاي و فطار..

فتح باب الشقة الأرضية و دخل ليقابله داخل المكتب الكئيب البائس.. فالمكتب منذ سفر حازم، لم يدخله و لم يرتّبه أحد. فتح المروحة و وجّهها نحوه، ثم تمدّد على كرسيّين.

و بعد نصف ساعة، حضر طارق موازنا بصعوبة صينية الشاي و السندوتشات و متعثّرا في خطواته كالعادة. تصافح الصديقان و تشاكسا قليلا. تساءل حازم

- حد سأل عليّا و انا مسافر؟

هزّ طارق رأسه نافيا في أسف

- محدّش من أهلك.. بس الرائد عصام، صاحبك اللي جه معاك قبل كده، جه و سأل عليك: قال إنه سأل ابوك و اختك عنّك، بس ما حدّش كان عارف، فجه يسأل عنّك، فقلت له انّك سافرت.
- فيه الخير.

قالها حازم دون حماس، ثم اتّجه إلى صينية الطعام.

- يالا يا عم ناكل، دانا هأموت من الجوع..

ثم جلسا، يتناولان الفطور. كان طارق متلهّفا للسماع عن رحلة صديقه في ألمانيا.

- احكي لي بقي كل حاجة.. من ساعة ما نزلت من الطيارة من مطار برلين تيجيل الدولي و لحد ما ركبت الطيارة تاني.. كل حاجة، و الصور.. إوعي تكون نسيت تصوّر كل حاجة زي ما قلت لك..
- ما تخافش.. هاحكي لك كل حاجة و هافرّجك على كل الصور.. بس الأول، و قبل أي حاجة، لازم اقولّك عن المهمة الاستكشافية و نتايجها..
- ما تقولش! عرفت توصل لحاجة؟
- حاجات أكتر مما تتخيّل.

و راح حازم يسرد مغامرته الفريدة، بداية من زيارة الأرشيف الفيدرالي الألماني، وصولا للساعتين الحاسمتين في الكافية القريب من مطار برلين.

****

الثلاثاء ٣ اغسطس ٢٠١٠

و في اليوم الثاني من عودة حازم شاهين إلى القاهرة، كان في مستشفى الكلية، ينهي إجراءات استلام العمل في قسم التخدير بالمستشفى. لم يكن لديه عمل بالمستشفى يومها لذا قرّر البحث عن بعض سماسرة مصر الجديدة بحثا عن شقة. توجّه إلى جراج المستشفى، ركب سيارته و انطلق.

كان يختصر الطريق عبر شارع وحدة الدمرداش، الواقع خلف مستشفى الجراحة و الكاتدرائية الأرثوذكسية، عندما قطعت الطريق أمامه سيارة فورد إسكورت مسرعة، توقّفت بغتة لتسدّ الطريق أمامه. و خلف عجلة القيادة، كان ذلك العدوّ الشرس، الذي كان قد نسيه في غمرة الأحداث..

النقيب أشرف محجوب..

كان حازم يخرج هاتفه بسرعة لإجراء اتصال طلبا للنجدة عندما هبط عليه رجلان كانا يقفان بجانب الطريق استعدادا لتلك اللحظة التي تقف سيارة حازم فيها أمامهما. انتزع أحدهما الهاتف المحمول من يدّ حازم في قوّة، ثم فتح باب السيارة و بمساعدة رفيقه، قاما بخلع حازم من مقعده و حمله إلى السيارة الفورد.

و تجاه نظرات المارّة المحملقة، أخرج النقيب أشرف رأسه مكشّرا في وجوه الجميع و ملوّحا بكاب الشرطة الأبيض.

- بوليس يا ابني انت و هوّا.. كل واحد يروح لحاله..

قيّد الرجلان يديّ حازم وراء ظهره، ثم كمّما فمه، و ألقيا به تحت أقدامهم عند أريكة السيارة الخلفية.

و انطلقت السيارة في تحدّي، دون أن يجرؤ أحد من المتفرّجين بالشارع على التدخّل أو حتى النبس ببنت شفة.

استدار أشرف ناحية حازم و نشوة شرسة تطلّ من عينيه

- والله و وقعت في إيدي يا حازم الكلب..

متألّما، مهانا، و متوتّرا، أيقن حازم أن الساعات القادمة ستكون الأسوأ في حياته.

****

و انطلقت السيارة الفورد إلى أعماق مدينة نصر، إلى منطقة شبه صحراوية ما بعد مقابر الوفاء و الأمل. و في شارع مهجور ليس به إلا عمارات قليلة تحت الإنشاء، توقّفت السيارة الفورد عند إحداها.

أخرج الرجلان حازم المقيّد و دفعاه أمامهما، في حين خرج النقيب أشرف بسرعة من سيارته لينقضّ على حازم يركله في رجولته. انثني حازم من الألم، فعاجله أشرف بصفعة قوية، ثم بلكمة أقوي أدمي بها أنفه. طلب أحد الرجلين - الأكبر سنّا و حنكة - من أشرف أن يصبر حتى يصعدوا إلى الشقة المغلقة كي لا يجذب الصوت انتباه عمّال المعمار في المنطقة إليهم.

و بعد خمس دقائق و خمسين درجة سلّم، وصل الجمع إلى مقصدهم. فُتحت الشقة، ليركل أشرف أسيره إلى الداخل. يسقط حازم على الأرض الإسمنتية الصلبة فيدمي وجهه و تتهشم أنفه تماما؛ من الآن و صاعدا، سيتنفّس حازم حصريا من فمه.

كانت الشقة لا تزال على المحارة، لكن يبدو أنه تم إعدادها مسبقا لهذه الزيارة، خصوصا قاعة الاستقبال. ففي أحد الجوانب كانت مجموعة من

السلاسل الحديدية، اثنتان متدلّيتان من السقف، و اثنتان مثبّتتان في الأرض، إضافة إلى طاولة خشبية تتراصّ فوقها مجموعة من الآلات الحادّة و كاميرا فيديو ضخمة مثبّتة على حامل كبير.

و بسرعة أخذ الرجلان حازم المستسلم و ربطا أطرافه الأربع بالسلاسل، ثم جذبوها في شدّة ليتعلّق في الهواء مشدود الأطراف.

و انتابت أشرف محجوب نوبة من الضحك الهستيري الممزوج بالبكاء.

- ها ها.. ها ها.. انت مش عارف انا كنت مستنّي اللحظة دي قد إيه.

ثم صفع حازم على وجهه من جديد.

- أحب اعرّفك على البروجرام بتاع الليلة.. أولا، الافتتاحية، حاجة خفيفة، ضرب بالكرباج، و نزع أظافر، و كهربا في مناطق حسّاسة..

ثم تمشّي في جزل، و اقترب من الرجل الأصغر سنّا، و أمسك كتفيه في تدليل. كان شابا ضخما، لم يتجاوز الثلاثين، قبيح، حيواني الملامح و على وجهه ضحكة مجنونة شديدة الشراسة.

- شايف الوحش ده، أنا هرّبته من سجن المرج مخصوص علشانك.. ده يبقي سي السيّد كل الحريم اللي هناك.. سي السيّد هو بطل الفقرة التانية، عشان يعرّفك بكل الواجبات الزوجية.

ثم تحرّك أشرف إلى الكاميرا و ربّت عليها في حنان.

- و كلّه طبعا هيتسجل على الكاميرا دي عشان العيلة الكريمة و الأصحاب يتفرجوا بعد كده في الوقت المناسب..

ابتعد و أسند ظهره إلى الحائط و أشعل سيجارته.

- أما بقي الفقرة التالتة و الأخيرة.. الفينالة، فحاجة فاخرة. دي بقي بتاعتي أنا، فقرة الضرب حتى الموت.

دخّن سيجارته في استمتاع عظيم.

- ما انا مش ناوي أكرّر غلطتك يا كتكوت، و اسيبك تخرج من هنا على رجليك.

اقترب، يتمشّى إلى حازم في جزل. نفخ دخان سيجارته في وجهه في تشفي كبير.

- أوعدك البروجرام هيكون حاجة فاخرة، حاجة معتبرة، مش زي عزومة كازينو تولوز الرخيص بتاعك.

ثم أمسكه من شعره و قرّب وجهه متطلّعا إليه في وحشيّة.

- بقالي شهرين عمّال بأغلي من جوّايا.. و أخيرا جت الفرصة.. أنا سعيد.. اقسم بالله فرحان و منتشي بطريقة عمري ما حسّيتها في حياتي.. لا حريم و لا كيف الدنيا كلها يعمل دماغ زي الدماغ دي أبدا.

طوال الوقت كان حازم صامتا، متحمّلا في صلابة، و قد قرّر أن يموت في رجولة. لم يرد أن يمنح عدوّه نشوة رؤيته مكسورا منهزما. بل إنه نظر في عينيّ غريمه في نديّة، و شبح الابتسامة على وجهه.

- مش خايف من الصور و الفيديوهات اللي *انا* ماسكهم عليك.. صدّقني، حتى لو متّ، هيطلعوا في الوقت المناسب.

و أطلق أشرف ضحكة هستيرية، متبوعة بأصوات قبيحة.

- و انا كان في حاجة منعاني عنّك كل الفترة اللي فاتت دي غير الصور و الفيديوهات دي.. بس خلاص، كله بخ..
- بخ؟

- أيوه.. بأمارة ما انت كنت شايلهم على الهارد الـseagate الـ٦٤ جيجا اللي كنت مخبّيه في صندوق في الشقة اللي قالبها مكتب انت و صاحبك.. المكتب اللي في العمارة اللي في جسر السويس.

انتابت حازم قشعريرة عنيفة كادت تخلع رأسه من رقبته.

- انت عرفت مكانها ازّاي؟

سحب أشرف نفسا عميقا من سيجارته ثم ألقى بها تحت قدميه و دهسها في قوة. لعق شفتيه ثم غمز بعينه اليسرى.

- من المُزّة ام شعر كيرلي..

و كأنما سقط برميل من المياه المثلّجة على جسد حازم المرهق، فارتجف جسده للحظات.

- هويدا سالم!
- آه.. انت تعرف مزّة بشعر كيرلي غيرها؟
- و انت عرفت تتوصلّها ازاي؟
- أنا موصلتلهاش.. دي هيّا، بنت الجنيّة، اللي وصلت لي.
- هيّا اللي وصلت لك؟
- بقولّك بنت جنية، مخّها يتلف في حرير.. لما قعدت معايا و حكت لي كل حاجة، ما صدّقتش ان فيه حد ممكن دماغه تفكّر في كل ده، و جرأتها توصل انّها تلعب بكميّة الناس دي كلها اللعب ده كله.
- دي مومس و كدّابة..
- معاك آه، معايا لأ.. ما انا قعّدتها و خلّيتها تقول الحقيقة من طق طق لسلامو عليكم و اتأكدت من كلامها قبل ما آمن لها..
- ضحكت عليك زي ما ضحكت على اللي قبليك.. و نهايتك هتكون على إيديها..

- تقصد نهاية زيّ نهاية أورهان الراجل التركي، و علاء الصاوي الكوميديان الفرنساوي، اللي خلّصت عليهم؟ و لا نهاية زي نهايتك و نهاية صاحبك، اللي هي هتخلّص عليه بنفسها دلوقت؟
- انت بتخرف بتقول إيه!

قالها حازم في صرخة ممزوجة بألم و صدمة عظيمة. كان قد فقد السيطرة على نفسه و على الحفاظ على كبريائه، فظهرت الصدمة و الخذلان بوضوح على وجهه، حتى إن وجه أشرف تألّق في نشوة.

- باين ان الموضوع ده حارقك أكتر من الضرب.. خلّيني احكي لك و امتّع عنيّا برؤياك و انت مهزوم، و اشوف خيبتك القويّة و انت بتعرف ازّاي كنت لعبة في إيد هويدا طول الوقت.. و بعد كده ما تخافش، بقية الفقرات زيّ ماهيّا.

****

أشعل أشرف محجوب سيجارته الثانية.

- لسه فاكر أول مرّة شفت فيها هويدا سالم، لما دخلت عليّا مكتبي في المديرية بتتدلّع و بتتمايس.. مُزّة بشعر ملولو جايّة تغويني، زيّها زي غيرها كتير. لما قالت لي انها عارفة اللي بيني و بينك من عداوة، و انها زيّي عاوزة تنتقم منّك، انتبهت ليها، بس مش قوي برضه. في الأول افتكرتها مجرّد واحدة كانت ماشية معاك و انت عملت معاها الدنيئة و دلوقت جاية تنتقم منّك. يعني مش الحليف المعتبر لمحاربة تعلب زيّك. بس لما بدأت تتكلّم، و ابتديت اسمع كلامها و خططها، اكتشفت انّي مش قدّام حدّ عادي. اشترطت عليها تقولّي على كل حاجة بينك و بينها. قعدت تلفّ و تدور، و في النهاية، و عشان احتياجها لمساعدتي اضطرت تقول الحقيقة الكاملة.
- اللي هيّا إيه؟

- إنها من الطائفة اللي كان بيدوّر عليها الراجل التركي..
- قالت لك إنها دونمة!
- أيوه.. هي البتاعة دي..

مادت الأرض تحت قدميّ حازم المكبّلتين و اسودّ وجهه، في حين اتّسعت الابتسامة على وجه أشرف محجوب.

- قالت لي انّهم من البداية، من ساعة ما الراجل التركي ده بدأ ينخور ورا تاريخ الطائفة في مصر، و همّا حاسين بالخطر، عشان كده اضطروا يبعتوا حدّ منهم يتقرّب منّه و يعرف هوّا بيدوّر على إيه و عاوز إيه؟ فطبعا بعتوا بنتهم هويدا سالم.. بنت جميلة و جذّابة، و الأهم شاطرة و ذكية جدا.. لكن و بحسب كلامها، هويدا اكتشفت ان الراجل التركي ده وصل لحاجات كتير جدا و انّه أصبح بيمثّل خطر كبير على جماعتهم، عشان كده قرّرت الطائفة انّها تتخلّص منّه.. لكن كان عليهم انتظار الفرصة المناسبة لتنفيذ مخطّطهم..
- بيتهيّألي انا عارف اللحظة دي.. ساعة لما أورهان قرّر انّه ينفصل عن شريكته الدنماركية..
- أيوه.. و ساعتها بقى هويدا أقنعت أورهان انّه يلجأ لكم.. غرضها الحقيقي كان ان انت و صاحبك تكونوا شهود إثبات.. و كانت الأمور هتمرّ على خير لولا نخورتك انت و صاحبك و توصّلكم للراجل اللي اسمه علاء الصاوي.. اللي فهمته انّه كان معاه كتاب فيه معلومات ممكن توصّلكم لعائلة هويدا.. عشان كده كان لازم يخلصوا منّه و من الكتاب.. بعد كده، انت و صاحبك ما همدتوش، و في نفس الوقت ابعدتوها عن متابعة خطواتكم.. عشان كده كان قرارها هيّا و جماعتها بالتخلّص منكم قبل ما توصلوا لشخصياتهم الحقيقية.. عشان كده لجأت لي.. أنا أخلّص عليك و هيّا تخلّص على صاحبك..

أطرق حازم برأسه مفكّرا رغم الألم.

- القصة دي مش مظبوطة.. أولا هويدا كانت بالعكس بتترجّاني انّي أكمّل في البحث عن الدونمة، مش انّي أوقّف..
- هيّا فعلا قالت لي انها كانت بتعمل كده عشان تكسب ثقتك و عشان تشوف آخرك في القضية دي لفين..
- ثانيا، و ده الأهم، هي لجأت لك انت ليه؟
- عشان عارفه انّي هاطلع ميّتين أهلك، و انّي كفاءة انّي اخلّص عليك.. طلبت منها طلب واحد بس، إنّها تعرف لي انت مخبّي صوري و فيديوهاتي فين.. هي ادّحلبت على صاحبك و عرفت منّه، و بعد كده، خلّيت واحد من صحابي يدخل الشقة و ياخد الهارد.
- آه يا شوية حراميّة حوش..

صفعه أشرف على قفاه في غلّ.

- اخرس.. انت آخر واحد يتكلم عن الأمانة بعد اللي عملته فيّا يا كلب..

لم يلقي حازم بالا للصفعة، و ابتسم لضاربه متهكّما.

- انت برضه مخّك تخين يا أشرف، و مش فاهم سؤالي.. سؤالي، هي ليه هتخلّيك انت اللي تقتلني، ليه مش هيّا و لا حدّ من أهلها اللي يقتلني.. بيتهيّألي واضح ليك من قتلهم للتركي و لعلاء الصاوي إن الناس دي معندهاش مشكلة في القتل..

كاد أشرف أن يصفع حازم مرة أخرى لكنه توقف مفكّرا لبرهة، في حين نطق حازم موضّحا ما استعصي على فهم الضابط.

- الناس دي معندهاش مشكلة في القتل، لكن عندهم مشكلة كبيرة في إنّهم يتكشفوا.. واضح يا أشرف يا محجوب، إنّهم عملوا كده

عشان يلبّسوك انت الجريمة، و يطلعوا همّا منها نضاف، و ما حدّش يعرف عنهم حاجة.

و أصابت المفاجأة أشرف، فوقف في مكانه جامدا لوهلة. تطلّع إلى حازم و الغلّ و التوتّر يقطران من عينيه. كان ينفث الهواء من أنفه كما الثور.

- إيه؟ عاوزينّي اقتلك و يمسكوا عليّا دليل يلبّسوني بيه الجريمة؟
- ما تقولّيش يا أشرف انّك غبي فعلا زيّ ما هو باين عليك..

ضغط أشرف أنف حازم في عنف، فصرخ الأخير صرخة مكتومة. أكمل حازم رغم الألم

- انت يعني كنت فاكر ابن مدير أمن القاهرة هيتقتل سُكّيتي.. مش لازم حدّ يشيل الليلة في الآخر.
- كنت هارمي جثّتك في النيل.
- و لّما تطلع من النيل، و يلاقوا عليها آثار التعذيب.. و الفيديوهات اللي انت بذكائك كنت هتصوّرها.. و الراجل اللي انت جايبه عشان يغتصبني.. تفتكر مدير أمن القاهرة مش هيعرف يوصل للمعلومات دي كلّها.

أطرق أشرف برأسه في ضيق واضح. دار و لكم حازم في بطنه في غيظ، ليصرخ حازم في صرخة مدوية قطعت أنفاسه. عبّ الهواء في صعوبة و أكمل

- سيبك من شغل العيال ده، و ركّز معايا.. هويدا و أهلها مش بس ناويين يلبّسوك الجريمة. فكّر كده بالهداوة، هتعرف انهم طول الفترة دي كانوا عمّالين يقتلوا في الناس عشان يخبّوا سرّهم الرهيب، ألا و هو إنّهم دونمة. تفتكر دلوقتي انهم و بمنتهي البساطة هيقولولك على السرّ ده و يسيبوك كده عايش..

تقدّم أشرف من حازم و خنق رقبته في عنف.

- انت بتلعب في مخّي يا ابن الكلب.. أنا مش هاسمح لك..

نظر حازم بنظرة ذات مغزى إلى الرجل الكبير الكامن في أحد الأركان و المراقب في هدوء.

- انت اللي جايب الراجل ده و لا هوّا تبع هويدا؟
- أنا اللي جايب الشاب اللي هيغتصبك، أما الراجل ده..

و التفت أشرف بغتة إلى الرجل المسنّ. كان ثابت النظرة واجم الملامح.. و في يده كان مسدس ماجنم ٢٢,٠ كبير.

- انت طلّعت المسدّس دلوقتي ليه.. أنا لسه ما قلتلكش..

و دون كثير من كلام، أطلق الرجل على أشرف محجوب ثلاث طلقات متتالية في الصدر فأرداه قتيلا.. حاول المجرم الشاب الهروب، لكن الرجل المسنّ عاجله بطلقتين هو الآخر.

نفث الرجل في ضيق، و اقترب من حازم و هو يهزّ رأسه في حنق شديد. وجّه مسدسه إلى رأس حازم شاهين.

- أنا لازم اعترف لك، انت فعلا داهية..
- و انا لازم اعترف لكم.. انتو كويّسين، بس مش قوي.. و لعبتكم دي ما تخيلش عليّا..
- تقصد إيه؟

و فجأة، و من المجهول، دوّت سرينة الشرطة عالية.

ارتبك الرجل و قد لمح الراحة في وجه حازم.

- همّا ازّاي عرفوا يوصلوا لنا؟

تلفّت الرجل حوله مستغربا، ثم لمح نظرات حازم إلى هاتفه المحمول الملقي على الطاولة؛ مدّ يده إليه و فتحه ثم هتف في صدمة.

- يا نهار اسود..

رفع الرجل مسدسه في وجه حازم مرة أخرى. لكن الأخير ابتسم في هدوء.

- من صوت السرينة، باين انهم قريّبين جدا.. لو ضربت عليّا نار دلوقت، هيسمعوا صوت الرصاص و هيعرفوا يحدّدوا مكانّا بسرعة، و هتتمسك بسهولة.. طبعا ممكن تعمل فيها بطل و ما يهمّكش حياتك حتى لو اتقتلت.. بس خلّيك فاكر انّهم لو مسكوك حتى وانت جثة، اكيد هيعرفوا يوصلوا لبقية العائلة و الطائفة.. لو اتحركت دلوقتي، فيه فرصة انّك تلحق تهرب..

اعترى الرجل الارتباك. لم يلبث أن خفض مسدسه و انطلق خارج الشقة يركض هاربا.

و صرخ حازم شاهين مستغيثا و منفّثا عن ما به من ألم شديد.

****

كانت ريم جالسة و الدموع تسيل من عينيها في سيارة العائلة التي تنهب الطريق.. كان أحد رجال الحراسة يطمئنها.

- ما تقلقيش يا آنسة ريم.. فيه عربيّة شرطة قريّبة من المنطقة سبقتنا و ان شاء الله تكون وصلت.. و احنا برضه عشر دقايق بالكتير و نوصل.

لم تطمئنها كلمات رجل الشرطة، إذ كانت في حالة من الخوف على أخيها الحبيب و الندم الشديد على معاملتها و ظلمها له في الفترة الأخيرة. جفّفت دموعها و رفعت هاتفها المحمول تراجع رسالة استغاثته للمرة الثالثة.

"اختي الحبيبة ريم،

أنا باتخطف دلوقت. و عشان كنت متوقّع ان ده يحصل لي في أي وقت، كنت مجهّز الرسالة دي من فترة عشان ابعتها لك انتي و بابا و طارق أوّل الكارثة دي

ما تحصل لي. اللي خطفني حد انتي كنتي بتتّهميني انّي كنت باتجنّي عليه و عليكي. أيوه، هوّا أشرف محجوب خطيبك اللي انا بعدته عنّك. أمّا السبب في إني عملت كده فتقدري تفهميه من الصور التالية."

ثم سحبت الشاشة لأعلي بسرعة لتتفادي الصور التي سببت لها صدمة عظيمة عندما طالعتها لأول مرة. أكملت القراءة.

" دلوقتي أشرف محجوب خطفني و ماعرفش هو ممكن يعمل فيّا إيه. أرجوكي اتّصلي ببابا على طول واتأكدي انّه اتصرّف و في نفس الوقت تاخدي حدّ من حراسة الفيلا و تتحرّكوا بسرعة. المفروض ان رسالتي دي مرسلة من برنامج مخصوص بيبعت إشارات GPS يعرّفكم انا فين.. أرجوكي ما تتأخّريش في الحركة، و أرجوكي ما تجيش لوحدك."

و من وسط دموعها المنهمرة من جديد، دعت الله أن ينجّي أخاها.

****

تحرّك ثلاثة من رجال الشرطة المدجّجين بالسلاح في حذر وراء قائدهم الممسك بجهاز تتبّع إشارات الـGPS. توقّف الضابط وسط مجموعة من البنايات الحديثة البناء.

- غالبا هنا، في المربّع اللي احنا فيه ده..
- غالبا؟ يعني في أنهي عمارة يا فندم؟
- الجهاز اللي بيبثّ إشارة الـGPS جهاز موبايل، و ده دقته محدودة.. جهاز التتبّع ما يقدرش يساعدنا أكتر من كده.. لازم نفتّش التلات اربع عمارات دول بنفسنا و..

قطع الضابط كلامه عندما لمح السيارة الفورد واقفة أمام مدخل رخامي غير مكتمل التشطيب لإحدى العمارات القريبة. و بمجرّد اقترابهم، تناهي إليهم صوت حازم الصارخ. صعدوا الدرج بسرعة، و في الطابق الثالث كان باب

أحد الشقق مواربا. اقتحموا المكان ليجدوا حازم شاهين أخيرا، كتلة متورّمة من الدماء، مصلوب و معلّق في السقف بالسلاسل.

فكّوا قدميه و أنزلوه في تأنّي، ثم ساعدوه في النزول على الدرج على مهل.

و ما إن بلغوا سيارة الشرطة حتى وصلت السيارة المرسيدس، سيارة عائلة شاهين. نزلت ريم بسرعة لتحتضن أخاها.

- أنا آسفة يا حازم.. أرجوك سامحني..
- أنا مسامحك..

كان صوت حازم مشوّها و الدم ينزف من أنفه. نظرت ريم إلى وجهه في ذعر.

- شكلك محتاج عملية فورا.. مناخيرك مكسورة و خدّك وارم جدا. أنا لازم اطلع بيك على المستشفى حالا..
- لأ، مش دلوقت.. لازم نطلع بسرعة على جسر السويس. لازم الحق صاحبي قبل ما يقتلوه..

٤١

و نهبت السيارة المرسيدس الطريق نهبا حتى وصلت إلى مكان بيت طارق عبد الهادي.. و في نفس الوقت كانت سيارتا إسعاف تصلان إلى المنطقة؛ إحداها توقّفت تحت بيت طارق مباشرة، و الأخرى على بعد خطوات قليلة. انقضّ عدد كبير من الناس حول سيارة الإسعاف مشيرين للمسعفين كي يدخلوا إلى الشارع الجانبي القريب.

خرج حازم بسرعة من سيارة العائلة و اتّجه إلى التجمّع البشري، و قد غامت الدنيا أمام عينيه و ضربات قلبه تزداد في توتر و خوف. كان رجل يخرج من التجمّع، يهز رأسه آسفا.

- إنّا لله و إنّا إليه راجعون..

أمسكه حازم من كتفيه.

- إيه؟ مات؟!
- ماتت..
- ماتت!

انطلق مخترقا الجمع في عنف، غير عابئ بدفع حتى المسعفين أنفسهم. امتعض الجميع و كاد بعضهم يشتبك معه، إلا أن حال وجهه المزرية و ثيابه الملطخة بالدماء كفّت الأيادي عنه. أفسحوا إليه الطريق آخر الأمر.. و هناك كانت مسجاة على الأرض، غارقة في دمائها.. هويدا سالم.

- هي ماتت ازّاي؟
- كانت بتجري زي المجنونة راحت خبطاها العربية..

و أمام الجثّة كانت عربة نصف نقل يولول صاحبها و يبكي كما الطفل التائه.

- كانت جاية بتجري منين؟

- بيقولوا ضربت واحد بالنار في بيت على الشارع الرئيسي..

طارق!

و انطلق حازم يجري، كما لم يجري في حياته من قبل.

و هناك عند سيارة الإسعاف الأخرى كان المسعفان يحملان نقّالة إلى داخلها، و عليها كان شخص فاقد الوعي، و الدماء تسيل من صدره.. طارق عبد الهادي، صديق عمره.

و خلف الموكب كان والد طارق و أمه يبكون في ذعر. تعرّفه الأب، فجرى إليه.. هاله منظر حازم، لكنه تجاوز دهشته بسرعة.

- أرجوك يا حازم، إلحق صاحبك طارق..

وصل حازم إليهم متقطّع الأنفاس.

- إيه اللي حصل؟
- من عشر دقايق واحدة اتّصلت بيه على الإنتركم اللي في أوضته.. أوّل ما نزلّها سمعنا صوت ضرب الرصاص.. نزلنا لقيناه غرقان في دمّه.

ترك حازم الأب دون سماع المزيد و قفز إلى داخل سيارة الإسعاف، عرّف نفسه بسرعة إلى طاقم المسعفين و تولّي دفة إدارة الأمور على الفور.

قطع قميص صديقه، و كشف عن صدره: ثلاثة ثقوب، إحداها فوق القلب مباشرة.. وضع يده على رقبة صديقه تحسّسا للنبض، صرخ في الجميع آمرا في سلطويّة.

- حدّ بسرعة يناولني منظار حنجري و أنبوبة، و حدّ يركّب إبرة وريديّة.. و عربية الإسعاف دي تتحرّك حالا..

ثم صرخ بأعلى صوته و الدموع تطفر من عينيه

- يالّا بسرعة، صاحبي بيموت يا بشر..

****

و ما تلت من دقائق كانت الأصعب على حازم شاهين.

فبرغم مهارته و سرعة إسعافه لصديقه، توقّف قلب طارق مرتين.. لكن حازم الحادّ السريع كان كفء و على قدر المهمّة.. إذ بتوجيهاته الحكيمة للفريق الطبي المعاون و باستخدام جهاز صدمات كهربائية متهالك، استطاع حازم إنعاش قلب صديقه مرتين و انتزاعه بصعوبة من مخالب الموت.

و برغم زحام الطريق تمكّنت سيارة الإسعاف من الوصول في وقت معقول إلى مستشفى الدمرداش. و بسرعة تمّ نقل طارق إلى بلوك عمليات القلب و الصدر. كان حازم قد أجرى اتصالات عدّة بزملائه من أطباء في عمليات القلب، و بالفعل كانت غرفة العمليات جاهزة في انتظار صديقه. نُقل طارق إليها مباشرة، و معه دخل حازم شاهين، و قام بتخديره بنفسه (برغم اعتراض طاقم العمليات من تخدير و جراحين). و بدأت العملية.

و على الفور قام الجرّاح بشق صدر طارق ليكشف عن الإصابة التي أحدثتها الرصاصات: قطع بأذين القلب الأيمن، ما أدّي إلى نزيف مهول. و بعد ثلاث ساعات من العمل الجراحي الدقيق، و من انهماك حازم و زملائه في إسعاف طارق، استقرّت حالته أخيرا.

تقدّم طبيب التخدير، المسئول عن غرفة العمليات و زميل حازم بطبيعة الحال، منه. كان حازم في حال مثير للشفقة: خدّه الأيمن متورم للغاية و أنفه المكسور عاد ينزف.. بل إنه كان يترنّح في مكانه فعليّا.

- انت لازم تمشي دلوقتي حالا و تستريّح.. انت مش شايف نفسك.. انت شخصيا محتاج إسعافات أوليّة.
- لمّا طارق يخرج من العمليات و اطّمن عليه..

- ما هو يا أخي حالته استقرت اهو..
- لأ..
- ده مش طلب يا حازم.. اعتبره أمر.. أنا باطردك من غرفة عملياتي.. اتفضّل..

كان زميله يدفعه ناحية الباب في حزم عندما انهار حازم فجأة إلى الأرض من التعب و الألم. حمله الزميل و بعض المساعدين إلى الخارج.. و سرعان ما غاب عقله المنهك عن الوعي.

صحا بعد ساعتين ليجد نفسه على سرير في أحد غرف المرضي، و في يده إبرة وريدية موصولة بزجاجة محلول و أنفه ملفوف بضمادة طبية.

و جواره كانت أخته ريم، و إيلين.

تكلّمت ريم..

- حمد لله على السلامة..

سأل بصوته المكتوم المضحك.

- أنا فين؟
- انت في أوضة عيانين في قسم القلب و الصدر..

التفتت إيلين تنظر إلى الغرفة من حولها متأففة.

- كنا عاوزين ننقلك مكان أحسن شوية، بس زمايلك قالوا ان الموضوع مش مستاهل..

التفتت ريم إليه مواسية

- زميلك التخدير اِدّاك حاجة منوّمة و بعت لواحد من زمايلكم الأنف و أذن، و هو جه كشف على مناخيرك و صلّح الكسر.. و

جه برضه دكتور تجميل شاف وشّك الوارم و قال ان الموضوع مش خطير، و انّك محتاج تعمل أشعّات الأول..

قاطعها.

- و سيادة اللوا فين؟

خفضت السيدتان رأسهما. همست ريم

- أنا اتّصلت بيه طمّنته.. هو مشغول في حاجة مهمة في شغله، و إذا وقته سمح أكيد هييجي..

ابتسم حازم ساخرا.

- ده إذا سمح..

ثم انتبه، فقام قاعدا

- طارق عامل ايه؟ أنا ازّاي نسيته؟

فصل إبرته الوريدية من المحلول ثم نهض من السرير بسرعة يبحث عن حذائه. قامت إليه ريم تمنعه.

- واحد من زمايلك قال انّه كويس و انّه دلوقتي في الرعاية المركزة.
- لازم اروح اشوفه و اطمن عليه.

و هناك في الرعاية، كان طارق الغائب عن الوعي، الموصول بجهاز التنفس الصناعي و خراطيم عدة تحمل إليه أدوية القلب و مشتقات الدم المختلفة، بالإضافة إلى شبكة من الأسلاك تربطه بشاشة ضخمة تظهر علاماته الحيوية.

جذب حازم كرسيا و جلس جوار صديقه و أمسك يده متأثرا و سرعان ما فاضت عيناه بالدموع. كان مشهدا غريبا عجيبا لطاقم الرعاية من أطباء و

تمريض، خصوصا من تعامل منهم مع حازم شاهين من قبل، و رأى تعاليه و برود مشاعره المطلق.

رفض حازم الانصراف، و أصرّ أن يبقي إلى جوار صديقه حتى يفيق من غيبته و يُفصل عن جهاز التنفس الصناعي.. و لم يكن ذلك قبل ظهيرة اليوم التالي.

****

الأربعاء ٤ اغسطس ٢٠١٠

أيقظه صوت صديقه الخافت الضعيف

- حازم..

فزع من نومته على الكرسي و اعتدل متلفّتا حوله. كان طارق مضّجعا على سرير الرعاية و قد نُزعت منه أنبوب التنفس الصناعي، لكنه كان لا يزال ضعيفا، باهت الوجه. قام حازم مبتسما رغم آلام جسده و احتضن صديقه، ثم قرّب كرسيه و جلس بمواجهته. تطلّع طارق إلى وجه حازم المصاب في ذعر.

- إيه اللي حصلّك؟
- سيبك منّي.. حمد لله على السلامة.
- بجد إيه اللي حصلّك؟
- قولي انت إيه اللي حصلّك؟

و كأنما انتبه فجأة، هتف طارق

- هويدا..
- ماها؟

- هويدا هي اللي ضربت عليّا النار.. اتّصلت على الإنتركم، كنت نازل اتخانق معاها و أقول لها ما تجيش تاني.. لسّه بانزل السلم، راحت ضرباني بالمسدس..
- عارف..
- عارف! عرفت ازّاي.. هيا اتقبض عليها.
- بعد ما ضربتك بالنار جريت تهرب، و هيّا بتعدي الشارع بسرعة عربية نص نقل خبطتها و قتلتها على طول.

استمع طارق مذهولا. حاول أن يعتدل جالسا و قد أثارته المفاجأة لكن ألم الجراحة أرجعه لوضعه.

- إيه اللخبطة دي كلها.. هويدا حاولت تقتلني أصلا ليه؟ أنا مش فاهم حاجة..
- خلّيني احكي لك الجزء من القصة اللي انت ما تعرفوش..

ثم راح يحدّثه عن اختطاف أشرف محجوب له و عن الحوار الذي دار بينهما. استمع طارق متعاطفا مع ما حدث لحازم، ثم مشدوها مما أفضت إليه القصة.

- يعني هويدا دي هيّا اللي ورا الكوارث دي كلّها؟

تطلع حازم إليه و قد ارتسمت الحيرة و الشك على وجهه.

- فيه حاجات كتير مش راكبة مع بعض.. تحليلي لبعض الأحداث اللي حصلت قبل كده مخلّيني أحسّ ان هويدا صعب تكون شريك في الجرايم اللي حصلت دي كلها..
- بس هي فعلا اللي ضربت عليّا النار..
- انت شفت ملامح وشّها كويّس؟
- إيه؟
- بأقولك شفت ملامح وشّها كويّس؟

- هي اللي كلّمتني على الإنتركم بصوت متلجلج و متوتر، و هو ده السبب الحقيقي اللي خلّاني انزل بسرعة، و لما نزلت هيّا اللي ضربت عليّا النار..
- انت بتقول انها ضربت عليك النار و انت على السلم، يعني ما استنتش لغاية ما تنزل.. و أكيد هيّا كانت واقفة في منور السلم المضلّم..
- فعلا، أنا حتى ما لحقتش اكلمها كلمة واحدة..

صمت طارق و نظر إلى حازم مستغربا.

- انت تقصد إيه؟ إن اللي ضرب عليّا النار مش هويدا؟
- لأ.. هويدا مستحيل تعمل كده.
- ليه لأ؟
- أولا أنا مستحيل اصدّق حكاية ان هويدا تكون من الدونمة.. طريقة كلامها و تصرّفها ماكنش طريقة واحدة بتضحك علينا عشان تشوف آخرنا فين.. بالعكس، في آخر قعدة ليّا معاها كانت صادقة فعلا في رغبتها انها تلاقي الدونمة دول و تنتقم لجوزها المتوفّي، بل و تبتزّهم كمان.. زائد ان هويدا إنسانة خوّافة و جبانة و مستحيل تقوم بالقتل بنفسها. بالإضافة إنها لما تيجي تقتلك، تقوم تعملها بالطريقة المفضوحة دي.. في بيتك و في الشارع و في وضح النهار. سيبك من ده كل و تعالي للنقطة الأهم، بقى بعد ما تضرب النار عليك تقوم خبطاها عربية و مموّتاها على طول كده.. مش حاجة تثير الشكوك برضه؟
- يعني.. طب ليه أشرف محجوب قال الكلام اللي قاهولك ده؟ كان بيكدب؟
- لا، ما كانش بيكدب.. لكن فكّر معايا بشوية خيال كده.. ليه ما تكونش واحدة متقمّصة شخصية هويدا هي اللي اتّصلت بأشرف محجوب و قابلته و اتّفقت معاه على قتلي، و هي برضه اللي جت عشان تقتلك و بعد كده هربت و فبركت موضوع الحادثة و سابت

مكانها جثة هويدا المقتولة.. حاجة كده زي ما كان شخص تاني متقمّص شخصية أورهان قبل كده.. نفس طريقة التفكير في الحالتين.

- يا خبر اسود.. انت متأكّد من اللي بتقوله ده؟
- لأ طبعا مش متأكّد.. دي مجرد نظرية..
- و لو صحّت يبقي معناها إيه؟ القصة خلصت على كده و لا لسه؟
- القصة مش هتخلص إلا بموتي و موتك..
- إيه!
- الناس اللي أورهان كان وراهم - و اللي احنا وراهم دلوقتي - مش مستعدّين يسيبوا أيّ خيط يوصّل ليهم.. واضح إن سر وجودهم و كينونتهم شيء خطير و مقدّس عندهم لدرجة ما نتخيّلهاش..
- و هنعمل إيه دلوقت؟ لازم نستعين بالبوليس..
- أرجوك ما تضحّكنيش، وشّي لسه بيوجعني.. البوليس عمره ما هيهتم بقضية زيّ دي.. و حتى لو اهتم، هيلاقي فين متّهمين يطلّع ميّتينهم عشان يعترفوا؟
- أمّال هنعمل ايه؟

ابتسم حازم في ثقة و ربّت على كتف صديقه و قد اكتسي وجهه بتصميم يعرفه طارق في صديقه جيدا.

- مش عملنا فيها رجّالة و فتحنا مكتب تحرّي، يبقي نقوم بواجبنا صح و في نفس الوقت لازم ندافع عن نفسنا.. لازم نتمكن منهم المرة دي قبل ما يتمكنوا مننا مرة تانية.
- يا حازم الموضوع طلع أكبر مننا.
- ما تقلقش نفسك، سيب الموضوع ده عليّا و قوم انت بس بالسلامة.. بأقولك، انت كنت قلت لي قبل كده انّك قريت كتب كتير عن الدونمة و تاريخهم و انك جمّعت الحاجات المهمة في أجندة.. عايز اقراها بتأنّي هيّا و كل حاجة انت كتبتها عن القضية دي..

- أنا حاطط الأجندة و الورق في الدرج التاني من المكتب اللي في الأوضة الكبيرة في شقة المكتب.. بس..
- بس إيه؟
- أرجوك يا حازم، خلينا نسيب الموضوع في إيد الشرطة، و انا و انت نستخبّي في حتّة اليومين دول لحدّ ما يلاقوهم..

قام حازم من جلسته على طرف السرير و قد استقر الأمر في وجدانه.

- أنا الحمد لله اطمّنت عليك.. أنا بس عاوزك تفضل في الرعاية اليومين دول و ما تخرجش منها حتى لو حالتك اتحسنت.. انا هاظبط مع دكاترة الرعاية على كده. هنا أكتر مكان أمان ليك.. و بالنسبة للموضوع ده أنا عاوزك تنساه تماما و ما تتكلّمش فيه مع حد.
- حازم.. أرجوك، سيب انت كمان الموضوع ده و انساه.

ربّت حازم على كتف صديقه من جديد، ثم دار و قد اكتسي وجهه بجدية لا مثيل لها. همس وهو يغادر الغرفة.

- ما تقلقش..

و ما إن خرج حازم من الغرفة حتى استدعى طارق الممرضة طالبا المسكن لآلام صدره التي ازدادت عليه، و لأعصابه التي نهشها الخوف و القلق على مصيره هو و صديقه.

٤٢

و بعد الانتهاء من زيارة صديقه، أكّد حازم شاهين لزملائه أنه على ما يرام، بل و أصر على النزول مع أخته ريم و زوجة أبيه إيلين، اللتان حضرتا لأجله مرة أخرى اليوم.

كانت ريم بعد نوبة تشنّجها الأخيرة قد توقفت عن القيادة و عادت لتناول دوائها بانتظام. لحسن الحظ، كانت إيلين قد حضرت بسيارتها.

بعد ركوب السيارة، طلب حازم أن يعطفا أولا على الشارع الجانبي، خلف الكاتدرائية، لتفقّد مكان اختطافه و لاستطلاع مصير سيارته. و بالطبع، و كما المتوقع كانت قد اختفت. لكن حازم لم يفقد الأمل، نزل من سيارة إيلين و تمشّي قليلا في منطقة الحادث.. لمح رجل عجوز، صاحب كشك قريب، يتابعه بنظراته. تقدّم حازم إليه.

- انت فاكرني؟
- أيوه.. انت دكتور في الدمرداش و ياما شفتك قبل كده..
- أيوه، مفهوم.. بس مش فاكرني من امبارح؟
- أيوه.. مش انت اللي ناس وقفوا قدّام عربيتك امبارح و، لا مؤاخذة، خطفوك؟
- أيوه أنا..

تطلّع العجوز إلى وجه حازم المشوّه.

- و ربنا سترها الحمد لله..
- الحمد لله.. بأقولّك يا حاج، هي العربية راحت فين؟ مين خدها؟
- حمّودة الأصلع.. سمكري من الوايلي و حرامي عربيات..

تنهّد حازم.

- و ده ما تعرفش ممكن أوصل له ازّاي؟

أخرج الرجل ورقة مطوية من جيبه.

- ده رقم تليفونه.. هو كان عارف انّك، لو لسه عايش يعني، هترجع تدوّر على عربيتك. اتّصل بيه و اتّفق على الفدية.. و ما تخافش، حمودة ابن حلال، و مش هيفتري في السعر.

ابتسم حازم، لكن تورّم خدّه أحبط اكتمال ابتسامته. دار لينصرف، لكن الرجل عاجله

- باقولّك..

تطلّع حازم إليه، فاذا هو يبتسم ابتسامة صفراء بلهاء.

- و انا إيه؟ ماليش حلاوة و لا إيه؟
- ليك طبعا يا حاج.. اصبر بسّ عليّا، أروّح البيت و اغيّر و اشمّ نفسي.. أنا زيّ ما انت شايف مضروب و طالع عيني..
- ماشي يا حبيبي.. خد راحتك.. بكره، بعده، خد راحتك خالص.. مستنّيك.. إحنا في الخدمة يا دكتور..

و تركه حازم مقسما في سرّه بإبلاغ البلدية و إزالة كشك الرجل في أقرب فرصة.

ركب سيارة إيلين، و سرعان ما تحرّكوا عائدين إلى فيلا شاهين. كانت ريم تتكلم في سعادة.

- النهاردة هاعملّك حفلة كبيرة و هاصالحك على بابا، و انا بنفسي اللي هاجيب لك التورتة.

قاطعها حازم

- انسي الكلام ده يا ريم.. أنا راجع معاكم عشان ألمّ شوية هدوم و حاجات و امشي.

نظرت ريم إليه مذعورة.

- إيه الكلام ده يا أبيه؟
- يا ريم باباكي طردني من البيت..
- ما هو كان فاهمك غلط زيّي..
- بالعكس، أنا و سيادة اللوا عمرنا ما فهمنا بعض غلط.. أنا كنت قاعد في البيت بس عشان خاطرك.
- طيّب ما انا لسه موجودة اهو.. ارجع تاني عشان خاطري انا..
- لا، ما انا طلعت غلطان.. فرق السن اللي بينّا كان مخليني دايما حاسس انك صغيرة و انك محتاجة حماية.. لكن انت كبرتي و ما بقيتيش محتجاني.
- بس لولاك انا كنت فعلا وقعت في أشرف محجوب.. خلّيك جنبي عشان تحميني..
- انتي بتقولي كده دلوقت، لكن الحقيقة غير كده يا ريم.. انتي كبرتي و بقي لك شخصية مستقلة، و انا لازم احترم ده و انسحب..
- يعني بعد العمر ده كله هتسيبني لوحدي..
- مستحيل.. وقت ما تحتاجيني هتلاقيني جنبك..
- أرجوك، خليك معانا في البيت و انا عمري ما هضايقك تاني..
- المشكلة مش فيكي يا ريم.. أنا فعلا مش هاقدر اقعد في البيت تاني. لسه فيه حاجات هتخلّيني اتخانق و اعمل مشاكل..

و خلف عجلة القيادة، خفضت إيلين رأسها و قد نخزها الكلام. تدخّلت

- خلاص يا ريم.. سيبي أخوكي على راحته.
- و انت يا إيلين خلّي بالك من ريم على طول.. خلّيكي مصحصحة عشان خاطرها..

رمقته بنظرة حارقة، لكنها لم تردّ عليه بحرف واحد. و ساد الصمت في السيارة حتى وصلوا إلى فيلا شاهين قبيل المغرب.

خرج حازم من السيارة مسرعا دون أن يتطلّع إلى بيت النباتات الحبيب. وثب الدرجات بسرعة، محيّيا مارجيك، مدبرة المنزل، في طريقه إلى أعلى. و في حجرته، حضّر حقيبته على عجل، ثم أخرج صندوقا معيّنا من تحت السرير - هو السبب الحقيقي وراء عودته إلى فيلا شاهين. فتح الصندوق و عبث في مكوّناته حتى وجد ضالته: جهاز قياس كهربائي يشبه الفولتميتر، له شاشة مدرّجة و إيريال هوائي. كان قد اشتري هذا الجهاز قبل عدة سنوات عندما اكتشف أن أباه يضع أجهزة للتصنّت في كل أنحاء الفيلا.. إنه جهاز لكشف أدوات التجسس و التصنّت المختلفة. وضع الجهاز في حقيبته و أغلقها، ثم انطلق إلى خارج الفيلا متفاديا رؤية ريم مرة أخرى.

أوقف أول سيارة أجرة، ركبها و طلب من السائق التوجّه إلى شارع جسر السويس.. إلى بيت أسرة طارق عبد الهادي.

نزل من سيارة الأجرة بعيدا عن البيت حتى لا يشعر بحضوره أي شخص من عائلة طارق، تمشّى إلى العمارة و دخل من البوابة المفتوحة دوما، بنسخة مفتاحه فتح باب شقة المكتب و دخل، ثم أغلق الباب خلفه في هدوء.

لم يشعل أية إنارة للمكتب، و في الظلام الدامس وضع حقيبته و تحسّس خلالها حتى أخرج جهاز كشف التجسّس.. أغلق صوت الإنذار و وضع يده فوق الشاشة المضيئة ليكتم إضاءتها.

ثم شرع يطوف بشقة المكتب، غرفة غرفة، و ركنا ركنا.

و بعد عشرين دقيقة من التجوّل البطئ في الظلام و الجو الخانق، استطاع حازم أن يكتشف سماعتيّ تجسّس في الشقة: واحدة في غرفة الاستقبال و الأخرى في حجرة المكتب الداخلية..

تحرك إلى غرفة المكتب الداخلية على أطراف أصابعه، و من الدرج الثاني للمكتب الخشبي أخذ أجندة طارق.

وضع حازم الجهاز و الأجندة داخل الحقيبة، و خرج من الشقة و أغلق بابها وراءه في هدوء.

و بعد مشي مسافة معقولة بعيدا عن بيت طارق أوقف سيارة أجرة أخرى، و طلب من سائقها أن يتّجه به إلى أقرب فندق.

و بعد ساعة، كان حازم شاهين في غرفة بفندق ثلاث نجوم، يأخذ أخيرا حماما يزيل ما به من وعثاء و قذارة يومين من الإرهاق و الألم الجسدي و المعنوي.

كان، و منذ ترك طارق في الصباح، يراجع في عقله كل الأحداث السابقة، مقارنا و معارضا إياها ببعضها البعض، بغية التوصّل إلى تخيّل مبدئي للقضية ككل.. و ها هو الآن تحت دشّ الماء البارد ينسج النظرية تلو الأخرى، و يضع لنفسه خطة مبدئية واضحة تضع في الاعتبار كل الاحتمالات الممكنة، و في نفس الوقت تكون حذرة بما فيه الكفاية.

خرج من الحمام، و ألقى بجسده المرهق إلى السرير. كانت أمامه خطوة مهمّة قبل النوم. أخرج موبايله و أرسل رسالة إليكترونية إلى البروفسير شميدت، يستعجله فيها كي يرسل إليه الترجمة الإنجليزية الكاملة لخطاب طلعت رستم الذي أطلعه عليه في كافيه برلين قبل سفره مباشرة.

ألقى هاتفه جانبا، و وضع رأسه التي تغلي بالأفكار و النظريات على الوسادة. انتصر جسده المرهق بسهولة و استسلم عقله على الفور. نام لاثنتي عشرة ساعة متّصلة.

****

الخميس ٥ اغسطس ٢٠١٠

و قبل انتصاف نهار اليوم التالي، وصله رد البروفسير الألماني، حاملا الترجمة الوافية لخطاب الجاسوس التركي.

لم يكن متن الخطاب ما يهمّه، بل عنوان المراسلة الذي ذيّل الجاسوس به خطابه.. مطعم الفردوس، ٦ حارة صنقر، متفرعة من شارع المعز لدين الله الفاطمي، بالجمّالية.

نزل من غرفته، و بعد أن ترك مفتاح غرفته للريسبشن، انطلق إلى الشارع ليركب سيارة أجرة إلى منطقة الجمّالية و الحسين مباشرة. أنزلته سيارة الأجرة عند مدخل شارع المعزّ من ناحية المسجد الأزهر. تمشّى إلى داخل الشارع العتيق الضيّق بضع دقائق، ثم توقّف عند محل عطارة يسأل عن الحارة المطلوبة، فإذا هي حارة من تلك الواقعة خلف جامع و مدرسة السلطان الأشرف برسباي، الذي يقع على مقربة من مدخل الشارع.

كان حازم يأمل ألا يقابله سوء حظ أورهان حقّي في بحثه عن قصر عبد الرؤوف باشا، فشارع المعز و المنطقة المحيطة به تعتبر أكبر مجمع للآثار الإسلامية في العالم، و كون المنطقة تراث تاريخي و عالمي كان دوما بمثابة حماية ضد تغيير ملامح الشارع طوال القرن الماضي.

و بعد ثلاثمئة متر و عشر دقائق من المشي، وصل حازم إلى بغيته، حارة صنقر رقم ٦.. محل لبيع الموبايلات. تقدّم حازم من صاحب المحل، الجالس على كرسي بعتبة الباب.

- بعد إذنك.. هو المحل ده كان قبل كده مطعم.. مطعم اسمه مطعم الفردوس؟

و قبل أن يتسنّى لصاحب المحل الإجابة، أتاه من خلفه صوت سيدة عجوز.

- أيوه يا حبيبي.. ده كان مطعم بقاله كتير ياما.. ده لسه مقلوب محل موبايلات مفيش شهرين..

التفت حازم، ليجد سيدة عجوز تطلّ على الشارع من شباك مشربية قديم. تقدّم منها حازم متودّدا.

- مساء الخير يا حاجّة..
- مساء النور يا عنيّا..
- باقولّك.. يا ترى تعرفي الناس اللي كانوا صحاب المطعم ده؟ مش اليومين دول.. أقصد من زمان شوية.. يعني من تلاتين، أربعين سنة، يمكن أقدم من كده؟
- ما تفرقش يا ابني.. المطعم ده كان ملك لعيلة واحدة بس يجي ميت سنة و أزيد.. و لسه بايعينه مفيش شهرين..

اتّسعت حدقتا حازم في دهشة، و انفرج فمه في ابتسامة.

- و يا ترى تعرفي العيلة دي يا حاجة؟
- أمّال، مش جيراني من يوم ما وعيت على الدنيا..
- ممكن تقوليلي عليهم.. اسمهم، عنوانهم..

و عندما سمع حازم الاسم طارت كل ابتسامة من على وجهه و أصابه الذهول المطبق.

****

عاد حازم إلى فندقه و تناول وجبة غداء متأخرة، ثم صعد إلى غرفته. لملم أشياءه في حقيبته من جديد و نزل إلى لوبي الفندق. توجّه إلى الريسبشن و دفع حسابه، ثم غادر.

كان قد اتّصل صباحا بلصّ السيارات، حمادة الأصلع، و استطاع أن يفاصله في قيمة فدية السيارة حتى وصل إلى مبلغ معقول. كان من المفترض أن يقابله هذا المساء، ليستعيد السيارة، لكن بعد زياته للجمّالية و صدمته العظيمة

هناك، لم يعد لديه وقت لذلك. اتصل باللص، و هو يغادر الفندق، ليؤخر الميعاد بضعة أيام، ثم أغلق الهاتف دون استماع لتهديد اللص من أنه سيتخلص من السيارة إن تأخر عليه أكثر من أربعة أيام.

أعاد هاتفه في جيبه و استوقف سيارة أجرة.

- ميدان رمسيس يا اسطي.. محطة القطارات.

و عند محطة القطارات الرئيسية، حجز حازم شاهين تذكرة على أول القطارات للصعيد. لم يجد مكانا إلا في قطار الواحدة صباحا، لذا أمضي ما يفصله من وقت حتى قيام القطار في التسكّع في المنطقة و في تناول العشاء. و قبل الواحدة بعشر دقائق ركب حازم القطار، و الذي تحرّك بعد ميعاده بربع ساعة كاملة.

كانت وجهته محافظة قنا، مركز نجع حمادي، قرية القناوية البحرية.. النقطة التي يفقد فيها النيل عقله، فينحرف فجأة إلى الغرب كيلومترات قليلة قبل أن يعود إليه رشده و يكمل طريقه شمالا، و هي أيضا بلدة الرسامة التي تعرّضت لحادث مريع منذ شهرين.. سهام الرويني، خطيبة أورهان المزعومة.

كان حازم شاهين قد حاول الاتصال بها على هاتفها المحمول، إلا أنه و كما توقّع، و بناءً على توصيته هو شخصيا، كان مغلقا. لكن لأهمية رأيها القصوى، كان عليه قطع هذه الرحلة العظيمة.

بعد تسع ساعات من السفر بالقطار وصل حازم إلى قرية القناوية البحرية في العاشرة من صباح اليوم التالي، و من محطة القرية اتجه مباشرة إلى موقف المواصلات ليسأل عن مساكن آل رويني. كانت العائلة معروفة في القرية، و سرعان ما وجد سيارة بيجو وافق سائقها على توصيله إلى مساكن العائلة.

وقف حازم عند أول منزل بحي الروناية و طرق الباب، ليفتح له رجل عجوز في جلباب أبيض نظيف. سأل حازم عن سهام الرويني مباشرة. كان يتوقّع حذرا و مراوغة، و قد كان.

- دي في مصر من زمن.. مش موجودة.
- أنا عارف انّها في البلد..
- يا بلدينا.. مش هاكذب عليك.
- حد يبلّغها أو يبلّغ اخوها ان اللي عايز يشوفها دكتور حازم شاهين.. هما الاتنين عارفينّي كويس.

غاب الرجل داخل منزله - لابد لإجراء مكالمة تليفونية مع أهل سهام - ثم عاد و ابتسامة اعتذار على وجهه.

- و لا مؤاخذة يا دكتور، اللي ما يعرفك يجهلك. هتلاجي بيتهم في الشارع اللي جاي يمين.. همّا البيت اللي في آخر الشارع.

و قبل أن يصل إلى المنزل كان أخو سهام - و الذي قابله حازم سابقا في المستشفى - في انتظاره أمام عتبة الباب.

- يا أهلا و سهلا يا دكتور.. دي البلد كلّتها نوّرت.

تجاهل حازم حفاوته، و تكلّم في جدية.

- الله يسلّمك.. أنا مش هاعطلكم كتير. هيا دقيقة واحدة بس.. ممكن اشوف الأستاذة سهام.
- طب اتفضل يا دكتور، استريّح من السفر.. نشرب شاي و ناكل لقمة.
- مفيش وقت.. أرجوك، إنده لي الأستاذة سهام، لو سمحت.

كانت المرأة المطلوبة قد عرفت بخبر وصول حازم، و كانت بالفعل في طريقها إلى الباب عندما سمعت صوت حازم. خرجت إليه مرحّبة، تلف رأسها بطرحة.

- نوّرت نجع حمادي كلها يا دكتور.
- بنورك يا أستاذة.. أنا مش هاضيّع وقتك.. فاكرة أورهان حقّي؟

خفضت سهام رأسها في ضيق، و استرقت النظر إلى أخيها الذي امتقع وجهه غضبا.

- إيه اللي جاب سيرة المخفي ده؟ انت جاي تقلّب المواجع يا دكتور؟ أنا خلاص الصفحة دي قفلتها، و مش عاوزة افتكرها. أنا خلاص رجعت لطوع أهلي.
- أنا آسف، بس أنا فعلا محتاج مساعدتك.. شايفه منظري ده.
- أيوه.. ألف سلامة عليك..
- الناس اللي قتلوا أورهان الحقيقي و اللي حاولوا يقتلوكي، همّا اللي عملوا فيّا كده.. كانوا عايزين يقتلوني انا كمان.

استرقت سهام النظر إلى أخيها، فهزّ رأسه أن ساعدي الرجل.

- عايز إيه مني يا دكتور؟ أنا في الخدمة.
- انت طبعا فاكرة اني قلت لك، إن اللي كان معاكي مكانش أورهان الحقيقي.. و قلت لك انّه كان واحد متقمّص دوره.
- فعلا..

أخرج حازم هاتفه المحمول من جيبه، ثم ضغط أيقونة ألبوم الصور، ثم قلّب في الصور بسرعة. فتح إحداها، ثم وجّه شاشة الهاتف إلى سهام.

- هوّا ده اللي كان معاكي، و مدّعي انّه أورهان حقّي؟

تقلّص وجه سهام في كره.

- أيوه، هو البني آدم ده.

ثم رفعت رأسها إلى حازم و قد أصابها الذهول.

- إيه ده؟ ده متصوّر معاك في الصورة، بس حالق شنبه هنا.. هو انتو تعرفوا بعض؟

لكن حازم كان قد انصرف. كان يجري تقريبا، عائدا من حيث أتى.

٤٣

الجمعة ٦ اغسطس ٢٠١٠ - مساءً

كان الوقت في ساعة متأخرة من الليل، عندما ركب اللواء أحمد شاهين سيارة المديريّة عائدا إلى بيته. تمدّد مدير أمن القاهرة على كنبة السيارة المرسيدس الخلفية، ثم خلع حذائيه ليريح قدميه المتورّمتين.

لقد صار انهيار آخر اليوم أمرا معتادا في السنين الأخيرة؛ سنّه كبرت و جسده - نتيجة الجهد البدني و الضغط العصبي المتواصل - صار فريسة للأمراض، من ارتفاع ضغط الدم إلى مرض السكري. ساعات العمل الطويلة و ضغوطه المتواصلة تقصف عمره فعليا. لا يكاد يتذكّر آخر مرّة أخذ فيها إجازة معتبرة، أسبوع أو أكثر.. ربما كانت منذ خمسة عشر عاما أو أكثر، قبل أن يتدرّج في المناصب القيادية. في السنوات الأخيرة، لا يحظى بأكثر من يومين أو ثلاثة راحة، إجازات صدّ ردّ، يقضي جزءا كبيرا منها في السفر، و حتى ما يتبقى له من وقت تستهلكه مكالمات الوزراء و المسئولين المهمّين و الشخصيات العامة، المتعشّمين في خدمة ما أو الواقعين في ورطة عويصة.

منذ سنين بعيدة، كان يفرغ بعضا من شحناته العصبية في زيارة الأولياء و حضور الحضرة في مسجد الجعفري. لكنه بعد تولّيه منصب مدير أمن القاهرة، اتّصل به الوزير شخصيا و طلب منه الانقطاع عن الدروشة تماما. لو وصل خبره إلى الصحف ستكون فضيحة، و ساعتها ستنهال النكات عليه و على الوزارة و على رجال الشرطة جميعا، و ليس بعيدا أن يكون الضغط ساعتها كبيرا لدرجة تضطر الرئاسة أو الحكومة لإصدار أمر بإقالته على الفور.

و بحرمانه من هذه المتعة الروحانية لم يتبق له من متع الحياة الكثير، فحتي متعة أساسية مثل متعة أكل الطعام الشهي هو محروم منها أصلا؛ فالأكل المالح يرفع ضغط الدم و الحلو يرفع السكر. لم يبقى له من متع الحياة إلا واحدة - و هي التي لا يزال يستمتع بها إلى اقصي حدّ، و يحمد الله صادقا عليها - ألا و هي نعمة الجنس.. إنه صمام الأمان الوحيد الذي ينفث من خلاله ضغطه العصبي المتواصل، و الحمد لله هو يفرغها في الحلال، مع زوجته العزيزة إيلين، بنت الحسب و النسب و ذات الجمال الكامل، وجها و جسدا. صحيح أن بها بعض نواقص - بل و كوارث - من انعدام الالتزام الديني من قلّة صلاة إلى تناول الخمور في غيبته، إلا أنه لا غنى له عنها. لذا، يضطر دائما أن يغضّ الطرف عن أخطائها، بل و يصالحها حتى بعد ارتكابها لكثير من أخطاء لا يرضى عنها.

تمنّي لو كان في سن شباب اليوم و بمهارتهم و اطلاعهم، فلربما كان باستطاعته التفريج عن نفسه بتصفّح الإنترنت و مشاهدة المسلسلات الجديدة و الفيديوهات المضحكة على المواقع المختلفة، أو حتى اللعب بأحدث أجهزة الألعاب، مثل البلاي ستايشن و الإكس بوكس.. أشياء مما يهلك فيها ابنه حازم كثير من وقت فراغه.

و تغيّر مزاجه إلى الأسوأ عندما أتت ذكرى ابنه على باله.. أصابته نوبة من الغضب و الحنق لا مبرّر لها؛ لا حادثة معينة أو سبب واضح، اللهم إلا الحقيقة الواضحة، و التي اعترف بها لنفسه أخيرا: إنه يكره ابنه حازم.. يكرهه بشدة.

صحيح أنه كرجل شرطة كان جادّا حازما في تربية ابنه، بل إنه ليعترف بينه و بين نفسه، أنه كان في أوقات كثيرة قاسيا معه، بل شديد القسوة في بعض المواقف. لكن شدّته كلها كانت لصالح تربيته تربية سليمة لا اعوجاج فيها. و ها هو قد فعل، على الأقل جعل منه طبيبا، بل و مدرّسا بالجامعة كذلك.

لكن بدلا من الاعتراف بفضله عليه، يردّ الابن الصاع صاعين لأبيه في كل المناقشات، ناهيك عن المشاجرات، بل و وصل به الأمر لإهانته في آخر شجار.

حتى لو كان قاسيا في تربيته بحقّ، هل يكون هذا مبرّرا لسوء أدب ابنه معه؟ لا، و ألف لا.. ليس بمبرّر.

إنه يكاد يوقن أنه قد ابتُلي، كاختبار من الله، بابن بلغ من العقوق منتهاه، بلغ عقوق ابن نوح عليه السلام، بل و أشدّ.. ابنه هو الشيطان متجسّدا.

لذا كان اللواء أحمد شاهين – و لم يكن هذا غريبا و شاذّا من وجهة نظره – يدعو الله ليل نهار أن يخلّصه من ذلك الابتلاء.. بأي طريقة كانت.

لذا، لم يخف و لم يجزع عندما وصلته رسالة حازم و التي يعلن فيها اختطافه و أنه يتعرّض لخطر كبير يتهدّد حياته، بالعكس، أحسّ أنها استجابة متأخرة من السماء لدعائه الدائم.

إنه يكرهه و يتمني أن يتخلّص من لعنته إلى الأبد. يريده أن يختفي تماما من حياته، حتى لو كان ذلك عن طريق موته فعليا.

لكنه لا يتخلّص منه أبدا، و يُضغط عليه دوما من سائر أفراد عائلته، خصوصا من ابنته ريم، كي يغفر و يتجاوز عن أخطاء أخيها. آخر تلك المحاولات كانت صباح هذا اليوم، عندما أمطرته ريم، بل و إيلين كذلك، بسيل من المكالمات ملؤها التوسل و التدلّل حتى يسمح لذلك الكلب العاقّ بالعودة إلى المنزل. صحيح أنه قال أنه سيفكّر في الموضوع، لكنه يعرف أنه سينهار أمام رغبات السيّدتين الأقوى في حياته.

و لعل هذه النقطة تحديدا هي سبب ضيقه و غضبه الآن.

وصل أخيرا إلى الفيلا، فُتحت البوابة و دخلت السيارة لتتوقّف أمام مدخل البيت الداخلي. شكر اللواء سائقه و نزل، لتستقبله مارجيك، مدبّرة المنزل

على الباب كعادتها لتأخذ منه جاكت البدلة و الحقيبة؛ لكن قبل أن يصعد إلى أعلى، همست إليه في هدوء.

- الدكتور حازم في المكتب.. منتظر حضرتك.

غاضبا، هائجا، اقتحم أحمد شاهين غرفة المكتب

- انت ازّاي تدخل البيت من غير إذني.. أنا لا يمكن اسمح لك تدخل البيت ده تاني..

متهالكا و باهت اللون، كان حازم مستلقيا على أريكة عريضة بطرف الغرفة. اعتدل في جلسته و تكلّم بصوت أنهكه التعب.

- أنا آسف يا سيادة اللوا إني جيت من غير ميعاد.. بس ماكنش ينفع اتّصل بيك عشان الاتصال بالموبايل يمكن ما يكونش أمان..

انتبه اللواء إلى جديّة كلمات حازم و توقّف عندها كاظما غيظه. أغلق باب غرفة المكتب، ثم جلس على أقرب كرسي.

- اتفضّل قول اللي عندك.. بس بسرعة، عشان تعبان و عاوز انام.
- أنا ناوي أقوم بخطوة هتعرّض حياتي للخطر، و وارد اني أموت فيها المرّة دي بجد.

اضطرب داخل اللواء فرحا، لكنه أظهر الهدوء على وجهه الخالي من التعبير.

- و جاي تقول لي الكلام ده ليه؟
- أنا مستحيل كنت افكّر اني الجأ لك في يوم. لكني جايلك النهاردة عشان الوقت ضيّق و الموضوع طلع فعلا أكبر مني، و انت تقدر تساعدني فيه بصفتك الرسمية و بقوة مركزك؛ و ما اظنّش انك هترفض لأنه فعلا ضمن دائرة سلطاتك.

استمع بإصغاء شديد، و في نفس الوقت دعا من كل قلبه أن تستجيب السماء هذه المرّة.

٤٤

السبت ٧ اغسطس ٢٠١٠

في هذه البقعة من الضفة الشرقية للنهر تقع المنطقة الأقدم في القاهرة، فها هنا حصن بابليون التاريخي بمعالمه القبطية الأثرية و معبد بن عزرا اليهودي (صاحب وثائق الجنيزا الشهيرة) و مسجد عمرو بن العاص التاريخي. و على مرمي حجر من مجمّع الأديان هذا يقع قصر 'المناويلي'، أحد أرقي قصور القاهرة و أكثرها عراقة. و في ذلك اليوم الصيفي الشديد الحرارة، كان هذا القصر التاريخي على موعد مع حدث هو الأهم في عمره الذي يتجاوز المائة عام.

هذا القصر الكبير مهجور أغلب أيام السنة إلا من ساكنيه (طبيب في مصلحة الطب الشرعي و زوجته)، لكن في مواعيد معيّنة خلال العام تتوافد عليه السيارات من كل حدب و صوب. تدخل السيارات المحمّلة بالعائلات إلى جراج القصر الواسع ليهرع الركّاب إلى بعضهم البعض في مظاهر ملؤها الحنين و الودّ و المشاعر الدافئة.

العائلات من بيئات و خلفيّات مختلفة، لكن أمرين لا يختلفون فيهما أبدا: لهم جميعا جذور تاريخية يمكن تتبّعها إلى القرن السابع عشر الميلادي بسهولة (وقت الحكم العثماني لمصر، إبّان ولاية السلطان محمد الرابع)، و يجمعهم أيضا ذلك السرّ العظيم الذي يحفظونه إلى يومنا هذا، و ألا و هو دينهم.

إنهم يهود 'سبتيون'، لكنهم يختلفون عن إخوانهم في الطائفة - المضطهدة من معظم التيارات اليهودية - في أمر جوهري، ألا و هو إخفاء ديانتهم اليهودية، و بدلا عنها يدّعون الإسلام و يمارسون بكل شعائره و مناسكه. هم من اشتهر على تسميتهم بـ'الدونمة'.

تتقابل هذه العائلات و تتزاور طوال أيام العام في بيوت بعضهم البعض، خصوصا أيام السبت، ليقيموا الصلوات و ليتشاركوا أسرارهم المشتركة، لكن الطقوس الكبرى و الأعياد و مراسم الزواج كانت تقام ها هنا في قصر المناويلي، المبني فوق هذه البقعة المقدسة - موقع بيت محصّل الضرائب اليهودي جوزيف الحلبي، و الذي أقام فيه المشايح 'شبتاي زيفي' أثناء إقامته في القاهرة و فيها تزوّج من سارة البولندية، قبل ٣٤٥ عاما. هنا معبدهم الأكبر و الأقدس.

اليوم هو أول سبت بعد ٣ آب، إنه العيد الذي يحتفلون فيه بذكرى انتصار شبتاي زيفي على حاخامات مصر، أحد أكبر إرهاصات ظهوره بعد ذلك كالمشايح المنتظر.

و لقداسة المناسبة، أتى الجميع في ساعة مبكّرة حتى يتمكّنوا من إحياء كل صلوات اليوم، استهلالا بالشاخاريت (صلاة الصباح). كان الحضور اليوم متوسطا - أربع سيارات تحمل أربع عائلات من أصل ثمانية لا تزال تقيم في القاهرة.

استقبل أصحاب المنزل الزوّار في ترحاب، و سرعان ما بدأ الجميع في التحدّث بلغة اللادينو، لغة اليهود السفارديم المحبّبة و المقدّسة (و التي تذكّرهم ليس فقط بأيام المشايح، بل أيضا بذكريات أقدم تعود إلى إقامتهم في الأندلس قبل ألف عام). ما إن اكتمل العدد حتى توجّهوا ناحية القصر، يتبادلون الحديث في ما فاتهم من أحداث طوال الفترة الماضية، مع الحرص طوال الوقت على مناداة بعضهم البعض بأسمائهم اليهودية، و التي لا يجرؤون على التفوّه بها إلا في مثل هذه المقابلات المغلقة.

دخل الجمع إلى القصر - الرجال إلى غرفة واسعة على يمين البهو، و النساء إلى غرفة أخرى أضيق قليلا على الجهة الأخرى - و شرعوا في ارتداء ملابس الصلاة المناسبة: الرجال يرتدون الكيبا (غطاء الرأس) و التاليت (شال الصلاة) و التفلين (العلب الجلدية و التي تربط إلى الرأس و الساعد)، أما

النساء فتحتشمن بما يناسب الصلاة، من وضع غطاء للرأس و إبدال الملابس الضيّقة القصيرة بأخرى أكثر احتشاما.

بعد ذلك، توضّأ الجميع بغسل اليدين و القدمين، ثم و عبر ممر صغير ضيّق في طرف صالة الطعام الواسعة، نزلوا إلى قاعة واسعة كبيرة، يدخلها ضوء الشمس من نوافذ ضخمة عالية، قريبة من السقف. القاعة مصمّمة بالأساس كي تكون ملعب تنس مغطّى، لكن لا تُلعب الرياضة فيها أبدا، و إنما يتم تحويلها إلى معبد لإقامة الصلوات في المناسبات الدينية.

كانت الكراسي مرصوصة في أربعة صفوف، و في المقدمة كانت خزانة التوراة الموجّهة ناحية القدس و البيما، طاولة التوراة و المنبر الذي يعتليه الحاخام.

اتّخذ الجمع أماكنهم و اتّجهت الأنظار إلى رجل طويل تجاوز الستين من العمر، كث اللحية، مهذّب، وقور. تقدّم الرجل في هدوء و أخذ مكانه على البيما ليؤمّ الصلاة. بدأ الصلاة بتباريك الصباح، فالترتيل من التوراة، يتبعه دعاء الكاديش، و أخيرا التغنّي بمزامير داوود و أنشودة البحر من سِفر الخروج.

بعد انتهاء الصلاة تحرّر المصلون من أماكنهم و راحوا يختلطون في حريّة. كان من المفترض أن يتوجّهوا الآن إلى قاعة الطعام الكبرى لتناول الإفطار؛ و بالفعل كان بعضهم قد بدأ في التوجّه إلى الممر الذي يربط ملعب التنس بالقصر، عندما باغتتهم طرقات على باب القاعة المفضي إلى حديقة القصر - باب خشبي قديم لم يُفتح منذ عقود.

تحرّك صاحب البيت، رجل خمسيني أشيب الشعر لكنه موفور الصحة و تبدو عليه الحيثيّة وسط الجميع. تقدّم في حذر من الباب و تلصّص من فرجة الباب الواسعة نسبيا.

عاد أدراجه يجري ناحية الحاخام و الذعر يملأ عينيه.

- كارثة!
- فيه إيه يا فهمي؟
- ده الدكتور هو اللي عالباب.
- أنهي دكتور؟
- هو فيه غيره يا رابينو.

و هبطت قلوب الجميع إلى أقدامهم.

****

و بعد أن أتى صاحب البيت بمفتاح الباب الخشبي العتيق، فتح الباب عن ذلك الشاب الثلاثيني، متأنّق الهيئة و الوسيم في الظروف الطبيعية، لكن وجهه الآن مشوّه ببقع زرقاء ممتدة فوق وجنته اليمنى و أنفه المكسور حديثا. إنه حازم شاهين.

تقدّم الطبيب الشاب في ثقة و هو يدير رأسه في المكان يتطلّع إلى البما و الكراسي المرصوصة و الرجال و النساء في زيّ الصلاة. وقف في هدوء و ألقى التحيّة

- صباح الخير جميعا..

لم يردّ عليه أحد، فأكمل تقدّمه في القاعة في هدوء. التفت إلى فهمي، الرجل الخمسيني صاحب البيت، و الذي تعرّفه حازم على الفور

- إزيّك عامل ايه؟ يا تري صلّيت النهاردة كويّس عشان تمسح دمّ أشرف محجوب و مسجّل الخطر اللي قتلتهم؟
- لسّه مستنّي لما اخلّص عليك انت كمان و بعد كده اصلّي براحتي.. إن شاء الله ليوم الدين.
- كانت قدّامك الفرصة، بس..

قطع حازم كلامه ليوجّه نظره إلى فتاة متوسطة الطول أقرب إلى القصر، خصلات شعرها الملفوفة مطلّة من تحت غطاء رأسها. أشار إليها بسبّابته.

- انتي بقي أكيد اللي قابلتي أشرف محجوب، و انتي أكيد اللي ضربتي طارق بالنار في بيته. حجمك و الشعر الكيرلي يأهّلوكي لتقمّص دور هويدا سالم.

ثم بحثت عيناه بسرعة حتى سقطت على ذلك الشخص المستتر في ركن القاعة، ذلك الشخص الذي يعرفه حازم تماما.

- و طبعا انت بقي اللي اتقمّصت دور أورهان، صح و لا إيه يا حضرت الرائد؟

رفع عصام الدمياطي وجهه المتجمّد إلى حازم و جاهد حتى يبتسم. كان سيردّ ساخرا هازئا كعادته، لكن الحاخام زجره بنظرة صارمة.

- اسكت انت يا عصام..

ثم التفت إلى حازم.

- انت عرفت المكان ده ازّاي؟

- بسيطة.. اطّلعت على وثيقة قديمة كاتبها واحد اسمه زكي الشامي، و اسمه الحقيقي زي ما انتم عارفين كان طلعت رستم. الوثيقة دي كانت جواب هو بعته لوزارة الخارجية الألمانية سنة ١٩٢١ بيعرض فيه خدماته على الألمان مرة تانية. و في آخر الجواب كان كاتب عنوان مراسلة عشان يقدروا يوصلوا له: مطعم الفردوس، حارة صنقر في الجمّالية. صحيح المطعم ده اتقلب محل موبايلات بقاله شهرين، بس اللي يسأل ما يتهش.. عرفت طبعا انّه قبل كده، و لأكتر من ١٠٠ سنة فاتت، كان ملك عيلة الدمياطي، عيلة الرائد عصام، صاحبي العزيز. بعد كده، الموضوع سهل، قعدت أراقب عصام و العائلة الكريمة، و لما جيتم هنا النهاردة جيت وراكم. عربيتكم هي الجيب كروز الزرقا اللي عليها بادج نادي القضاة، مش كده برضه يا سامح بك الدمياطي، يا حضرة

- المستشار في محكمة الاستئناف و زيّ ما هو واضح قدامي الحاخام الأكبر برضه؟

اضطرب وجه الحاخام لوهلة

- انت جاي هنا ليه؟
- عاوز أتكلّم معاكم شويّة..

تقدّم منه عصام في شراسة

- تتكلّم معانا في إيه؟

رمق الحاخام عصام في تأنيب.

- محدّش فيكم يتكلّم دلوقت.. أنا بس اللي أتكلم.

ثم عاد بنظراته إلى حازم. كانت هيئته جادة، عمليّة.

- نتكلم، مفيش مشكلة.. بس الأول ناخد بعض الاحتياطات.

ثم أشار لفهمي.

- هات الجهاز و اكشف عليه.

غاب فهمي في الداخل لفترة ثم عاد بجهاز يشبه الجهاز الذي استخدمه حازم لمسح شقة المكتب بجسر السويس. أخذ عصام منه الجهاز و اتّجه إلى حازم في تصميم ليمسح جسده بالجهاز؛ أصدر الجهاز إنذاره في موضعين، عند هاتف حازم المحمول، و عند جيب آخر أخرج منه عصام مايك موصّل بجهاز تسجيل. رمقه عصام في غلّ، في حين هتف الحاخام.

- ده انت مش جاي تتكلّم بس.. دانت كمان بتسجّل لنا؟ انت جاي و ناوي الخيانة؟

ابتسم حازم في لامبالاة.

- اشمعني انتو عملتوها قبل كده؟ بيتهيألي في عرفكم دي مش خيانة، مش كده و لا إيه؟

ثم رمق عصام بنظرة ذات مغزى.

تجاهل عصام نظراته، كسر المايك و جهاز التسجيل ثم أغلق هاتف حازم و نزع بطاريته. سحب حازم كرسيا و جلس.

- كده ممكن نتكلم؟

أشار الحاخام لأحد مساعديه أن يخرج النساء، ثم سحب كرسيا و جلس قبالة حازم.

- انت عاوز مننا إيه؟
- زي ما تقول كده، هاعمل معاكم صفقة.
- صفقة إيه؟
- اللي قتلوا منكم يسلّموا نفسهم للنيابة، و توعدوني إنكم ما تتعرّضوش ليّا ولا لصاحبي بعد كده أبدا.. آه، حاجة تانية كمان مهمة، بقية الطائفة تعلن عن نفسها و البلد كلها تعرف انتم مين.
- و لو ما وافقناش؟
- هابلّغ عليكم كلكم.. أنا واخد صور لأرقام العربيات اللي برّه كلها، و من شوية صغيرين كنت فوق سطح القاعة دي، و من الشبابيك اللي فوق دي صوّرت لكم كام فيديو.

انتاب الحاضرين الذعر، تقدّم عصام من حازم و جذبه من ياقة قميصه في عنف.

- انت فاكر انك بتهدّدنا.. احنا نقتلك و ندفنك هنا و ما حدّش يعرف لك طريق جُرّة.
- زي ما عملتوا مع الراجل التركي و هويدا..
- بالظبط..

ابتسم حازم متجاهلا عصام، و ملتفتا إلى فهمي الذي اتّجه إلى هاتف حازم يهمّ بكسره.

- خسارة الموبايل.. هتكسره على الفاضي. أصل انا حمّلت الصور كلها على النت و بعتّها لإيميل مخصوص.

ابتسم فهمي ساخرا و التقط بطارية الهاتف ليدسّها فيه. أكمل حازم

- و ما تحاولش تفتح الموبايل و تدوّر على الإيميل عشان أنا بعد ما بعتّه مسحته خالص.
- مش مشكلة، ما الإيميل بتاعك متراقب و هنعرف برضه انت بعتّه لمين..
- لأ مش هاتعرف عشان انا بعتّه من إيميل جديد لنج، و كمان بعته ببرنامج vpn. يعني مش هتعرف توصل له أبدا. و اسمح لي أضيف إني طبعا مأمّن نفسي، و إن الشخص اللي اتبعت له الإيميل لو ما قابلتوش قبل الساعة اتنين الظهر هياخد الصور و الفيديو و يطلع بيها على البوليس.

التفت حازم إلى الحاخام و وجّه إليه نظرة حادّة.

- بيتهيّألي نبطل هزار و نتكلم جدّ بقى.

أشار الحاخام لعصام الممسك بخناق حازم.

- سيبه يا عصام.

بادل عصام حازم النظرات الحادّة و هتف به

- اتفضّل اتكلم.. عاوز إيه؟
- زي ما قلت.. التلاتة اللي قتلوا، عصام اللي قتل أورهان، فهمي اللي قتل أشرف محجوب و مسجّل الخطر، و سارة اللي قتلت هويدا سالم.. التلاتة دول يسلّموا نفسهم للبوليس و يعترفوا على نفسهم.

- بس همّا ما عملوش حاجة لوحدهم، كلنا كنا مع بعض.
- خلاص، يبقى على نفسها جنت براقش.

ساد الهرج و المرج في المكان، في حين حدجه فهمي بنظرات نارية.

- يعني إيه؟
- يعني كلكم تخشّوا السجن.

حاول الحاخام تمالك نفسه بصعوبة

- أرجوك حاول تتفهّم موقفنا الصعب..
- الحقيقة مش قادر أتعاطف مع جماعة بتبطن غير اللي بتظهره، و كمان إيديها غرقانة بالدم.
- إحنا جماعة ليها وضع خاص.. ما تنساش إننا و من ساعة نشأتنا من ٣٥٠ سنة و احنا جماعة مقهورة، اضطرينا ان احنا نتظاهر بدين تاني عشان ما نتهيش. إحنا أقليّة بتحارب عشان ما يندثرش تاريخها و دينها و حضارتها.
- الكلام ده كان زمان. دلوقتي عندكم الحرية الكاملة، و تقدروا تعلنوا عن دينكم.
- حتى لو فرضنا إن كلامك صح، طب نعمل إيه في حياتنا و تاريخ جدودنا و طقوسنا الدينية؟ الموضوع أعقد مما تتخيّل. دي طريقة حياتنا من ٣٥٠ سنة و لا يمكن تتغيّر بين يوم و ليلة. لازم تفهم إن احنا المظلومين في القصة دي كلها.. إحنا جماعة تم انتهاك خصوصيّتها بكل إجرام و افتراء من أورهان و هويدا في الأول، و بعد كده منّك و من صاحبك. كان لازم ندافع عن نفسنا.. أرجوك اتفهّم خصوصية وضعنا.. إحنا كنا مضطرين طول الوقت.
- قلت يبقي على نفسها جنت براقش.

التفت عصام إلى حازم متشكّكا

- انت بتكرّر الجملة دي ليه؟

متوترا، ردّ حازم

- أبدا، أصلها تنطبق عليكم تماما.

و صمت حازم، تاركا رجال الدونمة يتناوشون من حوله، متظاهرا بالهدوء في حين اعتصر القلق قلبه. كان يفكّر في سرعة و عدم فهم، مراجعا في عقله الاتفاق الذي عقده مع أبيه.

قبل طرقه باب ملعب التنس القديم بربع ساعة، كان حازم مع والده يتسلّم جهازيّ التنصّت، أحدهما ليضعه في ملابسه حتى يكتشفوه، و الآخر جهاز تنصّت قوي قام بتثبيته في إطار إحدى النوافذ العليا للقاعة، و الذي من خلاله يستطيع والده أن يستمع إلى الحوار الجاري. بعد ذلك قام بكل شيء حسب الخطة. لقد استدرجهم بجدارة حتى اعترفوا على أنفسهم بارتكاب الجرائم، و ها هو قد نطق بكلمة "براقش"، كلمة السرّ التي اتّفق عليها مع أبيه كإشارة للهجوم على القصر عند حصوله على اعتراف كامل من الجماعة، أو عند إحساسه بالخطر على حياته.

من المفترض أن يتمّ الهجوم الآن.

كان عصام يخرج مسدسه من جيبه و قد استعاد جرأته.

- أنا بقول نقتله يا رابينو..
- و الصور و الفيديوهات اللي مسجّلها علينا.
- غالبا كذّاب و بيخوّفنا مش أكتر.
- و صاحبه اللي في الرعاية.
- هنقتله لما يخرج هو راخر.
- إحنا إيدينا اتلوّثت بالدم بما فيه الكفاية.

كل هذه التهديدات الواضحة لحياته من المفترض أن أباه بالخارج يستمع إليها الآن! لكن ها هو وحده في هذا الموقف الحرج، لا يكاد يسمع أي

أصوات قادمة من البعد، لا أصوات ركض أفراد الشرطة و لا صيحاتهم و لا شدّ لأجزاء الأسلحة.

خطر بباله خاطر مخيف.

هل باعه أبوه؟

طالما عرف بكراهية أبيه تجاهه.. لكن هل إلى هذه الدرجة؟ إلى درجة تركه ليسقط ضحيّة جريمة قتل؟

اختلّ توازنه و اضطرب تفكيره.

كان الصراع بين أبناء الدونمة قد احتدم، حتى أن الحاخام و بعض الكبار فقدوا كل السيطرة على الشباب.

كان عصام يلوّح بمسدسه.

- ده كداب و مش ماسك علينا حاجة.. لو كان كلامه صح، كان راح للبوليس و بلّغ علينا من أول لحظة.
- طب ممكن نفتح موبايله و نتأكد من الفيديوهات و الصور.
- حتى لو لقيناها.. ممكن ما يكونش بعت نسخ منها لحد.. و حتى لو بعت نسخ منها لحد.. خلّيه يبلّها و يشرب ميّتها.. هنقول فوتوشوب. و حتى لو أثبتوا إنها حقيقية، و إن احنا كنا بنصلّي صلاة يهودية، طزّ فيهم و نسيب أمّ البلد دي.. إنما يضحك علينا و يودّينا الحبل المشنقة برجلينا لا و ألف لا.

كانت قد مرّت ست دقائق كاملة منذ نطقه بكلمة السر. تيقّن حازم الآن أن أباه و جنوده لن يأتوا.. على الأقل، ليس في الوضع الحالي. لن يتدخّل اللواء أحمد شاهين إلا إذا حدث أمر معيّن ينتظر حدوثه.

نظر حازم إلى الحاخام الذي فقد السيطرة كاملة على الموقف و همس في توتّر.

- ممكن أتكلم أنا و انت يا سيادة المستشار لوحدنا.. خمس دقايق بس.

رمقه الجميع في شكّ، لكن الحاخام تقدّم منه و جذبه من كرسيه. أخذه إلى الممر الخالي الواصل بين القاعة و القصر. كان الحاخام يهمس في ضيق و حسرة

- أنا مش عارف انت طلعت لنا منين؟ عمر الطائفة ما مرت بشئ أسوأ من اللي احنا فيه ده أبدا..

التفت إليه حازم و همس في جديّة

- صدّقني.. القادم أسوأ.
- إيه؟
- لو سمحت ممكن تطلع بينا على سطح القصر ده.. فيه حاجة عاوز أورّيهالك.
- إيه؟ أنصحك ما تعملش حركة كده و لا كده..
- أقسم بالله ما هاخدعك.

و كان لقسم حازم و هيئته المتوتّرة تأثير إيجابي على الحاخام، إذ هزّ رأسه متفهّما ثم أخذه عبر قاعة القصر الكبيرة إلى ركن خفي بالقرب من المطبخ، حيث مصعد صغير. ركباه إلى السطح.

- أرجوك ننزل على ركبنا و نتحرك بهدوء.

استغرب الحاخام طلب حازم، لكنه رضخ. و ببطء تقدّما من سور السطح. رفع حازم رأسه في حذر.

- بصّ على ناصية الشارع البعيدة، ورا الشجر هتلاقي تلات عربيات شرطة و عربيتين نقل جنود. شايفهم؟
- و ده معناه إيه؟

- معناها إن القصر ده كله محاصر بقوات الشرطة مستنّيين إشارة الهجوم، و إن القاعة اللي كنتم بتصلّوا فيها جوّه دي متراقبة بجهاز تصنّت.
- مستحيل.. إحنا كشفنا عليك.
- لا، ده جهاز تاني أنا زرعته فوق في شباك من الشبابيك العلويّة.. ميكروفون حساسيته فائقة و في نفس الوقت بيبثّ على موجة لاسلكية غير اللي بتكشفها أجهزة الكشف التجارية.
- إيه؟ يعني كل الكلام اللي اتكلمناه ده اتسمع و اتسجّل؟
- أيوه.. و عاجلا أو آجلا، الشرطة هتدخل و تقبض على كل الناس اللي في القصر.. و طبعا اللي قتل هيتعدم، و الباقي، رجالة و ستات هيتقبض عليهم كشركاء في الجريمة و متواطئين، و هتترموا في السجن بقيّة عمركم.

أمسك الرجل رأسه في حسرة كبيرة و لمعت الدموع في عينيه

- و انت جاي تقول لي الكلام ده دلوقتي ليه؟
- عشان ناوي أساعدكم تتفادوا المصير ده.
- أنا مش فاهم حاجة.
- أنا هساعدكم، بس بشرط.. بكره الصبح، التلاتة اللي قتلوا يروحوا يسلّموا نفسهم و يعترفوا بجريمتهم.. لو رضيت بالشرط ده أنا هاخلّص الطائفة كلّها من مصيرها الأسود.
- و انت هتساعدنا ليه؟
- عشان أساعد نفسي أنا كمان.. نوع من المنفعة المتبادلة. من الآخر كده، واضح إن الشرطة مش هتدخل المكان إلا بعد ما تقتلوني.
- ليه؟
- مفيش وقت للكلام الكتير و الشرح.. أنا عندي خطّة و بيتهيّألي ممكن تنجح. بس قبل ما أبدأ في أي شيء، عايزك من غير ما تتكلم، تنزل و تشاور للناس اللي قتلوا و تجيبهم بعيد عن مجال مايك

التسجيل، و يسجّلوا اعترافاتهم قدّامي على الموبايل و يحلفوا إنهم هيسلّموا نفسهم بكره للنيابة.

- شكلك بتضحك علينا تاني..
- لو البوليس ما هجمش فعلا زيّ ما بقول، أنا بين إيديكم، اقتلوني بحق و حقيقي.

نظر الحاخام في وجه حازم فلم ير إلا الخوف و الصدق التام

- مفيش قدّامي إلا إني أصدّقك.. قول لي إيه خطّتك؟
- أول حاجة لازم تتخلّصوا من كل الحاجات اليهودية في القصر ده، الملابس و الرموز، كل حاجة.. بسرعة، الوقت ضيّق.

****

كان اللواء أحمد شاهين جالسا وحده في سيارة العمليات بعد أن طرد مساعده و السائق منها، طالبا منهما التواجد في نقاط أخرى، استعدادا للهجوم الذي سيقوم هو بإعطاء إشارة بدئه بنفسه.

و طبعا لم يكن ليعطي إشارة الهجوم إلا بعد نيل مراده.

أرهف أذنيه لسماع البثّ الحي من قاعة التنس في قصر المناويلي.

كان النقاش بين أبناء طائفة الدونمة على أشدّه عندما عاد الحاخام.

صوت الحاخام: باين كلامك طلع صح يا عصام.. الكلب اتراجع قدّام المسدس. دلوقتي بيقول إنه مستعد يسيبنا و ينسى كل طلباته مقابل اننا بسّ نسيبه هو و صاحبه.

صوت عصام: شفت يا بابا، أنا قلت لك إنه كداب.

صوت فهمي: و هنعمل إيه فيه دلوقت؟

صوت عصام: نقتله طبعا و نخلص منه.

صوت حازم مذعورا: لا، يا جماعة، اعقلوا.

صوت فهمي: هنعمل إيه يا رابينو؟

صوت الحاخام: هنعمل اللي فيه صالح الطائفة طبعا..

و دوّى صوت إطلاق الرصاص.

تنفّس اللواء أحمد شاهين الصعداء في توتّر. جاشت المشاعر في صدره و غمرت الدموع عينيه لبضع ثوان، لكنه سرعان ما تمالك نفسه و مسح وجهه على الفور. أمسك جهاز اللاسلكي و هتف فيه بصوت مبحوح آمرا قواته بالاقتحام.

****

و في دقائق معدودة، اقتحمت قوات الشرطة قصر المناويلي و سيطرت عليه تماما.

تمالك اللواء أحمد شاهين أعصابه و دخل إلى القصر خلف ضابطه الذي قاد عملية الاقتحام.

- كله تمام يا فندم.. تحت السيطرة تماما. مفيش حد عرف يهرب.

سار اللواء خلفه في الممر الجانبي الضيق المفضي إلى ملعب التنس، و هناك وجد منظرا غريبا.

كانت مجموعة من الرجال و النساء في ملابس عادية، جالسين على مقاعد مرصوصة في صفوف و أمامهم كانت مجموعة من الرجال في ملابس مضحكة.. و وسطهم كان ابنه حازم، حيّ يتنفس، و يضحك ملء فيه.

لمح حازم دخول والده فالتفت إليه و الاستغراب يملأ وجهه.

- إيه يا حضرة اللواء، رجّالتك بيقتحموا بيوت الناس من غير إحم و لا دستور ليه؟
- نعم! كان فيه ضرب نار في المكان و..
- و افتكرتني متّ.. داحنا كنّا بنمثّل يا بابا..

صرخ اللواء في غضب

- انت هتهرّج..

رمقه الابن بنظرة شامتة هازئة.

- طبعا بهرّج و كلنا بنهرّج.. دي مسرحية كنت كاتبها، و انا و عصام و عيلته عمّالين نمثّل منها كام مشهد كده..
- إيه الكلام الفاضي ده.. أنا..

تقدّم حازم من أبيه

- ممكن نتكلم على جنب يا سيادة اللوا؟

و أخذه من كتفه إلى الممر الضيق. و لم يكد الأب يختلي بابنه حتى صرخ فيه.

- إيه اللي انت بتعمله ده؟ انت بتدافع عنهم؟ انت عايز المجرمين دول يهربوا من العدالة؟ ثم لو كده، ليه جت لي و طلبت مساعدتي؟

تجاهل حازم هراء والده و حدجه بنظرة قاسية.

- ليه ما اقتحمتش لّما قلت كلمة السر؟
- كنا بنحضّر القوات.. دي حاجة بتاخد وقت.
- بتاخد عشرين دقيقة!
- انت قصدك إيه؟

هتف حازم في أبيه و عيناه كلها اتّهام و كره.

- قصدي إنك كنت مستنّي لما يقتلوني..

ردّ الأب إليه نظرات الكره مضاعفة، و همس في غلّ

- يا ريتهم كانوا عملوها فعلا..

ثم انصرف و آلاف الاحتمالات تدور في عقله. يمكنه الآن أن يلقي القبض على الجميع و يلقي بهم في السجن بفضل شريط التسجيل، لكن هناك مشكلتين: الأولى أنه لم يكن معه إذن النيابة، و تلك كان سيتجاوزها بادعائه أن أفراد العائلة المتّهمة منهم ضابط شرطة و أعضاء في النيابة و القضاء و من الممكن تسرّب خبر الضبط و الإحضار إليهم. ثاني المشكلات و أكبرها بالطبع كانت في شريط التسجيل نفسه، فكيف كان سيبرّر للمحققين إصراره على سماع التسجيل الحيّ وحده، و انتظاره عشرين دقيقة كاملة بعد سماع كلمة السرّ و بعد وضوح نيّة العائلة في قتل ابنه.

ليس أمامه إلا الانسحاب، و بسرعة حتى يعود إلى سيارته ليمسح التسجيل الذي يحمل إدانته.

نظر اللواء إلى ضباطه، ثم أشار لمساعده.

- لمّ رجالتك و يالا بينا..
- و المتّهمين يا فندم؟
- مش متّهمين و لا حاجة.. أنا سمعت التسجيل و مفيهوش حاجة تدينهم.. أنا طلبت الهجوم لأن اتهيّألي إن فيه صوت ضرب رصاص.

ثم همس دون أن ينظر إلى جمع الدونمة

- معلش يا جماعة، آسفين على الإزعاج.

ثم انصرف هو و رجاله.

كان حازم في طريقه إلى الخارج هو الآخر، عندما توقّف عند الحاخام يذكّره.

- ما تنساش الاتّفاق.

هزّ الرجل رأسه في استسلام.

- بكره الصبح يكونوا في القسم.

ثم أكمل و هو يتطلّع إلى أنحاء القاعة و الدموع تسيل من عينيه فعليا.

- و احنا بقى نشوف لنا مكان تاني و بلد تانية نستخبّى فيها الباقي من عمرنا.

غير عابئ بمأساة القوم، خرج حازم متنفّسا الصعداء. لقد انتهت القضية.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

لوفنبرانكه

[illegible]

[illegible]

[illegible]

٤٥

تفريغ تسجيل بكرة ممغنطة رقم ٥:

يوم الأحد ١٠ يوليو ١٩٣٨، الساعة ١:٠٥ – ٣:١٥ مساءً

"ها قد حكيت لك الحكاية الكاملة لقصة حياتي، بداية من مراهقتي المضطربة المتلهّفة للانتماء، مرورا بفترة شبابي و عملي في خدمة الرايخ الألماني، وصولا لفترة ما بعد إقالة المستشار بسمارك و تقاعده عن العمل السياسي، و التي استقللت خلالها بنفسي و بشبكتي المخابراتية، مركّزا الجهود نحو صعودي الوظيفي داخل الهيكل الإداري و السياسي للدولة من أجل خدمة الطائفة. و بعد كثير من تخطيط و اجتهاد، استطعت أن أصل بالفعل لأعلى المناصب في الحكومة العثمانية، لأجدني عضوا في حكومة الحرب العالمية العظمى و شريكا (دون أدنى رغبة أو إرادة منّي) في سياسات أدّت إلى سفك دماء ملايين البشر الأبرياء.

و للأسف دفعت هذه التكلفة الباهظة – من مخاطرة و تعب و تعذيب ضمير و تلوّث يديّ بالدماء – دون أن أنجح في تحقيق أي من أحلامي في أي مرحلة من مراحل حياتي: الدولة العثمانية عجزت أن تكون دولة أخوّة و مواطنة لجميع الأعراق و الديانات، بل و انهارت السلطنة العظمي و اختفت بعد أكثر من ستّة قرون من الوجود؛ كما لم أستطع أن أستخلص لأهلي و فرقتي وطنا يحميهم و يصونهم، بل بالعكس تشتّتوا و تفرّقوا في كل بلاد العالم..

و الآن و بعد فشلي الذريع و تبخّر كل أحلام حياتي، لا تجدني إلّا جنديا مهزوما يفرّ من اغتيال محتمل على يد شاب أرميني موتور.

وا أسفاه على عمر ضاع في الوهم..

و الآن، أظن أنه لم يعد لديّ شيء أقدمه لك أو أستطيع أن أساعدك به..

ماذا؟ تريدني أن أعود إلى خدمة الرايخ الألماني؟ تقول أنك ما أتيت إلى مصر إلّا لهذا السبب! يا لها من نكتة، نكتة سخيفة تعفّ نفسي عن الضحك على مثلها. لو كنت صرّحت بطلبك هذا واضحا من اللحظة الأولى لما ضيّعت وقتي في سرد قصة حياتي الطويلة.

تتساءل لمَ أرفض؟ كنت أظنك يا بنيّ شخصا نبيها ذكيّا – أعذرني أن انخدعت فيك، و اعذرني إن أحسست في كلماتي هذه أي إهانة. ظننتك تستطيع إدراك أسباب الرفض دون مساعدة.

تسألني لماذا أرفض الآن، رغم أني أرسلت من قبل خطابا إلى الخارجية الألمانية عارضا لخدماتي؟

أولا، كان ذلك قبل سبعة عشر عاما، أما الآن فأنا عجوز في الرابعة و الثمانين من عمري، و ليس لديّ فائض من صحّة أو جهد حتى أعمل من جديد. حتى عندما أرسلت لكم خطابي ذاك، كان الدافع وراءه بالأساس هو العوز المادي، أما الآن فحالي الماديّة ميسورة إلى حد معقول.. و لا، لن أساعدكم حتى باطلاعكم على أفراد شبكة التجسّس التي كوّنتها عبر ثلاثين عاما كاملة، و لا حتى مقابل أي مبالغ مالية كبيرة مغرية.. تسألني لماذا؟ إجابتها هي ثانيا.

ثانيا، لقد تغيّرت أنا، طلعت رستم، عبر السنين، مرار و تكرارا: من حميّة و عصبية الشباب، إلى انتهازية و برجماتية الكهول، و ها أنا في طوري الأخير.. و تبعا لتركيبتي النفسية و العقلية الحالية، فأنا غير مستعد لتلويث يديّ بمزيد من الدماء في خدمة نظام فاشي سفّاح مثل النظام الذي يحكم ألمانيا الآن، خصوصا و أنه يسفك دماء أناس أشترك أنا معهم روحيا و عقائديا أكثر مما أختلف معهم، بل و أشترك معهم في العرق و الجنس و تجمعنا قرابة تمتد لآلاف السنين.

ثالثا، من العبث خدمة نظام محكوم عليه بالفشل من اللحظة الأولى. و هذه النقطة قد تهمّك أنت خصوصا.. لو كانت في جمجمتك الصلبة العنيدة هذه ذرّة من عقل، لكنت أدركت هذه الحقيقة منذ زمن بعيد.. اهرب إلى أي منطقة في العالم، إلى الولايات المتحدة، أو إلى أمريكا الجنوبية، إلى الأرجنتين.. يقولون أن الاقتصاد هناك مزدهر و أنها دولة ترحّب بالمهاجرين.. أنت شاب ذكي متعلّم و لن تعدم الوسيلة في بدء حياتك من جديد.

تضحك عليّ و تتعلّل بأن ألمانيا دولة عظمي و أنها دولة العلم و الفلسفة و أن اقتصادها منتعش و جيشها هو الأقوى في أوروبا.

لا أنكر أيّا مما قلت، لكن دعني أزيدك حتى تفهم.. لو حازت ألمانيا صفوة العلماء، و ثروات الأرض، و صار لديها أقوي جيوش العالم، ما كان هذا لينفعها في ظل نظام الحكم الحالي.. إن النظم الشمولية القومية مثل النظام النازي في ألمانيا و النظام الفاشي في إيطاليا المبنيّة على الظلم و العنصرية و احتكار الوطنية هي أنظمة إلى زوال أكيد، طال الزمان أو قصر.

تسألني لماذا؟ ببساطة لأنها أنظمة قائمة على التفرقة و العنصرية المبنية على الكذب و الترهيب.. حتى القطاع الأكبر من الشعب، و المميّزون الآن، سرعان ما يصبحون غير مميّزين، لأنه سرعان ما تظهر معايير طبقية جديدة تهمّشهم و تدفع بهم إلى الأسفل. لا تصبح الكفاءة هي المقياس في المجتمع، بل معيار الوطنية المبهم: يصبح هناك المواطن الوطني، و المواطن السوبر وطني، و المواطن المُلهم و هلمّ جرّا.. هذه الأنظمة ما بُنيت أساسا إلا لتمجيد و لتأليه قادتها.. و عاجلا أو آجلا، سيضيق الشعب بهم ذرعا و سرعان ما ينقلبون عليهم.. بالطبع لا ترحل هذه الأنظمة بسهولة، و غالبا ما تردي بالشعوب و البلاد في حروب و أزمات، لا لشيء إلا لإلهائهم عن فشل النظام.. لكنها ستفشل و ترحل آخر المطاف..

تسألني ما هي الأنظمة المثالية الكاملة؟ لا، لن أقول لك بريطانيا أو فرنسا أو حتى الولايات المتحدة.. هي ليست كذلك تماما، لكنها من وجهة نظري أفضل ألف مرّة من الأنظمة الشمولية في ألمانيا و إيطاليا و الاتحاد السوفيتي.

إن الدول الناجحة المستقرّة، و التي تستطيع أن تقف في وجه أعتى المحن و الحروب هي الدول التي يسود بين مواطنيها الشعور بالانتماء: شعور كامل مكتمل لا يختلف من مواطن لآخر، مهما اختلف لونه أو ديانته أو انتماؤه السياسي.. إنه الشعور الناتج عن شيوع الإحساس بالعدل و المساواة و الأمان في حرية التعبير و الاعتقاد. و هذا الشعور طبعا مفقود معدوم في الدول ذات الأنظمة الشمولية القمعية.

لا تقل لي إن كل الأفكار غير صالحة للتداول و أن هناك المواطن الصالح و هناك المخرّب الجاسوس و أن كل الدماء ليست محرّمة.. تلك هي الحجّة البلهاء الفارغة التي يكرّرها كل إقصائي، شوفيني كان أو متديّن أو حتى يساري متشدّد.. كل من يتّهم الشعوب بالجهل – برغم صحّة هذا الادعاء – يجعل من نفسه واصيا عليها، مدّعيا في نفسه القدرة على الأخذ بيدها إلى ما فيه المنفعة و حاميا لها من الشرّ المستطير الذي يحمله كل من يخالفه الرأي. لكن السؤال الذي يرفض الكل الإجابة عليه هو: ما الذي يجعلك أفضل من باقي أفراد الشعب الجاهل؟ لمَ لا تكون أنت أيضا، بحكم انتمائك لهذا الشعب، جاهلا كذلك.

لا تقل لي أن في صفّك من يحملون شهادات الدكتوراه و أن من بينهم الأبطال العسكريين و المثقفين و الفنانين.. كل هؤلاء يتلوّنون و يتغيّر رأيهم بفعل سحر المال و السلطة و المصلحة الشخصية، و إن لم يكن، فتحت وطأة المدافع الرشاشة..

إذا كنتم محقّين، مصدّقين لتفوّق الفكر النازي، فافتحوا نوافذ الإعلام لجميع الآراء و دعوا الشعب يقرّر..

تقول إن الإعلام خطير و مؤثّر في الشعوب.. بالطبع هو كذلك، و إلّا لَمَ سيطر عليه نظامك السياسي تماما و جعل منه أداة لغسل أدمغة أفراد الشعب كله؛ تعرضون على الشعب خطابا واحدا، ذا وجهة نظر و رؤية و حلم، بل و عدو واحد.. تستخدمون كل أساليب التعبئة المعنوية و الابتزاز العاطفي، آملين في إنتاج نسخ معلّبة مكرّرة من النموذج المطلوب للمواطن الصالح، المؤمن بأيديولوجية النظام الحاكم، و الجاهز للتضحية من أجله.. ما هو إلا نمط من التبشير الديني يحوّل المتلقّين إلى مريدين و أتباع لدين جديد، هو نظام الدولة الفكري، و بالتالي يصبح رأس الدولة هو النبي المُلهم من السماء الذي لا يخطئ أبدا، و المناضل المُضحّي الذي ما أتى إلى سدة الحكم إلّا لينقذ البلاد من الشرور و الأخطار المحدّقة بها..

يبدو عليك الضيق.. سامحني لم أقصد أن أستفزّك أو أن أتحداك..

تسألني إذا ما المفترض؟

ببساطة، إتاحة التعليم – الكامل، الغير محدّد بأجندة أو أيديولوجية أيّا كانت – للجميع. تدريجيا سيرتفع المستوى الإدراكي و التحليلي للشعوب، فيزداد تقبّلهم للغير و بالتالي تسامحهم معه؛ و في نفس الوقت إتاحة الفرصة و المساحة لجميع الآراء في كل وسائل الإعلام لمنح الشعب حرية المعرفة و المفاضلة بين الرأي و الرأي الآخر، و أخيرا حرية الاختيار، المتمثّلة بالطبع في الانتخابات.

تقول إن نظام الانتخابات نظام فاشل لأن اختيارات الشعوب في النهاية تخضع للأهواء الشخصية و الدينية و تتأثّر بالإعلام المرتشي من رجال الأعمال و الأحزاب الضخمة.. هذا صحيح، لذا أنا أتفق معك في أن الأنظمة الديموقراطية بشكلها الحالي في بريطانيا و فرنسا و الولايات المتحدة ليست على الصورة الأكمل لأنظمة الحكم المثالية، لكن قل لي ما البديل..

ها ها.. المستبدّ العادل.. يا لها من نكتة.. بالله عليك، قل لي يا عزيزي و كيف نتّفق على اختيار هذا المستبدّ العادل بالأساس..

تقول أنه يمكننا أن نختار بطلا من رجال الجيش، مشهود له بالنزاهة و الوطنية و بعدم الانتماء إلى أي فصيل سياسي أو اجتماعي معيّن.. السؤال هو: كيف يتم اختيار هذا الرجل من بين مئات، بل آلاف الرجال في أي جيش؟ و كيف سيصل بطلك هذا إلى سدّة الحكم، هل عن طريق الانقضاض الصريح على السلطة، ام صعودا على سلم الديموقراطية ثم ركلها بعيدا كما فعل الفوهرر العزيز؟

أرى في صمتك أنه ليس لديك من اقتراح بأي سبيل آخر.. حسنا دعنا من هذه النقطة، أجب على السؤال التالي: و ماذا بعد أن يصل هذا البطل الإغريقي الخرافي إلى الحكم؟

دعني أخبرك برأيي في الرجل العسكري الذي يستولي على السلطة عبر هذه الطرق الغير سويّة. هو رجل من ثلاثة أنواع من الرجال: أولهم لم يحارب أساسا فهو إنسان عديم الخبرة و منقوص البطولة التي قد تشرعن أفضليته و أحقيته، لذا تراه متلهّفا لأي انتصار، فتراه دوما يختلق الحروب، حقيقية كانت أو وهمية، ليثبت جدارته العسكرية أولا و السياسية ثانيا. النوع الثاني حارب بالفعل و انتصر، لذا يجد في نفسه الأهلية للقيادة، فهو دكتاتور من اليوم الأول لا يرضى أن يناقشه أحد و لا يستعين بأحد حتى للشورى، كيف لا و هو من قاد وحده الجنود لتحقيق النصر على العدو. النوع الثالث هو من حارب و انهزم، هذا الرجل يتوق لأي نصر، لكنه في نفس الوقت يخاف المخاطرة لأنه فاقد الثقة بالنفس، و هذا النوع دموي قاسي يقمع شعبه حتى الرمق الأخير و يباهي بالنصر في معارك وهمية افتراضية، لكنه لا يجرؤ على محاربة أي عدو خارجي حقيقي.

قد يكون هناك استثناءات بالطبع كالقائد الذي خاض حروبا عدة و انتصر و انهزم، فتجد في داخله نوع من التوازن النفسي الواقعي، و هناك العسكري

المتعدّد الخبرات، فهو مثقّف و مطّلع في كل فنون الحياة.. لكن هؤلاء هم الاستثناء و ليسوا القاعدة.

تستشهد برجل دولة ناجح مثل بسمارك العظيم؟

هو بالفعل رجل دولة ناجح، بل لعله أنجح ساسة العالم في القرن الماضي و أكثرهم إنجازا.. هو بالفعل اتّبع نمط نظام الحكم الأوتوقراطي، لكن نجاحه، و كما قلت للتوّ، ما هو إلا الاستثناء الذي يثبت القاعدة (ناهيك طبعا عن أنه لم يكن يوما رجلا عسكريا، و إن تفاخر بارتداء البزّات العسكرية).. و الدليل على أنه الاستثناء هو أن نفس نظام الحكم لم يأت بعده برجل يماثله في الكفاءة الفكرية و العملية و بالتالي حجم الإنجازات؛ بل إن العكس هو الصحيح، فمن بعد بسمارك ابتُليت ألمانيا بسلسلة من الرجال قادوا الدولة إلى هزيمة نكراء في الحرب العالمية الكبرى عام ١٩١٨.. و أكبر دليل على فشل هذا النظام برمّته هو الانهيار الكامل للنظام بعد الهزيمة.

لا تنتظر منّي أن أخبرك ما هو نظام الحكم الأفضل و الأنجح، فما أنا إلا رجل سياسة فاشل آخر. لكن يبدو لي و لكل ذي عينين و عقل أن النظم الديمقراطية الحقيقية، المبنيّة على الحرية و المساواة المطلقة، هي فقط التي تعيش و يُكتب لها الحياة، لا لشيء إلا لأن هذه الأنظمة هي فقط التي يشعر فيها المواطن - كل مواطن - أنه فعلا ينتمي إلى الدولة و المجتمع.

و الآن أستأذنك الرحيل، فليس عندي استعداد أن أضيّع مزيدا من وقتي في هذه المجادلة العقيمة، ثم إني على ميعاد مع بعض الأصدقاء لتمضية سهرة اليوم في دار الأوبرا.

لا، لن أجلس دقيقة أخرى بعد الآن، لقد يئست من إقناع شخص متعصّب أحمق مثلك.. حقّا، لكل داء دواء يستطاب به، إلا الحماقة أعيت من يداويها.

نعم، فلتذهب أنت و الرايخ إلى الجحيم..

دمت تعيسا مغفّلا أنت و الحمقى من أمثالك.."

-- انتهى تفريغ بكرات الشرائط الممغنطة --

ملخّص التوصيات بخصوص العملية لوفنبرانكه بعد إتمامها، مقدّمة من الكابتن هاينريش بيكر، بمراجعة من السيد أرنولد فايدلر، و مرفوعة إلى السيد راينهارت هايدريش ، مدير الـSD

قمت أنا، الكابتن هاينريش بيكر، بزيارة مدينة القاهرة، عاصمة المملكة المصرية، في الفترة من ١٠ يونيو إلى ١٥ يوليو ١٩٣٨ و العثور على السيد طلعت رستم، و المدوّن في سجلّاتنا باسم "مخلب الأسد"، و إجراء عدد خمسة لقاءات معه (مسجّلة صوتيا بواسطة جهاز K2 مُعدل و مفرّغة كتابيا أعلاه)، استطعت من خلالها توثيق خدمته للرايخ القيصري تحت إمرة المستشار بسمارك المباشرة، و كذلك تقييم إمكانية استخدامه في خدمة الرايخ الثالث في الوقت الحالي.

و كانت نتائج الزيارة كالتالي:

١. السيد "مخلب الأسد" غير راغب في خدمة الدولة الألمانية معلّلا رفضا بسنّه المتقدمة و لاعتبارات سياسية وعرقية لها علاقة بارتباطه بالجنس اليهودي.
٢. الشخص المسمّي بـ "صلاح الدين المصري"، و الذي أتى ذكره مطوّلا في الجزء الأخير من اللقاء، يبدو من وجهة نظري شخصا ذا كفاءة معتبرة، و أنصح بتتبّعه، و لو كان لايزال على قيد الحياة، فيمكن التفكير جدّيا في الاستعانة به في خدمة الرايخ.
٣. بعيدا عن لقائي بالسيد "مخلب الأسد"، كانت لي جولات في العاصمة المصرية لاستطلاع الرأي العام المصري تجاه الأحداث الحالية في أوروبا، و كان من مبعث سروري أن لمست بنفسي الكثير من المشاعر الإيجابية تجاه الدولة الألمانية و الشعب الألماني عموما. و من بين العديد من الفئات التي قابلتها، كان لقائي الأهم مع عدد من صغار الضباط، حديثي التخرج، و بعض طلبة الكلية الحربية المصرية، حيث بدا واضحا لي حنقهم بالتواجد البريطاني في مصر، إضافة إلى كفرهم بنظام الحكم الحالي لبلادهم و المتمثّل في الملكية الدستورية (و التي يعتبرها البعض هنا مجرّد خدعة استعمارية لتنويم الشعب المصري و ترويضه)، و يتحدثون في السرّ عن أملهم في إقامة حركة ثورية شاملة تماثل تجربة كمال أتاتورك في تركيا أو تجربة الفوهرر في ألمانيا.. و إني لأنصح بمدّ جسور التواصل معهم

في حال ارتأت القيادة السياسية أهمية للتدخّل و التأثير في منطقة الشرق الأدنى، سواءً بخصوص قناة السويس أو آبار البترول المكتشفة حديثا في الصحراء العربية.

و إني على أتمّ استعداد للحضور أمام سيادتكم في حال رغبتم في المزيد من التوضيحات بخصوص أي من النقاط المذكورة، أو للمشورة بشأن أي مهام فرعية ذات علاقة.

كابتن هاينريش بيكر

إدارة E

٢ اغسطس ١٩٣٨

خالد

٤٦

الأربعاء ١١ اغسطس ٢٠١٠

كانت هذه أول مرّة يفطر فيها أول أيام رمضان في مكان غير بيت أسرته. حتى في سنوات تدريبه الأولى في المستشفى كان يحرص على ألّا يكون نوبتجيا في هذا اليوم.

لكن ليس هذا العام.

فحازم شاهين، و منذ خرج من فيلا الأسرة أواخر الشهر الماضي، لم يعد إليها مرة أخرى. لم يرضخ لضغوط أخته للعودة إلى المنزل حتى يبرأ من جروحه، و لا وافق أن يحضر إفطار يوم رمضان الأول معهم. أرادت ريم أن تفطر معه في هذا اليوم، لكنه رفض حتى لا يحدث بسببه شرخ جديد في بيت آل شاهين.

أمضي أياما قليلة في فندق، لكنه، و بعد إلحاح كبير من طارق و أسرته، وافق على الانتقال أخيرا إلى شقة المكتب.

كونه جارهم الجديد و صديق ابن الأسرة، فحازم مدعو اليوم على طاولة طعام آل السيّاف جميعا: عائلة الباشمهندس عبد الهادي و عائلة ابن أخيه، المرحوم عبد الراضي.

الجو عائلي دافئ، حتى و إن كان وجود حازم نشازا وسط التجمّع العائلي الكبير. أذن الآذان، فأقبل الجميع على العصائر و الخشاف لكسر الصيام. أقام طارق للصلاة، و على عجل صلّى والده بالجميع، ثم بسرعة ارتدّ الجميع إلى السفرة لينكبّوا على الطعام. الكميات وفيرة، و الطعم بيتي و إن ركن إلى المزاج الشعبي قليلا، لكنه شهي.

و أخيرا كان الشاي و الاصطفاف حول التلفاز. عندها انسحب طارق طالبا الإذن في الراحة. قام يسنده حازم إلى الغرفة.

اضّجع طارق على السرير ليريح جسده الذي لم يتعافى بعد، في حين خرج حازم ليأتي بكوبيّ الشاي.

رشفا الشاي في صمت لبعض الوقت. هتف حازم ليكسر الصمت

- هو انا اعتذرت لك؟
- على إيه؟
- على سخافتي معاك قبل كده و على نصايحي المستمرّة و أوامري عمّال على بطّال.
- تقصد على أنهي مرّة.. أصلك بتعمل كده على طول.
- عليهم كلّهم يا سيدي..
- لأ، ما اعتذرتش.. ماهو لو اعتذرت ما تبقاش حازم شاهين.
- طب، أنا آسف يا سيدي.. حقّك عليّا، ما تزعلش منّي.
- هو انت بتعتذر لي عشان عارف انّك غلطت في حقّي و لا عشان مش عاوزني أزعل منّك..

حملق حازم في وجه صديقه و ابتسم مشاكسا

- انت هتتشرّط كمان؟ يا أخي احمد ربنا انّي اعتذرت لك..
- يبقي بتعتذر لي عشان مش عاوزني أزعل منّك.. ماشي.. اعتذارك مقبول..
- شكرا يا سيدي على التواضع..
- بس انا كمان مدين ليك بالاعتذار..
- ليا انا؟ ليه؟
- لأن جزء كبير من غضبي منّك كان غيرة و غيظ على حاجة مالكش ذنب فيها..
- حاجة إيه؟

- إن نايبة التخدير سميّة بتحبّك..
- بتحبّني أنا! و عرفت منين؟
- في الأول كنت شاكك في رجوعها للتعامل معايا، و شكّي ده زاد بعد ملاحظتي لطريقة تعاملها معاك..
- تقصد يعني إنها بتعاملني بلطف و احترام؟ ما هو يا عبيط كل بنات التخدير بتعاملني كده، ما انا المدرّس بتاعهم..
- ما انا كنت شاكك في كده برضه، و عشان كده سألتها مباشر.
- إيه! يخرب بيتك.. سألتها قولت لها إيه؟
- قلت لها انّي بحبها و عاوز اتجوزها، رفضت.. رحت سألتها إذا كان فيه حدّ تاني، قالت لي أيوه.. قلت لها حازم.. بصّت لي في ذهول، و وطّت راسها و قالت أيوه.
- انت يا ابني مش هتبطّل شغل الناس الطيّبة بتاعك ده.. ده إيه الفضايح دي.
- خلاص يا سيدي، أديني اعترفت لك، بلاش تقطّم فيّا..
- و عاوز إيه دلوقت؟
- مش عاوز حاجة.. أنا قلت اقولّك، يمكن تحب انت تتعرّف على البنت و ترتبط بيها..
- يا عم انت اهبل.. اتجوّز واحدة صاحبي كان بيحبّها.
- ما هو برضه مش ذنبها و..
- ثم إنّي أصلا مش ناوي على جواز دلوقتي خالص، خصوصا و انا بفكّر في الهجرة اليومين دول..
- الهجرة!

اعتدل طارق ليريح عضلات صدره و بطنه المتقلّصة في ألم و ليعيد كوب الشاي الفارغ. هتف في صديقه

- انت بتتكلّم جدّ و لا بتهزّر؟
- بتكلّم جدّ.. أنا فعلا بافكّر جديًا في السفر و الهجرة.
- ليه؟

- عشان اكتشفت انّي مش عايز أعيش في البلد دي.
- ليه يا سيدي؟ مش لاقي شغل، مش لاقي فلوس، حد منكّد عليك أو مستقصدك و مش عارف تعيش؟
- لأ.
- أهو غيرك مش لاقي شغل و لا فلوس، و الحكومة و البلد منكّدة عليه ليل نهار و ما بيفكّرش يسيب البلد.
- و انت شايف ان ده منطق يخلّيني أفضل فيها.
- قول لي إيه اللي مش عاجبك في البلد عشان عاوز تهجّ منها بالشكل ده؟
- عاوز اهجّ منها عشان مش باحبّها.. مش حابب الظلم اليومي اللي فيها، الكره اللي بين الشعب و بعضه، الجوّ المشحون بالكدب و الافتراء، حالها كل يوم أسوأ من اللي قبله، الفقرا مسحولين و الحكومة عمّالة تتباهى بإنجازاتها الاقتصادية اللي رايحة جيوب رجال الأعمال المحسوبين على السلطة، بلد كل حاجة فيها بالرشوة و المحسوبية. ده غير صراع الأجيال الهزلي اللي جوّا النظام ذاته: الجيل القديم لسه عايش في عصر الستينات و إن مصر دولة عظيمة و إنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، بيعشقوا مصر الأسطورية، و مؤمنين إن همّا بس اللي يقدروا يحموها من التحلّل، في حين ان الحقيقة إنّهم لا يمكن يسمحوا للتغيير انّه يحصل لأنه هيعرّيهم و يكشف حقيقتهم. الجيل الجديد منفتح أكتر على العالم؛ عارف إن العظمة دي باطلة و إن مصر دولة ملهاش وزن، لكنه خايف يصرّح بده حتى لنفسه، لأن إحساس الدونيّة و الخسارة صعب، فمغمّيين عينيهم و ماشيين على خطى الجيل القديم بالملّلي. لكن عارف إيه أكتر حاجة كارهها في البلد دي؟ إن الناس كلها، المتعلّمين و الجهلة، هيطقّوا من عيشتهم و متألّمين من الفقر و الظلم و المحسوبية، لكنهم ساكتين على كل اللي بيحصل فيهم و مستسلمين للأمر الواقع. مفيش حد مستعدّ للمقاومة أو حتى

يجرؤ يحلم إنه يكون فيه تغيير.. دي بلد اتقتل فيها الأمل و اندفن فيها المستقبل.

- لو الكلام ده ينبطق على ٩٩٪ من الشعب، فانت من الواحد في الميّة اللي ما ينطبقش عليهم الكلام ده.. انت من عيلة غنيّة عندها نفوذ، و كل الطرق مفتوحة قدّامك.

خفض حازم رأسه و همس

- و هي دي أكتر حاجة قتلاني طول عمري.
- قتلاك؟
- الإحساس انّي باخد حقّ محدّش غيري عارف ياخده.. إني عايش عيشة حرام في حرام.

اندهش طارق بشدّة، لأنه، و لأول مرة، يطّلع على جانب من حازم لم يعرفه أبدا من قبل.

متشجّعا بكلمات صديقه، همس طارق في حذر

- ما نحاول احنا اللي نغيّر يا حازم؟

نظر حازم إليه باستخفاف

- انت بتتكلّم بجدّ و لا بتهزّر؟ نحاول إيه بالظبط؟
- إن احنا نغيّر البلد..
- البلد دي ما يغيّرهاش غير حرب و احتلال و زلزال مع بعض.. حاجة واحدة ما تكفّيش.
- أنا باتكلّم بجدّ. نحاول نغيّر على قدّنا.. في شغلنا في المستشفى، و.. و في شغلنا في مكتب التحرّيات.
- آه يا ألعوبان يا واطي.. بتستدرجني عشان نفتح المكتب تاني.. إنسى، كفاية عليّا قضية واحدة كانت هتقضي عليّا.. من هنا و رايح، خلّي الشرطة المصرية تقوم بدورها..

- انت بتهزّر! الشرطة المصرية اللي عمرك ما آمنت بيها؟ الشرطة المصرية اللي بتقتل الناس و بعد كده تقولّك ماتوا مخنوقين بلفافة بانجو.
- مخنوقين بلفافة بانجو!

مدّ طارق يده ليلتقط جريدة من على المكتب. ناولها إلى حازم، و أشار إلى خبر بأسفل الصفحة الأولى.

- دي حكاية قديمة من شهرين عن شاب اسكندراني مسكوه اتنين مخبرين و قعدوا يضربوا فيه لغاية ما مات في إيديهم، و بعد كده الطب الشرعي قالّك مات مخنوق بلفافة بانجو حاول يبلعها قبل القبض عليه. الموضوع كبر و أخد ضجّة جامدة. حصلت كذا مسيرة شارك فيها شباب و مشاهير و رجال مجتمع من مختلف الأطياف السياسية.
- و دي بيتكلموا عنها تاني دلوقتي ليه؟
- يوم الجمعة الجاية فيه شباب عاملين حفلة إفطار جماعي عند بيت الشاب المرحوم، عشان يساندوا أسرته و عشان يتحدّوا النظام.

التقط حازم الجريدة ليقرأ الخبر، عندما اعتدل طارق قائما فجأة

- ما تيجي نروح؟

حملق حازم في صديقه ساخرا.

- نروح فين؟ اسكندرية؟
- أيوه، فيها إيه.. أهو تغيير.
- تغيير إيه يا مجنون.. هو الرصاصة جت ف قلبك و لا طيّرت لك برج من نافوخك.
- ما انت كمان اتجننت قبل كده و شاركت معايا في حل قضية الدونمة.

- دي كانت فورة حماس و مقاوحة.. حاجة أثبت بيها لنفسي إني مش إنسان سلبي..
- ما تجرّب تاني..
- بلاش تهريج يا طارق.. أروح فين، دانا حتى ما اعرفش اسم الشاب ده إيه.
- خالد.. اسمه خالد سعيد.

تطلع حازم في صورة الشاب الوسيم المبتسم و هو على قيد الحياة، ثم في صورته المفزعة و هو مشوه بعد الوفاة. امتعض قليلا، طوى الجريدة و وضعها جانبا، ثم قال

- هافكّر..

١٨٧٨

بعد معاصرته لهزيمة الدولة العثمانية الكاسحة في شرق أوروبا، ينقلب ولاء طلعت رستم لوطنه رأسا على عقب. تتلقفه إحدى الإمبراطوريات العظمى، تجنده ثم تزج به في خدمة الباب العالي، و سرعان ما يتدرج في المناصب الإدارية العليا.

٢٠١٠

دكتور حازم شاهين شخصية مركّبة عصيّة على الفهم: تتحقق له كل أسباب السعادة، من وسامة و ذكاء ألمعي، و مهنة مرموقة في الجامعة، و الانتماء إلى أسرة غنية عظيمة النفوذ، بفضل منصب والده الكبير - لكنه لا يكاد يهتم بالحياة. بل بالعكس، يَنفر من الجميع: أقاربه و زملائه، بل و من المجتمع الذي يراه فاسدا لا أمل في إصلاحه أبدا. هربا من رتابة المهنة و فشل حياته الاجتماعية، ينغمس في الكثير من التجارب المجنونة، و آخرها اشتراكه مع صديق عمره في مغامرة غريبة غير مألوفة على الإطلاق.

باحث تركي غامض يقتفي آثار رجل الدولة العثماني الذي شوهد لآخر مرة في القاهرة، مطلع عشرينيات القرن المنصرم. يستدرج الصديقين لمساعدته، لكنه يغرر بهما و يلقي بهما إلى المجهول قبل أن يختفي بغتة هو الآخر. تتعقد الأمور، و سرعان ما تنهمر المصائب من كل حدب و صوب.

ما أهمية رجل الدولة العثماني المفقود بعد كل هذا الوقت، و ما هي خطورة الأسرار التي يمثلها حتى يجبر جماعة سرية تتخفى في القاهرة منذ أربعة قرون، على الخروج من الظل و مطاردة الصديقين بكل هذه الشراسة و الدموية؟

تاريخ غامض و أسرار تتوه فيها العقول، و مغامرة شيقة تنقطع لها الأنفاس ..
كل هذا و أكثر ينتظركم في ٤٨٥ صفحة من المتعة المطلقة.